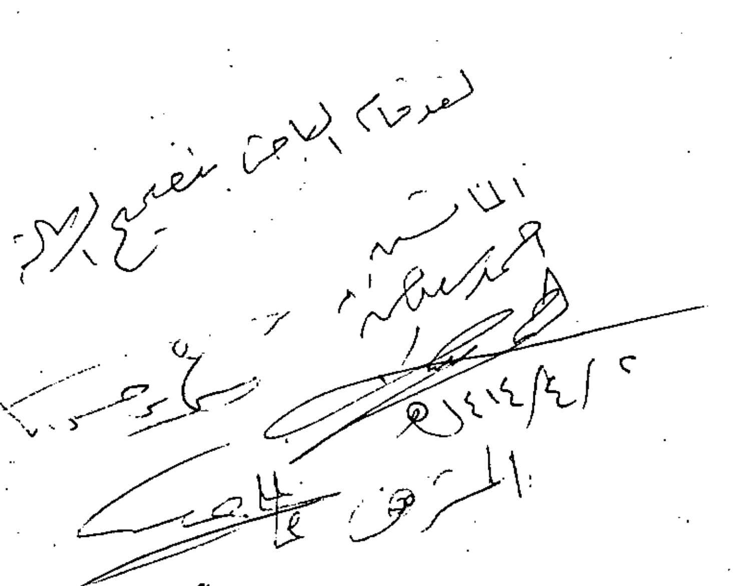


المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا
شعبة العقيدة

جهود أبي المظفر السمعاني

- المتوفي سنة ٤٨٩ هـ -

في تقرير عقيدة السلف

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية (الماجستير)

إعداد الطالب

محمد بن بو بكر بن عمر بنعلي

اشراف فضيلة الدكتور

غالب بن علي العواجي

١٤١٣ هـ

المجلد الأول

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (١) ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس وحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٢) ﴿ يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعملكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣).

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة (٤) .

وبعد : فإن الله – سبحانه – لم يخلق الخلق عبثاً ، ولم يتركهم سدى ، وإنما خلقهم لعبادته ، والقيام بذكره وشكره ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٥) وقد اقتضت حكمته – سبحانه – أن يكون من عباده المؤمن والكافر ، قال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾ (٦) وحتى تكون حجة الله على

---

(١) آل عمران آية (١٠٢) .

(٢) النساء آية (١) .

(٣) الأحزاب آية (٧٠-٧١) .

(٤) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة وهي مأثورة عن النبي ﷺ ، وقد أفردها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله برسالة جمع فيها الأحاديث الواردة فيها وسماها « خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه » .

(٥) الذاريات آية (٥٦) .

(٦) التغابن آية (٢) .

خلقه قائمة فقد تعرف المولى عز وجل إلى عباده وذلك بما أودع في نفوسهم من معرفته ، والإقرار به ، وبما نصب لهم من الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته وحكمته ، وعظيم سلطانه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن الله سبحانه أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، كل ذلك حتى لاتكون لأحد على الله حجة بعد الرسل ، قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [1] وقد بلغ الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوة ربهم ، ونصحوا لأممهم ، ولم ينتقلوا إلى الرفيق الأعلى حتى أقاموا الحجة ، وأبانوا المحجة.

وقد ختم الله – سبحانه – عقد النبوة بخاتم الأنبياء ، وسيد المصطفين والأتقياء محمد بن عبد الله ﷺ ، وقد أرسله ربه – سبحانه – وتعالى على حين فترة من الرسل فأنقذ به من الضلالة ، وعلّم به من الجهالة ، وكشف به الغمة ، وأزال به الظلمة ، وأخرج به الأمة من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور الإيمان المتمثل في التوحيد الخالص لله عز وجل وقد دعا النبي ﷺ الناس جميعاً إلى التوحيد فدخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأظهر الله – سبحانه – دينه على الدين كله ، وذلك على الرغم من حرب المشركين ، ومكر المنافقين وكيد اليهود الحاسدين ، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بلغ البلاغ المبين وبين البيان الكافي الشافي القاطع للعذر وترك الأمة على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك ، وقد شهد له ربه – سبحانه – بكمال دينه وتمامه قال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [2] ولما كان الرسول ﷺ خاتم الأنبياء ، وكتابه آخر الكتب ، فقد تكفل الله – سبحانه – بحفظ دينه ، وكتابه قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحفظون ﴾ [3] وذلك حتى تكون حجة الله على خلقه باقية ، وحكمته – سبحانه – في إلزام عباده بعبادته ماضية .

---

(١) النساء آية (١٦٥) .

(٢) المائدة آية (٣) .

(٣) الحجر آية (٩) .

وقد حفظ الله – سبحانه – دينه بحفظ أمة النبي ﷺ له ، فقد تحمل الصحابة -رضي الله عنهم – أمانة تبليغ الدين ، وجاهدوا في سبيل نشر العقيدة وتبليغها للناس بأنفسهم ، وأموالهم ، وطبقوا الأرض شرقاً وغرباً ، ينشرون الهدى والنور ، وضربوا أروع الأمثلة في بيان العقيدة وتوضيحها ، ولم يحصل منهم كلل ولاملل ، حتى انتقلوا إلى ربهم راضين مرضياً عنهم. ثم تحمل بعد الصحابة -رضي الله عنهم – تلك المسئولية العظيمة التابعون لهم بإحسان فكانت لهم جهود مشكورة في الحفاظ على العقيدة وتبيينها وتوضيحها للناس .

واستمر الحال كذلك في زمنهم ثم في زمن أتباع التابعين . وهكذا في كل عصر ومصر يظهر الله – سبحانه – من يقوم بحمل الدين ، والدعوة إليه ، ولاسيما بعد أن دخل في الإسلام من يروم الكيد له ويتربص بأهله ، ويسعى في إفساد العقيدة وتحريفها عن الحق الثابت لها .

وحفظ دين الله – عز وجل – وبقاؤه نعمة من الله عظيمة ، يجب الإقرار بها وشكره – سبحانه وتعالى – عليها .

ومن مظاهر الإقرار بالنعمة ودوافع الشكر عليها ، الوقوف على جهد أولئك السلف الصالح – رضي الله عنهم – الذين وقفوا مثل الطود الشامخ ، ينفون عن العقيدة الإسلامية تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين . والذين كان لجهودهم الأثر الواضح في حفظ العقيدة وقمع البدعة .

كما أن من حق علماء الأمة عليها ؛ أن تقف على جهودهم في تبيين العقيدة والدفاع عنها وتوضيحها ، وأن تقتدي بأفعالهم ، وتهتدي بهديهم في حفظ دين الله – عز وجل – ونشره بين الناس .

ومن هذا المنطلق كان هذا البحث . فقد اخترت له علما من الأعلام البررة الذين كان لهم شرف الدفاع عن العقيدة ، والرد على من انحرف عنها . وهذا العلم هو : أبو المظفر

السمعاني رحمه الله تعالى .

فقد ألف - رحمه الله - في بيان العقيدة وتوضيحها المؤلفات النافعة وكان -رحمه الله - شوكا في أعين المخالفين وحجة لأهل السنة ، وقد افاد منه كثير ممن جاء بعده.

فجزى الله عنا السلف جميعاً كل خير ، جزاء ما أسدوه من خدمة للدين وإحسان إلينا وجزى الله عنا أبا المظفر - رحمه الله - ما هو أهله فإنه - سبحانه - أهل التقوى وأهل المغفرة .

سبب اختيار الموضوع :

لما كان نظام الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة يحتم على طلاب الدراسات العليا بها الذين يتقدمون للحصول على شهادة العالمية (الماجستير) أن يكتبوا بحثاً علمياً في مجال تخصصهم فقد بحثت عن موضوع في مجال تخصصي لانتفع به وينتفع به غيري وقد جال بخاطري وأنا أبحث عن موضوع أن أكتب عن جهد عالم من علماء السلف في خدمة العقيدة وبعد طول بحث ونظر ، تم العزم على ذلك ووقع الاختيار على الكتابة حول جهود أبي المظفر السمعاني - رحمه الله - في بيان وتوضيح عقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم - وانشرحت نفسي لذلك .

إضافة إلى أن هذا الاختيار قد نال استحسان بعض الفضلاء الذين كان لهم وقوف على جهد أبي المظفر - رحمه الله - في توضيح وبيان عقيدة السلف الصالح رضي الله عنهم .

ومما شجعني على الكتابة فيه أيضاً : أن هذا الموضوع لم يكتب فيه أحد من قبل . فقد كتبت رسائل عن أبي المظفر - رحمه الله - في مجال التفسير ، وأصول الفقه ، ولم يكتب أحد عن جهوده في العقيدة وهو جهد طيب مبارك مشكور يستحق أن يبرز .

هذا بالإضافة إلى أن هذا الموضوع : يتناول جل مباحث العقيدة ، مما يجعل الباحث

فيه والقارئ له يستفيد فائدة كبيرة في الوقوف على عقيدة السلف - رضي الله عنهم - والتعمق فيها . تلك هي : أهم الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة حول هذا الموضوع، وأحسب أن كل واحد منها كاف في إيجاد الدوافع للكتابة فيه .

منهج البحث :

يتلخص المنهج الذي سلكته في دراستي لهذا الجانب من حياة السمعاني - رحمه الله - في الأمور الآتية :

الأمر الأول : قمت بجمع المادة العلمية لهذا البحث من كتب الإمام السمعاني -رحمه الله - الموجود منها ، ومن الكتب التي أفادت منه .

الثاني : قمت بتوزيع المادة العلمية التي توفرت لدي ، على أبواب العقيدة . مقسماً الأبواب إلى فصول ، والفصول إلى مباحث ، والمباحث إلى مطالب ، والمطالب إلى مسائل ، وذلك حسب ما يقتضيه حسن التقسيم وإبراز الدراسة بسهولة ووضوح .

الثالث : قدمت لكل مسألة من المسائل التي تطرق إليها السمعاني - رحمه الله- وتضمنها هذا البحث بتمهيد يصور الإطار العام وحدود المسألة التي تعالج من خلال ذلك الباب ، أو الفصل ، أو المبحث ، ليسهل تصور القضية بصفة عامة قبل الدخول في تفاصيلها .

الرابع : بعد التمهيد للمسألة أذكر كلام السمعاني - رحمه الله - المتعلق بتلك المسألة وما قرره فيها .

الخامس : بعد ذكر كلام السمعاني - رحمه الله - أذكر ما يؤيده من كلام الله -عز وجل - وكلام رسوله ﷺ ، وكلام أهل العلم وقد أقتصر على أدلة الكتاب والسنة أو كلام أهل العلم .

السادس : إن كان في المسألة أكثر من قول عند السلف - رضي الله عنهم - أبين أولا ما اختاره الإمام السمعاني - رحمه الله - ثم أذكر بقية الأقوال مرجحاً ما يظهر ترجيحه

مقروناً بأدلته .

السابع : عزوت الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى مواضعها في القرآن الكريم ذاكراً اسم السورة ، ورقم الاية .

الثامن : كتبت الآيات القرآنية بالرسم العثماني .

التاسع : عزوت الأحاديث الواردة في البحث إلى كتب السنة . فإن كان الحديث في الصحيحين ، أو أحدهما ، اكتفيت بالعزو إلى موضعه في الصحيح ، وإن لم يكن في الصحيحين اجتهدت في عزوه إلى أكثر من مصدر ، مع ذكر حكم علماء هذا الشأن عليه وهذا في الغالب.

العاشر : ترجمت للأعلام المذكورين في الرسالة .

الحادي عشر : عرفت بالفرق والطوائف .

الثاني عشر : عرفت بالأماكن غير المعروفة .

الثالث عشر : شرحت ما يحتاج إلى شرح من الكلمات الغريبة .

الرابع عشر : عند العزو إلى تفسير السمعاني ذكرت عند كل عزو من حققه وعذري في ذلك أن التفسير اشترك في تحقيقه جماعة من الدارسين فلو لم يذكر اسم المحقق لالتبس على القارئ القسم المعزو إليه من التفسير .

الخامس عشر : ذيلت الرسالة بجملة من الفهارس التي تساعد القارئ على الوقوف على ما يريده من الرسالة بسهولة ويسر وقد اشتملت على الفهارس التالية :

أولاً : فهرس الآيات القرآنية مرتبة ترتيباً أبجدياً .

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية والآثار .

ثالثاً : فهرس الطوائف والفرق .

رابعاً : فهرس الأعلام .

خامساً : فهرس المصادر .

سادساً : فهرس الموضوعات .

خطة البحث :

وقد سرت في كتابة هذا البحث على الخطة التالية .

قسمت الموضوع إلى مقدمة ، ومدخل ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

أما المقدمة : فقد اشتملت على بيان أهم أسباب اختيار الموضوع ، وعلى منهج البحث ، والخطة التي سرت عليها في كتابته .

وأما المدخل : فقد اشتمل على قسمين :

القسم الأول : وفيه التعريف بالسلف ، وبعقيدتهم ، وبمنهجهم فيها ، ونبذة عن جهودهم في توضيحها وبيانها .

القسم الثاني : وفيه التعريف بأبي المظفر – رحمه الله – ، وقد جعلته في خمسة مباحث :

المبحث الأول : موطنه

المبحث الثاني : أسرته

المبحث الثالث : حياته الشخصية وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول : اسمه ونسبه

المطلب الثاني : كنتيه وشهرته

المطلب الثالث : مولده ونشأته

المطلب الرابع : وفاته

المبحث الرابع : حياته العلمية وفيه ثمانية مطالب

المطلب الأول : طلبه العلم

المطلب الثاني : شيوخه

المطلب الثالث : رحلته إلى الحج

المطلب الرابع : انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي

المطلب الخامس : تصدره للتدريس

المطلب السادس : تلاميذه

المطلب السابع : مؤلفاته

المطلب الثامن : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

المبحث الخامس : عقيدته

وأما الباب الأول فقد بينت فيه جهود أبي المظفر رحمه الله في توضيح توحيد الله عز وجل ، وفيه مدخل وأربعة فصول

المدخل عرفت فيه التوحيد من حيث اللغة والشرع وقد ذيلت التعريف الشرعي للتوحيد بجملة من الملحوظات

الفصل الأول : في بيان أول ما يجب على المكلف وفيه مبحثان

المبحث الأول : التوحيد أول ما يجب على المكلف وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : دلالة القرآن الكريم على أن التوحيد أول واجب

المطلب الثاني : دلالة السنة على أن التوحيد أول واجب

المطلب الثالث : إجماع السلف - رضي الله عنهم - على أن التوحيد أول واجب

المبحث الثاني : رد أبي المظفر رحمه الله على المتكلمين فيما ذهبوا إليه في أول مايجب على المكلف وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول : القول بأن النظر أول واجب قول مخترع

المطلب الثاني : الرد على شبهات المتلكمين

المطلب الثالث : اللوازم الباطلة المترتبة على القول بأن النظر أول واجب

المطلب الرابع : نتيجة القول بأن النظر أول واجب

المطلب الخامس : تحذير أبي المظفر رحمه الله من الإشتغال بأقوال المتكلمين

المبحث الثالث : ترك ذكرهم بالسوء

الفصل الثاني : وجوب السكوت عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم

الفصل الثالث : ذكر جملة من فضائل بعض الصحابة رضي الله عنهم وفيه تمهيد وسبعة مباحث

المبحث الأول : من فضائل الصديق رضي الله عنه

المبحث الثاني : من فضائل الفاروق رضي الله عنه

المبحث الثالث : من فضائل ذي النورين عثمان رضي الله عنه

المبحث الرابع : من فضائل أبي السبطين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

المبحث الخامس : من فضائل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

المبحث السادس : من فضائل معاوية رضي الله عنه

المبحث السابع : من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه

ثم الخاتمة وقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

وفي الختام أشكر الله العلي القدير الذي منَّ عليَّ بإنجاز هذا البحث . كما أسأله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبله بقبول حسن ، ويرضى به عني ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

كما أتقدم بالشكر للقائمين على الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وفي مقدمتهم رئيسها فضيلة الدكتور عبد الله بن صالح العبيد . على ما يقدمونه لأبنائهم الطلاب من زاد روحي ، ومعنوي .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى فضيلة شيخي وأستاذي الدكتور غالب بن علي العواجي الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على هذا البحث ، وتابعه أولاً بأول إلى أن تم واستوى على سوقه ولقد كان لتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيمة أبلغ الأثر في إنجاز البحث وظهوره بالمظهر الذي هو عليه فجزاه الله عني كل خير .

وفي الختام أسأل الله - سبحانه - بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يعمنا جميعاً برحمته ، وأن يسلك بنا سبيل مرضاته ، وأن يتوفانا وهو راض عنا ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

كما أسأله سبحانه العفو والمغفرة لما بدر مني من خطأ وزلل وأن يمن عليّ وعلى إخواني المسلمين بتوفيقه إنه جواد الكريم .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

مدخل

ويشتمل على قسمين :

القسم الأول : وفيه التعريف بالسلف ، وبعقيدتهم وبمنهجهم فيها ، ونبذة عن جهودهم في توضيحها وبيانها .

القسم الثاني : وفيه التعريف بأبي المظفر رحمه الله تعالى

القسم الأول من المدخل وفيه التعريف بالسلف - رضي الله عنهم - ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : تعريف السلف لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : أسماء السلف - رضي الله عنهم - .

المبحث الثالث : عقيدة السلف - رضي الله عنهم - .

المبحث الرابع : منهج السلف في العقيدة .

المبحث الخامس : وضوح عقيدة السلف ،

المبحث السادس : نبذة عن جهود السلف - رضي الله عنهم - في توضيح العقيدة ، وبيانها ، والدفاع عنها .

المبحث الأول : التعريف بالسلف لغة واصطلاحاً

السلف لغة : تعني تقدم شيء وسبقه على شيء آخر من جنسه متأخر عنه .

ومن ذلك سلف الرجل . وهم من تقدمه من آبائه وأجداده : إما زمنا ، وإما زمنا وفضلاً ، تقدما مطلقاً من غير تحديد بزمن [1] .

السلف اصطلاحاً :

السلف في اصطلاح المحققين من أهل العلم « هم : صحابة رسول الله ﷺ ، والتابعون ، وتابعو التابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى المفضلة ، المشهود لهم بالخيرية ، المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والعاضين عليهما بالنواجذ » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [2] - رحمة الله عليه - وهو يتحدث عن مذهب السلف في أحاديث الصفات « مذهب أهل الحديث . وهم السلف من القرون الثلاثة المفضلة ، ومن سلك سبيلهم من الخلف ، أن هذه الأحاديث تمر كما جاءت ، ويؤمن بها ، وتصدق ، وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل ، وتكييف يفضي إلى تمثيل » [3] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة ٣/٩٥ - ٩٦ ، المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٩ ، النهاية في غريب الحديث ٢/٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٢) هو : شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام ، أبو العباس : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، رافع لواء السنة ، وقامع أهل البدعة . من تلاميذه ابن قيم الجوزية ، وابن كثير ، والذهبي ، وغيرهم . له مؤلفات عديدة، ونافعة ، منها : « درء تعارض العقل والنقل » و « منهاج السنة النبوية في الرد على الرافضة والقدرية » ولد سنة ٦٦١ ، وتوفي بسجن القلعة سنة ٧٢٨ . انظر : الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ عمر البزار ، تذكرة الحفاظ ٤/٢٧٨ ، البداية والنهاية ١٤/١٤١-١٤٥ ، البدر الطالع ١/٦٣-٧٢ .

(٣) الرسالة المدنية ٢٩ ، وانظر : مجموع الفتاوى ٦/٣٥٥ ، وليس مراده -رحمه الله - بأهل الحديث : المحدثون فقط ، بل المراد ما هو أشمل من ذلك ، فأهل الحديث هم المتمسكون بحديث النبي ﷺ ، المتبعون لسنته ، المهتدون بهديه ، من المحدثين ، والفقهاء ، واللغويين ، والنحاة ، وغيرهم ، فأهل الحديث ترادف أهل السنة .

وقال ابن رجب [1] - رحمه الله - « وفي زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بهم ، إلى زمن الشافعي [2] ، وأحمد [3] ، وإسحاق [4] ، وأبي عبيد [5] ،

---

(١) هو : الإمام ، الحافظ ، العلامة ، زين الدين ، عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات البغدادي ، الدمشقي ، الحنبلي ، الشهير بابن رجب من تلاميذ الحافظ بن القيم - رحمه الله - ، وللحافظ ابن رجب مؤلفات كثيرة ونافعة منها : « جامع العلوم والحكم » و « شرح كلمة الإخلاص » و « بيان فضل علم السلف على علم الخلف » ، ولد سنة ٧٣٦ ، وتوفي سنة ٧٩٥ . انظر : الدرر الكامنة ٤٢٨/٢ ، المقصد الارشد ٨١/٢ ، البدر الطالع ٣٢٨/١ .

(٢) هو : الامام ، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن نافع المطلبي ، (الشافعي) إمام المذهب الشافعي في الفقه ، وأحد الأئمة الأربعة ، من كتبه « الرسالة » و « الام » ولد سنة ١٥٠ ، وتوفي سنة ٢٠٤ . انظر : مناقب الشافعي للبيهقي ، الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء ٦٥-١٢١ ، سير أعلام النبلاء ٥/١٠-٩٩.

(٣) هو : الإمام ، أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، أبو عبد الله ، ولد سنة ١٦٤ ببغداد ، وطلب العلم وهو صغير ، ورحل إلى سائر الأقطار ، وأخذ عن علمائها ، حتى اشتهر بالحفظ والإتقان ، إلى أن صار إماماً من أئمة الحديث والفقه ، مع التقى والصلاح والقوة في الحق ، واتباع السنة ، وبلغت شهرته الآفاق ، خاصة بعدما وقف وقفته المشهورة ، أمام بدعة القول بخلق القرآن ، تلك الوقفة التي تقهقر بها المعتزلة بعد أن كادت فتنتهم تعصف بعامة المسلمين . والامام أحمد هو إمام المذهب الحنبلي ، في الفقه ، وله مؤلفات كثيرة في السنة ، والتفسير ، والتوحيد ، وغيرها . أشهرها المسند ، وقد توفي - رحمه الله - سنة ٢٤١ . انظر : تاريخ بغداد ٤١٢/٤ - ٤٢٣ ، سير أعلام النبلاء ١٧٧/١١ - ٣٥٧ .

(٤) هو : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن مطر ، أبو يعقوب الحنظلي ، المعروف بابن راهويه ، المروزي ، نزيل نيسابور ، أحد الأئمة ، روى عن ابن عيينة ، وابن عليه ، وجرير ، وغيرهم ، وروى عنه الجماعة. سوى ابن ماجة . وبقية بن الوليد ، ومحسن بن آدم ، وغيرهم . قال فيه الحاكم (إسحاق بن راهويه إمام عصره في الفقه والفتوى) وقال إمام الأئمة ابن خزيمة (والله لو كان إسحاق في التابعين لأقروا له بحفظه وفقهه وعلمه) من مؤلفات اسحاق بن راهويه « المسند » والسنن ، والتفسير . ولد سنة ١٦١ ، وتوفي سنة ٢٣٨ . انظر : سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١١-٣٨٣ .

(٥) هو : الإمام ، الحافظ ، أبو عبيد : القاسم بن سلام بن عبد الله البغدادي، أحد أئمة اللغة ، والحديث ، والفقه ، من مؤلفاته « كتاب الإيمان » و « الأمثال » و « غريب الحديث » ، ولد سنة ١٥٧ ، وتوفي سنة ٢٢٤. انظر: الطبقات الكبرى ٢٥٣/٧ ، إنباه الرواة ١٢/٣-٢٣ ، سير أعلام النبلاء ٤٩٠/١٠-٥٠٩ .

وليكن الإنسان على حذر مما جاء بعدهم »[1] .

وهذا التعريف هو المختار عند أتباع السلف - رضي الله عنهم - . وهو يتضمن ثلاثة أمور كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن رجب (رحمهما الله) .

الأمر الأول : أن السلف هم أهل القرون الثلاثة الأولى .

الأمر الثاني : أن للسلف منهجاً مستقلاً ومتميزا في العقيدة ، ويتجلى ذلك واضحاً في الأسماء والصفات .

الأمر الثالث : أن السلف مقتدى بهم في الأقوال، والأفعال، والاعتقادات وذلك لتمسكهم بالكتاب والسنة ، ولكون الصحابة - رضي الله عنهم - أخذوا هذا الدين عن رسول الله ﷺ ، وأخذه التابعون عن الصحابة ، وأخذه أتباع التابعين عن التابعين .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن لفظ السلف عند إطلاقه يختص بالصحابة رضي الله عنهم دون غيرهم[2] .

ومنهم من خص لفظ السلف بالصحابة والتابعين[3] .

وكلا القولين لا دليل عليه ولا مرجح له .

ولا شك أن الصحابة - رضي الله عنهم - هم السابقون الأخيار ، المتقدمون زمناً وفضلاً ، حباهم الله بصحبة نبيه ، ونصرة دينه ، وحفظ شرائعه ، وقد حفظوا الأمانة، وأدوها كما أخذوها ، فجزاهم الله عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء .

وكذلك التابعون ، فضلوا وقدموا على غيرهم ممن جاء بعدهم لتشرفهم بصحبة صحابة رسول الله ﷺ وأخذهم عنهم . غير أن السلف لم يتميزوا عن غيرهم بسبقهم الزمني فقط ، وإنما بمنهجهم الخالي عن الابتداع والاحداث في الدين . ولكونهم قدوة

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف ص ١٠٥ ، وانظر : الشريعة للآجرى ص ١٤ ، التحف في مذهب السلف ص ٥ ، ٦ .

(٢) انظر : تنوير المقالة في شرح الرسالة ١/ ٣٧٢ .

(٣) كما يفهم ذلك من كلام أبي حامد الغزالي رحمه الله في كتابه إلجام العوام عن علم الكلام . انظر : إلجام العوام عن علم الكلام ص ٦٢ .

يقتدي بهم من جاء بعدهم . وأهل القرون الثلاثة الأولى من السلف الصالح كلهم في ذلك سواء ، منهجهم واحد ، وكل واحد منهم قدوة ، يقتدى به ، ويحتج بقوله في العقيدة، ومما يرجح أن لفظ السلف الصالح عند إطلاقه لا يختص بالصحابة ، ولا بالصحابة والتابعين ، بل يشمل القرون الثلاثة الأولى ، ما يلي :

أولاً : أن السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الأولى مشهود لهم بالخيرية بنص حديث رسول الله ﷺ ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »[1] .

فهذا الحديث فيه شهادة من الصادق المصدوق ﷺ للصحابة والتابعين وتابعي التابعين بأنهم خير الأمة بعد نبيها .

ولا شك أن هذه الخيرية تقتضي تميزهم عن غيرهم ممن جاء بعدهم في الجملة ، وهو ما يوجب الاقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، واتباعهم في أقوالهم وأفعالهم واعتقادهم .

ثانياً : أن السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الأولى يتمثل فيهم الفهم الواضح والصحيح لعقيدة الإسلام ومقاصده ، كما يتمثل فيهم التطبيق الامثل للإسلام عقيدة ومنهاجاً .

وقد رسم السلف في تلك الفترة الزمنية ، منهجاً ، عقدياً ، متميزاً ، وواضحاً مبنياً على نصوص الكتاب والسنة ، ومأخوذاً منهما ، لا يزيغ عنه إلا هالك .

ولذلك كان فهم السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الأولى ، وتطبيقهم لما فهموه من نصوص الكتاب والسنة ، هو الميزان ، الذي يوزن به كل قول ، وعمل ، واعتقاد ، فما وافقه فهو الصواب ، وما خالفه فهو الضلال والخسران .

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ٣/٧ . صحيح مسلم : كتاب فضايل الصحابة ، باب فضايل الصحابة ح ٢٥٣٣ .

ثالثاً : تميزت الفترة الزمنية في عهدهم بميزات لم تتوفر لغيرهم منها :

الميزة الأولى : قوة العقيدة السلفية في عهدهم ، وتميزها عن غيرها من عقائد الفرق المبتدعة ، وهذا لا يعني أن العقيدة السلفية لم تكن متميزة ، أو أنها غير واضحة، ولكن ظهور البدع والعقائد المنحرفة ، جعل العقيدة السلفية أكثر تميزاً ووضوحاً ، كما قيل وبضدها تتمايز الأشياء .

الميزة الثانية : جهود السلف - رضي الله عنهم - في مقاومة حركة الابتداع ، فقد خرجت في عهدهم أصول البدع من الخوارج [1] ، والشيعة [2] ، والمرجئة [3] ،

---

(١) الخوارج : سموا بهذا الاسم ، لخروجهم على الإمام علي -رضي الله عنه - ونزولهم بأرض يقال لها حروراء ، فسموا بالحرورية أيضاً ، ومن أسمائهم المارقة ، والشراة ، ومن عقائدهم : تكفير أصحاب الكبائر ، والحكم عليهم بالخلود في النار ، ويقولون بالخروج على أئمة الجور وأن الإمامة جائزة في غير قريش ، والخوارج يكفرون عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعائشة - رضي الله عنهم - ، ويعظمون أبا بكر ، وعمر -رضي الله عنهما - . انظر مقالات الإسلاميين ٢/١٦٧ ، الفرق بين الفرق ٧٢ ، الملل والنحل ١/١١٤ ، البرهان في عقائد أهل الأديان ص ١٧ .

(٢) الشيعة : هم الذين فضلوا علياً على سائر الخلفاء ، والصحابة ، ورأوا بأنه وأهل بيته أحق بالخلافة ، وقالوا بإمامته نصا ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ، وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحية ، تناط باختيار العامة ، وينتصب الامام بتنصيبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسل - عليهم الصلاة والسلام - إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة . والشيعة فرق كثيرة يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولي والتبرى ، قولاً وفعلاً ، واعتقاداً ، إلا في حال التقية ، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك . انظر : مقالات الإسلاميين ١/٦٥ ، الفرق بين الفرق ٢٩ ، الفصل ٥/٣٥ ، الملل والنحل ١/١٤٦ .

(٣) المرجئة : سمو بذلك لقولهم بالإرجاء ، وأصل الإرجاء التأخير . والمقصود به هنا تأخير العمل عن مسمى الإيمان ، وقيل : من إعطاء الرجاء . حيث قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وقيل : الإرجاء ، تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدينا من كونه من أهل النار ، أو من أهل الجنة وعلى هذا : فالمرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان ، وقيل الإرجاء : تأخير عليّ من الدرجة الأولى ، إلى الدرجة الرابعة ، وعلى هذا المرجئة والشيعة ، طائفتان متقابلتان ، = =

والقدرية [1] ، والجهمية [2] ، ولقد كان للسلف - رضي الله عنهم - وقفة حازمة في وجه حركة الابتداع وذلك بالرد على المبتدعة ، والتحذير منهم وبيان العقيدة الصحيحة التي نزل بها القرآن الكريم ، وجاءت بها السنة ، وتلقاها خلفهم عن سلفهم ، عن رسول الله ﷺ .

ولولا توفيق الله - سبحانه - للسلف - رضي الله عنهم - بتلك الوقفة

= = ولقب المرجئة إذا أطلق ، إنما ينصرف أول ما ينصرف ، إلى من يؤخرون العمل عن مسمى الإيمان . والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، مرجئة القدرية ، مرجئة الجبرية ، المرجئة الخالصة . انظر عن المرجئة وتفصيل مذهبهم مقالات الإسلاميين ١/٢١٣ ، الفرق بين الفرق ٢٠٢ ، الفصل ٥/٧٣ ، الملل والنحل ١/١٣٩ ، البرهان في عقائد أهل الأديان ص : ٣٣ - ٤٦ .

(١) القدرية : سموا بذلك لقولهم في القدر . والقدرية صنفان : الصنف الأول : نفاة العلم ، وهم الذين يقولون إن الله لا يعلم الأشياء قبل كونها ، وقد خرج هذا المذهب في أواخر أيام الصحابة ، وتبرأ منهم الصحابة - رضي الله عنهم - عبد الله بن عمر وغيره ، وكفر السلف - رضي الله عنهم - من ينتحل هذا المذهب ، وقد انحسر سريعاً حتى أنه لم يعد له وجود . الصنف الثاني : نفاة عموم المشيئة وخلق الأفعال . وهؤلاء هم المعتزلة ، وهذا المذهب ، وإن كان أخف من الأول ؛ إلا أنه يلزم على القول به إثبات خالق مع الله - عزوجل - ولذلك سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ، لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين : النور ، والظلمة » ويلزم على قولهم اتصاف المولى عز وجل بالعجز ، حيث أنه يقع في ملكه مالا يشاء ولايريده . انظر : مقالات الإسلاميين ١/٢٩٨ ، الفرق بين الفرق ١١٤ ، الفصل ٥/٥٧ ، الملل والنحل ١/٤٣ ، وانظر : صحيح مسلم وشرحه للإمام النووي رحمه الله ١/١٥٠-١٦١ ، فتح الباري ١/١١٩ .

(٢) الجهمية : سموا بذلك ؛ نسبة إلى الجهم بن صفوان بن محرز ، مولى بني راسب ، وهو من أهل خراسان ، تتلمذ على الجعد بن درهم ، واتصل بمقاتل بن سليمان ، وكان الجهم كاتبا للحارث بن سريج من زعماء خراسان ، وخرج معه على الأمويين ، فقتلا بمرو سنة ١٢٨ ، من أهم ضلالاته : القول بالجبر ، ونفي الاسماء والصفات ، والقول بفناء الجنة والنار ، وتطلق الجهمية على كل من أخذ بقول جهم في نفي الصفات ، وحينئذ يدخل المعتزلة والأشاعرة في مسمى الجهمية . انظر : مقالات الإسلاميين ١/١٩٧-١٩٨ ، ٢٢٤ . ٣١٢ ، الفرق بين الفرق ١٢٨-١٢٩ ، الملل والنحل ١/٧٩-٨١ ، مجموع الفتاوى ٥/٣١-٣٥ ، بيان تلبيس الجهمية ١/٨-١٠ ، النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٤ ، ميزان الاعتدال ١/٤٢٦ .

الجريئة، والشجاعة ، إنفاذاً لوعده - سبحانه - بحفظ دينه لاختلط على الناس الحق بالباطل ، ولما عرف الخلف الحق الذي يجب اعتقاده ، الموافق لما شرعه الله في كتابه وفي سنة نبيه .

الميزة الثالثة : تدوين العقيدة السلفية في عهدهم .

فقد كان للسلف - رضي الله عنهم - الفضل بعد الله - عز وجل - في حفظ عقيدة الأمة ، وصيانتها ، وذلك بتدوينها ورد الشبهات المثارة حولها ، وهذا فضل لم يسبقهم إليه أحد وكل من جاء بعدهم إنما هم عيال عليهم .

وقد استحق السلف بذلك : الاقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، واتباعهم فيما نقلوه واعتقدوه .

تلك هي بعض المرجحات التي تجعل من لفظ (السلف) عند إطلاقه لا يختص بالصحابة - رضي الله عنهم - فقط وإن كان لهم المقام الأول في ذلك ، كما أنه لا يختص كذلك بالتابعين ، بل يشمل الصحابة ، والتابعين ، وأتباع التابعين ، وذلك لتقدم الجميع ، وسبقهم بنوع من الفضل الذي لم يسبقوا إليه .

فكل من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين متقاربون زمناً ، متقدمون فضلاً ، سابقون لنصرة دين الله - سبحانه - ، والدفاع عنه .

وبناء على ما تقدم ، فإن السلف الذين نقوم بدراسة عقيدتهم - من خلال جهود أبي المظفر السمعاني - رحمه الله - في تقريرها - هم صحابة رسول الله ﷺ والتابعون وتابعو التابعين ، من أهل القرون الثلاثة الأولى المفضلة ، المشهود لهم بالإمامة في الدين ، وعظم الشأن ، ممن تلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف كالأئمة الأربعة [1] ،

---

(١) الأئمة الأربعة : هم : الامام أبو حنيفة ، والإمام مالك بن أنس ، والإمام محمد بن إدريس الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل - رحمهم الله جميعاً - .

وسفيان الثوري [1] ، والليث بن سعد [2] ، وابن المبارك [3] ، والبخاري [4] ، ومسلم بن الحجاج [5] ، وغيرهم ، ممن وافقهم ، دون من خالفهم ، ممن رمي ببدعة ، أو بلقب غير

---

(١) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق بن حمزة بن حبيب الثوري ، أبو عبد الله الكوفي ، أمير المؤمنين في الحديث ، وإمام من أئمة المسلمين ، ولد سنة ٩٧ وتوفي سنة ١٦١ بالبصرة . انظر : وفيات الأعيان ٣٨٦/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧ .

(٢) هو : الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي - أبو الحارث - الامام المصري ، من كبار الأئمة في وقته ، في الفقه ، والعلم ، والفتوى ، ومن رواة الحديث الحفاظ الثقات ، وثقه سائر أئمة الحديث ، قال فيه ابن حبان «كان من سادات أهل زمانه فقهاً ، وورعاً ، وعلماً ، وفضلاً ، وسخاء » ولد سنة ٩٤ ، وتوفي سنة ١٧٥ . انظر : وفيات الأعيان ١٢٧/٤-١٣٢ ، سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨-١٦٣ ، تهذيب التهذيب ٣٨٢/٥-٣٨٧ .

(٣) هو : الإمام ، الجليل ، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي ، التميمي، مولاهم المروزي ، أبو عبد الرحمن ، إمام أهل عصره ، في العلم ، والتقى ، والصلاح والفضل ، والرئاسة . ومن مشاهير أئمة الحديث ، والحفاظ الثقات ، وصفه ابن عيينة بقوله « وكان فقيهاً ، عالماً ، عابداً ، زاهداً ، شيخاً ، شجاعاً ، شاعراً » كما كان شيخاً ناصحاً للأمتسيداً من سادات المسلمين توفي - رحمه الله - بـ « هيت » منصرفه من الغزو سنة ١٨١ ، وعمره ٦٣ سنة . انظر : سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٨-٤٢١ ، تهذيب التهذيب ٣٨٢/٥-٣٨٧ ، غاية النهاية ٤٤٦/١ .

(٤) هو : إمام المحدثين ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري ، أبو عبد الله ، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ، اتفقت الأمة على إمامته في الحديث ، قال ابن حجر « جبل الحفظ ، وإمام الدنيا » ولد الإمام البخاري سنة ١٩٤ ، وتوفي سنة ٢٥٦ . انظر : تاريخ بغداد ٤/٢-٣٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٩١/١٢-٤٧١ ، هدي الساري مقدمة فتح الباري ٤٧٧ - ٤٩٤ .

(٥) هو : الإمام مسلم بن الحجاج ، القشيري ، أحد الأئمة الحفاظ الأعلام ، صاحب الصحيح ، المشهور بصحيح مسلم ،ثاني كتب السنة بعد صحيح البخاري ، وله مصنفات أخرى في الحديث وعلومه ، ولد الإمام مسلم - رحمه الله - سنة ٢٠٤ ، وتوفي سنة ٢٦١ . انظر : سير أعلام النبلاء ٥٥٧/١٢-٥٨٠ ، البداية والنهاية ٣٦/١١ - ٣٨ ، تهذيب التهذيب ١٢٦/١٠ - ١٢٨ .

مرضي ، مثل : الخوارج ، والروافض [1] ، والمرجئة ، والجبرية [2] ، والجهمية والمعتزلة [3][4] .

ونلاحظ من خلال ما تقدم ما يلي :

أولاً : أن المعنى اللغوي (للسلف) ، أعم من المعنى الاصطلاحي ، فإن المعنى اللغوي ؛ يشمل كل متقدم من لدن آدم - عليه السلام - إلى آخر من تقدمنا ممن هو في عصرنا ، بل يشمل غير بني آدم أيضاً ، وليس كذلك المعنى الاصطلاحي [5] ، فقد خصصه العلماء الراسخون في العلم ، المشهود لهم بالتقدم فيه ، بالقرون الثلاثة الأولى،

---

(١) الرافضة : سموا بذلك ؛ لأسباب كثيرة ، منها : رفضهم زيد بن علي حينما توجه لقتال هشام بن عبد الملك . فقال له أصحابه ، تبرأ من الشيخين - أي أبي بكر وعمر - فقال لا ، بل أتولاهما ، وأتبرأ ممن تبرأ منهما ، فقالوا : إذاً نرفضك فسموا رافضة لذلك . وهم أكبر فرق الشيعة ، والواجهة الرئيسية للتشيع ، وقد تقدم التعريف بالشيعة . وانظر : رسالة في الرد على الرافضة ص ٦٥ .

(٢) الجبرية : سموا بذلك ، لقولهم : بأن العبد مجبور على فعله ، وأنه كالريشة في مهب الريح ، وكحركات المرتعش ليس له إرادة ، ولا قدرة على الفعل . وممن قال بهذا الجهم بن صفوان . والجبرية أصناف الجبرية الخالصة . وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً . والجبرية المتوسطة وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . انظر تفاصيل مذهبهم في الملل والنحل ١/ ٨٥ .

(٣) المعتزلة : سموا بذلك ، لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء ، حلقة الحسن البصري . وذلك لما خالف واصل الحسن في حكم الفاسق ، وانضم واصل إلى عمرو بن عبيد ، واعتزلا حلقة الحسن . فسميا بالمعتزلة . والمعتزلة لهم أصول منها التوحيد وقد نفوا بهذا الأصل صفات الله عز وجل ، ومنها العدل وقد تستروا بهذا الأصل لينفوا قدرة الله - سبحانه - ومشيئته ، وخلقه لأفعال عباده ، ومنها الوعد والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . انظر : عن المعتزلة ومذهبهم ، مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٥ ، الملل والنحل ١/ ٤٣ ، المعتزلة وأصولهم الخمسة .

(٤) انظر : مختصر لوامع الأنوار البهية ص : ١٤ - ١٥ .

(٥) التعريف الاصطلاحي في الغالب يكون أخص من التعريف اللغوي ، كما هو الحال في كل الفنون ، وإلا لو كانا سواء لما احتاج الناس إلى التطويل بتقسيم التعريف إلى لغوي واصطلاحي ، وكان عليهم أن يكتفوا بالتعريف اللغوي فقط .

وهذا اصطلاح منهم ، وعليه درج اتباعهم ولا مشاحة في الاصطلاح .

ثانياً : يتضح من خلال التعريف المختار المتقدم (للسلف) أن التحديد الزمني وحده لا يكفي ، حتى يطلق على الشخص بأنه من (السلف) ، بل لا بد من موافقة الشخص للكتاب والسنة ، وأخذ العقيدة منهما جميعاً ، وهذا من أهم ما تميز به السلف عن غيرهم وبه باينوا جميع الفرق .

قال الشيخ محمود خفاجي « وليس التحديد الزمني كافياً في ذلك ، بل لا بد أن يضاف إلى هذا السبق الزمني موافقة الرأي للكتاب والسنة ، فمن خالف رأيه الكتاب والسنة فليس بسلفي ، وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين »[1] .

---

(١) العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة ١/٢١ .

المبحث الثاني

أسماء السلف - رضي الله عنهم - التي يعرفون بها .

للسلف - رضي الله عنهم - أسماء يعرفون بها ، منها :

أولاً : « السلف » وقد تقدم بيان وجه تسميتهم بذلك .

ثانياً : « أهل الحديث » ولمعرفته وجه تسميتهم بهذا الاسم ، نبين معنى الحديث، من حيث اللغة والاصطلاح .

الحديث لغة : ضد القديم [1]

وفي الاصطلاح : « ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو وصف خُلقي أو خَلقي » [2] .

والحديث بوصفه المذكور ؛ هو الذي قام من أجله علم الحديث . وهو قسمان :

- علم الحديث رواية : وهو « علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله ، وتقريراته ، وصفاته ، وروايتها ، وضبطها ، وتحرير ألفاظها » [3] .

- علم الحديث دراية : وهو « علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن » [4] وهو ما يعرف بمصطلح الحديث .

« فإذا قيل : (أهل الحديث) فالمقصود بهم ؛ الذين لهم عناية بحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية ، باذلين جهدهم في مدارسة أحاديث النبي ﷺ وروايتها ، واتباع ما فيها علماً ، وعملاً ، ملتزمين بالسنة ، مجانبين للبدعة ، متميزين عن أهل الاهواء الذين يقدمون مقالات أهل الضلالة ، على أقوال رسول الله ﷺ ، ويقدمون عقولهم الفاسدة ، ومنطقهم المتهافت ، وكلامهم المتناقض ، على ما جاء به الكتاب العزيز والسنة الشريفة » [5]

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٥٠ .

(٢) منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٦ .

(٣) تدريب الراوي ١/ ٤٠ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٤١ .

(٥) أهل السنة والجماعة ص : ٤٩ .

ولا يختص مصطلح (أهل الحديث) : بمن يقوم بدراسة الحديث وتبيينه وتوضيحه والدفاع عنه ، بل يشمل كل من تمسك بحديث النبي ﷺ في القول ، والفعل ، والاعتقاد ولو لم يكن متخصصاً في علم الحديث بالمعنى المتعارف عليه عند الناس .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه ، أو كتابته ، أو روايته ؛ بل نعني بهم : كل من كان أحسن بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهراً وباطناً ، واتباعه باطناً وظاهراً ، وكذلك أهل القرآن ، وأدنى خصلة من هؤلاء : محبة القرآن والحديث ، والبحث عنهما وعن معانيهما ، والعمل بما علموه من موجبهما . ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم ، وصوفيتهم [1] أتبع للرسول من صوفية غيرهم ، وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم ، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم » [2] .

واشتراط العمل بحديث النبي ﷺ هو أساس ذلك ؛ فمن لم يعمل بحديث النبي ﷺ في القول والفعل والاعتقاد ، فليس من أهل الحديث ، وإن بذل وسعه في دراسة حديث النبي ﷺ والتعمق فيه . وعلى ذلك فأهل الحديث صنفان :

الصنف الأول : من جمع بين وصفين : بين علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية، وبين التمسك بحديث النبي ﷺ ومجانبة أهل البدع والأهواء ، ومن هؤلاء كبار الأئمة : كمالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم وغيرهم .

والصنف الثاني : من كان حظه من علم الحديث رواية ودراية قليلاً ولكنه مع ذلك متمسك بحديث النبي ﷺ مجانب لأهل الأهواء والبدع . وهؤلاء هم عامة المسلمين الذين نهجوا نهج السلف الصالح في الاعتقاد ، ويدخل فيهم الفقهاء ، والقراء ، والنحاة والادباء ، والمؤرخون ، والمفسرون ، الذين برزوا في فنونهم ، ولم يكن لهم حظ من التعمق في علم الحديث ولا الاشتغال به وإنما غلب عليهم الإشتغال بفنهم الذي برزوا فيه

---

(١) يقصد - رحمه الله - زهاد أهل الحديث لا التصوف الذي قام على الانحراف .

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٩٥ .

وكانوا في العقيدة على منهج السلف - رضي الله عنهم - .

ومصطلح (أهل الحديث) ليس خاصاً بالسلف من أهل القرون الثلاثة الأولى ؛ بل كل من سلك مسلكهم في الاعتقاد ؛ فهو من أهل الحديث ؛ من عهد الصحابة -رضي الله عنهم - إلى قيام الساعة .

ثالثاً : أهل السنة والجماعة

السنة في اللغة : هي الطريقة ، محمودة كانت أو مذمومة ، وهي مأخوذة من السنن ، وهي الطريق [١] ومنه الحديث « من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان له وزرها ، ووزر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » [٢] ومنه الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم » [٣] .

قال القاضي عياض [٤] : وقوله : لتتبعن سنن من كان قبلكم بفتح السين والنون رويناه هنا ، أي طريقهم ، وسنن الطريق نهجه ، ويقال سننه - بضمهما - وسننه - بفتح السين وضم النون - جمع سنة وهي الطريقة أيضاً [٥] .

---

(١) لسان العرب ١٣/٢٢٥-٢٢٦ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ح ١٠١٧ ، وكتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ح ١٠١٧ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ١٣/٣٠٠ . صحيح مسلم : كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ح ٢٦٦٩ .

(٤) هو : عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض اليحصبي ، من العلماء النابهين ، والفضلاء ، المبرزين في فنون كثيرة ، له من المؤلفات « مشارق الأنوار » و « إكمال المعلم بفوائد مسلم » و « ترتيب المدارك » وغيرها . ولد بمدينة سبتة ، سنة ٤٧٦ ، وتوفي سنة ٥٤٤ ، انظر : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، للمقرى ، سير أعلام النبلاء ٢٠/٢١٢-٢١٨ ، مقدمة محمد بن تاويت الطنجي ، لكتاب ترتيب المدارك .

(٥) مشارق الأنوار ٢/٢٢٣ .

وقال ابن الأثير [١] : « وقد تكرر في الحديث ذكر (السنة) وما تصرف منها والأصل فيها الطريقة والسيرة » [٢] .

السنة اصطلاحاً :

يختلف تعريف السنة اصطلاحاً باختلاف الفن الذي أضيفت إليه فهي عند الاصوليين « ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص ، مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز بل إنما نص عليه من جهته - عليه الصلاة والسلام - وكان بياناً لما في الكتاب أولاً » [٣] وهي عند الفقهاء « ما ثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب » [٤] .

وهي عند المحدثين « ما أثر عن النبي ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خُلقية ، أو خَلقية ، أو سيرة سواء كان قبل البعثة أو بعدها » [٥] .

وتطلق السنة على ما يقابل البدعة ، فإذا قيل : فلان على سنة ، فالمقصود أنه على طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه ، السالمة من الشبهات والشهوات [٦] .

ومن ذلك سمي (أهل السنة) بأهل السنة ، وذلك لاختصاصهم بسنة النبي ﷺ وتمسكهم بها ، وعنايتهم بدراستها ، وفهمها ، وتحكيمها في القليل والكثير .

---

(١) هو : المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، المعروف بابن الأثير ، مجد الدين ، أبو السعادات عالم ، أديب ، ناثر ، مشارك في جملة من الفنون ، من تصانيفه « النهاية في غريب الحديث » و « جامع الأصول من أحاديث الرسول » ولد سنة ٥٤٤ ، توفي سنة ٦٠٦ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٤٨٨/٢١ ، البداية والنهاية ٥٤/١٣ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ١٥٣/٥ .

(٢) النهاية في غريب الحديث ٤٠٩/٢ .

(٣) الموافقات للشاطبي ٣/٤ .

(٤) إرشاد الفحول للشوكاني ص :٣١ .

(٥) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ص : ٤٧ .

(٦) انظر : الموافقات ٤/٤ .

قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد « وسموا أهل السنة : لانتسابهم لسنته ﷺ دون المقالات كلها والمذاهب ، وقد سئل بعضهم عن السنة فقال : مالا اسم له سوى السنة . يعني أن (أهل السنة) ليس لهم اسم ينتسبون إليه سواها [(١)] . خلافاً لأهل البدع ، فإنهم تارة ينتسبون إلى المقالة : كالقدرية ، والمرجئة ، وتارة ينتسبون إلى القائل كالجهمية ، والنجارية [(٢)] ، وتارة ينتسبون إلى الفعل : كالخوارج والروافض ، وأهل السنة بريئون من هذه النسب كلها ، وإنما نسبتهم إلى الحديث والسنة » [(٣)]

وأما الجماعة فهي لغة : الفرقة من الناس . سموا بذلك ، لاجتماعهم وعدم افتراقهم [(٤)] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « الجماعة هي الاجتماع ، وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين » [(٥)] ، وإذا ذكر لفظ الجماعة مع السنة فقيل : (أهل السنة والجماعة) كان المراد بها « سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [(٦)] . فأهل السنة والجماعة سموا بذلك لتمسكهم بسنة رسول الله ﷺ واجتماعهم عليها .

---

(١) وممن جاء عنه هذا القول الإمام مالك - رحمه الله - قال القاضي عياض -رحمه الله - « سأل رجل مالكاً فقال : من (أهل السنة) يا أبا عبد الله ؟ قال : الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لا جهمي ، ولا رافضي ، ولا قدري » ترتيب المدارك ٤١/٢ .

(٢) النجارية : نسبة إلى أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار ، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة، كان حائكاً وهو من متكلمي المجبرة ، وله مع النظام مجالس ومناظرات ، توفي نحو سنة ٢٢٠ ، والنجارية يوافقون المعتزلة في نفي الصفات وخلق القرآن والرؤية ، ويخالفون في القضاء ، والقدر ، والوعد ، والوعيد ، انظر عن النجارية وفرقهم : الفرق بين الفرق ٢٠٧ ، الملل ٨٨/١ ، الفهرست لابن النديم ٢١٥ ، رسالة في الرد على الرافضة ١٧٠ ، الأعلام ٢٧٦/٢ .

(٣) التنبيهات السنية ص ١٥ .

(٤) انظر : لسان العرب ٥٣/٨ .

(٥) مجموع الفتاوى ١٥٧/٣ .

(٦) شرح الواسطية للشيخ محمد خليل هراس ص : ١٦ .

رابعاً : الفرقَة الناجية

الفرقة : بكسر الفاء ، الطائفة والجماعة من الناس [1] والناجية التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة [2] . وسمى السلف بالفرقة الناجية . لتمسكهم بالحق الذي جاء به النبي ﷺ والذي لا سعادة ولا نجاة إلا بالتمسك به .

وهذا الاسم ليس خاصاً بالسلف أيضاً : وإنما هو اسم لكل من سلك مسلكهم في العقيدة والتمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

تلك هي أسماء السلف التي يعرفون بها . منها : ما هو خاص بأهل القرون الثلاثة الأولى وهو اسم (السلف) . ومنها ما يطلق على أهل القرون الثلاثة الأولى من السلف الصالح ، ويطلق على غيرهم ممن سلك مسلكهم ، وسار على نهجهم ، ممن جاء بعدهم إلى قيام الساعة :

وهي : اسم أهل الحديث ، وأهل السنة والجماعة ، والفرقة الناجية . وذلك لأن هذه الأسماء ، لا علاقة لها بالزمن ، وإنما هي باعتبار المنهج الذي سار عليه السلف -رضي الله عنهم - في عهد الصحابة . ويسير عليه أتباعهم إلى قيام الساعة .

أسماء السلف عند أهل البدع :

وقد أطلق أهل البدع على السلف - رضي الله عنهم - ألقاباً شنيعة هم منها براء يجب التنبيه عليها وذلك لما فيها من التلبيس والتمويه .

فالجهمية : يسمون أهل السنة مشبهة ، وذلك لأن أهل السنة يصفون الله - عز وجل - بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ والجهمية يردون ذلك أو يؤولونه بغير معناه الصحيح .

والقدرية : يسمون أهل السنة مجبرة . وذلك لأن أهل السنة يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل وهذا في زعم القدرية جبر للعباد ، ولهذا يسمون أهل السنة جبرية .

والمرجئة يسمون أهل السنة نقصانية وذلك لأن أهل السنة يقولون إن الإيمان يزيد

---

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٧ ، لسان العرب ١٠/ ٣٠٠ .

(٢) التنبيهات السنية ١٢ .

وينقص ، وأما المرجئة فيزعمون أن الإيمان لا يتجزأ - أي لا يزيد ولا ينقص -

والرافضة يسمون أهل السنة ناصبة . وذلك لأن أهل السنة يقدمون أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - على علي - رضي الله عنه - والرافضة يقدمون علياً - رضي الله عنه - ويزعمون أن من قدم غيره عليه فقد ناصب علياً وآل البيت العداء . وأهل السنة من زعم الرافضة هذا براء . فهم إنما يقدمون أبا بكر وعمر اعتماداً منهم على النصوص الواردة في ذلك ولا علاقة بين ذلك وبين الحب والتقدير . وحب آل البيت ، جزء من عقيدة أهل السنة والجماعة .

والزنادقة [1] وأهل الكلام [2] : يسمون السلف - أهل السنة والجماعة - حشوية . وقصدهم بذلك الطعن في الآثار ، الواردة في العقائد وغيرها . مما لم يوافق عقول أهل الكلام فسموا أهل السنة حشوية ، لروايتهم مالا يجوز حمله ولا نقله على حد زعمهم .

وكل هذه الألقاب باطلة ومردودة وسيأتي في ثنايا البحث ما يدفع هذه الألقاب عن السلف رضي الله عنهم [3] .

---

(١) الزنادقة : جمع زنديق ، ومصدره زندقة . فارسي معرب ، وهو الذي لايؤمن بالآخرة ، ووحدانية الخالق ويقول بدوام بقاء الدهر . كما يطلق على كل متهتك مستهتر يتكلم في الدين بما هو كفر صراح دون نظر أو استدلال ، كما يطلق على أتباع ديصان ، ثم ماني ، ثم مزدك وحاصل مقالتهم : أن النور والظلمة إلهان قديمان ، النور إله الخير ، والظلمة إله الشر ، وأنه يجب السعي في تخليص النور من الظلمة فيلزم إزهاق كل نفس يقول المتنبي في هذا المعنى :

وكم لظلام الليل عندك من يد   تخبر أن الثانوية تكذب

انظر : لسان لعرب ١٠/١٤٧ ، فتح البارى ١٢/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢) أهل الكلام : نسبة إلى علم الكلام وهو : علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى ، وصفاته ، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد بالأدلة العقلية على قانون الإسلام . وهو علم يقوم على تقديس العقل واستبعاد النص باعتبار أن النصوص أدلتها ظنية ولهذا يرد علماء الكلام كل نص يتعارض مع العقل حسب زعمهم أو يؤولونه ، ويتمثل هذا الإتجاه في تاريخ الإسلام في المعتزلة والأشاعرة إذ أن منهجهم يقوم على عرض النصوص الشرعية على القواطع العقلية - كما يزعمون - فما وافق العقل أخذوا به وما خالفه ردوه أو أولوه . انظر : التعريفات للجرجاني ص : ١٨٥ ، درء تعارض العقل والنقل ١/ ٤ .

(٣) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٧٩ .

المبحث الثالث : عقيدة السلف

العقيدة لغة : من العقد نقيض الحل [1]

والأصل فيه من عقد الحبل ونحوه ، ثم استعمل في سائر أنواع العقود : من البيع ، والنكاح ، والإجارة ، وغيرها ، واستعمل كذلك : في التصميم والاعتقاد الجازم لانعقاد القلب وشده على ما يعتقده الإنسان ويدين به [2] .

فالعقيدة : هي ما يعقد عليه المرء قلبه ويدين به من مسائل الديانات والاعتقادات سواء كانت عقيدة صحيحة ، أم فاسدة .

عقيدة السلف - رضي الله عنهم - :

عقيدة السلف - رضي الله عنهم - هي : ما عقد عليه السلف القلب والضمير ودانوا به لله - عز وجل - من التصديق الجازم ، والإيمان الكامل ، بكل ما أخبر به الرسول ﷺ مما جاء به القرآن الكريم ، أو جاءت به السنة من مسائل الإيمان والعقيدة كمسائل التوحيد والصفات والقدر ، والنبوات ، والبعث والجزاء ، وغير ذلك مما هو موضح في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ[3] .

هذا على سبيل الاجمال وأما على سبيل التفصيل ، فسيأتي في ثنايا البحث ما يوضح عقيدة السلف - رضي الله عنهم - ويبينها .

---

(١) لسان العرب ٣/٢٩٦ ، تاج العروس ٢/٤٢٦ .

(٢) انظر : المصباح المنير ٤٢١ ، تاج العروس ٢/٤٢٦ .

(٣) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٥١ - ١٨٣ ، فقد نقل اللالكائي - رحمه الله - عن جماعة من السلف ما اعتقدوه ودانوا به لله عز وجل وهي لاتخرج في جملتها عما ذكرته .

المبحث الرابع : منهج السلف في العقيدة

تمهيد : قبل الوقوف على منهج السلف في العقيدة لا بد من ملاحظة الأمور التالية :

أولاً : أن أصول العقيدة وقضاياها الكبرى من الإيمان بالله - سبحانه - وأسمائه ، وصفاته ، وملائكته ، والقدر ، والبعث والجزاء ، وما يتبع ذلك كلها قضايا غيبية ، خارجة عن نطاق الحس ويمكن القول إن القضية المهمة الوحيدة من قضايا العقيدة التي تحصل عن طريق المشاهدة والحس ، هي : معجزات الأنبياء وليست هي من أصول العقيدة ، وإنما هي وسائل للإقناع ، وإلزام الخصم الحجة على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من المغيبات ثم إنها خاصة بمن شاهدها ، وهم القليل من الناس وأما عامة الناس الذين لم يشاهدوها ، فهي عندهم من الأمور الغيبية ، وذلك يعني أن الحواس ليست طريقاً مستقلاً لمعرفة العقيدة .

ثانياً : أن الواقع التاريخي ، يشهد بأن العقل وحده عاجز عن الوصول إلى معرفة الحق الذي يجب اعتقاده ، ولا يجوز العدول عنه . ويتجلى هذا في أمرين :

الأمر الأول : أن الناس كلما ابتعدوا عن زمن الرسل ، وتركوا التمسك بما جاء به الرسل ، انحرفوا إلى وثنيات ومعتقدات باطلة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ولو كان العقل وحده يستطيع أن يصل إلى المعتقد الصحيح ، لما احتاج الناس إلى الرسل ، ولما انحرفوا عند ابتعادهم عن زمن الرسل .

الأمر الثاني : تلك الحيرة والاضطراب ، اللذان حلا بالعقلانيين ، الذين جعلوا من عقولهم دعاة إلى الله - سبحانه - بعيداً عن الاستنارة بنور الوحي وخير مثال على ذلك . ما حل بأهل الكلام ، من الشك والحيرة ، والاضطراب ، والندم في آخر العمر ، على ما حصل منهم : من تقديس للعقل ، واعتماد عليه وحده ، في تقرير مسائل العقيدة حتى قال أحدهم :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم [1]

وقال الآخر :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا [2]

تلك هي نهاية العقل الذي لم يستنر بنور الوحي . الشك ، والحيرة ، والاضطراب ، مما يدل على أن العقل لا يصلح أن يستقل بمعرفة العقيدة الصحيحة ، التي تسعد الإنسان في دنياه وأخراه .

ثالثاً : إذا تقرر أن الحواس لا يمكن أن تستقل بمعرفة العقيدة الصحيحة ، ولا أن العقل كذلك لم يبق إلا الخبر الصادق عن الله - سبحانه - وذلك عن طريق الوحي .

فبالوحي يهتدي الإنسان ويصل إلى الحق الذي لا يتطرق إليه شك ، ولا يرقى إليه احتمال قال تعالى ﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صرط مستقيم ﴾ [3] وبالوحي أقام الله سبحانه حجته على خلقه ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [4] وبمعرفة ما نزل به الوحي يستحق الإنسان الثواب والعقاب . قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[5]

---

(١) وصاحب البيتين قيل : هو الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ ، وقيل : هما : لأبي بكر بن محمد بن باجة ، المعروف بابن الصائغ الاندلسي، المتوفى سنة ٥٣٣ وقيل ٥٢٥ . انظر : وفيات الأعيان ٢/١٥٧-١٦١ ، و٤/٢٧٤ ، ٤٢٩-٤٣١ .

(٢) وصاحب هذه الأبيات هو : محمد بن عمر بن الحسين المشهور بفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ، انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٤٨-٢٥٢ .

(٣) الشورى آية (٥٢) .

(٤) النساء آية (١٦٥) .

(٥) الاسراء آية (١٥) .

عما جاء به الوحي يسأل أصحاب الجحيم يوم القيامة ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ [1] وعدم انتفاع أصحاب السعير بما جاء به الوحي أوقعهم في العذاب ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحب السعير ﴾ [2] أي : لو كنا نسمع النذر ، وهم الرسل ، ونعقل عنهم ما يقولون ، ما كنا في عذاب السعير [3] .

فالوحي رحمة من الله سبحانه الحكيم العليم الخبير بعباده ، الذي لم يترك عباده حيارى لا يعرفون كيف يهتدون إلى معرفة ربهم - سبحانه - ولا كيف يعبدونه ، بل أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، فيها الهدى والنور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتب مبين يهدي به الله من اتبع رضونه سبل السلم ويخرجهم من الظلمت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صرط مستقيم ﴾ [4] .

وعلى هذا فالطريق إلى معرفة الله سبحانه والفوز برضوانه إنما هو في اتباع رسل الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ [5] .

رابعاً : ويضاف إلى ما تقدم : أن من أعظم ما جاء الوحي لبيانه وتوضيحه ودعوة الناس إليه ، إنما هو المعتقد الصحيح ، السالم من الشكوك والشبهات. فقد كان التوحيد وهو أصل العقيدة الصحيحة مفتاح دعوة الرسل جميعاً ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت ﴾ [6] ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [7] .

وفي صحيح البخاري - رحمه الله - من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله

---

(١) الملك آية (٨) .

(٢) الملك آية (١٠) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢١٢/١٨ .

(٤) المائدة آية (١٥ - ١٦) .

(٥) آل عمران آية (٣١) .

(٦) النحل آية (٣٦) .

(٧) الأنبياء آية (٢٥) .

عنه - قال : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فذكر عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه »[1] .

ولا يعقل من البشير النذير ، الرؤوف الرحيم ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، أن يعلم أمته كل شيء ، حتى أدب التغوط والجماع ، ودخول البيوت والخروج منها ، ويترك أصل الأصول وغاية المأمول ملتبساً على أمته ، حيارى تائهين ، لا يدرون ما يعتقدون ، ولا بأي شيء يدينون ﴿ سبحنك هذا بهتن عظيم ﴾[2] .

خامساً : من خلال ما تقدم يتبين بوضوح أن مسائل العقيدة وقضاياها توقيفية لا تدخل تحت الرأي أو القياس ، ولا تضرب لها الأمثال ، بل تؤخذ من الكتاب والسنة فما أثبته الكتاب والسنة أثبت ، وما نفاه الكتاب والسنة نفي وما سكتا عنه يسكت عنه ذلك هو المنهج الذي لا ينبغي العدول عنه ولا يصلح سواه .

سادساً : وبناء على ما تقدم فإن الطريق الأسلم الأقوم ، الذي لا طريق سواه ، في أمر المعتقد ، إنما هو طريق التلقي والتسليم ، التلقي عن الله - سبحانه - عن طريق محمد ﷺ والتسليم لله ولرسوله فيما أمرا به ونهيا عنه ، فالله سبحانه أعلم بنفسه من خلقه ، وإنما أرسل رسله ليعرف عباده نفسه ، وما يجب له ، ولا يصح بحال : أن يترك أمر العقيدة غامضاً غير واضح ، والرسول ﷺ أعلم بربه من بقية الخلق وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين ، وشهد له أصحابه بذلك ، وأخبر سبحانه أنه أكمل له ولأمته الدين ، وأتم عليهم النعمة قال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[3] قال ابن عباس - رضي الله عنهما - « أخبر الله رسوله والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ٢٨٦/٦ .

(٢) النور آية (١٦) .

(٣) المائدة آية (٣) .

يسخطه أبداً »[1] .

كما أخبر سبحانه أن من اتبع الوحي ، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، وأن من لم يتبع الوحي ، يعيش في الدنيا عيشة ضنكا ، ويحشر يوم القيامة أعمى ، قال تعالى ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ [2] وفي ذلك الدلالة الواضحة ، على أن الوحي فيه ما يكفي ويشفي .

« منهج السلف - رضي الله عنهم - في العقيدة »

من خلال الملحوظات السابقة . يتبين أن المنهج السعيد بالتوفيق لمعرفة العقيدة الصحيحة السالمة من الشكوك والشبهات إنما هو منهج التلقي والتسليم . وبالرجوع إلى أقوال السلف لمعرفة منهجهم في العقيدة ، نجد أن منهج التلقي والتسليم هو المنهج الذي ساروا عليه ولم يحيدوا عنه . قال الإمام أحمد رحمه الله « وإنما الأمور في التسليم والإنتهاء إلى ما كان في كتاب الله،أو سنة رسول الله،لافي الجلوس إلى أهل البدع»[3] .

وقال الإمام محمد بن شهاب الزهري [4] رحمه الله « من الله القول ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم » [5] .

وقد تميز السلف - رضي الله عنهم - بهذا المنهج عن غيرهم من بقية الطوائف والفرق ، وبه عصمهم الله من غلو الغالين ، وتفريط المفرطين ، كما حفظهم الله به من شتات الجماعة وتفرق الكلمة .

---

(١) جامع البيان ٦/٧٩ .

(٢) سورة طه آية (١٢٤) .

(٣) الابانة عن شريعة الفرق الناجية ٢/٤٧١ - ٤٧٢ .

(٤) هو : محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري ، من بني زهرة ابن كلاب - من صغار التابعين وحفاظهم ، المكثرين للحديث مع إتقان وفقه ، ولد سنة ٥٠هـ وقيل ٥١ ، وتوفي سنة ١٢٤ . انظر : الجرح والتعديل ٨/٧١ - ٧٤ ، سير أعلام النبلاء ٥/٣٢٦-٣٥٠ .

(٥) تعظيم قدر الصلاة ١/٤٨٧ رقم ٥٢٠ ، شرح السنة للبغوي ١/٢١٧ ، سير أعلام النبلاء ٥/٣٤٦ .

ولتحديد منهج السلف - رضي الله عنهم - التحديد الدقيق نجد أن منهجهم يقوم على أسس خمسة .

الأساس الأول : التمسك بالكتاب والسنة قولاً وعملاً واعتقاداً . إيماناً منهم بأنه لاعصمة إلا في التمسك بالكتاب والسنة ، ولانجاة إلا في اتخاذهما دليلا ومنهجاً يسيرون عليه ، ويهتدون بهديه ، قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - « يأيها الناس : إن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الفرقان ، وفرض عليه الفرائض ، وأمره أن يعلم أمته ، فبلغ رسالته ، ونصح لأمته ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، وبين لهم ما يجهلون . فاتبعوه ولاتبتدعوا ، فقد كفيتم »[١] .

وقال الزهري - رحمه الله - « قال علماؤنا الاعتصام بالسنة نجاة »[٢] وقال عمر بن عبد العزيز[٣] - رحمه الله - « إنه لارأي لاحد مع سنة رسول الله ﷺ »[٤] .

وقال الإمام مالك[٥] - رحمه الله - « السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن أعرض عنها غرق »[٦] وقال أيضاً : « كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر ،

---

(١) ذم الكلام وأهله ٢/٢٩٩ رقم ٢٣٩ .

(٢) الابانة ١/٣٢٠ رقم ١٦١ ، الشرح والاتابة ص ١٤٢ رقم ١٢٦ .

(٣) هو : الخليفة العادل أمير المؤمنين - عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، القرشي ، ويسمى بالخليفة الراشد لصلاحه ، وعدله ولد بالمدينة سنة ٦١هـ وتولى إمارتها في عهد الوليد بن عبد الملك ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وعهد إليه بالخلافة بعد وفاته ٩٩هـ فرفع المظالم ، وولى على الناس خيارهم ، وعم في عهده الأمن والرخاء والعدل رغم قصر عهده توفي سنة ١٠١هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٥/١١٤ .

(٤) الشريعة للآجرى ص :٥٣ ، الابانة ١/٢٦٣ رقم ١٠٠ .

(٥) هو : مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الاصبحي ، أبو عبد الله الإمام الفقيه ، المحدث الحافظ إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة ينسب إليه المذهب المالكي ، روى عن كثير من التابعين منهم : نافع مولى ابن عمر، ومحمد بن شهاب الزهري ، وهشام بن عروة ، يحي بن سعيد الأنصاري ، وروى عنه خلق من المحدثين والحفاظ منهم الأوزاعي ، وشعبة ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، من مؤلفاته الموطأ ، ولد سنة ٩٣ على أرجح الأقوال وتوفي سنة ١٧٩ . انظر : الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء ٩ - ٦٣ ، ترتيب المدارك ١/١٠٢ - ٢٤٥ ، سير أعلام النبلاء ٨/٤٨ - ١٣٥ .

(٦) نقض المنطق لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : ٤٨ .

وأشار بيده إلى الرسول ﷺ »[1] .

وفي تأكيد السلف - رضي الله عنهم - على التمسك بالسنة تأكيد على التمسك بالقرآن فإن السنة تفسير للقرآن وبيان لمعناه . قال الإمام أحمد - رحمه الله- : « السنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن »[2] أي دلالات على معناه[3] .

وقال المعتمر بن سليمان[4] : سمعت أبي يقول : « أحاديث النبي ﷺ عندنا كالتنزيل » قال أبو موسى محمد بن المثنى العنزي[5] الراوي عن المعتمر « يعني في الاستعمال . يستعمل سنة رسول الله ﷺ كما يستعمل كلام الله تعالى »[6] .

وقد جاء التأكيد في القرآن الكريم على التمسك بالسنة في آيات كثيرة قال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[7] وطاعة الرسول ﷺ إنما هي في اتباع سنته .

الأساس الثاني : التمسك بآثار الصحابة - رضي الله عنهم - فإنهم كانوا

---

(١) جامع وبيان العلم وفضله ٩١/٢ ، وانظر : صفة صلاة النبي ﷺ ص ٢٦ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٥٦/١ رقم ٣١٧ ، المقصد الارشد ٢٨١/٢ رقم ٧٨٦ .

(٣) نقض المنطق ص ٨٦ .

(٤) هو : معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي ، أبو محمد البصري ، روى عن أبيه ، ومنصور بن المعتمر ، وأيوب ، وحدث عنه ابن المبارك ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وغيرهم . قال فيه الذهبي : كان من كبار العلماء . ولد سنة ١٠٠هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٨٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٤٧٧/٨ ، تهذيب التهذيب ٢٢٧/١٠.

(٥) هو : محمد بن المثنى بن عبيد العنزي ، بفتح النون وكسر الزاي ، أبو موسى البصري المعروف بالزمن ، مشهور بكنيته وباسمه ، حدث عن سفيان بن عيينه ، ومعتمر بن سليمان ، ويحي القطان وغيرهم ، وروى عنه أصحاب الكتب الستة ، وغيرهم ولد سنة ١٦٧هـ ، وتوفي سنة ٢٥٢ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٢٣/١٢ ، تقريب التهذيب ص ٥٠٥ ، رقم ٦٢٦٤ .

(٦) ذم الكلام وأهله ٢٨٨/٢ رقم ٢٢٥ .

(٧) النساء آية ٨٠ .

على الهدى المستقيم . وقد مدح الله سبحانه وتعالى متبعيهم ، ووعدهم بالرضوان قال تعالى : ﴿ والسبقون الأولون من المهجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ [1] .

كما توعد - سبحانه - متبع غير سبيلهم بأن يوليه ما تولى ويصله جهنم قال -عز وجل - : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [2] .

دلت الآية الأولى على أن اتباع الصحابة - رضي الله عنهم - سبب في محبة الله ورضوانه وهذا غاية المأمول بالنسبة للمؤمن .

وفي الآية الثانية وعيد شديد لمن يتبع غير سبيلهم . وفيه دليل على وجوب اتباعهم ، والاهتداء بهديهم ، إذ الوعيد لايكون إلا على ترك واجب .

وبوجوب اتباع الصحابة - رضي الله عنهم - تنادى السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان وكان ذلك منهجاً متبعاً وأصلاً مطرداً عندهم لايحيدون عنه ولايرضون سواه .

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - « من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لاتؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد . أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » [3] .

وقال سعيد بن جبير [4] « مالم يعرفه البدريون فليس بدين » [5] .

---

(١) التوبة آية (١٠٠) .

(٢) النساء آية (١١٥) .

(٣) مشكاة المصابيح رقم ١٩٣ ، نقض المنطق ١٢٩ - ١٣٠ . وانظر : جامع بيان العلم وفضله ٩٧/٢ .

(٤) هو : سعيد بن جبير بن هشام الأسدي ، الوالبي ، مولاهم ، أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله الكوفي ، كان فقيهاً فاضلاً ، ورعاً ، من خيار التابعين ، توفي سنة ٩٥ قتله الحجاج بن يوسف وهو ابن سبع وخمسين سنة . انظر : سير أعلام النبلاء ٣٢١/٤ - ٣٣٢ ، تهذيب التهذيب ١١/٤ - ١٣ .

(٥) نقض المنطق ص (٥) .

وقد صدق - رحمه الله - فإنه لايمكن بحال أن يكون من جاء بعد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أعلم منهم ، وأهدى منهم ، فهذا لايقبله عقل ولايصدقه نقل .

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - « هم فوقنا في كل علم ، وعقل ، وفضل وكل سبب ينال به علم ، أو يدرك به هدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا »[1] .

وقال غيره « عليكم بآثار من سبق فإنهم جاءوا بما يكفى ويشفى ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه »[2] .

الأساس الثالث : ترك الابتداع

كتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى أحد عماله فقال « سلام عليك ، أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله ، والاقتصاد في أمره ، واتباع سنة رسوله ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ، مما جرت سنته ، وكفوا مؤونته ، ثم اعلم : أنه لم تكن بدعة قط ؛ إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها ، وعبرة فيها ، فعليك بلزوم السنة ، فإنها بإذن الله لك عصمة ، فإن السنة إنما سنها من علم ما في خلافها من الخطأ والزلل ، والحمق ، والتعمق ، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم ، فإنهم عن علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا ، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وبفضل ما فيه لو كان أحرى ، فإنهم السابقون ، ولئن كان الهدى ما أنتم عليه ، لقد سبقتموهم إليه ، ولئن قلت : حدث بعدهم حدث فما أحدثه إلا من خالف سبيلهم ، ورغب بنفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفى ، فما دونهم مقصر ، ولافوقهم محسن ، لقد قصر عنهم أقوام فجفوا ، وطمح عنهم ءاخرون فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم »[3] .

وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : « إياكم والتبدع ، والتنطع

---

(١) نقض المنطق ١٣٠ .

(٢) نقض المنطق ص (١٣٠) .

(٣) الإبانة ١/٣٢١ رقم ١١٤ .

والتعمق ، وعليكم بالعتيق [1] » [2] .

وقال الامام مالك - رحمه الله - : « إياكم والبدع . قيل : يا أبا عبد الله : وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته ، وكلامه ، وعلمه وقدرته ، ولايسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان » [3] .

وقد تقدم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في الاستدلال على وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم قوله : « اتبعوا ولاتبتدعوا فقد كفيتم » .

وترك الابتداع نتيجة حتمية للتمسك بالكتاب والسنة ، واتباع الصحابة -رضي الله عنهم - فإن الاتباع والابتداع ضدان لايجتمعان . وعلى الاتباع سار السلف -رضي الله عنهم - .

الأساس الرابع : الاعراض عن المبتدعين .

من الأسس التي يقوم عليها منهج السلف في العقيدة الاعراض عن المبتدعين وهجرهم . وذلك بترك مجالستهم وعدم مجادلتهم إلا عند الضرورة .

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - « لاتجالسوا أهل الاهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب » [4] .

وقال أبو قِلابة [5] وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب النبي ﷺ « لاتجالسوا

---

(١) العتيق : القديم . والمقصود به هنا ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

(٢) الامر بالتباع والنهي عن الابتداع ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) شرح السنة ٢١٧/١ ، الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص (٧٠) .

(٤) الابانة عن شريعة الفرق الناجية ٤٣٨/٢ رقم ٣٧١ .

(٥) هو عبد الله بن زيد بن عمرو أو عامر بن ناتل بن مالك أبو قِلابة الجرمي البصري حدث عن ثابت بن الضحاك ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وعنه يحي بن أبي كثير ، ثابت البناني ، وقتادة ، وغيرهم ، قال ابن سعد كان ثقة كثير الحديث توفي سنة ١٠٤ ، وقيل ١٠٦ ، وقيل ١٠٧ . انظر : الطبقات الكبرى ١٣٦/٧ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٨/٤ .

أصحاب الاهواء ، أو قال : أصحاب الخصومات ، ولاتكلموهم ، فإني لاآمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون »[1] .

ودخل رجلان من أصحاب الاهواء على محمد بن سيرين[2] فقالا يا أبابكر؟ نحدثك بحديث . قال : لا . قالا : نقرأ عليك آية من كتاب الله . قال : لا . لتقومان ، أولأقومن »[3] . وقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - « من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل »[4] .

وقد سلك السلف - رضي الله عنهم - هذا المنهج في التعامل مع أصحاب البدع والأهواء لأسباب أربعة فيما يظهر والله أعلم .

السبب الأول : استجابة لامر الله - سبحانه - وأمر رسوله ﷺ بالاعراض عن أهل البدع .

قال تعالى : ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في ءايتنا فأعرض عنهم حتى

---

(١) الطبقات الكبرى ١٣٧/٧ ، سنن الدرامي ١/ ١٢٠ رقم ٣٩١ ، الابانة ٤٣٥/٢ رقم ٣٦٣ ، الامر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص ٧٤ .

(٢) هو : محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري الانسي البصري ، مولى أنس بن مالك كان أبوه من سبى « جرجرايا » فاشتراه أنس ، وكاتبه . سمع ابن سيرين أبا هريرة ، وعمران بن حصين ، وابن عباس ، وغيرهم ، وروى عنه قتادة ، وأيوب ، ويونس بن عبيد ، وغيرهم . قال فيه هشام بن حسان « هو أصدق من أدركت من البشر » وقال ابن سعد « وكان ثقة ، مأموناً ، عالياً ، رفيعاً ، فقيهاً ، إماماً ، كثير العلم ، ورعا » توفي رحمه الله سنة ١١٠ . انظر : الطبقات الكبرى ١٤٣/٧ ، سير أعلام النبلاء ٦٠٦/٤ .

(٣) سنن الدرامي ١/ ١٢٠ ، الشريعة ص : (٥٧) .

(٤) الشرح والإبانة ص : (١٤٣) .

يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطن فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظلمين ﴾ [١] .

وقال عز وجل ﴿ وقد نزل عليكم في الكتب أن إذا سمعتم ءايت الله يكفر بها ويستهزأ بها فلاتقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنفقين والكفرين في جهنم جميعاً ﴾ [٢] .

وهاتان الآيتان وإن كانتا وردتا في شأن كفار مكة ويهود المدينة فإنهما يعمان كل مبتدع شاك في دين الله متبع لما تشابه منه فإن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما هو مقرر في أصول الفقه .

قال الشوكاني [٣] – رحمه الله – في تفسير الآية الأخيرة « وفي هذه الآية باعتبار لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية » [٤] .

وأخرج ابن بطة [٥] بسنده عن محمد بن علي بن الحنفية [٦] قال « لاتجالسوا

---

(١) الأنعام آية (٦٨) .

(٢) النساء اية (١٤٠) .

(٣) هو : محمد بن علي بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن علي بن عبد الله الشوكاني ، أبو عبد الله ، مفسر ، وفقيه ، ومحدث ، من مصنفاته الكثيرة « فتح القدير » و « نيل الأوطار » و « السيل الجرار » ولد سنة ١١٧٣هـ وتوفي سنة ١٢٥٠هـ . انظر : الأعلام ٢٩٨/٦ ، معجم المؤلفين ٥٣/١١ .

(٤) فتح القدير ٥٢٦/١ .

(٥) هو : أبو عبد الله . عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري ، ولد بعبكرى سنة ٣٠٤ ، وأرسله أبوه وهو صغير إلى بغداد ليتعلم هناك علم الحديث وبعد أن انتهى من السماع على العلماء البارزين ومن بينهم أبو القاسم الخرقي قام برحلة طويلة ليزداد علماً ومعرفة . من مؤلفاته المهمة الإبانة عن شريعة الفرق الناجية . توفي بعكبرى سنة ٣٨٧ . انظر : تاريخ بغداد ٣٧١/١٠ – ٣٧٥ ، طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١٤٤/٢ – ١٥٣ ، البداية والنهاية ٣٢١/١١ – ٣٢٢ .

(٦) هو : محمد بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب يعرف بابن الحنفية وذلك لأن أمه من سبى اليمامة من بني حنفية ولد سنة ١٣ هـ وحدث عن أبيه علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة ، وعثمان بن عفان ، وغيرهم . = =

أصحاب الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله »[(١)] .

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « تلا رسول الله ﷺ ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتب منه ءايت محكمت هن أم الكتب وأخر متشبهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألبب﴾[(٢)] قالت قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »[(٣)] .

فهذه الأدلة وغيرها فيها التوجيه الواضح والصريح إلى هجر أهل البدع والأهواء والسلف - رضي الله عنهم - هم أشد الناس تمسكاً بالكتاب والسنة ، فلا غرابة إذاً أن يسلكوا مع المبتدعة وأصحاب الأهواء هذا المسلك .

السبب الثاني : حماية أنفسهم - رضي الله عنهم - من شبهات المبتدعة فقد كانوا يقولون « إن القلب ضعيف وإنا نخاف إن استمعت منهم شيئاً أن يميل قلبك إليهم »[(٤)] قال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني[(٥)] يا أبا بكر ! أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول ولانصف كلمة »[(٦)] . وقال ابن طاووس[(٧)] لابن له ، وتكلم رجل من

= = وروى عنه بنوه عبد الله ، والحسن ، وإبراهيم ، وعون ، وسالم بن أبي الجعد ، ومنذر الثوري ، وغيرهم توفي سنة ٨٠ ، وقيل ٨١ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٤/ ١١٠ - ١٢٨ .

(١) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ٢/٤٩٨ رقم ٥٥٣ .

(٢) سورة آل عمران آية (٧) .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير ، سورة آل عمران ٨/٢٠٩ . صحيح مسلم : كتاب العلم ، باب النهي عن متشابه القرآن ح ٢٦٦٥ .

(٤) صون المنطوق ١٥٥ .

(٥) هو : أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني ، أبو بكر البصري ، ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد ، أخرج له الستة ولد سنة ٦٨ هـ وتوفي سنة ١٣١هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥ .

(٦) الشريعة ص ٥٧ ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٤٣ رقم ٢٩١ .

(٧) هو: طاووس بن كيسان أبو عبد الرحمن الفارسي، اليماني، سمع من زيد بن ثابت ، وعائشة ، وأبي هريرة، وغيرهم ، وروى عنه عطاء ، ومجاهد ، وابن شهاب وغيرهم . وهو ثقة باتفاق ، توفي سنة ١٠٦ هـ . = =

أهل البدع يا بني ؟! أدخل أصبعيك في أذنيك ثم قال يا بني أشدد أشدد »[1] .

السبب الثالث : قطع الطريق أمام المبتدعة وعدم السماح لهم بنشر شبهاتهم في المجالس العامة ، وذلك حتى لايتأثر بها ضعاف النفوس من المسلمين . وقد أدب عمر -رضي الله عنه - صبيغ بن عسل[2] الذي كان يسأل عن متشابه القرآن ، فضربه عمر -رضي الله عنه - ونفاه ، وأمر الناس بهجره حتى تاب ورجع عن بدعته[3] .

وفي هجر العلماء وأهل الفضل من المسلمين لأهل البدع والأهواء مدعاة لأن يهجرهم عامة الناس فيسلم الناس من شرهم .

السبب الرابع : إنكاراً للمنكر فإن من مراتب إنكار المنكر هجر صاحبه لعله أن يراجع نفسه ويتوب ، فإن الهجر مدعاة لأن يراجع المهجور نفسه وينظر في حاله .

قال الإمام البغوي[4] رحمه الله « قد أخبر النبي ﷺ عن افتراق هذه الأمة ، وظهور الأهواء والبدع فيهم ، وحكم بالنجاة لمن اتبع سنته ، وسنة أصحابه - رضي الله عنهم - فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلاً يتعاطى شيئاً من الأهواء والبدع معتقداً ، أو يتهاون بشيء من السنن أن يهجره ، ويتبرأ منه ويتركه حياً وميتاً ، فلا يسلم عليه إذا لقيه ولا يجيبه إذا ابتدأ إلى أن يترك بدعته ويراجع الحق »[5] .

= = انظر : سير أعلام النبلاء ٥/٣٨ ، تقريب التهذيب ص ٢٨١ رقم ٣٠٠٩ .

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٣٥ رقم ٢٤٨ ، الامر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص ٦٥ .

(٢) هو : صبيغ بن عسل ويقال : ابن سهل الحنظلي ، وقيل التميمي أدرك زمن النبي ﷺ ولم يره ابتلي في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالبحث في متشابه القرآن فأدبه عمر رضي الله عنه بسبب ذلك وأمر الناس بهجره حتى تخلى عن بدعته وتاب منها . انظر : الإصابة ٢/١٩١ .

(٣) سنن الدرامي ١/٦٧ رقم ١٤٨ ، الشريعة ص ٧٣ ، الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ١/٤١٤ رقم ٣٢٩ و ٣٣٠ .

(٤) هو : الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي الإمام العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام من مؤلفاته « شرح السنة » « معالم التنزيل » « المصابيح » وغيرها توفي بمرو الروذ - مدينة من مدن خراسان - سنة ٥١٦ . انظر : التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ص ٢٥١ ، سير أعلام النبلاء ١٩/٤٣٩ .

(٥) شرح السنة ١/٢٢٤ ، وانظر : هجر المبتدع للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد .

ذلك هو المنهج العام الذي سلكه السلف - رضي الله عنهم - في التعامل مع أصحاب البدع والأهواء . وقد اضطر بعض السلف إلى مناظرة بعض أهل الأهواء والبدع ومن ذلك : مناظرة عبد الله بن عباس للخوارج [1] ، ومناظرة عبد العزيز الكناني [2] لبشر المريسي [3] ، ولكنها حالات قليلة لاتؤثر في المنهج العام الذي سلكوه .

الأساس الخامس : لزوم الجماعة وترك التفرق

من الأسس التي يقوم عليها منهج السلف في العقيدة لزوم الجماعة وترك التفرق والإختلاف . مستجيبين في ذلك لأمر الله وأمر رسوله ﷺ فقد جاء الحث في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على لزوم جماعة المسلمين . كما جاء أيضاً ذم التفرق والإختلاف والنهي عنه .

قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ﴾ [4] وقال عز وجل ﴿ وأن هذا صرطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصكم

---

(١) انظر : جامع بيان العلم وفضله ١٠٤/٢ .

(٢) هو : عبد العزيز بن يحى بن عبد العزيز الكناني ، المكي ، فقيه من أصحاب الشافعي، ومن معاصريه . صاحب كتاب الحيدة ، وهي مناظرة جرت بينه وبين بشر المريسي حول خلق القرآن . وقد شكك الذهبي في نسبة كتاب الحيدة لعبد العزيز الكناني إلا أن كثيراً من أهل العلم أكدوا صحة نسبة كتاب الحيدة لعبد العزيز الكناني منهم : الخطيب البغدادي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن العماد الحنبلي ، وابن حجر ، وغيرهم . توفي عبد العزيز الكناني سنة ٢٤٠ . انظر : تاريخ بغداد ٤٤٩/١٠ - ٤٥٠ ، درء تعارض النقل والعقل ١١٥/٦ ، ميزان الاعتدال ٦٣٩/٢ ، تهذيب التهذيب ٣٦٣/٦ - ٣٦٤ ، شذرات الذهب ٩٥/٢ .

(٣) هو : بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي ، العدوي بالولاء أبو عبد الرحمن فقيه ، معتزلي ، عارف بالفلسفة ، وإليه تنسب الطائفة المريسية ، قال برأي الجهمية ، وكان أبوه يهودياً ، وهو من أهل بغداد ، ينسب إلى درب المريس ، قالوا في وصفه ، كان قصيراً ، دميم المنظر ، وسخ الثياب ، وافر الشعر ، كبير الرأس والأذنين ، وقد رد عليه الدرامي في كتابه « النقض على بشر المريسي » توفي سنة ٢١٨ . انظر: ترجمته في تاريخ بغداد ٥٦/٧ - ٦٧ ، سير أعلام النبلاء ١٩٩/١٠ .

(٤) سورة آل عمران آية (١٠٣) .

به ﴾ [1] . وقال جل وعلا ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ﴾ [2] .وقال جل وعلا ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ [3] ، وقال سبحانه ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلوة ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [4] ، فهذه الآيات الكريمة ومافي معناها كلها تأمر بالإجتماع على دين الله وتنهى عن التفرق والإختلاف [5] ، فإن الإختلاف والتفرق إنما هو من صفات المشركين وأهل البدع والأهواء وليس من صفات المؤمنين الصادقين المتمسكين بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ .

وفي سنن الترمذي وغيره من حديث عبد الله بن - عمر رضي الله عنهما - أن عمر خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال « من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » [6] .

وفي سنن النسائي من حديث عرفجة بن شريح الأشجعي أن رسول الله ﷺ قال « يد الله على الجماعة والشيطان مع من يخالف الجماعة » [7] .

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٣) .

(٢) سورة الشورى آية (١٣) .

(٣) سورة الأنعام آية (١٥٩) .

(٤) سورة الروم آية (٣٢) .

(٥) الاعتصام للشاطبي ١/٤٥ - ٤٦ .

(٦) الترمذي : أبواب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة ح ٢١٦٥ ، وسنن ابن ماجة كتاب الأحكام ، باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ، والإمام أحمد في المسند ١/١٨ . ٢٦ ، والحاكم في المستدرك ١/١١٢ ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع ٣٩ ، وقال محققه « قلت : هو صحيح بلا ريب بمجموع طرقه » .

(٧) سنن النسائي : كتاب تحريم الدم ، باب قتل من فارق الجماعة ٧/٩٢ ح ٤٠٢٠ ، والهيثمي مجمع الزوائد ٥/٢٢٤ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

وقال الترمذي [١] - رحمه الله - « وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقه والعلم والحديث » [٢] .

وقال ابن قيم الجوزية [٣] - رحمه الله - « وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المستمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى في عهد النبي ﷺ ولاتنظر إلى كثرة أهل البدع بعدهم» [٤] .

وبلزوم الجماعة والتحذير من التفرق تواصى السلف - رضي الله عنهم - قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في خطبة له « أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله - عز وجل - الذي أمر به وما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة » [٥] .

وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وعمل صلحاً ثم اهتدى ﴾[٦]

---

(١) هو : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك بن السكن ، الحافظ ، العلم ، الامام ، البارع ، أبو عيسى ، الترمذي ، الضرير ، أحد رجال الصحاح الستة مصنف « الجامع الصحيح » و « كتاب العلل » ولد سنة ٢١٠ ، وتوفي سنة ٢٧٩ . انظر : وفيات الأعيان ٢٧٨/٤ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٣ .

(٢) سنن الترمذي ٣٣٥/٦ .

(٣) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي ، المعروف بابن قيم الجوزية . ولد بدمشق . وتفقه ، وأفتى ، ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية ، وسجن معه في سجن القلعة ، من مؤلفاته الكثيرة « زاد المعاد في هدي خير العباد » « إعلام الموقعين » « تهذيب سنن أبي داود » « الصواعق المرسلة » ولد سنة ٦٩١ ، وتوفي سنة ٧٥١ . انظر : البدر الطالع ١٤٣/٢ .

(٤) إغاثة اللهفان ٦٩/١ .

(٥) الشريعة ص ١٣ ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٠٨/١ رقم ١٥٩ .

(٦) طه آية (٨٢) .

قال لزوم السنة والجماعة [1] .

وقال الإمام الأوزاعي [2] - رحمه الله - « خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله » [3] .

وقد تقدم أن من أسماء السلف أهل السنة والجماعة وأنهم سموا بذلك لاجتماعهم وتمسكهم بالحق المتمثل في التمسك بالكتاب والسنة واتباع الصحابة -رضي الله عنهم - فإن الصحابة هم الجماعة الأولى الواجب اتباعها ، والاقتداء بها والاهتداء بهديها .

تلك هي الأسس الخمسة التي يقوم عليها منهج السلف - رضي الله عنهم - في العقيدة .

وقد جمعها الإمام أحمد - رحمه الله - في قوله « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم ، وترك البدع ، وكل بدعة فهي ضلالة ، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين ، والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ والسنة تفسر القرآن ، وليس في السنة قياس ، ولاتضرب لها الأمثال ، ولاتدرك بالعقول ولا بالأهواء ، إنما هي

---

(١) الشرح والإبانة ص ١٢٨ .

(٢) هو : الإمام عبد الرحمن بن عمرو يحمد الشامي ، الأوزاعي ، أبو عمر المحدث ، الحافظ ، الفقيه ، قال فيه ابن سعد « وكان ثقة ، مأمونا صدوقاً ، فاضلاً خيراً كثير الحديث والعلم والفقه حجة » ولد سنة ٨٨ سكن بيروت ومات سنة ١٥٧ . انظر : الطبقات الكبرى ٣٣٩/٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٠٧/٧ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٤/١ رقم ٤٨ ، شرح السنة ٢٠٩/١ ، الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص ٧٩ .

الاتباع وترك الابتداع »[1] .

ذلك هو منهج السلف الذي عاشوا عليه ، ودعوا إليه ، وماتوا عليه ، ودونوه في كتبهم ، ونقل عنهم ، وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في اتباع من خلف .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٥٦ رقم ٣١٧ ، المقصد الأرشد ٢/٢٨١ رقم ٧٨٦ . وانظر : مقدمة الدكتور أحمد سعد حمدان الغامدي لكتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٥٣ .

المبحث الخامس : وضوح عقيدة السلف رضي الله عنهم

عقيدة السلف - رضي الله عنهم - هي : العقيدة التي نزل القرآن الكريم لتقريرها ، وبعث الرسول ﷺ لتبيينها وتوضيحها ، وهي عقيدة سهلة ، وواضحة ، لاغموض فيها ولاتعقيد . فهي : تقوم على الإيمان بوجود الخالق - سبحانه - ، الرازق ، المدبر ، الحكيم العليم . والإيمان بوجود الخالق - سبحانه - ضروري لايسع أحداً إنكاره ، يستوي جميع الخلق في الاقرار به . ومن أظهر منهم خلاف ذلك فإنما هو من باب المكابرة والعناد . كما تقوم عقيدة السلف - رضي الله عنهم - على وجوب الإيمان بالأسماء الحسنى ، والصفات العلى لله - عز وجل - الواردة في الكتاب والسنة . وتقوم على وجوب الإيمان بقدرة الله التامة ، وحكمته البالغة ، ومشيئته النافذة ، وأن علمه -سبحانه- محيط بكل شيء ، وقدرته شاملة لكل شيء ، وأنه لايكون في الوجود إلا ما شاءه وقدره وأوجده .

وتقوم عقيدة السلف - رضي الله عنهم - على وجوب الإيمان باليوم الآخر وبكل ما ورد بشأنه في الكتاب والسنة من : أشراط الساعة ، وعذاب القبر ، والبعث ، والحشر ، والحوض ، والنشر ، والحساب ، والميزان ، والشفاعة ، والصراط ، والجنة والنار ، ورؤية المولى - عز وجل - في الدار الآخرة .

وتقوم عقيدة السلف - رضي الله عنهم - على وجوب الإيمان برسل الله ، والكتب المنزلة عليهم ، وأن آخر الأنبياء والرسل هو محمد ﷺ ، وآخر الكتب القرآن الكريم ، وأنه لانبي ولارسول بعد النبي محمد ﷺ، ولاكتاب بعد القرآن الكريم ، وأن شريعة الإسلام ناسخة لما قبلها من الشرائع ، وأنه لايسع أحداً أن يعبد الله ولا أن يدين بدين غير دين الإسلام .

وكل هذه المسائل جاء بها القرآن الكريم ، وبعث بها الرسول محمد ﷺ ، ودلت العقول السليمة ، والفطر المستقيمة على صحتها ، وأنها حق يجب اعتقاده ، والإيمان به.

فمسائل عقيدة السلف - رضي الله عنهم - مبينة وواضحة في الكتاب والسنة، ودلائلها ثابتة بالكتاب والسنة والعقل . وسيأتي في ثنايا البحث ما يبين

وضوح عقيدة السلف - رضي الله عنهم - والأدلة الدالة عليها من الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح - رضي الله عنهم -

ومن الضروري أن تكون عقيدة السلف - رضي الله عنهم - سهلة وواضحة فإن عقيدة السلف - رضي الله عنهم - هي العقيدة التي جاء الإسلام بدعوة الناس جميعاً إليها ، والناس يختلفون في أفهامهم ومداركهم . وإذا كان الناس جميعاً مدعوين إلى الالتزام بعقيدة الإسلام ، فمن الضروري أن تكون العقيدة واضحة ، وسهلة ، حتى تقوم الحجة على الناس جميعاً . إذ لو كانت العقيدة غامضة ، أو معقدة بحيث لايصل إلى فهمها إلا من أوتي حظاً من الذكاء وقدرة على الفهم لما قامت الحجة على عامة الناس[1] .

(١) انظر دعوة التوحيد للشيخ محمد خليل هراس ص ٢١٣ - ٢١٧ .

المبحث السادس : نبذة عن جهود السلف - رضي الله عنهم - في توضيح العقيدة وبيانها والدفاع عنها .

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وقد تحمل أصحابه من بعده مهمة تبليغ الدين ، وتوضيحه ، وبيانه للناس ، والدفاع عنه .

وكان أول من قام بهذه المهمة : الصديق - رضي الله عنه - فقد اختاره المسلمون خليفة لرسول الله ﷺ عليهم .

ولما تولى - رضي الله عنه - الخلافة ارتدت معظم القبائل العربية ومنع طوائف من العرب الزكاة ، بدعوى أن الزكاة كانت تؤدى إلى رسول الله ﷺ . فلما مات رسول الله ﷺ زعموا أنه لاحق فيها لأحد من بعده .

وقد وقف الصديق - رضي الله عنه - وقفة حازمة ، في وجه الخارجين عن دار الخلافة ، سواء أولئك الذين ارتدوا عن الإسلام بالكلية ، أو أولئك الذين منعوا الزكاة ولم يخرجوا من الإسلام .

وقد قاتل الصديق - رضي الله عنه - الجميع ، حتى ردهم إلى حظيرة الإسلام وإلى الالتزام الكامل بتشريعات الإسلام ونظمه ، بما في ذلك دفع الزكاة إلى دار الخلافة.

وقد التبس قتال مانعي الزكاة على بعض الصحابة - رضي الله عنهم - وقالوا « كيف نقاتل من يقول لا إله إلا الله » فقال - رضي الله عنه - « والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه فإن الزكاة حق المال » فكان أن شرح الله صدر بقية الصحابة - رضي الله عنهم - للحق الذي شرح الله له صدر أبي بكر -رضي الله عنه - [1] . وكان هذا الموقف من الصديق - رضي الله عنه - بياناً منه

---

(١) انظر : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١ ، ٢/٢٤٧ - ٣٠٧ ، البداية والنهاية ٦/٣١٥ - ٣٣٤ ، صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ٣/٢٦٢ ، وكتاب استتابة المرتدين ، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة ١٢/٢٧٥ .

وتوضيحاً ؛ بأن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ليست مجرد كلمة تلفظ باللسان ، وإنما هي كلمة تتضمن حقوقاً وواجبات ، يلتزمها من نطق بها . وأن من حقوق (لا إله إلا الله) إخراج الزكاة .

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خرج صُبيغ بن عِسل الذي شغل نفسه والناس بالحديث عن متشابه القرآن . والبحث عن متشابه القرآن منهي عنه . قال تعالى ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتب منه ءايت محكمت هن أم الكتب وأخر متشبهت فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ [1] .

فما كان من عمر - رضي الله عنه - إلا أن بعث إلى صبيغ فأحضره ، وقد أعد له عمر - رضي الله عنه - عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ ! قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر - رضي الله عنه - : وأنا عبد الله عمر . ثم قام إليه، فضرب رأسه بعرجون فشجه ، ثم تابع ضربه ، حتى سال دمه على وجهه . فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد والله ذهب ما كنت أجد ، وقد نفاه عمر - رضي الله عنه - إلى الكوفة ، وأمر الناس بمقاطعته ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة ، وقذفها في قلبه ، فتاب وحسنت توبته [2] .

وكان هذا الموقف من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - دفاعاً منه عن العقيدة ، ووقوفاً في وجه مروجي الشبهات ومثيري الفتن .. وهذا الموقف إنما هو مثال واحد للمواقف التي كان يسلكها عمر -رضي الله عنه - تجاه المرتابين، وتأديبهم .

---

(١) آل عمران آية (٧) .

(٢) انظر : سنن الدارامي ، المقدمة ، باب من هاب الفتيا وكره التنطع ١/٦٦ ، رقم ١٤٤ ، الشريعة ص : ٧٣، الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ١/٤١٤ رقم ٣٢٩ ، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٤ - ١٥ .

وفي عهد أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - خرج الخوارج ، بعد عملية التحكيم التي جرت بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - عقب وقعة صفين [1] فالتبس الأمر على الخوارج ، وقالوا : لعلي - رضي الله عنه - حكمت الرجال وتركت كتاب الله ، وقالوا : لا حكم إلا لله وكفروا علياً ومعاوية والحكمين وهما : أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص ، وكل من رضي بالتحكيم ، وانحازوا إلى حروراء فأرسل علي - رضي الله عنه - إليهم ابن عمه عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - فناظرهم وبين لهم أن علياً - رضي الله عنه - لم يحكم الرجال وإنما حكم بحكم الله الذي أمر بالصلح بين المسلمين . فرجع منهم من رجع ، ومن لم يرجع قاتلهم علي رضي الله عنه حتى لم يبق منهم إلا القليل [2] .

وموقف علي - رضي الله عنه - من الخوارج إنما هو دفاع عن العقيدة ، ووقوف منه في وجه الخارجين عنها .

وفي عهد علي - رضي الله عنه - أيضاً : خرج الشيعة . وقد بالغوا في ولاء آل البيت وادعاء محبتهم حتى حدا ببعضهم الغلو والكيد لهذا الدين أن ادعوا ألوهية علي - رضي الله عنه - فما كان من علي - رضي الله عنه - إلا أن حرق الغلاة منهم بالنار ، وقال :

---

(١) صفين : بكسر أوله وثانيه وتشديده موضع على الشاطئ الغربي لنهر الفرات وبها كانت الوقعة بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - سنة ٣٧ هـ . انظر : معجم البلدان ٣/٤٧١ ، تاريخ الأمم والملوك ٣/٧١ .

(٢) انظر : تاريخ الأمم والملوك ٣/٧٠ - ١٢٥ ، حوادث سنة ٣٧ ، البداية والنهاية ٧/٢٦٨ - ٣٠٠ ، حوادث سنة ٣٧ هـ ، تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام ٢٦٤ - ٢٧٧ ، الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية ١١٢ - ١١٥ ، ٢٧٩ - ٢٨٣ ، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين « الخوارج والشيعة » ٥١ - ٦٦ .

« لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناري ودعوت قنبرا »

وقال - رضي الله عنه - فيمن فضله على الشيخين - أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - لايفضلني أحد على أبي بكر وعمر ، إلا جلدته جلد المفترى »[١] .

وقوله - رضي الله عنه - هذا مبني على النصوص الثابتة من الكتاب والسنة والدالة على أفضلية الشيخين ، وأنهما : أفضل الصحابة على الإطلاق .

وفي أواخر أيام الصحابة - رضي الله عنهم - خرجت القدرية ، نفاة العلم ، الذين يزعمون أن لاقدر ، وأن الأمر أنف ، أي : مستأنف . لم يسبق به علم الله - سبحانه - السابق ولما كان هذا المعتقد مصاد ما لنصوص الكتاب والسنة الدالة على تقدم علم الله - سبحانه - على الأشياء قبل كونها بل وإيجاده - سبحانه - لها فقد تبرأ الصحابة - رضي الله عنهم - من القدرية منهم : عبد الله بن عمر ، وغيره . بل لقد كفر السلف - رضي الله عنهم - من ينتحل هذا المعتقد ونتيجة للحملة القوية التي واجه بها علماء السلف - رضي الله عنهم - القول بالقدر في طوره الأول فقد انحسر ولم يعد له وجود . ثم تطور القول بالقدر فيما بعد ، من : إنكار العلم ، إلى الإقرار بالعلم وإنكار الإرادة والمشيئة[٢] .

ثم في أواخر القرن الأول الهجري ؛ ظهرت بدعة الإرجاء . والتي مبناها على إخراج الأعمال من مسمى الإيمان . وفي هذا القول إبطال للدين وهدم له من أساسه في

---

(١) انظر : منهاج السنة النبوية : ١/ ٣٠، ٣٠٦-٣٠٨ ، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين « الخوارج والشيعة » ١٥١ - ١٥٦ .

(٢) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله - سبحانه وتعالى - وبيان الدليل على التبرئ ممن لايؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول في حقه ١/ ١٤٥ - ١٥٧ ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٧٠٦ - ٧٢٥ ، منهاج السنة النبوية ١/ ٣٠٨ - ٣٠٩ ، كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٦٩ ، فتح البارى ١/ ١١٩ .

الحقيقة . ولذلك وقف السلف - رضي الله عنهم - من المرجئة وقفة حازمة ، وعدوا القول بالإرجاء ، أخطر من قول الخوارج ، وبين السلف - رضي الله عنهم- بأدلة الكتاب والسنة دخول الأعمال في مسمى الإيمان [1] .

ولما انقضى عهد الصحابة - رضي الله عنهم - وقف التابعون من علماء السلف في وجه المبتدعة . ومن البدع التي واجهت التابعين : بدعة الجهم بن صفوان ، وبدعة المعتزلة ، وكان من أعيان التابعين الذين واجهوا حركة الابتداع : عمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن شهاب الزهري ، والحسن البصري [2] الذي أمر واصل بن عطاء [3] أحد ركني الاعتزال في عهده أن يعتزل مجلسه . ثم تحمل أتباع التابعين وأتباعهم من أهل القرنين الثاني ، والثالث الهجريين : الدفاع عن العقيدة ، وتوضيحها ، وبيانها للناس .

ومن الأئمة الأعلام الذين كان لهم دور في توضيح العقيدة وبيانها والرد على أهل الأهواء والبدع من بعد الصحابة - رضي الله عنهم - : ربيعة بن أبي عبد الرحمن

---

(١) انظر : في ذلك كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الإيمان لابن أبي شيبة ، كتاب الإيمان لأبي عمر العدني ، كتاب الإيمان من صحيح الإمام البخاري ، كتاب الإيمان من صحيح الإمام مسلم ، كتاب السنة للخلال ص ٥٦٤ ، كتاب الشريعة للآجري ٩٧ - ١١٩ ، كتاب الإيمان للحافظ ابن مندة .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصري - أبو سعيد - من كبار التابعين ، ولد سنة ٢١ للهجرة بالمدينة ، وسكن البصرة ، كان حبر الأمة ، وإمامها في زمانه في الحديث والفقه ، والتفسير ، وكان قد شب في كنف علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، حتى صارت له هيبة عظيمة توفي سنة ١١٠ . انظر: الطبقات الكبرى ١١٤/٧ - ١٣٢ ، سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤ - ٥٨٨ .

(٣) هو : واصل بن عطاء أبو حذيفة المخزومي ، مولاهم البصري ، الغزال . ولد سنة ٨٠ بالمدينة . طرده الحسن البصري من مجلسه لما قال : الفاسق لامؤمن ولاكافر ، فانضم إليه عمرو بن عبيد واعتزلا حلقة الحسن . فسموا المعتزلة ، ويعرف واصل بن عطاء بالغزال ، لتردده إلى سوق الغزل ، ليتصدق على النسوة الفقيرات مات سنة ١٣١ . انظر : معجم الأدباء ٥٦٧/٥ - ٥٦٩ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٤/٥ - ٤٦٥ .

المشهور بربيعة الرأي [1] المتوفى سنة ١٣٦ ، والأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧ ، وسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ ، والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ ، ومالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ، وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ ، وسفيان بن عيينة [2] المتوفى سنة ١٩٨ ، والإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ ، وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ ، ونعيم بن حماد [3] شيخ الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٢٨ ، وأبو بكر بن أبي شيبة [4] المتوفى سنة ٢٣٥ ، وإسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ ، وعبد العزيز

---

(١) هو : ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي ، أبو عثمان المدني ، المشهور بربيعة الرأي ، شهر بذلك لغلبة الرأي في الفقه عليه ، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم ، وروى عنه جماعة من الحفاظ منهم : يحى بن سعيد الأنصاري ، وسليمان التيمي ، وشعبة ، ومالك بن أنس ، وعليه تفقه. قال فيه الإمام مالك « ذهبت حلاوة الفقه منذ أن مات ربيعة » وقال الذهبي « وكان من أوعية العلم وثقه الإمام أحمد بن حنبل ، وأبو حاتم ، وجماعة » وقال ابن حجر « ثقة ، فقيه مشهور » أخرج له الستة توفي سنة ١٣٦ . انظر : سير أعلام النبلاء ٨٩/٦ - ٩٦، تقريب التهذيب ص ٢٠٧ رقم ١٩١١ .

(٢) هو الإمام : سفيان بن عيينة بن أبي عمران مولى بني هلال ، كنيته أبو محمد ، كان ثقة ، ثبتاً ، كثير الحديث ، حجة ، وكان محدث الحجاز في زمانه في مكة ، حتى قال فيه الشافعي « لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز » ولد سنة ١٠٧ ، سكن مكة وتوفي بها سنة ١٩٨ ، وعمره ٩١ سنة . انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد ٤١/٦ - ٤٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨ - ٤٧٥ .

(٣) هو : نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي ، روى عن ابراهيم بن طهمان ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، وروى عنه البخاري مقروناً وروى له الباقون سوى النسائي له كتاب « الفتن » من أقواله في العقيدة « من شبه الله بخلقه كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولارسوله تشبيه » حمل من مصر إلى العراق في فتنة القول بخلق القرآن ، فأبى أن يجيبهم ، فسجن حتى مات في السجن ببغداد سنة ٢٢٨ . انظر : الطبقات الكبرى ٣٥٩/٧ ، تاريخ بغداد ٣٠٦/١٣ - ٣١٤ ، سير أعلام النبلاء ٥٩٥/١٠ - ٦١٢ .

(٤) هو : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان العبسي مولاهم ، الكوفي ، صاحب التصانيف الكبار مثل « المصنف » و « المسند » و « كتاب الإيمان » ولد سنة ١٥٩ وسمع الحديث من ثقات الأئمة منهم : سفيان الثوري ، وعبد الله بن المبارك ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل، وابنه عبد الله ، والبخاري ، ومسلم ، وغيرهم . قال أبو عبيد القاسم بن سلام = =

الكناني المتوفى سنة ٢٤٠ ، والإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، والإمام محمد ابن يحي بن أبي عمر العدني [1] المتوفى سنة ٢٤٣ ، والإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ ، ومسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١ ، وأبو زرعة الرازي المتوفى سنة ٢٦٤ [2] ، وأبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ الأثرم المتوفى سنة ٢٧٣ [3] ، وأبو محمد بن قتيبة

= = « ربانيو الحديث أربعة : فأعلمهم بالحلال والحرام أحمد بن حنبل ، وأحسنهم سياقة وأداء له علي بن المديني ، وأحسنهم وضعاً لكتاب ابن أبي شيبة ، وأعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه يحى بن معين » توفي ابن أبي شيبة سنة ٢٣٥ . انظر : تاريخ بغداد ٦٦/١ - ٧١ ، سير أعلام النبلاء ١٢٢/١١ - ١٢٧ .

(١) هو : أبو عبد الله محمد بن يحي بن أبي عمر العدني ، الامام ، المحدث الحافظ ، شيخ الحرم ، حدث عن : فضيل بن عياض ، وسفيان بن عيينة ، ومعتمر بن سليمان ، وغيرهم ، وعنه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجة ، وغيرهم ، من مؤلفاته « المسند ، وكتاب الإيمان » والأخير مطبوع ولد سنة ١٥٣ تقريباً وتوفي بمكة سنة ٢٤٣ . انظر : سير أعلام النبلاء ٩٦/١٢ - ٩٨ ، العقد الثمين ٣٨٧/٢ ، مقدمة حمد بن حمدي الجابري الحربي لكتاب الإيمان ص ٣١ - ٤٦ .

(٢) هو : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ أبو زرعة الرازي ، من كبار الأئمة المشهورين الثقات ، ومن علماء الجرح والتعديل ، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم « سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين فقالا : أدركنا العلماء في جميع الأمصار فكان مذهبهم أن الله على عرشه ، بائن من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شيء علماً » توفي أبو زرعة سنة ٢٦٤ ، عن ستين سنة . انظر : الجرح والتعديل ٣٢٨/١ - ٣٤٩ ، و ٣٢٤/٥ - ٣٢٦ ، تاريخ بغداد ٣٢٦/١٠ - ٣٣٧ ، سير أعلام النبلاء ٦٥/١٣ - ٨٥ .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن هانئ الطائي ، أبو بكر الأثرم ، البغدادي ، روى عن أحمد بن حنبل ، وتفقه عليه ، وسأله عن المسائل والعلل ، وروى عنه النسائي وموسى بن هارون ، والبغوي ، قال إبراهيم بن أورمة : الأثرم أحفظ من أبي زرعة وأتقن ، وقال الخلال كان معه تيقظ عجيب جداً توفي سنة ٢٧٣ . انظر : سير أعلام النبلاء ٦٢٣/١٢ - ٦٢٨ ، تهذيب التهذيب ٧٨/١ - ٧٩ .

المتوفى سنة ٢٧٦ [١]، وأبو حاتم الرازي المتوفى سنة ٢٧٧ [٢]، وعثمان بن سعيد الدارمي تلميذ ابن معين المتوفى سنة ٢٨٠ [٣]، وأبو بكر بن أبي عاصم المتوفى سنة ٢٨٧ [٤]، وعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٩٠ [٥]، ومحمد بن نصر المروزي

---

(١) هو : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، المروزي ، الدينوري ، ولد سنة ٢١٣ ، وتتلمذ على جماعة من فحول أهل العلم منهم : إسحاق بن راهويه ، ويحي بن أكثم ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وغيرهم ، وعليه تتلمذ كثير من طلاب العلم منهم : ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم ، وأحمد بن مروان المالكي ، ومحمد بن خلف بن المرزبان ، ولابن قتيبة مؤلفات كثيرة منها : تأويل مختلف الحديث ، مشكل القرآن ، الرد على القائل بخلق القرآن ، توفي ابن قتيبة سنة ٢٧٦ . انظر : تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ ، إنباه الرواة للقفطي ٢/١٤٣ ، سير أعلام النبلاء ٩/١٣٨ ، عقيدة الإمام ابن قتيبة الدكتور علي بن نفيع العلياني ص ٤٥ - ١٢٤ .

(٢) هو : محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي ، أبو حاتم الرازي ، الإمام المشهور ، الحافظ ، أحد الأئمة المشهود لهم بالصلاح والحفظ والاتقان مع العلم بالرجال والجرح والتعديل ولد سنة ١٩٥ ، وتوفي سنة ٢٧١ . انظر : الجرح والتعديل ١/٣٤٩ - ٣٧٥ ، و ٧/٢٠٤ ، تاريخ بغداد ٢/٧٢ - ٧٧ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٢٤٧ - ٢٦٩ .

(٣) هو : عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني ولد قبل المئتين بيسير وسمع الحديث من كبار الحفاظ منهم : أحمد بن حنبل ، ويحي بن معين ، وعلي بن المديني ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم ، وعنه أخذ أبو عمرو أحمد بن محمد الحيرى ، ومحمد بن محمد الصرام ، ومؤمل بن الحسين ، وغيرهم ، من مصنفاته المسند ، والرد على بشر المريسي ، والرد على الجهمية ، توفي الدارمي رحمه الله سنة ٢٨٠ . انظر : الجرح والتعديل ٦/١٥٣ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣١٩ - ٣٢٦ .

(٤) هو : أحمد بن عمر بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني البصري من أئمة الحديث الحفاظ الثقات له مصنفات كثيرة من أشهرها « السنة » وهو مطبوع ، والآحاد والمثاني ، والديات ، والأوائل ، وغيرها ، ولد سنة ٢٠٦ ، وتوفي سنة ٢٨٧ . انظر : الجرح والتعديل ٢/٦٧ ، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٣٠ - ٤٣٩ .

(٥) هو : عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني : أبو عبد الرحمن ولد سنة ٢١٠ ، ونشأ في بيت العلم والزهد والورع ، أخذ العلم عن أبيه ، ومنه سمع المسند ، والتفسير ، وأخذ العلم عن بقية علماء عصره وزاد شيوخه عن أربعمائة شيخ ، وعنه أخذ جماعة من الحفاظ منهم النسائي ، وأبو بكر القطيعي ، وابن المنادى ، له مؤلفات كثيرة منها : زيادات المسند ، زيادات كتاب الزهد ، كتاب العلل ، كتاب السنة ، توفي أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد سنة ٢٩٠ . انظر : الجرح والتعديل ٥/٧ ، تاريخ بغداد ٩/٣٧٥ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٥١٦ .

المتوفى سنة ٢٩٤ [(١)] ، والإمام محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ [(٢)] ، وإمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة [(٣)] المتوفى سنة ٣١١ ، وأبو بكر أحمد بن محمد الخلال [(٤)] المتوفى سنة ٣١١ ، وغيرهم كثير رحمة الله عليهم جميعاً ، ومن جهود

---

(١) هو : أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي ، ولد ببغداد سنة ٢٠٢ ، ونشأ وتربى بنيسابور وسكن سمرقند ، وأخذ العلم عن جماعة من الحفاظ منهم: إسحاق بن راهويه ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وغيرهم ، وعنه أخذ أبو العباس محمد بن إسحاق السراج ، وأبو بكر محمد بن المنذر شكر النيسابوري ، وعثمان بن جعفر بن محمد أبو عمرو المعروف بابن اللبان ، وآخرون . له مؤلفات كثيرة منها : تعظيم قدر الصلاة ، الإيمان ، كتاب الوتر ، توفي سنة ٢٩٤ . انظر : تاريخ بغداد ٣/٣١٥ - ٣١٨ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٣٣ - ٤٠ ، مقدمة الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي لكتاب تعظيم قدر الصلاة ص ١٥ - ٦٤ .

(٢) هو : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ، أبو جعفر الطبري ، من أهل آمل بطبرستان ولد ابن جرير سنة ٢٢٤ ، وقيل ٢٢٥ ، سمع ابن جرير محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، وإسحاق بن إسرائيل ، وأحمد بن منيع ، وأبا كريب محمد بن العلا ، وخلق سواهم ، وحدث عنه أحمد بن كامل القاضي ، ومحمد بن عبد الله الشافعي ، ومخلد بن جعفر في آخرين ، له مصنفات عديدة منها : جامع البيان عن تأويل القرآن ، تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار ، صريح السنة ، التبصر في أصول الدين ، توفي ابن جرير سنة ٣١٠ . انظر : تاريخ بغداد ٢/١٦٢ - ٢٦٩ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧ - ٢٨٢ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/١١٠ - ١١٨ .

(٣) هو : الإمام الحافظ العلامة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي ، النيسابوري ، الفقيه ، الشافعي ، إمام الأئمة ، وصاحب التصانيف ، ولد سنة ٢٢٣ ، وطلب الحديث منذ حداثة سنه ، وسمع من عالم خراسان ومحدثها إسحاق بن راهويه ومن شيوخه البخاري ، ومسلم ، وعنه رويا ، وروى عنه محمد بن عبد الله بن الحكم وهو شيخه أيضاً ، له مؤلفات كثيرة منها : صحيح بن خزيمة ، التوحيد ، شأن الدعاء ، وتفسير الأدعية المأثورة ، توفي ابن خزيمة رحمه الله سنة ٣١١ . انظر : الجرح والتعديل ٧/١٩٦ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٣٦٥ .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن هارون ، أبو بكر الخلال ، الحنبلي ، شيخ الحنابلة وعالمهم ، ولد سنة ٢٢٤ ، أخذ العلم عن جماعة من أصحاب الإمام أحمد ، منهم : أبو بكر المروذي ، الحسن بن عرفة ، سعدان بن نصر ، وروى عنه : عبد العزيز بن جعفر الملقب بغلام الخلال ، ومحمد بن المظفر الحافظ ، والحسن بن يوسف الصيرفي ، = =

السلف المذكورين في بيان وتوضيح عقيدة السلف - رضي الله عنهم - تدوين العقيدة.

فقد ألفّ الإمام مالك بن أنس كتابه الموطأ وضمنه جملة من مسائل العقيدة ، ومن ذلك مسألة القدر [١] ، وله رسالة مستقلة في القدر أيضاً [٢] : وألف أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب الإيمان [٣] ، وألف أبو بكر بن أبي شيبة كتاب الإيمان [٤] ، ولعبد العزيز الكناني كتاب « الحيدة » [٥] وهي مناظرة جرت بينه وبين متولى كبر القول بخلق القرآن في عصره بشر المريسي ، وألف الإمام أحمد بن حنبل كتاب فضائل الصحابة [٦] ، وكتاب السنة [٧] ، وكتاب الرد على الجهمية [٨] ، وكتاب الإيمان [٩] .

وألف الإمام محمد بن يحي بن أبي عمر العدني كتاب الإيمان [١٠] ، وألف الإمام محمد بن إسماعيل البخاري كتاب خلق أفعال العباد [١١] ، وكتاب المسند الجامع الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه [١٢] ، وقد ضمن كتاب المسند الجامع

= = له مؤلفات عديدة منها : الجامع لعلوم أحمد ، كتاب السنة ، وكتاب العلم وتفسير الغريب والأدب . توفي الخلال سنة ٣١١ .انظر : تاريخ بغداد ١١٢/٥ - ١١٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٩٧/١٤ - ٢٩٨ ، مقدمة الدكتور عطية الزهراني لكتاب السنة للخلال ص ٣١ - ٣٦ .

(١) الموطأ بشرح الزرقاني ٢٤٢/٤ - ٢٥٠ .

(٢) انظر : ترتيب المدارك ٩٠/٢ ، سير أعلام النبلاء ٨٨/٨ .

(٣) طبع طبعتين : الأخيرة منهما بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني يحفظه الله .

(٤) طبع طبعتين : الأخيرة منهما بتحقيق الشيخ الألباني يحفظه الله .

(٥) مطبوع : الطبعة الثالثة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٥هـ .

(٦) طبع بتحقيق وصي الله بن محمد بن عباس .

(٧) مطبوع بأول كتاب شذرات البلاتين .

(٨) مطبوع .

(٩) وتوجد منه نسخة في المتحف البريطاني مخطوطات شرقية ٢٦٧٥ ، تاريخ التراث العربي ٢٠٦/٢ .

(١٠) مطبوع بتحقيق حمد بن حمدي الجابري الحربي .

(١١) مطبوع .

(١٢) الحطة في ذكر الصحاح الستة ص ١٦٨ .

الصحيح كتباً كثيرة في العقيدة منها : كتاب الإيمان [1] ، كتاب بدء الخلق [2] ، كتاب أحاديث الأنبياء [3] ، كتاب المناقب [4] ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ [5] كتاب مناقب الأنصار [6] ، كتاب القدر [7] ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة [8] ، كتاب التوحيد [9] .

وألف الإمام مسلم بن الحجاج كتابه المسند الصحيح المشهور بصحيح مسلم وقد اشتمل على جمل كثيرة من مسائل العقيدة منها : كتاب الإيمان [10] ، كتاب القدر [11] ، كتاب فضائل الصحابة [12] وغيرها .

وألف أبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ الأثرم كتاب السنة ، ولمحمد بن قتيبة كتاب تأويل مختلف الحديث [13] ، والرد على القائل بخلق القرآن وغيرهما .

ولعثمان بن سعيد الدارمي كتاب الرد على بشر المريسي [14] ، وله كتاب الرد

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١/٤٥ .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦/٢٨٦ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦/٣٦١ .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦/٥٢٥ .

(٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٧/٣ .

(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٧/١١٠ .

(٧) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١١/٤٧٧ .

(٨) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣/٢٤٥ .

(٩) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣/٣٤٤ .

(١٠) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٤٤ .

(١١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٨٩ .

(١٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/١٤٨ .

(١٣) والكتاب مطبوع بتحقيق محمد محي الدين الاصفر .

(١٤) مطبوع ضمن عقائد السلف جمع على سامي النشار ، وعمار الطالبي ص ٣٥٩ .

على الجهمية [1] .

وألف أبو بكر بن أبي عاصم كتاب السنة [2] ، وألف عبد الله بن الإمام أحمد كتاب السنة [3] ، وألف محمد بن نصر المروزي كتاب تعظيم قدر الصلاة [4] ، وألف محمد بن جرير الطبري كتاب صريح السنة [5] ، وكتاب التبصير في أصول الدين ، وكتابه جامع البيان عن تأويل القرآن حافل بذكر مسائل الاعتقاد ، وكذلك الشان بالنسبة لكتابه تهذيب الآثار .

وألف أبو بكر بن خزيمة كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل [6] . وألف أبو بكر أحمد بن محمد الخلال كتاب السنة [7] .

وأغلب هذه المؤلفات كانت في القرنين : الثاني ، والثالث الهجريين . ونلاحظ أنه مامن كتاب ألفه عالم من علماء السلف في هذه الفترة في التفسير ، أو الحديث أو السيرة النبوية والتاريخ ، إلا وقد اشتمل على جمل من مسائل العقيدة .

وقد تواصل عطاء علماء السلف في القرنين : الرابع ، والخامس الهجريين ، وألفت مؤلفات نفيسة ، ومفيدة في بيان العقيدة وتوضيحها ، والرد على أهل الأهواء والبدع .

ومن أعلام القرن الرابع الهجري : أبو الحسن الأشعري [8] - رحمه الله - فقد

---

(١) مطبوع ضمن عقائد السلف ص ٢٥٣ .

(٢) مطبوع بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني يحفظه الله .

(٣) طبع بتحقيق محمد بن سعيد بن سالم القحطاني .

(٤) طبع بتحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي .

(٥) مطبوع بتحقيق بدر بن يوسف المعتوق .

(٦) مطبوع بتحقيق عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان .

(٧) مطبوع بتحقيق عطية الزهراني .

(٨) هو : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر ، يرجع نسبه إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - ، ولد أبو الحسن الأشعري سنة ٢٦٠ ، وأخذ عن أبي خليفة الجمحي ، وزكريا الساجي ، وأبي علي الجبائي ، وفي حجره تربى ، وعنه أخذ الاعتزال ، وكان أبو الحسن الأشعري عجباً في الذكاء ، وقوة الفهم ، = =

ألف بعد أن استقر به المطاف إلى عقيدة السلف - رسالة إلى أهل الثغر [1] بين فيها المعتقد الصحيح الذي يجب اعتقاده ولاتجوز مخالفته . وهو المعتقد الذي كان عليه السلف الصالح - رضي الله عنهم - من أهل القرون الثلاثة الأولى . كما ألف كتاب الإبانة [2] ، وكتاب مقالات الإسلاميين [3] . وقد حكى في كتابه الأخير عقيدة أهل الحديث وقال « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول : وإليه نذهب » [4].

ومن أعلام أهل السنة في القرن الرابع الهجري : أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري المتوفى سنة ٣٢٩ [5] ، له كتاب شرح السنة [6] ، ومن أعيان القرن

= = ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه ، وأخذ يرد عليهم ، وكان انتقاله أول الأمر إلى مذهب عبد الله بن سعيد بن كلاب ثم انتهى به الأمر إلى عقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم- توفي أبو الحسن الأشعري بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي سنة ٣٢٤ . انظر : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري . سير أعلام النبلاء ١٥/٨٥ - ٩٠ ، مقدمة عبد الله شاكر محمد الجنيدي لكتاب رسالة إلى أهل الثغر ص ٣١ - ٨٦ .

(١) مطبوعة بتحقيق عبد الله شاكر محمد الجنيدي ، وقد حققها أيضاً : محمد السيد الجليند بعنوان : أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة الثغر .

(٢) مطبوع بمطبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وبتقديم من فضيلة الشيخ حماد بن محمد الأنصاري وقد حققته أيضاً : الدكتورة فوقية حسين بمصر .

(٣) مطبوع بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

(٤) مقالات الإسلاميين ١/ ٣٥٠ .

(٥) هو : أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري - بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الباء الثانية أيضاً والراء المهملة المكسورة بعد الهاء والألف نسبة إلى بربهار ، وهي الأدوية التي تجلب من الهند - الإمام القدوة شيخ الحنابلة صحب جماعة من أصحاب الإمام أحمد منهم : أبو بكر المروذي ، وعنه أخذ جماعة من الحفاظ منهم : ابن بطة العكبري ، له كتاب شرح السنة . توفي البربهاري - رحمه الله- سنة ٣٢٩ . انظر : طبقات الحنابلة ٢/١٨ - ٤٥ ، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٠ - ٩٣ ، مقدمة الدكتور محمد بن سعيد بن سالم القحطاني لكتاب : شرح السنة ص : ٩ - ١٢ .

(٦) والكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور محمد بن سعيد بن سالم القحطاني .

الرابع الهجري أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ [١] ، له مؤلفات منها : كتاب السنة ، كتاب الدعاء [٢] ، كتاب الرؤية ، كتاب دلائل النبوة .

ومن أعلام القرن الرابع الهجري أبو بكر الآجري المتوفى سنة ٣٦٠ [٣] ، صاحب كتاب الشريعة [٤] ، وكتاب التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة [٥] ، وأبو بكر الاسماعيلي المتوفى سنة ٣٧١ [٦] ، صاحب كتاب اعتقاد أئمة الحديث [٧]. والدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ [٨]، من مؤلفاته في بيان وتوضيح عقيدة السلف -رضي الله عنهم -

---

(١) هو : سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي ، أبو القاسم الطبراني، ولد بعكا سنة ٢٦٠ ، سمع من هاشم بن مرثد الطبراني ، وأحمد بن مسعود الخياط ، وعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ، وأبي عبد الرحمن النسائي ، وغيرهم . وحدث عنه : الحافظ ابن منده ، وأبو خليفة الجمحي ، والحافظ ابن عقدة . له مؤلفات كثيرة منها: المعاجم الثلاثة ، وكتاب السنة ، وكتاب الدعاء ، وغيرها توفي سنة ٣٦٠ . انظر : سير أعلام النبلاء ١١٩/١٦ - ١٣٠ ، طبقات المفسرين للداودي ٢٠٤/١ - ٢٠٧ .

(٢) مطبوع بتحقيق محمد سعيد بن محمد حسن البخاري، ومطبوع أيضاً بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا .

(٣) هو : أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري ، الفقيه الشافعي ، المحدث ، كان عابداً ، ثقة ، دينا ، له تصانيف منها « الشريعة » و « كتاب الأربعين » حدث ببغداد قبل سنة ٣٢٠ ، ثم انتقل إلى مكة فسكنها حتى توفي بها سنة ٣٦٠ . انظر : وفيات الأعيان ٢٩٢/٤ ، سير أعلام النبلاء ١٣٣/١٦ - ١٣٦ .

(٤) مطبوع بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي - رحمه الله - وعلمت أنه حقق بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

(٥) مطبوع بتحقيق سمير بن أمين الزهيري .

(٦) هو : أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس ، الجرجاني الإسماعيلي الشافعي ، الإمام الحافظ الحجة شيخ الشافعية ، روى عن جماعة من الحفاظ . منهم : جعفر بن محمد الفريابي ، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة ، وأبي يعلى الموصلي ، وعنه أبو عبد الله الحاكم ، وأبو بكر البرقاني ، وحمزة السهمي ، وغيرهم ، من مصنفاته « مسند عمر بن الخطاب » « المستخرج على الصحيحين » اعتقاد أئمة الحديث ، ولد أبو بكر الإسماعيلي سنة ٢٧٧ ، وتوفي سنة ٣٧١ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٩٢/١٦ - ٢٩٦ .

(٧) مطبوع بتحقيق محمد عبد الله الخميس .

(٨) هو : الإمام الحافظ شيخ الإسلام علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله البغدادي ، أبو الحسن الدارقطني ، من أهل محله دار القطن ببغداد ولد سنة ٣٠٦ ، وسمع وهو صبي من : أبي القاسم البغوي ، ويحي بن محمد بن صاعد ، وأبي بكر بن أبي داود ، وخلق كثير ، ==

كتاب الرؤية [١] ، كتاب أحاديث الصفات [٢] ، كتاب أحاديث النزول [٣] ، ومن علماء أهل السنة في القرن الرابع : أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ، المتوفى سنة ٣٨٦ [٤] له مقدمة في عقيدة السلف ضمن كتاب الرسالة [٥] ، وقد ضمن كتابه الجامع جملاً من عقيدة السلف - رضي الله عنهم - [٦] ، وله رسالة في الرد على القدرية [٧] ورسالة في التوحيد [٨] ،

وابن بطة العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ ، له من الكتب في بيان وتوضيح عقيدة السلف والرد على من انحرف عنها : الإبانة عن شريعة الفرق الناجية [٩] ، والشرح

= وعنه الحافظ أبو عبد الله الحاكم ، وأبو بكر البرقاني ، وأبو نعيم الأصبهاني ، وغيرهم ، من مصنفاته الكثيرة « السنن » « الرؤية » « العلل الواردة في الأحاديث » توفي الدارقطني - رحمه الله - سنة ٣٨٥ . انظر : تاريخ بغداد ٣٤/١٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٤٩/١٦ .

(١) مطبوع بتحقيق إبراهيم محمد العلي ، وأحمد فخري الرفاعي .

(٢) مطبوع بتحقيق الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان ، ومطبوع أيضاً : بتحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر فقيهي .

(٣) مطبوع بتحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر فقيهي .

(٤) هو : عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي القيرواني الفقيه النظار الحافظ ، إمام المالكية في وقته ، يلقب بمالك الاصغر ولد في حدود سنة ٣١٠ تفقه على : أبي بكر بن اللباد ، وعليه عول ، وأخذ عن : محمد بن سرور الحجاج ، والعسال ، وسمع منه الكثير منهم : الفقيه عبد الرحيم بن العجوز السبتي ، والفقيه عبد الله بن غالب السبتي ، وعبد الله بن الوليد بن سعد الأنصاري ، وغيرهم . له مؤلفات كثيرة منها : النوادر والزيادات ، اختصار المدونه ، الرسالة ، وغيرها ، توفي - رحمه الله - سنة ٣٨٦ . انظر : ترتيب المدارك ٢١٥/٦ - ٢٢٢ ، سير أعلام النبلاء ١٠/١٧ - ١٣ ، الديباج المذهب ١٣٦ - ١٣٨ .

(٥) انظر : مقدمة رسالة بن أبي زيد القيرواني .

(٦) انظر : الجامع ص : ١٠٧ - ١١٧ .

(٧) ترتيب المدارك ٢١٨/٦ ، سير أعلام النبلاء ١١/١٧ .

(٨) ترتيب المدارك ٢١٨/٦ ، سير أعلام النبلاء ١١/١٧ .

(٩) طبع بتحقيق رضا بن نعسان معطى .

والإبانة على أصول السنة والديانة ، ويعرف بالإبانة الصغرى [1] ، والحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بنَ منده المتوفى سنة ٣٩٥ [2] ، ومن جهوده في بيان وتوضيح عقيدة السلف : كتاب الإيمان [3] ، كتاب التوحيد [4] ، كتاب الرد على الجهمية [5] ، كتاب في الرد على اللفظية ، كتاب في النفس والروح . وابن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ [6] له في عقيدة السلف - رضي الله عنهم - رسالة تعرف « بأصول السنة » [7] .

وفي القرن الخامس الهجري ، استمرت جهود علماء السنة في بيان العقيدة وتوضيحها والرد على أهل الأهواء والبدع ومن بين أولئك العلماء : أبو القاسم

---

(١) طبع بتحقيق رضا بن نعسان معطى .

(٢) هو : الحافظ محمد بن إسحاق بن محمد بن يحي بن مندة ، الأصبهاني ، ولد سنة ٣١٠ ، وقيل ٣١١ ، سمع من أبيه ، وعم أبيه عبد الرحمن بن يحي بن مندة ، ومحمد بن عمر بن حفص ، وقد بلغ شيوخه ألف وسبعمائة شيخ ، وعنه حدث الحافظ أبو الشيخ ، وأبو عبد الله الحاكم ، وأبو نعيم الأصبهاني ، وغيرهم . من تصانيفه « كتاب الإيمان » كتاب « التوحيد » كتاب « الصفات » توفي ابن مندة - رحمه الله - سنة ٣٩٥ . انظر : طبقات الحنابلة ١٦٧/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٨/١٧ - ٤٣ ، مقدمة الدكتور علي ناصر فقيهي لكتاب الإيمان ٢٢/١ - ٧٨ .

(٣) طبع بتحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر فقيهي .

(٤) طبع بتحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر فقيهي .

(٥) طبع بتحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر فقيهي .

(٦) هو : محمد بن عبد الله بن محمد المري ، الأندلسي ، الإلبيري ، المعروف بابن أبي زمنين ، شيخ قرطبة ، ولد سنة ٣٢٤ ، وسمع من : محمد بن معاوية الأموي ، وأحمد بن المطرف ، وأحمد بن الشامة ، وغيرهم . روى عنه أبو عمرو الداني ، وأبو عمر بن الحذاء ، وجماعة . من مؤلفاته « منتخب الاحكام » « مختصر تفسير يحي بن سلام » « أصول السنة » وغيرها . توفي سنة ٣٩٩ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٨٨/١٧ - ١٨٩ ، طبقات المفسرين للداودي ١٦٥/٢ - ١٦٦ ، الديباج المذهب ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٧) وقد أفاد منها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - انظر : الفتوى الحموية الكبرى ٣٢ وابن قيم الجوزية في كتابه : اجتماع الجيوش الإسلامية ١٦٣/٢ .

اللالكائي المتوفى سنة ٤١٨ [١] ، مؤلف كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة [٢] . وأبو عمرو الطلمنكي المتوفى سنة ٤٢٩ [٣] ، له من الكتب « الوصول إلى معرفة الأصول » [٤] و « الدليل إلى معرفة الجليل » وأبو نعيم الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠ [٥] له من الكتب الامامة والرد على الرافضة [٦] ، وله عقيدة أفاد منها شيخ الإسلام ابن تيمية [٧] وله أيضاً « محجة الواثقين ومدرجة الوامقين » وقد أفاد منه شيخ الإسلام أيضاً [٨] .

---

(١) هو : هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري ، الرازي ، أبو القاسم اللالكائي ، الفقيه الشافعي ، المحدث ، سمع عيسى بن علي الوزير ، وأبا طاهر المخلص ، وعلي بن محمد القصار ، وغيرهم ، وعنه الخطيب البغدادي ، وأبو بكر بن أحمد بن علي الطريثيثي ، وعدة ، من أهم مصنفاته : شرح أصول اعتقاد أهل السنة توفي سنة ٤١٨ . انظر : تاريخ بغداد ١٤/ ٧٠ - ٧١ ، وفيات الأعيان ٤١٩/٣، سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٧ ، مقدمة الدكتور أحمد سعد حمدان الغامدي لكتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧٧/١ - ١٠١ .

(٢) حققه الدكتور أحمد سعد حمدان الغامدي .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى أبو عمرو الطلمنكي المعافري الاندلسي ، كان من أئمة السنة عالماً بالتفسير ، والحديث ، أخذ عن أبي عيسى يحي بن عبد الله الليثي ، وأبي بكر الزبيدي ، وأبي محمد عبد الله بن أبي زيد ، وغيرهم ، وحدث عنه أبو عمر بن عبد البر ، وأبو محمد بن حزم ، وعبد الله بن سهل المقرئ ، وعدة . له مؤلفات كثيرة منها « أصول الديانات » « الوصول إلى معرفة الأصول » « الدليل إلى معرفة الجليل » توفي - رحمه الله - سنة ٤٢٩ . انظر : سير أعلام النبلاء ٥٦٦/١٧ - ٥٦٩ ، معرفة القراء الكبار ٣٨٥/١ - ٣٨٧ ، غاية النهاية ١٢٠/١ .

(٤) وقد أفاد منه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - . انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٥/٢ ، ٢٥٠/٦ .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران ، أبو نعيم الأصبهاني ، الحافظ الكبير محدث عصره ، ولد سنة ٣٣٦ ، وأجاز له المشائخ وعمره ست سنين ، وأخذ عن محمد بن فارس ، وأبي أحمد العسال ، وأحمد بن معبد السمسار ، وغيرهم . وعنه أبو بكر الخطيب ، وأبو صالح المؤذن ، وأبو بكر بن علي الهمذاني ، وخلق . من مؤلفاته « حلية الأولياء » « صفة الجنة » « الامامة والرد على الرافضة » وغيرها توفي سنة ٤٣٠. انظر : المنتخب من السياق ٩١ - ٩٢ ، التقييد ١٤٤ - ١٤٦ ، سير أعلام النبلاء ٤٥٣/١٧ - ٤٦٤ .

(٦) طبع بتحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي .

(٧) انظر : الفتوى الحموية الكبرى ٣٥ .

(٨) انظر : الفتوى الحموية الكبرى ٣٥ .

وأبو عمرو الداني المتوفى سنة ٤٤٤ [١] ، له أرجوزة في أصوال الديانة [٢] ، وإسماعيل بن عبد الرحمن أبو عثمان الصابوني المتوفى سنة [٣] ٤٤٩ ، له عقيدة السلف وأصحاب الحديث [٤] . والحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ [٥] ، كتابه التمهيد حافل بذكر تقرير مسائل الاعتقاد وفق عقيدة السلف الصالح

---

(١) هو : عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي ، مولاهم ، أبو عمرو الداني ، ولد سنة ٣٧١ ، وسمع أبا مسلم محمد بن أحمد الكاتب ، صاحب البغوي ، وأحمد بن فراس المكي ، وعبد الرحمن بن عثمان القشيري الزاهد ، وحدث عنه ولده أبو العباس ، وأبو داود سليمان بن نجاح ، وخلق . من كتبه « المقنع » و « الوقف والابتداء » و « الفتن الكاينة » توفي سنة ٤٤٤ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/٧٧ - ٨٣ ، معرفة القراء الكبار ١/٤٠٦ - ٤٠٩ ، طبقات المفسرين للداودي ١/٣٧٩ - ٣٨٢ .

(٢) أورد الذهبي أبياتاً منها في السير ١٨/٨١ - ٨٣ ، ومعرفة القراء الكبار ١/٤٠٩ ، والعلو للعلي الغفار ١٨١ ، والداودي في طبقات المفسرين ١/٣٨٢ .

(٣) هو : إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل النيسابوري ، شيخ الإسلام ، أبو عثمان الصابوني ، من أئمة أهل السنة ، وعظ المسلمين في مجالس التذكير سبعين سنة . ولد سنة ٣٧٣ ، وحدث عن : أبي سعيد عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، وأبي بكر بن مهران ، وأبي محمد المخلدي ، وعنه حدث الكتاني ، وأبو القاسم بن أبي العلاء ، والبيهقي . وغيرهم ، له « عقيدة السلف وأصحاب الحديث » توفي -رحمه الله- سنة ٤٤٩ هـ . انظر : المنتخب من السياق ١٣١ - ١٣٦ ، سير أعلام النبلاء ١٨/٤٠ - ٤٤ .

(٤) مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنيرية .

(٥) هو : الحافظ أبو عمر ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري الاندلسي ، القرطبي ، المالكي ، صاحب التصانيف الفائقة ولد سنة ٣٦٨ ، وسمع من : أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، ومحمد بن عبد الملك بن ضيفون ، وأبي القاسم عبد الوارث بن سفيان ، وخلق كثير ، وعنه أبو محمد بن حزم ، والحافظ أبو علي الغساني ، والحافظ أبو عبد الله الحميري ، من مؤلفاته السائرة « التمهيد » « الاستذكار » « الاستيعاب » وغيرها ، توفي رحمه الله سنة ٤٦٣ . انظر : ترتيب المدارك ٨/١٢٧ - ١٣٠ ، سير أعلام النبلاء ١٨/١٥٣ - ١٦٣ .

- رضي الله عنهم - [1] ، وكذلك كتابه الاستذكار [2] ، وكتابه جامع بيان العلم وفضله كذلك [3] .

ومن أعلام القرن الخامس الهجري أبو بكر البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ [4] ، له جهود أيضاً في توضيح عقيدة السلف وبيانها [5] .

والعلماء الذين كان لهم جهد في بيان وتوضيح عقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم - كثير وليس الغرض هنا الاستقصاء ، وإنما الغرض ، إعطاء فكرة عامة وموجزة عن جهود السلف - رضي الله عنهم - واتباعهم في توضيح العقيدة وبيانها وفيما تقدم كفاية . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل [6] .

---

(١) انظر على سبيل المثال التمهيد ١٢٨/٧ ، ١٨٥/١٢ ، ١٠٥/١٤ - ١٠٦ ، ١٩٠ ، ٢١/١٧ ، ١١/١٨ - ١٨ .

(٢) طبع منه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر جزءين ، وانظر : تهذيب سنن أبي داود للحافظ بن قيم الجوزية - رحمه الله - بحاشية مختصر سنن أبي داود للمنذري ١٠٢/٧ - ١٠٧ .

(٣) انظر جامع بيان العلم وفضله ١٠/١ - ١١ ، و٩٤/٢

(٤) هو : أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي ، أبو بكر الخطيب البغدادي ، ولد سنة ٣٩٢ ، سمع أبا عمر ابن مهدي الفارسي ، وأحمد بن محمد بن أبي الصلت الاهوازي ، وأبا الحسين بن المتيم ، وغيرهم ، وعنه أبو بكر البرقاني ، وأبو نصر بن ماكولا ، والحميدي ، وخلق كثير ، وصنف تاريخ بغداد ، وشرف أصحاب الحديث ، وتقييد العلم ، وغيرها توفي الخطيب البغدادي سنة ٤٦٣ . انظر : معجم الادباء ٤٩٧/١ - ٥١٤ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٨-٢٩٧ ، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد للدكتور أكرم ضياء العمري ص ١١-٨٤ .

(٥) انظر : الفتوى الحموية الكبرى ص ٣٥ .

(٦) انظر عن جهود السلف - رضي الله عنهم - الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٣ - ٥٧ ، العلو للعلي الغفار للذهبي ، واجتماع الجيوش الإسلامية ١١٨/٢ ، وما بعدها .

القسم الثاني من المدخل وفيه التعريف بأبي المظفر - رحمه الله - ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : موطنه

المبحث الثاني : أسرته

المبحث الثالث : حياته الشخصية

المبحث الرابع : حياته العلمية

المبحث الخامس : عقيدته

المبحث الأول : موطن أبي المظفر رحمه الله

ولد أبو المظفر - رحمه الله - ونشأ بمدينة مرو الشاهجان [1] أعظم مدن خراسان [2] وقصبتها .

وخراسان وأقاليمها الأربع : والتي هي : نيسابور ، مرو الشاهجان ، هراة ، بلخ، تقع الآن بين : إيران ، وأفغانستان ، وتركمانستان ، وأوزباكستان .

فإقليم نيسابور وما يتبعه من مدن : يقع شمال وشمال شرق إيران ، وجزء منه غرب أفغانستان ، وأشهر مدن إقليم نيسابور : نيسابور ، جوين ، سرخس ، طوس ، جرجان .

وإقليم مرو يقع جنوب ، وجنوب شرق تركمانستان . وأشهر مدن هذا الإقليم ، مرو الشاهجان ، مرو الروذ .

وإقليم هراة : يقع في شمال غرب ، وغرب أفغانستان ، ومن مدن هذا الاقليم ، بوشنج ، فربر ، فرياب .

وإقليم بلخ : يقع جزء منه في شمال أفغانستان ، وباقيه في أوزباكستان .

هذا وضعها بعد الفتح الإسلامي ، وأما قبل الفتح الإسلامي ، فقد كانت حدود خراسان تمتد إلى جبال الهندوكش جنوب شرق أفغانستان ، هذا من الناحية الجنوبية الشرقية ، وأما من جهة الشرق فقد كانت تصل حدود خراسان إلى حدود الصين ، ومن الجهة الشمالية فقد كانت تشتمل على معظم جمهوريات آسيا الوسطى ، ومن الجهة

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ١٣٢/٥ ، مرو بالعربية الحجارة البيض التي يقتدح بها ، إلا أن هذا عربي ومرو مازالت أعجمية ، وأما الشهاجان فهي فارسية معناها : نفس السلطان . لأن الجان هو النفس ، أو الروح ، والشاه هو السلطان . سميت بذلك لجلالتها عندهم » وانظر : لسان العرب ٢٧٦/١٥ .

(٢) اختلف في وجه تسميتها بذلك . قيل : سميت باسم خراسان بن عالم بن سام بن نوح ، وقيل : خر إسم للشمس بالفارسية ، وأسان كأنه أصل الشيء ومكانه ، وقيل : معناه كل سهلا ، لأن معنى : خر، كل ، وأسان ، سهل . والله أعلم . انظر : معجم البلدان ٤٠١/٢ .

الغربية كانت خراسان تشتمل على معظم ما يسمى الآن بإيران [١] .

الفتح الإسلامي لبلاد خراسان :

بدأ الفتح الإسلامي لبلاد خراسان في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فبعد أن فتح المسلمون أرض العراق وتوغلوا شرقاً إلى بلاد السند والبنجاب اتجهوا شمالاً إلى بلاد خراسان ، وقد انتدب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - الاحنف بن قيس التميمي لفتح بلاد خراسان ، وقد تم فتحها في عهد عمر - رضي الله عنه - في سنة ٢٢ للهجرة ، ثم أعيد فتحها في عهد أمير المؤمنين عثمان - رضي الله عنه - وكان ذلك على إثر نقض عهد حصل من أهل خراسان ثم ثبتت فيها قدم الإسلام بعد ذلك [٢] .

---

(١) انظر عن خراسان وأقاليمها : معجم البلدان ٢/٤٠١ - ٤٠٥ ، مراصد الاطلاع ٢/٤٥٥ ، بلدان الخلافة الشرقية ٤٢٣ .

(٢) انظر : عن فتح المسلمين لبلاد خراسان فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٩٤ ، تاريخ الأمم والملوك ٢/٤٥٦ - ٥٥٠ ، معجم البلدان ٢/٤٠١ - ٤٠٤ ، البداية والنهاية ٧/١٣٠ قادة فتح بلاد فارس ص ٢١٧ .

المبحث الثاني : أسرته ومكانتها

على إثر الفتح الإسلامي لبلاد خراسان ، استقرت كثير من الأسر العربية في تلك الديار وكان لها دور بارز وفعال ، في نشر الإسلام وتثبيته في البلاد المفتوحة . وقد أنجبت تلك الأسر علماء كباراً لا زالت آثارهم محفوظة وخصالهم محمودة . ومن بين هؤلاء العلماء الإمام أحمد بن حنبل ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان الثوري ، وإسحاق ابن راهويه ، ومسلم بن الحجاج وغيرهم كثير [١] .

ومن بين الأسر العربية التي استقرت في بلاد خراسان ، وبالتحديد مرو الشاهجان أسرة الامام السمعاني رحمه الله فهي أسرة عربية عريقة انجبت كثيراً من العلماء الأفاضل الذين كان لهم دور بارز وملموس في خدمة الدين ، والدفاع عن العقيدة وإثراء الثقافة الإسلامية بشتى أنواع العلوم والمعارف .

وقد أثنى على أسرة الامام السمعاني كثير من العلماء الذين تكلموا عن السمعانيين ومكانتهم بين تلك البيوتات العربية المتواجدة في خراسان .

قال محمود الخوارزمي [٢] في ترجمة أبي سعد السمعاني : « بيته أرفع بيت في بلاد الإسلام وأقدمه في العلوم الشرعية ، والأمور الدينية وأسلاف هذا البيت وأخلاقه قدوة العلماء ، وأسوة الفضلاء الامامة مدفوعة إليهم ، والرئاسة موقوفة عليهم تقدموا على أئمة زمانهم في الآفاق بالاستحقاق وترأسوا عليهم بالفضل والفقه لا بالبذل والوقاحة » [٣] .

---

(١) انظر : عروبة العلماء المنسوبين إلى البلاد الاعجمية في خراسان .

(٢) هو : محمود بن محمد بن العباس بن أرسلان العباسي ، الخوارزمي ، الشافعي (ظهير الدين أبو محمد) فقيه ، محدث ، مؤرخ من مؤلفاته : تاريخ خوارزم ، توفي ٥٦٨ تقريباً . انظر : هدية العارفين ٤٠٣/٢ ، معجم المؤلفين ١٩٦/٢ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٨١/٧ .

وقال عز الدين بن الأثير [1] في السمعانيين : « وهم جماعة أئمة علماء فقهاء محدثون» [2] ووصف عبد الغافر النيسابوري [3] البيت السمعاني بأنه بيت العلم والزهد »[4].

وقد اشتهر كثير من العلماء من البيت السمعاني وبرزوا في كثير من الفنون الشرعية كالفقه والاصول والحديث واللغة والتاريخ وغير ذلك من العلوم .

ومن بين هؤلاء العلماء :

- والد أبي المظفر - أبو منصور : محمد بن عبد الجبار ، السمعاني الفقيه الحنفي كان إماماً فاضلاً ورعاً متقناً أحكم العربية وصنف فيها التصانيف ، ولي القضاء وبرز في مذهب أبي حنيفة، توفي سنة خمسين وأربعمائة [5] .

- أخو أبي المظفر - أبو القاسم : علي بن محمد السمعاني كان بينه وبين أبي المظفر مكاتبات وأنفذ ابنه أبا العلاء علي بن علي السمعاني ، للتفقه على أبي المظفر ، فأقام عنده مدة يتعلم ويدرس الفقه كان أبو القاسم إماماً فاضلاً عالماً ظريفاً تفقه على والده وبرع في

---

(١) هو : علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني أبو الحسن عز الدين بن الأثير ولد سنة ٥٥٥ ، وسمع من الخطيب أبي الفضل الطوسي ، ويحي بن محمد الثقفي ، وأبي القاسم بن صصرى ، وحدث عنه ابن الدبيثي ، ومجد الدين بن العديم وغيرهما من مؤلفاته : اللباب في تحرير الأنساب ، الكامل في التاريخ . توفي سنة ٦٣٠ . انظر : وفيات الأعيان ٣٤٨/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٥٣/٢٢ - ٣٥٦ .

(٢) اللباب ١٣٨/٢ .

(٣) هو : أبو لحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن محمد بن عبد الغافر الحافظ النيسابوري ، ولد سنة ٤٥١ ، وأخذ عن أبي محمد الجوهري ، وأبي بكر محمد بن الحسن بن علي الطبري ، وسمع من جده لأمه أبي القاسم القشيري ، وغيرهم له مؤلفات منها : مجمع الغرائب ، في غريب الحديث وكتاب السياق لتاريخ نيسابور ، وكتاب المفهم ، شرح صحيح مسلم توفي سنة ٥٢٩ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٦/٢٠ ، البداية والنهاية ٢٥٣/١٢ .

(٤) المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ص : ٤٤٢ .

(٥) الأنساب ٢٢٢/٧ ، الوافي ٢١٤/٣ ، اللباب ١٣٨/٢ .

مذهب أبي حنيفة ، وكان كثير المحفوظ خرج إلى كرمان وحظى عند مليكها وصاهر الوزير بها ورزق الأولاد [1] .

- أبو العلاء : علي بن علي بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ، كان حنفي المذهب وهو الذي أنفذه أبوه إلى أبي المظفر للتفقه عليه ، سمع الحديث من أبي الخير محمد بن موسى الصفار [2] ، ولما مات أبوه فوض إليه ما كان لوالده من المدرسة وغيرها ، ورزق الأولاد [3] .

- تاج الاسلام : أبو بكر : محمد بن منصور السمعاني ابن أبي المظفر ووالد أبي سعد عبد الكريم السمعاني صاحب كتاب الانساب قال عنه ابنه أبو سعد : « فأما والدي الامام أبو بكر محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني - رحمه الله - ابن أبيه كان والده يفتخر به ويقول على رؤوس الأشهاد في مجلس الاملاء ابني محمد : أعلم مني وأفضل مني تفقه عليه وبرع في الفقه وقرأ الأدب على جماعة وفاق أقرانه وقرض الشعر المليح وغسله في آخر أيامه ، وشرع في عدة مصنفات ما تم له شيء منها لأنه لم يتمتع بعمره واستأثر الله بروحه وقد جاوز الأربعين بقليل مات سنة ست عشرة وخمسمائة [4] .

- أبو سعد تاج الإسلام : عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني - وهو حفيد لأبي المظفر - محدث المشرق ، كان فقيهاً ، عالماً ، صاحب الانساب ، والتحبير ، ومعجم الشيوخ مؤلفاته تزيد على السبعين ، قال فيه ابن الأثير « كان أبو سعد واسطة عقد البيت السمعاني وعينهم الباصرة ، ويدهم الناصرة ، وإليه انتهت رئاستهم ، وبه كملت سيادتهم ، رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ، وسافر إلى ما وراء

---

(1) الأنساب ٧/٢٢٢ - ٢٢٣ .

(2) هو : محمد بن موسى بن عبد الله الصفار ، أبو الخير بن أبي عمران المروزي حدث عن أبي الهيثم محمد بن المكي الكشميهني بكتاب صحيح البخاري ، توفي سنة ٤٧١ . انظر : التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ص ١٠٩ رقم ١٢٤ ، سير أعلام النبلاء ١٨/٣٨٢ ، لسان الميزان ٥/٤٠١ .

(3) الانساب ٧/٢٢٣ .

(4) الانساب ٧/٢٢٦ ، إنباه الرواة ٣/٢١٦ وفيات الأعيان ٣/٢١٠ - ٢١١ .

النهر وسائر بلاد خراسان عدة مرات ... إلى أن قال ولقي العلماء ، وأخذ عنهم وجالسهم ، وروى عنهم واقتدى بأفعالهم الجميلة وآثارهم الحميدة وكان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ .

مات أبو سعد رحمه الله سنة اثنتين وستين وخمسمائة [١] .

هؤلاء : بعض المشهورين من البيت السمعاني ، وقد أتى على ذكر بقيتهم الدكتور عبد القادر منصور في الدراسة التي قدمها بين يدي تحقيقه لجزء من تفسير السمعاني [٢] وكذلك الدكتورة منيرة ناجي سالم في دراستها القيمة المرقومة باسم تاج الإسلام : أبو سعد السمعاني ، وكتابه التحبير [٣] .

---

(١) اللباب ١/ ٩ ، وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٩ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣١٦ .

(٢) تفسير السمعاني : تحقيق عبد القادر منصور ، المقدمة ص : ١٢ - ١٨ .

(٣) انظر : تاج الإسلام أبو سعد السمعاني، وكتابه التحبير ص : ٣٨ - ٦٤، وانظر الأنساب : ٧/ ٢٢٥ .

المبحث الثالث

حياة أبي المظفر الشخصية

وفيه مطالب

المطلب الأول : اسمه ونسبه

المطلب الثاني : كنيته ، وشهرته

المطلب الثالث : مولده ونشأته

المطلب الرابع : وفاته

المطلب الأول : اسمه ونسبه

هو : منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر بن أحمد ابن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم بن عبد الله بن عبد المجيد ، المروزي ، السمعاني ، التميمي ، الحنفي ، ثم الشافعي [(١)] .

المطلب الثاني : كنيته ، وشهرته ، ونسبته

كنيته أبو المظفر ، واشتهر بأبي المظفر السمعاني ، وبابن السمعاني [(٢)] .

نسبته

المروزي ، السمعاني ، التميمي

أما المروزي : فهي نسبة إلى بلدة مرو الشاهجان أعظم مدن خراسان ، وقصبتها والنسبة إليها مرْوى ومرَوى ، ومروزي ، الاخيران من نادر معدول النسب قال الجوهري النسبة إليها مروزي على غير قياس ، والثوب مروى على القياس [(٣)] .

---

(١) انظر : ترجمته في المصادر التالية : الانساب ٢٢٢/٧ - ٢٢٦ ،المنتخب من السياق ص ٤٤٢ ، المنتظم ٣٧/١٧ - ٣٨ ، التدوين ١١٨/٤ - ١٢١ ، اللباب ١٣٨/٢ - ١٣٩ ، مرآة الزمان سبط ابن الجوزي ٢٩٥/١ - ٢٩٧ ، وفيات الأعيان ٢١١/٣ ، سير أعلام النبلاء ١١٤/١٩-١١٩ ، العبر ٣٦١/٣ ، دول الإسلام ١٨/٢ ، الوافي بالوفيات ٢١٤/٣ ، مرآة الجنان لليافعي ١٥١/٣-١٥٢ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٣٥/٥-٣٤٦ ، طبقات الشافعية للآسنوي ٢٩/٢-٣٠ ، البداية والنهاية ١٦٤/١٢ ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢٢٩/١-٣٠١ ، النجوم الزاهرة ١٦٠/٥ ، طبقات المفسرين للداودي ٣٣٩/٢-٣٤٠ ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ٣٠٠/٢ ، كشف الظنون ١٠٧، ١٥١، ١٧٣، ٢٠٢، ٤٤٩، ١٣٥٧ ، شذرات الذهب ٣٩٣/٣-٣٩٤ ، هدية العارفين ٤٧٣/٢ ، الرسالة المستطرفه ٤٣، ٧٨ ، الأعلام ٢٤٣/٨-٢٤٤ ، معجم المؤلفين ٢٠/١٣-٢١ ، عروبة العلماء المنسوبين للبلاد الأعجمية في بلاد خراسان ٤٣٦/١-٤٣٧ ، تاج الإسلام أبو سعد السمعاني وكتابه التحبير ٤٠-٤٣ ، تفسير السمعاني تحقيق عبد القادر منصور المقدمة .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣٥/٥ ، شذرات الذهب ٣٩٣/٣ .

(٣) انظر : الصحاح ٢٤٩١/٦ ، معجم البلدان ١٣٢/٥ ، لسان العرب ٢٧٦/١٥ ، مراصد الإطلاع ١٦٢/٣ .

وأما السمعاني : فهي نسبة إلى سمعان ؛ بفتح السين وقد تكسر وسكون الميم وفتح العين ، بطن من تميم ، قال أبو سعد السمعاني : « وأما سمعان الذي ننتسب إليه ، فبطن من تميم هكذا سمعت سلفي يذكرون ذلك »[1] .

وأما التميمي : فنسبة إلى تميم ، قبيلة عربية ، أنجبت أمراء وقواداً ، منهم : الاحنف بن قيس[2] ، سيد بني تميم الذي فتح مرو الروذ والاقرع بن حابس[3] ، الذي وجهه الاحنف بن قيس إلى جوزجان ففتحها[4] .

المطلب الثالث : مولده ونشأته

ولد أبو المظفر - رحمه الله - في ذي الحجة سنة ست وعشرين وأربعمائة ، بمدينة مرو الشاهجان[5] .

ونشأ في بيت العلم والفضل والزهد وتحت عناية ورعاية والده القاضي أبي منصور محمد بن عبد الجبار السمعاني ، وهذه النشأة في حجر والده كان لها أبلغ الأثر في توجهه العلمي وحياته الاجتماعية كما سيأتي فيما بعد .

---

(١) الانساب ٢٢٢/٧ ، وانظر : شذرات الذهب ٣٩٣/٣ .

(٢) هو : الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصين ، الأمير الكبير، العالم النبيل ، أبو بحر التميمي ، أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل . اسمه ضحاك ، وقيل صخر ، وشهر بالأحنف لحنف رجليه وهو العوج والميل أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره ، وروى عن عمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وغيرهم . وروى عنه أبو العلاء بن الشخير ، والحسن البصري ، وطلق بن حبيب ، وغيرهم . توفي سنة ٦٧ . انظر : الطبقات الكبرى ٦٤/٧ ، سير أعلام النبلاء ٨٦/٤ ، الإصابة في تمييز الصحابة ١١٠/١.

(٣) هو : الأقرع بن حابس بن غفال بن محمد بن محمد بن سفيان التميمي ، المجاشعي ، الدارمي ، وفد على النبي ﷺ وشهد فتح مكة وحنين والطائف ، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام ، واستعمله عبد الله بن عامر على جيش سيره إلى خراسان ، فأصيب بالجوزجان هو والجيش وذلك في زمن عثمان - رضي الله عن . انظر : الطبقات الكبرى ٢٧/٧ ، الإصابة ٧٢/١ .

(٤) انظر : معجم البلدان ١٨٢/٢ .

(٥) الأنساب ٢٢٥/٧ .

المطلب الرابع : وفاته

توفي أبو المظفر رحمه الله يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة عن ثلاث وستين سنة وكانت وفاته بمدينة مرو وبها قُبِر [١] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٩/١٩ .

المبحث الرابع

حياته العلمية

وفيه مطالب :

المطلب الأول : طلبه العلم

المطلب الثاني : شيوخه

المطلب الثالث : رحلته إلى الحج

المطلب الرابع : انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي

المطلب الخامس : تصدره للتدريس

المطلب السادس : تلامذته

المطلب السابع : مؤلفاته

المطلب الثامن : ثناء العلماء عليه

المطلب الأول : طلبه العلم

بدأ الإمام السمعاني - رحمه الله - طلب العلم بالتتلمذ على والده القاضي أبي منصور: محمد بن عبد الجبار السمعاني ، وعلى يديه تخرج في الفقه ، واللغة ، وكان أول سماعه عنه [1] .

كما تفقه على بقية علماء بلده ، وسمع الحديث عنهم .

رحلته في طلب العلم : رحل الإمام أبو المظفر - رحمه الله - في طلب العلم ، وطوف البلاد ، وسمع الحديث بنيسابور ، وجرجان ، وهمذان ، وقزوين ، وبغداد ، وصريفين والحجاز ، وبلغ شيوخه في الحديث وحده أكثر من مائة شيخ ، فقد صنف ألف حديث عن مائة شيخ ، عن كل شيخ عشرة أحاديث وقد تحدث العلماء عن طلب أبي المظفر - رحمه الله - للعلم .

قال أبو الحسن عبد الغافر النيسابوري « نشأ في التعلم ، ودرس على أبيه الفقه وتخرج فيه وصار من فحول أهل النظر » [2] وقال عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني [3] «وسمع الحديث بمرو ، ونيسابور ، وجرجان ، وبهمذان ، وببغداد ، وصريفين ، ودخل قزوين فسمع بها الإمام أبا حفص : هبة الله بن زاذان ، وأبا منصور : محمد بن أحمد بن زيتارة وأبا طاهر : محمد بن علي بن يشكر الشيرازي » [4] .

---

(١) انظر : التدوين ١١٨/٤ ، منتخب السياق ٤٤٢ .

(٢) المنتخب من السياق ٤٤٢ .

(٣) هو : عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسين الرافعي ، القزويني ، شيخ الشافعية في وقته من مؤلفاته التدوين في أخبار قزوين ، ولد سنة ٥٥٥ ، وتوفي سنة ٦٢٣ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢٥٢/٢٢ ، الأعلام ٥٥/٤ .

(٤) التدوين ١١٩/٤ .

وقال الذهبي [1] : « سمع أبا غانم أحمد بن علي الكراعي ، وأبا بكر بن عبد الصمد الترابى ، وطائفة بمرو ، وعبد الصمد بن المأمون ، وطبقتة ببغداد ، وأبا صالح المؤذن ونحوه بنيسابور ، وأبا علي الشافعي ، وأبا القاسم الزنجاني ، بمكة وأكبر شيخ له الكراعي وبرع في مذهب أبي حنيفة على والده العلامة أبي منصور السمعاني، وبرز على الاقران» [2].

وكانت نتيجة الحرص الشديد من أبي المظفر رحمه الله على التحصيل العلمي وتلمذته على النخبة الممتازة من الشيوخ الذين تلقى عنهم ، أن برز في فنون كثيرة ، من العلوم الشرعية ، كالفقه ، والأصول ، والتفسير ، والحديث ، واللغة ، وغيرها .

المطلب الثاني : شيوخه

شيوخ أبي المظفر رحمه الله كثيرون ، وسنكتفي بذكر أهم شيوخه الذين كان لهم تأثير في حياته العلمية ، ومن هؤلاء الشيوخ :

- والده : أبو منصور محمد بن عبد الجبار السمعاني ، وقد تقدم التعريف به .

- أحمد بن علي بن الحسين الكراعي ، أبو غانم ، محدث مرو على الإطلاق ، وأكبر شيوخ السمعاني ، مات سنة أربع وأربعين وأربعمائة [3] .

- أبو بكر : محمد بن عبد الرحمن الترابي ، المعروف بابن الهيثم ، سمع منه السمعاني بمرو ، قال الذهبي : « سمع أبا بكر الترابي ، وطائفة بمرو . مات الترابي سنة ثلاث وستين وأربعمائة [4] .

- كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية ، أم المكارم ، المجاورة بمكة ، كانت

---

(١) هو : الحافظ شيخ الإسلام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، أبو عبد الله : شمس الدين الذهبي صاحب التصانيف السائرة في الأقطار ، من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ولد سنة ٦٧٣ ، وتوفي ٧٤٨. انظر غاية النهاية ٧١/٢ ، الدرر الكامنة ٣٣٦/٣ ، البدر الطالع ١١٠/٢ - ١١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٤/١٩ - ١١٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦٠٧/١٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٥١/١٨ .

عالمة صالحة ، سمعت صحيح البخاري من أبي الهيثم محمد بن مكي الكُشْمِيْهَني [(١)] وحدثت به ، قرأ عليها الأئمة ، كالخطيب البغدادي ، وأبي المظفر السمعاني ، وغيرهما . وماتت بكرا ولم تتزوج ، قيل إنها عاشت مائة سنة ، ماتت سنة ثلاث وستين وأربعمائة [(٢)] .

- أبو محمد : عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن أحمد الصريفيني ، خطيب صريفين ، كان أحد الثقات ، سمع منه أبو بكر الخطيب الحافظ وأبو عبد الله الدامغاني [(٣)] وأبو المظفر السمعاني ، وغيرهم. مات سنة تسع وستين وأربعمائة [(٤)] .

- سعد بن علي بن محمد بن علي بن الحسين ، الشيخ الحافظ ، الزاهد، والورع ، أبو القاسم الزنجاني : جاور بمكة ، وصار شيخ حرمها ، جليل القدر ، عالماً ، متقناً ، ورعاً كثير العبادة .

صحبه أبو المظفر بمكة ، عندما دخل إليها ، وكان لأبي القاسم أثر كبير في انتقال أبي المظفر من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي ، مات أبو القاسم الزنجاني سنة إحدى وسبعين وأربعمائة [(٥)] .

- أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله أبو الحسين البزاز المعروف بابن النقور

---

(١) هو : محمد بن المكي بن محمد بن المكي بن زراع بن هارون بن زراع المروزي ، أبو الهيثم الكُشْمِيهَني ، حدث بصحيح البخاري مرات عن أبي عبد الله الفربري حدث عنه جماعة من الحفاظ ، منهم : كريمة المروزية مات سنة ٣٨٩ ، انظر : التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد لابن نقطة ص ١١٠ ، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٩١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٣٣ ، وانظر : التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ص ٤٩٩ وفيه أنها ماتت سنة خمس وستين وأربعمائة وصحح الذهبي الأول .

(٣) هو : أبو عبد الله : محمد بن علي بن محمد بن حسن بن عبد الوهاب الدامغاني « نسبة إلى دامغان وهي بلدة كبيرة بين الري ونيسابور » ولد ٤١٨ وتوفي ٤٧٨ ، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٣٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٣٠ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٤ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٧ .

-بالتخفيف - كان إماماً ، محدثاً ، فاضلاً ، بارعاً ، صدوقاً ، له الخماسيات أفردت من سنن الدارقطني ، أحد المسندين المعمرين ، كتب عنه الخطيب البغدادي ، وكان سماع أبي المظفر منه ببغداد ، مات سنة سبعين وأربعمائة [١] .

- أبو صالح المؤذن : أحمد بن عبد الملك بن علي الحافظ النيسابوري ، مفسر ، ومؤرخ وفقيه ، ومحدث خراسان في وقته قال الذهبي : « سمع أبو المظفر أبا صالح المؤذن وجماعة بنيسابور مات سنة سبعين وأربعمائة » [٢] .

- أبو علي الشافعي : الحسن بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أحمد ابن ابراهيم بن عبد الله بن العباس بن جعفر ابن الخليفة أبي جعفر المنصور ، الخليفة العباسي ، كان أبو علي من الثقات المكثرين ، وأسند من بقي في الحجاز في عهده ، سمع منه أبو المظفر بمكة وروى عنه . مات أبو علي سنة أربع وسبعين وأربعمائة [٣] .

- إبراهيم بن علي بن يوسف ، جمال الدين أبو إسحاق الفيروزأبادي الشيرازي ، شيخ الإسلام ، ومدار العلماء في زمانه ، وأكثر الأئمة اشتغالاً بالعلم ، له من الكتب المهذب في فقه الشافعية ، والتبصرة في أصول الفقه ، وطبقات الفقهاء ، وقد ذكر كل من ابن كثير [٤] والذهبي أن أبا المظفر التقى بأبي إسحاق وأخذ عنه مات أبو إسحاق : سنة ست وسبعين وأربعمائة [٥].

- عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر أبو نصر ابن الصباغ ، أحد الأئمة ، كان نظير أبي إسحاق المتقدم ، والبعض يقدمه عليه ، كان ثبتاً ، حجة ، ديناً ، خيراً

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧٤/١٨ ، البداية والنهاية ١٢٦/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٤/١٩ و ٤١٩/١٨ ، البداية والنهاية ١٢٦/١٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٨٤/١٨ .

(٤) هو : الحافظ أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، الامام العلامة ، صاحب التصانيف المفيدة صحب شيخ الإسلام ابن تيمية ولازمه وحبه حباً عظيماً ولد سنة ٧٠١ ومات سنة ٧٧٤ ، انظر: البدر الطالع للشوكاني ١٥٣/١ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٥٢/١٨ ، البداية والنهاية ٣٣/١٢ .

نزيهاً ، تقياً ، صالحاً ، زاهداً ، فقيهاً ، أصولياً ، محققاً كملت له شروط الاجتهاد المطلق التقى به أبو المظفر ببغداد ، مات ابن الصباغ : سنة سبع وسبعين وأربعمائة [1] .

- أبو بكر النيسابوري : محمد بن محمود بن سوْرَة ، الفقيه الشافعي ، أبو بكر التميمي ، من بيت الثروة والفضل كان رحمه الله على عقيدة السلف الصالح التقى به أبو المظفر بينيسابور وقد أوصى أبا المظفر بوصية غالية ، ستأتي فيما بعد - إن شاء الله - مات أبو بكر النيسابوري رحمه الله : سنة سبع وسبعين وأربعمائة [2] .

ونكتفي بذكر من تقدم من شيوخه - رحمه الله - فإن الغرض ليس الاتيان على جميعهم ، فذلك يحتاج إلى دراسة خاصة ، وإنما الغرض ذكر من كان له أثر واضح في حياة أبي المظفر العلمية . ونلاحظ أن جل هؤلاء الشيوخ ، وهم من أكابر شيوخ السمعاني - رحمه الله- كانوا على مذهب الامام الشافعي - رحمه الله - وكثير منهم كان على عقيدة السلف الصالح ، وكان لهذا أبلغ الأثر في حياة أبي المظفر رحمه الله العلمية والعملية .

المطلب الثالث : رحلته إلى الحج

من الرحلات العلمية الهامة التي قام بها أبو المظفر - رحمه الله - رحلته إلى الحج وقد كانت في حدود سنة إحدى وستين وأربعمائة .

والوقوف على هذه الرحلة أمر مهم ، ذلك أنها تكشف عن جوانب مهمة من حياة أبي المظفر - رحمه الله - العلمية ، وتبرز ما كان يتمتع به من خلال حميدة ، وخصال سديدة .

وسنقوم بسرد رحلة أبي المظفر - رحمه الله - من مصادرها التاريخية ثم نسجل ما يمكن أن يستفاد منها .

قال الذهبي - رحمه الله - : « قال أبو سعد السمعاني - رحمه الله - : سمعت من يحكي عن رفيق جدي في الحج، حسين بن حسن قال : اكترينا حماراً ركبه الإمام أبو المظفر

---

(١) وفيات الأعيان ٢١٧/٣ - ٢١٨ ، سير أعلام النبلاء ٤٨٤/١٨ ، البداية والنهاية ١٣٥/١٢ .

(٢) المنتخب من السياق ٦٢ ، وانظر : اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ١٨٥/٢ .

– رحمه الله – إلى خرق [1] وبينها وبين مرو ثلاثة فراسخ ، فنزلنا وقلت : ما معنا إلا إبريق خزف فلو اشترينا آخر فأخرج خمسة دراهم وقال : يا حسين ، ليس معي إلا هذه خذ واشتر ولا تطلب بعدها مني شيئاً قال فخرجنا على التجريد وفتح الله لنا » [2] . وقال الحسين بن أحمد الحاجي : خرجت مع أبي المظفر إلى الحج فكلما دخلنا بلدة ، نزل على الصوفية ، وطلب الحديث ولم يزل يقول في دعائه : اللهم بين لي الحق فلما نزلنا مكة دخل على أحمد بن علي بن أسد وصحب سعدا الزنجاني حتى صار محدثاً [3] .

قال أبو سعد : « وسمعت شهردار بن شيرويه ، سمعت منصور بن أحمد ، وسأله أبي فقال : سمعت أبا المظفر – رحمه الله – يقول : كنت حنفياً ، فبدا [4] لي ، وحججت ، فلما بلغت سميراء ، رأيت رب العزة في المنام ، فقال لي : عد إلينا يا أبا المظفر ، فانتبهت وعلمت أنه يريد مذهب الشافعي فرجعت إليه » [5] .

قال الذهبي – رحمه الله – : « حج على البرية أيام انقطع الركب ، فأخذ هو وجماعة فصبر إلى أن خلصه الله من الأعراب وحج وصحب الزنجاني . كان يقول : أسرونا ، فكنت أرعى جمالهم فاتفق أن أميرهم أراد أن يزوج بنته ، فقالوا نحتاج أن نرحل لأجل من يعقد لنا فقال رجل منا : هذا الذي يرعى جمالكم فقيه خراسان ، فسألوني عن أشياء ، فأجبتهم وكلمتهم بالعربية ، فخجلوا ، واعتذروا فعقدت لهم العقد ، وقلت الخطبة ، ففرحوا ، وسألوني أن أقبل منهم شيئاً فامتنعت فحملوني إلى مكة وسط العام » [6] .

---

(١) خَرَق بالتحريك ويلفظ العجم خره قرية كبيرة عامرة بمرو ، انظر : مراصد الإطلاع ١/ ٤٦٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٧/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٧/٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ .

(٤) أي : ظهر لي الانتقال عن مذهب أبي حنيفة .

(٥) التدوين ١١٨/٤ ، سير أعلام النبلاء ١١٧/١٩ .

(٦) سير أعلام النبلاء ١٩ / ١١٥ .

وقال أبو جعفر الهمذاني الحافظ [1] : « سمعت أبا المظفر السمعاني يقول : كنت في الطواف ، فوصلت إلى الملتزم وإذا برجل قد أخذ بردائي ، فإذا الإمام سعد ، فتبسمت فقال : أما ترى أين أنت ؟ هذا مقام الأنبياء والأولياء ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم كما سقته إلى أعز مكان ، فأعطه أشرف عز في كل مكان وزمان ، ثم ضحك إليّ ، وقال : لا تخالفني في سرك ، وارفع يديك معي إلى ربك ، ولا تقولن البتة شيئاً ، واجمع لي همتك حتى أدعو لك ، وأمن أنت ولا يخالفني عهدك القديم فبكيت ورفعت معه يدي وحرك شفتيه وأمنت ثم قال : مر في حفظ الله ، فقد أجيب فيك صالح دعاء الأمة فمضيت وما شيء أبغض إليّ من مذهب المخالفين » [2] .

قال أبو سعد : « وسمعت بعض مشايخي يقول : كان جدك الامام أبو المظفر عزم على أن يقيم بمكة ، ويجاور بها ، في صحبة الإمام سعد بن علي الزنجاني فرأى والدته ليلة كأنها كشفت عن شعرها الأبيض ، وقالت : يا أبا المظفر لحقى عليك إلا رجعت إلى مرو ، فإني لا أطيق فراقك ، فانتبهت [3] متردداً وعزمت على أن أشاور شيخي سعد بن علي فمضيت إليه ، فإذا هو جالس في الحرم ، وعنده من الزحام مالم أقدر معه على الكلام ، فلما قام وتفرق الناس ، تبعته إلى باب داره ، فالتفت إليّ ، وقال يا أبا المظفر العجوز ينتظرك ودخل البيت ، فعرفت أنه يتكلم عن ضميري ورجعت مع الحاج » [4] .

---

(١) هو : محمد بن أبي علي بن الحسن بن محمد بن عبد الله أبو جعفر الهمذاني ولد بعد الأربعين والأربعمائة سمع من أبي الحسين بن النقور ، وأبي القاسم بن البُسْري ، وأبي نصر الزينبي ، وحدث بجامع الترمذي ، وأخذ عنه ابن طاهر المقدسي ، وأبو العلاء العطار ، وعبد الرحمن بن عبد الوهاب بن المعزم ، وآخرون . وهو الذي قام في مجلس وعظ إمام الحرمين وأورد عليه في مسألة العلو . فقال : ما قال عارف قط يا ألله ، إلا وقام من باطنه ، قصد تطلب العلو ، لايلتفت يمنة ولايسرة ، فهل لدفع هذه الضرورة من حيلة ؟! فقال : يا حبيب ماثم إلا الحيرة ، توفي أبو جعفر الهمذاني سنة ٥٣١ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٠١/٢٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٨/٥ ، ويعني بمذهب المخالفين مذهب الأحناف كما سيأتي .

(٣) هكذا في التدوين والسياق يقتضي أن يكون « قال أبو المظفر فانتبهت .. » الخ .

(٤) التدوين ١١٨/٤ - ١١٩ .

ومما وقع لأبي المظفر – رحمه الله – في هذه الرحلة ، مناظراته مع علماء الشافعية ببغداد ، فقد ورد بغداد واجتمع بأبي إسحاق الشيرازي [1] وجرى بينه وبين أبي نصر بن الصباغ [2] صاحب الشامل مسألة أحسن الكلام فيها » [3] .

تلك هي رحلة أبي المظفر رحمه الله إلى الحج ، وهي تكشف لنا عن جوانب مهمة من حياة أبي المظفر – رحمه الله – منها :

أولاً : حرصه الشديد على طلب العلم ، ولا سيما علم الحديث ، فكل بلدة يدخلها أبو المظفر – رحمه الله – يطلب الحديث عن علمائها ويناظر الأقران ومن ذلك مناظرته لعلماء الشافعية ببغداد كما تقدم .

ثانياً : حرص الإمام السمعاني – رحمه الله – على الوصول إلى الحق ، ومما يدل على ذلك كثرة دعائه والتجائه إلى الله في أن يريه الحق ويهديه إليه .

ثالثاً : زهده – رحمه الله – وتقلله من الدنيا فقد خرج كما ذكر سابقاً بخمسة دراهم نفدت في أول مرحلة من مراحل الطريق .

رابعاً : توكله على ربه وثقته به ، فقد خرج إلى الحج في سنة استولى فيها الأعراب على الطريق بين مكة وبغداد ، وقد رأينا كيف أن هذا الخروج سبب له الأسر .

خامساً : صبره وتحمله أذى الاسر ورعي الجمال ، وقد كان بالإمكان أن يظهر علمه ، ويبين عن فضله ، ولكنه نآى بنفسه عن حب الظهور ، وصبر حتى أنقذه الله ، وأظهر فضله وهذا يدل على تواضعه أيضاً ، وعدم اكتراثه بالجاه .

سادساً : بره بوالدته ، فقد رأى في المنام أنها تطالبه بالعودة إلى مرو الشاهجان فلبى الدعوة ، وعزم على العودة بعد أن قرر المجاورة بمكة .

ذلك بعض ما نستشفه من رحلة أبي المظفر – رحمه الله – وهي تدل على كمال نبله ورجاحة عقله ، وعلو همته ، وسمو غايته ، وذلك شأن العلماء العاملين ، الزهد في الدنيا

---

(١) ، (٢) تقدمت ترجمتهما ضمن شيوخ أبي المظفر .

(٣) التدوين ١١٨/٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٦/٥ .

وعدم الإغترار بها ، والصبر على الأذى فيها ، والإقبال على الآخرة والرغبة فيما عند الله تعالى .

المطلب الرابع : انتقاله رحمه الله إلى مذهب الامام الشافعي أسبابه وآثاره

من الأمور الهامة في حياة أبي المظفر - رحمه الله - انتقاله من مذهب الإمام أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي - رحمهما الله -

فقد نشأ الامام السمعاني - رحمه الله - على مذهب أبي حنيفة ، الذي هو مذهب والده أبي منصور السمعاني ، كما هو مذهب غالب علماء مرو أيضاً .

وبرع فيه ، وصار فيه من الفحول ، وناظر عليه نحواً من ثلاثين سنة [1] غير أن اتصال أبي المظفر - رحمه الله - بعلماء الشافعية ، ومناظرته لهم إضافة إلى بعض العوامل الأخرى ، جعله يفكر في الإنتقال إلى مذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - وقد ظهر هذا التأثر بل والتفكير الجاد لدى أبي المظفر - رحمه الله - في الإنتقال إلى مذهب الإمام الشافعي واضحاً في رحلته إلى الحج ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وأثناء وجوده في مكة عزم على الإنتقال،ولكنه لم يظهر ذلك، ولما رجع إلى بلده مرو أظهر انتقاله إلى مذهب الامام الشافعي ، فاضطرب أهل مرو، وتشوش العوام ،حتى وردت الكتب من أمير بلخ [2] بالتشديد عليه ، مما اضطره إلى الخروج من مرو إلى طوس [3] [4] .

---

(١) التدوين : ٤/١١٩ ، سير أعلام النبلاء : ١٩/١١٦ .

(٢) بلخ مدينة مشهورة بخراسان من أجلها وأشهرها ذكراً وأكثرها خيراً بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخاً ويقال لجيحون نهر بلخ . انظر : مراصد الإطلاع ١/٢١٧ .

(٣) طوس بالضم ، ثم السكون مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لأحدهما : الطابران ، والأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية . انظر : مراصد الإطلاع ٢/٨٩٧ .

(٤) المنتخب من السياق ٤٤٣ ، وفيات الأعيان ٣/٢١١ ، سير أعلام النبلاء ١٩/١١٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٣٤٤ ، النجوم الزاهرة ٥/١٦٠ .

فخرج رحمه الله وبرفقته ذو المجدين الموسوي ، وفي خدمته عدة من الفقهاء ، فصار إلى طوس ، وقصد نيسابور ، واستقبله الشافعية هناك استقبالاً عظيماً ، وعقد له مجلس التذكير في مدرسة الامام الشافعي ، وكان بحراً في الوعظ ، حافظاً ، فظهر له القبول ، واستحكم أمره في مذهب الإمام الشافعي ، ثم عاد إلى مرو ، ودرس بها في مدرسة الشافعية وقُدم على أقرانه وظهر له الاصحاب وخرج إلى اصبهان وهو في ارتقاء[1] .

وهذا الانتقال له دلالات في حياة أبي المظفر - رحمه الله - فهو يدل على حرص أبي المظفر - رحمه الله - على اتباع الحق ، وإن أدى به ذلك إلى مفارقة الأوطان وهجر الخلان .

كما يدل على مكانته العلمية بين علماء عصره ، وتقدمه على غيره .

وانتقال الإمام أبي المظفر - رحمه الله - من مذهب الحنفية إلى مذهب الشافعية يرجع إلى أسباب ثلاثة فيما يظهر والله أعلم .

السبب الأول : غلبة الرأي على المذهب الحنفي ، فهو أكثر المذاهب الفقهية اعتماداً على الرأي ، واستعمالاً للقياس ، وقد أدى بهم ذلك إلى رد كثير من الأحاديث ، وتقديم القياس عليها إما بدعوى الزيادة على النص ، وهي عندهم نسخ[2] وإما بدعوى عدم ضبط رواتها ، وكونهم ليسوا من الفقهاء ، فيردونها لهذه العلة وحقيقة هذه العلة الطعن في الصحابة - رضي الله عنهم - وليس طعناً في الرواية فقط[3] .

وقد شمل تقديم الرأي على النصوص والتحكم فيها ، بالتضعيف تارة ، وبالتأويل أخرى ، نصوص العقيدة كمسائل التوحيد ، والصفات ، والقدر ، وغيرها . وهو منزلق خطير انحدر فيه كثير من المنتسبين للإسلام من معتزلة ، وأشاعرة ، وغيرهم .

---

(١) المنتخب ٤٤٣ ، سير أعلام النبلاء ١١٦/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٤/٥ .

(٢) انظر أصول السرخسي ٨٢/٢ ، كشف الأسرار للبخاري ١٩١/٣ ، التلويح ٣٦/٢ ، فتح الغفار ١٣٥/٢ .

(٣) انظر أصول السرخسي ٣٤٠/١ - ٣٤١ ، كشف الأسرار للنسفي ٢٦/٢ - ٢٨ .

وقد أثر هذا تأثيراً كبيراً على المسلمين ، وأورثهم الشقاق والفرقة والاختلاف ، حتى كفر الابن أباه ، والاب ابنه وكل هذا بسبب الرأي المشؤوم ، وترك الإعتصام بالكتاب والسنة.

وهذه النتيجة السيئة للإغراق في الرأي ، والتعمق فيه ، تجعل من الطبيعي وجود ردة فعل عنيفة على هذا المنهج ، وذلك بالدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة ، والسير على منهج سلف الأمة ، وفي ذلك فقط المحافظة على كيان الأمة ووحدتها ، وانتشالها من الهوة السحيقة التي تردت فيها .

وهذا ما حصل للإمام السمعاني - رحمه الله - فهو نتيجة للوضع العقدي المتأزم بين علماء عصره وما آلت إليه الامة من فرقة وشتات وتشبث ، بالآراء على غير هدى ، ونظراً لهمته العالية ، ونفسه التواقة لمعرفة الحق وقبل ذلك كله توفيق الله - سبحانه - له جعله يكتشف الخلل العقدي الذي كان عليه غالب علماء بلده ، ومن ثم يبحث عن الحق ويعتقده ويدين به .

وقد عاش رحمه الله صراعاً داخلياً عنيفاً قبل انتقاله مما دفعه إلى أن يتوجه إلى ربه بالدعاء « اللهم بين لي الحق »[1] وقد استجاب الله دعاءه ، وهداه إلى عقيدة السلف الصالح والتي هي عقيدة اليقين والإطمئنان .

السبب الثاني : غلبة عقيدة القدرية على علماء الأحناف في مدينة مرو ، وهي عقيدة مباينة لعقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم - ومخالفة للكتاب والسنة وأثر من آثار الاغراق في الرأي ، والإعتماد عليه ، وجعله أصلاً مقدماً على نصوص الكتاب والسنة في تقرير مسائل الإعتقاد .

وقد بين الامام أبو المظفر - رحمه الله - هذا السبب في رسالة بعث بها إلى أخيه عندما قال له هذا الأخير : تركت مذهب الوالد ، قال أبو المظفر - رحمه الله - « ما تركت مذهب الوالد في الأصول وإنما تركت عقيدة أهل القدر فإن أهل مرو صاروا في معتقدهم إلى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٨/٥ .

مذهب القدرية»[1].

وقد كان لهذا الشعور بالإنحراف في مسألة القدر، تأثير واضح على أبي المظفر -رحمه الله- فقد حمل حملة شعواء، على القدرية، وجند لسانه وقلمه لابطال معتقدهم الباطل، وألف في ذلك كتاب القدر، وتفسيره مليء بالرد على القدرية وبيان بطلان مذهبهم.

السبب الثالث: الرفقة الصالحة

فقد رافق أبو المظفر - رحمه الله - مجموعة من علماء الشافعية المشهود لهم بالخير والصلاح، وكانوا على عقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم -

والذي يبدو أنه لا بد أن تكون جرت بينهم وبين أبي المظفر - رحمه الله - مناظرات قبل التأثير عليه، فقد كان رحمه الله مناظراً، بارعاً، ومثله لا يمكنه أن يتخلى عما يعتقده إلا بعد البحث والتحري.

ومن أهم العلماء الذين التقى بهم أبو المظفر رحمه الله ورافقهم اثنان.

أحدهما فقيه الشافعية في وقته، الامام أبو بكر محمد بن محمود بن سورَة التميمي[2] فقيه نيسابور رحمه الله فقد التقى به أبو المظفر - رحمه الله - وكان من وصيته لأبي المظفر «إن أردت أن يكون لك درجة الأئمة في الدنيا والآخرة فعليك بمذهب السلف الصالح، وإياك أن تداهن في ثلاث مسائل: مسألة القرآن، ومسألة النبوة، ومسألة استواء الرحمن على العرش باستدلال النص من القرآن والسنة المأثورة عن النبي ﷺ[3].

والامام الثاني: من أئمة الشافعية الذين صحبهم أبو المظفر - رحمه الله - وكان له أبلغ الأثر عليه سعد بن علي الزنجاني[4] وقد كان هذا العالم العلامة على مذهب السلف في العقيدة له قصيدة في السنة أولها:

---

(١) الانساب ٧/٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) تقدمت ترجمته ضمن شيوخ الامام السمعاني رحمه الله.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ٢/١٨٥.

(٤) تقدمت ترجمته ضمن شيوخ السمعاني.

تمسك بحبل الله واتبع الأثر ودع عنك رأيا لا يلائمه خبر [١] .

صحبه الإمام السمعاني - رحمه الله - بمكة عندما قدم إليها حاجاً ، ولازمه حتى صار من أهل الحديث [٢] .

قال أبو المظفر - رحمه الله - « كنت في الطواف ، فوصلت إلى الملتزم ، وإذا برجل أخذ بردائي ، فإذا الإمام سعد ، فتبسمت فقال : أما ترى أين أنت ؟! هذا مقام الأنبياء والأولياء ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم كما سقته إلى أعز مكان ، فأعطه أشرف عز في كل مكان وزمان ثم ضحك إليّ ، وقال : لا تخالفني في سرك وارفع يديك معي إلى ربك ولا تقولن البتة شيئاً واجمع لي همتك ، حتى أدعوا لك وأمّن أنت ولا يخالفني عهدك القديم فبكيت ، ورفعت ، يدي وحرك شفتيه ، وأمنت ثم قال : مر في حفظ الله ، فقد أجيب فيك صالح دعاء الأمة ، فمضيت وما شيء أبغض إلي من مذهب المخالفين » [٣] .

تلك : هي الأسباب التي أدت بالإمام السمعاني - رحمه الله - إلى الإنتقال إلى مذهب الامام الشافعي - رحمه الله - .

أما ما ذكرته الدكتورة منيرة ناجي سالم ، من أن أبا المظفر انتقل إلى مذهب الامام الشافعي رغبة في الحظوة عند نظام الملك [٤] وطمعاً في التدريس بالمدارس النظامية التي أنشأها[٥] فهذا السبب باطل قطعاً ، إذ لا دليل عليه ، والأسباب المتقدمة تبطله ، كما أن فيه تهمة لأبي المظفر - رحمه الله - خيث أنه انتقل من أجل الدنيا ، ونفس أبي المظفر رحمه الله

---

(١) انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية ١٩٧/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٨/٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٨/٥ .

(٤) هو : أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي ، الوزير الكبير ، نظام الملك ، عاقل ، سائس ، خبير ، متدين ، عامر المجلس بالقراء ، والفقهاء ، وزير السلطان ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه ، أنشأ عدة مدارس عرفت بالمدارس النظامية . ولد سنة ٤٤٨ ، وتوفي سنة ٤٨٥ ، سير أعلام النبلاء ٩٤/١٩-٩٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٠٩/٤-٣٢٩ .

(٥) انظر : تاج الإسلام أبو سعد السمعاني ، وكتابه التحبير ص ٤٢ .

الزاهدة الورعة الباحثة عن الحق ترد هذا الادعاء ؛ والله سبحانه أعلم .

الآثار التي نتجت عن انتقاله :

ولقد كان لهذا الانتقال آثاره على أبي المظفر - رحمه الله - ومن هذه الآثار :

أولاً : خروجه من بلده نتيجة القطيعة التي حصلت بينه وبين الحنفية ، وتألبهم عليه وسعيهم به لدى أمير بلخ ، مما حدى بهذا الأخير ، أن يصدر أمراً بالتشديد والتضييق عليه .

ثانياً : علو منزلته عند الشافعية وتقديمه عندهم على غيره من علماء بلاد خراسان.

ثالثاً : شدته على الحنفية ، فقد ألف كتابه الاصطلام يرد فيه على أبي زيد الدبوسي[1] في الاسرار التي جمعها .

رابعاً : أن مؤلفاته كلها ألفها بعد انتقاله إلى مذهب الامام الشافعي - رحمه الله - ولعل هذا من بركة التمسك بعقيدة السلف ، فإن أغلب مؤلفاته كانت في الانتصار لعقيدة السلف - رضي الله عنهم - .

خامساً : شدته على أهل البدع ، وانتصاره لأهل السنة ، فقد شد من أزر أهل الحديث والسنة والجماعة ، وكان شوكاً في أعين المخالفين وحجة لأهل السنة [2] .

تلك هي بعض الآثار التي ترتبت على انتقال الامام السمعاني - رحمه الله - وهي تؤكد أن انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي لم يكن أبداً من أجل حظوظ الدنيا ، أو كسب الجاه ، وإنما انتقل من أجل حق رآه ، فاعتقده ، ودافع عنه ، وتحمل في سبيله المشاق ، والله المستعان .

---

(١) هو : أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي ، البخاري ، عالم ما وراء النهر ، وأول من وضع علم الخلاف وأبرزه ، كان من أذكياء الأمة ، من مؤلفاته : تقويم الأدلة ، الأسرار ، الأمد الأقصى . توفي ببخارى سنة ٤٣٠ . انظر : وفيات الأعيان ٤٨/٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٥١/١٧ ، وقال ابن خلكان : « والدبوس بفتح الدال المهملة وضم الباء الموحدة وبعدها واو ساكنة وسين مهملة هذه نسبة إلى دبوسة وهي بليدة بين بخارى وسمرقند ، نسب إليها جماعة من العلماء .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ١١٦/١٩ .

السر في انتقاله إلى مذهب الامام الشافعي دون غيره :

الذي يظهر والله أعلم : أن اختيار أبي المظفر - رحمه الله - لمذهب الشافعي دون غيره يرجع إلى سببين .

السبب الأول : الانتشار الكبير لكل من المذهبين الحنفي والشافعي في بلاد خراسان في عصر الإمام السمعاني رحمه الله .

فقد كان الغالب على أهل مرو المذهب الحنفي بدليل أنه لما انتقل أبو المظفر - رحمه الله - إلى المذهب الشافعي تشوشت العامة ، واضطرب أهل مرو ، وسعوا في إخراجه ، وقد خرج فعلاً ولو كانت الغالبية شافعية لما اضطر إلى الخروج [١] .

أما المذهب الشافعي فقد كان الثاني في مدينة مرو من حيث نسبة الاتباع ، وكانت مدارس الشافعية منتشرة في بلاد خراسان ، في نيسابور ، وطوس ، وغيرهما [٢] .

وقد كان بين المذهبين تنافس شديد على استمالة الأمراء ، والوزراء ، وجمهرة الناس وهذا ناتج عن التعصب الممقوت لآراء الرجال ، وعدم الاكتفاء بالكتاب والسنة ، وهو من الفهم المنكوس الذي تردت فيه الأمة في أوقات غياب الوعي الإسلامي الصحيح .

أما المذهب المالكي : فمركزه في بغداد والحجاز ومصر وإفريقيا والمغرب والاندلس وليس له وجود يذكر في بلاد خراسان ، كما يظهر ذلك من تراجم رجال المذهب المالكي[٣] .

وأما المذهب الحنبلي فعلى الرغم من أن الإمام أحمد نفسه مروزي الأصل وقد كان جماعة كثيرة في عهده من المراوزة إلا أنه يبدو أن المذهب الحنبلي لم ينتشر إنتشاراً كبيراً في بلاد خراسان ، وبقي مركزه في القرن الخامس وما بعده في بغداد والشام (سوريا وفلسطين)

---

(١) انظر : التدوين ١١٩/٤ ، سير أعلام النبلاء ١١٦/١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٦/١٩ .

(٣) انظر في ذلك : ترتيب المدارك ، الديباج المذهب ، نيل الابتهاج . بتطريز الديباج ، شجرة النور الزكية في تراجم المالكية .

وقد كانتا أكبر عائلتين خدمتا مذهب الإمام أحمد - رحمه الله - في القرن السادس والسابع الهجريين عائلة المقادسة وعائلة المجد بن تيمية وكلاهما بالشام ، وكذلك لمذهب الإمام أحمد -رحمه الله - وجود كبير في مصر في تلك الفترة .

هذا بالإضافة إلى أن المذهب الشافعي كان له دور كبير في خراسان في الدفاع عن عقيدة السلف ، والدعوة إلى السنة وتحكيمها في الأصول والفروع ، وقد كان من الشافعية الالكائي صاحب أصول اعتقاد أهل السنة ، والامام البغوي ، ومحمد بن إسماعيل التيمي [1] صاحب كتاب الحجة ، وفي الفروع نجد أن كتابي البيهقي [2] السنن الكبرى والصغري دعوة صريحة إلى الإعتماد على السنة في الاحكام الفرعية ، وكذلك البغوي في كتابه شرح السنة .

فالمذهب الشافعي مثله مثل المذهب الحنبلي في الالتزام بالسنة واعتمادها في الأصول والفروع ، وهذا في الغالب ، وإلا فقد وجد من الشافعية من انتحل مذهب الأشاعرة[3]

---

(١) ستأتي ترجمته ضمن تلاميذ السمعاني .

(٢) هو : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسر وجردي أبو بكر البيهقي الحافظ العلامة ، الثبت ، الفقيه ، شيخ الإسلام ، ولد سنة ٣٨٤ ، سمع من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي ، وهو أقدم شيخ له ، وسمع من الحاكم أبي عبد الله فأكثر جداً ، وتخرج به ، وسمع من خلق كثير ، وصنف التصانيف النافعة منها : السنن الكبرى ، السنن الصغرى ، شعب الإيمان ، وغيرها . توفي رحمه الله سنة ٤٥٨ . انظر : التقييد ص : ١٣٧-١٣٩ ، ترجمة رقم ١٥٧ ، المنتخب من السياق ص ١٠٣ ترجمة رقم ٢٣١ ، سير أعلام النبلاء ١٨/١٦٣-١٧١ .

(٣) الأشاعرة : نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ، وقد تقدم التعريف به وأنه مر بأطوار ثلاثة في منهجه العقدي الاعتزالي ، فالكلابي ، ثم منهج السلف الصالح - رضي الله عنهم - والأشاعرة إنما ينتسبون إلى طوره الثاني وهو الطور الكلابي : وهو مذهب يختلف عن عقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم- في أمور كثيرة منها : أول ما يجب على المكلف ، ومنها الصفات الخبرية ، ولهم في الصفات العقلية اضطراب أيضاً : ومنها رؤية الله عز وجل في الدار الآخرة ، والتوحيد المهم عند الأشاعرة والذي أجهدوا أنفسهم في تقريره هو توحيد الربوبية ، أما توحيد الالهية والذي هو أهم أنواع التوحيد فلا يكاد يذكر في كتب الأشاعرة إلا لماما . انظر عن كل ما تقدم : سير أعلام النبلاء ١٥/٨٥-٩٠ ، مقدمة الشيخ حماد الأنصاري حفظه الله لكتاب الإبانة ص ٧-٣٧ ، = =

كما وجد من الحنابلة أيضاً من انتحل مذهب المتكلمين ؛ وذلك كابن عقيل [١] وابن الجوزي [٢] .

ومن القرن السادس الهجري ، وبعد انتشار كتب الجويني [٣] والغزالي [٤] ابتعد

= = مقدمة عبد الله شاكر محمد الجنيدي لكتاب رسالة إلى أهل الثغر ص ٣١-٧٩ ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عدد ٦٢ ص ٦٥-١٤ ، بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة .

(١) هو : علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله أبو الوفاء بن عقيل البغدادي ، الظفري ، الحنبلي ، المتكلم ، تفقه على القاضي أبي يعلى بن الفراء ، وأخذ علم العقليات عن شيخي الاعتزال أبي علي بن الوليد ، وأبي القاسم بن التبان ، صاحبي أبي الحسين البصري ، فحصل له شائبة تجهم واعتزال وانحرافات قال الذهبي فيه : « أحد الأعلام وفرد زمانه علماً ونقلا وذكاء وتفننا » إلا أنه خالف السلف ووافق المعتزلة في عدة بدع نسأل الله السلامة ، فإن كثرة التبحر في علم الكلام ربما أضر بصاحبه ، ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه . من مؤلفات ابن عقيل : كتاب الفنون وهو كتاب ضخم يقع في اربعمائة وسبعين مجلدا ولد ابن عقيل سنة ٤٣١ ، وتوفي سنة ٥١٣ . انظر : سير أعلام النبلاء ٤٤٣/١٩-٤٥١ ، معرفة القراء الكبار ٤٦٨/١-٤٦٩ ، ترجمة رقم ٤١٢ ، ميزان الاعتدال ٦٦/٤ ، رقم ٥٨٩٢ .

(٢) هو : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله أبو الفرج بن الجوزي ، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – أخذ العلم عن جماعة كثيرة يزيد عددهم عن ثمانين شيخاً ، كان رأساً في التذكير والوعظ بلا مدافعة ، وبلغت تصانيفه أكثر من مائتين وخمسين مصنفاً منها : زاد المسير في التفسير ، المنتظم في التاريخ ، نواسخ القرآن ، وعلى جلالة قدر الإمام ابن الجوزي رحمه الله فقد خاض في التأويل بما لايتفق مع منهج السلف الصالح – رضي الله عنهم – متأثراً في ذلك بمنهج أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة ، ولد ابن الجوزي – رحمه الله – سنة ٥٠٨ ، وقيل ٥١٠ ، وتوفي سنة ٥٩٧ . انظر : وفيات الأعيان ١٤٠/٣-١٤٢ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٥ ، ٣٨٥ .

(٣) هو : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبو المعالي ، إمام الحرمين ، من كبار علماء الأشاعرة وله في تقرير مذهبهم « الإرشاد » و « الشامل في أصول الدين » وقد رجع – رحمه الله – في آخر حياته إلى عقيدة السلف الصالح ، وألف « الرسالة النظامية » وندم على اشتغاله بعلم الكلام وحذر منه ، ومما ورد عنه في ذم علم الكلام قوله : « يا أصحابنا لاتشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به » ولد بجوين من نواحي نيسابور سنة ٤١٩ ، وتوفي سنة ٤٧٨ . انظر : ذيل تاريخ بغداد لابن النجاري ٨٥/١-٩٥ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٨/١٨-٤٧٧ .

(٤) هو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، الشافعي أبو حامد الغزالي ، = =

فقهاء الشافعية عن عقيدة السلف ، وغلبت عليهم العقيدة الأشعرية ولم يبق منهم من هو قريب من عقيدة السلف إلا المحدثون منهم ، مثل : النووي [١] وابن حجر [٢] وابن كثير والذهبي ، وغيرهم . والأخيران عقيدتهما سلفية قحة .

= = صاحب التصانيف والذكاء المفرط ، تفقه ببلده أولاً ثم تحول إلى نيسابور ، ولازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل ، وأدخله سيلان ذهنه في مضائق الكلام ، ومزالق الاقدام ، وتقلب بين الفلاسفة والمتكلمين ، والصوفية ، وصنف التصانيف التي لم يخل واحد منها من الدخن ، من مصنافاته : إحياء علوم الدين ، المستصفى ، تهافت الفلاسفة ، وقد روي أنه رجع في آخر أيامه إلى عقيدة أهل الحديث ، ومات وصحيح البخاري على صدره ، لكن ما أودعه في كتبه من أقوال الفلاسفة والباطنية وشطحات الصوفية انتشر وعم وطم ، والله يغفر لنا وله ، ولد أبو حامد - رحمه الله - سنة ٤٥٠ ، وتوفي سنة ٥٠٥ . انظر : المنتخب من السياق ص : ٧٣-٧٥ ، ترجمة رقم ١٦١ ، وفيات الأعيان ٢١٦/٤-٢١٩ ، سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٩-٣٤٦ .

(١) هو : يحي بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي ، الدمشقي ، الشافعي . محي الدين ، أبو زكريا ، فقيه ، ومحدث ، ونحوي مشارك في جملة من العلوم ، والإمام النووي - رحمه الله - على الرغم من تبحره في علوم السنة فقد سلك منهج الأشاعرة في تأويل نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بالصفات ، وصرفها عن الحق الثابت لها والذي دان به السلف - رضي الله عنهم - والذي حدا بالإمام النووي - رحمه الله - أن يسلك مسلك الأشاعرة في تأويل نصوص الصفات إنما هو حسن ظنه بالمتكلمين ، وحسن الظن وحده لايكفي في تحرير مسائل العقيدة بل لابد من الرجوع إلى مادل عليه الكتاب والسنة واعتقده السلف - رضي الله عنهم - فهم أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً ، وللإمام النووي - رحمه الله - مؤلفات من أهمها : شرح صحيح مسلم ، روضة الطالبين ، المجموع شرح المهذب، في فقه الشافعية ولم يكمله . ولد الإمام النووي - رحمه الله - سنة ٦٣١ ، وتوفي سنة ٦٧٧ . انظر: تذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٦٧/٥ ، مقدمة كتاب إرشاد طلاب الحقائق بقلم عبد الباري فتح الله السلفي ص : ٧-٣١ .

(٢) هو : أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني ، العسقلاني، الحافظ ابن حجر ، محدث ، ومؤرخ ، وأديب ، وشاعر ، زادت تصانيفه على مائة وخمسين مصنفاً منها : فتح الباري ، الاصابة في تمييز الصحابة ، الدرر الكامنة ، وقد نهج الإمام ابن حجر - رحمه الله - في تأويل نصوص الصفات منهج الأشاعرة ، ولد الإمام ابن حجر - رحمه الله - سنة ٧٧٣ ، وتوفي سنة ٨٥٢ . انظر : الضوء اللامع ٣٦/٢-٤٠ ، شذرات الذهب ٢٧/٧ ، البدر الطالع ٨٧/١-٩٢ .

وعلى هذا فلا غرابة أن ينتقل أبو المظفر إلى مذهب الامام الشافعي - رحمه الله - لاقتناعه بموافقته العقيدة السلفية .

السبب الثاني : احتكاك أبي المظفر - رحمه الله - بعلماء الشافعية ، وأخذه عنهم ومناظرته لهم ، جعله يعجب بالمذهب الشافعي أصولاً وفروعاً ويكتشف أشياء في المذهب الحنفي تبرر له انتقاله منه ، فهو طالب حق ، والحكمة ضالته ، أينما وجدها فهو أولى الناس بها .

المطلب الخامس : تصدره للتدريس

نشأ أبو المظفر - رحمه الله - على مذهب الامام أبي حنيفة - رحمه الله - وبقي على ذلك فترة طويلة وكان - رحمه الله - مفتي الحنفية في وقته ، فهو فقيه ، مناظر ، علم بارز ، يشهد بفضله وتقدمه القاصي والداني ، والصديق والعدو .

ومع كل هذا التقدم والفضل ، لم نجد نصاً واحداً صريحاً يدل على أنه تصدى للتدريس والافادة في عهده الحنفي ، إلا أنني أعتقد جازماً أنه لا بد أن يكون قد تصدى للتدريس في مدارس الاحناف قبل انتقاله إلى مذهب الامام الشافعي - رحم الله الجميع - إذ لا يمكن أن يتصدى للفتوى ، ومناظرة العلماء ، ولم يكن تصدى للتدريس وإفادة الطلاب فهذا بعيد جداً حسبما يبدو لي .

ولما انتقل إلى مذهب الامام الشافعي - رحمه الله - تصدر مجالس التدريس في مدارس الشافعية فعقد له مجلس التذكير في مدرسة الامام الشافعي بمدينة نيسابور ، ووصف بأنه كان بحراً في الوعظ ، حافظاً ، متقناً ، وظهر له القبول بسبب ذلك واستحكم أمره في مذهب الامام الشافعي رحمه الله [١] .

ولما رجع إلى مدينة مرو ، درس في مدرسة الشافعية ، وقدم على غيره ، وظهر له الأصحاب .

---

(١) انظر : المنتخب ٤٤٣ .

وقد أملى نحوا من تسعين مجلساً في الحديث [١] ، وكانت مجالس وعظه كثيرة النكت والفوائد [٢] والذي يظهر من خلال قراءة تفسيره أنه أملاه إملاء ولم يقم بكتابته بنفسه ويدل على ذلك أمران :

الأمر الأول : عدم ظهور الصناعة التأليفية في تفسيره .

الأمر الثاني : التصريح في كثير من الاحاديث بقول أخبرنا أبو المظفر قال : أو قال -رضي الله عنه - [٣] : «وهذا يدل على أن هذا التفسير من كتابة تلميذ من تلاميذه أثناء إملاء أبي المظفر رحمه الله لدرس التفسير والله أعلم .

وعلى كل حال فإن تصدر أبي المظفر للتدريس والافادة ، أمر مقطوع به ، لا يتطرق إليه الشك وقد أفاد منه كثير من الطلاب كما سيأتي ذكرهم .

المطلب السادس : تلاميذه

لقد نهل من منهل أبي المظفر - رحمه الله - الصافي ، وعلمه الغزير ، كثير من طلاب العلم والمعرفة ، سواء أولئك الذين تتلمذوا عليه بالملازمة له ، والتحصيل عليه أو أولئك الذين التقوا به أثناء تجوالهم وترحالهم في طلب الحديث ، والفقه ، وغيرهما .

وقد كان - رحمه الله - من المكانة التي تؤهله لأن تشد إليه الرحال ، وتؤخذ عنه الرواية قال حفيده أبو سعد : « وانتشرت عنه الرواية وكثر أصحابه وتلامذته [٤] » وذكر

---

(١) وقد أورد الإمام السيوطي - رحمه الله - في الجامع الصغير حديثاً من الأحاديث التي أوردها أبو المظفر - رحمه الله - في أماليه . انظر : الجامع الصغير بشرحه فيض القدير ٤٨٤/٥ ، وانظر : ضعيف الجامع رقم ٥١٨٢ .

(٢) انظر : الأنساب ٢٢٤/٧ .

(٣) انظر على سبيل المثال : تفسير السمعاني بتحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله ص ١١٥ . ٢٨١، ٢٩٣ . ٣٤٥ ، تفسير السمعاني بتحقيق عبد البصير مختار ص : ٣٣٦ . ٣٤٨ . ٣٨٣ . ٣٩٨ . ٣٩٩، ٤٠٩ . ٥٦٤ .

(٤) الانساب ٢٢٥/٧ .

-رحمه الله - في كتابه التحبير ، جماعة كثيرة ، من أولئك الذين تتلمذوا على جده وأخذوا عنه [1] .

ومما قاله أيضاً : « روى لي الحديث عنه جماعة كثيرة تزيد على الخمسين نفراً » [2] .

وقال الرافعي : « وروى عنه الأئمه » [3] وقال الذهبي بعد أن عدد بعض من روى عنه: « وخلق كثير » [4] .

وقد ذكر عبد القادر منصور أكثر من ثمانين تلميذاً من تلاميذ أبي المظفر - رحمه الله - [5].

وأرى من الضروري الوقوف بالقارئ على بعض تلاميذ الامام أبي المظفر - رحمه الله- إذ أن تلاميذ العالم نتاج من إنتاجه العلمي ، وأثر من آثاره ، ومساهمة منه في الحفاظ على هذا الدين ، ونقله إلى الأجيال المعاصرة له ، واللاحقة به .

كما أن نبل التلاميذ ، ونوعيتهم المتازة ، تظهر فضل الشيخ ومكانته العلمية بين علماء عصره ، فإن التلاميذ النبهاء ، لا يأخذون في الغالب إلا عن العلماء الفضلاء ، المبرزين وسنكتفي بذكر بعض المشهورين منهم ، ومن أراد الإستزادة فعليه بكتاب التحبير لحفيد أبي المظفر ، ومقدمة الدكتور عبد القادر منصور لتحقيق تفسير السمعاني .

ومن هؤلاء المشهورين :

- ابنه تاج الاسلام أبو بكر محمد بن منصور السمعاني ، وقد تقدمت ترجمته .

---

(١) انظر على سبيل المثال : التحبير ٢٦٠/١ . ٣٣٠ . ٣٣١ . ٣٤٥ . ٣٥٣ . ٣٦٩ . ٣٧٣ . ٣٧٥ . ٣٧٦ . ٤٠١ . ٤٠٢ . ٤٠٨ . ٤١٤ . ٤١٥ . ٤٤٠ . ٤٤٢ . ٤٧٢ .

(٢) الأنساب ٢٢٥/٧ .

(٣) التدوين ١١٩/٤ - ١٢٠ .

(٤) سيرأعلام النبلاء ١١٥/١٩ .

(٥) تفسير السمعاني ، تحقيق عبد القادر منصور ، المقدمة ص : ٤٠ - ٨٦ .

- أبو بكر الخَرْجَرْدي [1] : أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إبراهيم ابن بشار البوشنجي [2] الخرجردي البشاري ، كان إماماً فاضلاً متقناً تتلمذ لأبي المظفر السمعاني وعلق عليه الخلاف ، والأصول ، وكتب تصانيفه بيده ولد سنة ثلاث وستين وأربعمائة وتوفي بنيسابور ، يوم الخميس السابع من شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة [3] .

- أبو الفتح : أسعد بن أبي نصر بن الفضل ، القرشي ، العمري شيخ الشافعية الميهني [4] صاحب التعليقة [5] تفقه على أبي المظفر السمعاني ، وكان يتوقد ذكاء ، توفي بهمذان سنة سبع وعشرين وخمسمائة [6] .

- أبو سعد : إسماعيل بن الحافظ المؤذن أبي صالح أحمد بن عبد الملك بن علي النيسابوري ، الواعظ ، المشهور بالكرماني ، لسكناه بها كان ذا عقل وعلم وبرع في الفقه ، تفقه على أبي المظفر السمعاني ولد سنة احدى أو اثنتين وخمسين واربعمائة وتوفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة [7] .

- أبو القاسم : إسماعيل بن محمد التيمي ، الحافظ ، صاحب كتاب الحجة في بيان المحجة وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة [8] قال عنه أبو سعد السمعاني : « وهو أستاذي في

---

(١) الخرجردي نسبة إلى « خَرْجِرْد » بالفتح ثم بالسكون ثم جيم مكسورة وراء ساكنة ودال بلدة قرب بوشنج هراه ، انظر : مراصد الاطلاع ٤٥٨/١ .

(٢) البوشنجي نسبة إلى « بوشنج » بفتح الشين وسكون النون وجيم بلدة حصينة في وادي مشجر من نواحي هراة بينهما عشرة فراسخ ، مراصد الاطلاع ٢٣١/١ .

(٣) التحبير ٤٤٨/٢ ، الانساب ٨٣/٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥١/٦ .

(٤) الميهني : نسبة إلى ميهَنة بكسر الميم قرية من قرى خابران من خراسان ، مراصد الاطلاع ١٣٤٦/٣ .

(٥) كتاب في اختلاف الفقهاء ، ولعلها في الخلاف بين الشافعية والحنفية . انظر : طبقات الشافعية لابن الصلاح ٤١٢/١ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٦٣٣/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٤٢/٧ ، البداية والنهاية ٢٠٠/١٢ .

(٧) التحبير ٨٠/١ - ٨٢ ، تذكرة الحفاظ ١٢٧٧/٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ٤٤/٧ .

(٨) الكتاب طبع بتحقيق محمد بن ربيع ، ومحمد محمود أبو رحيم .

الحديث ، وهو إمام في التفسير ، والحديث ، واللغة ، والأدب ، عارفاً بالمتون والأسانيد عديم النظير لا مثيل له تتلمذ لأبي المظفر السمعاني ، ونقل عنه كثيراً في كتابه الحجة [١] توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة [٢] .

– أبو عبد الله البيهقي : الحسين بن أحمد بن علي بن فطيمة البيهقي ، من أهل خَسْرُوجَرْد ، إحدى قرى بيهق ، وهو قاضيها ، كان شيخا ، فاضلاً ، جليل القدر ، حسن السيرة ، مليح الأخلاق ، كثير المحفوظ ، داره مجمع الفضلاء والعلماء ، ورد مرو ، وأقام بها مدة يتفقه على الامام أبي المظفر السمعاني ولد قبل خمسين وأربعمائة ، وتوفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة [٣] .

– أبو محمد البار نباذي : عبد الرحمن بن علي بن أبي العباس بن علي بن الحسين ابن الموفق النعيمي ، المعروف بالبار نباذي من أهل مرو ، أحد أئمة الشافعية بمرو ، كان فقيهاً فاضلاً ، عارفاً بالمذاهب ، مناظراً ، ورعاً ، كثير التلاوة والصلاة ، تفقه على أبي المظفر السمعاني وسمع الحديث منه ، قرأ عليه أبو سعد : من كتاب الانتصار لجده أبي المظفر ، توفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة [٤] .

– أبو محمد المقرئ : عبد الله بن محمد بن الحسن الحمامي المقرى المعروف بأوليا ، من أهل مرو ، كان شيخاً ، صالحاً ، ورعاً ، حسن السيرة ، سمع أبا المظفر ، وغيره . قرأ

---

(١) انظر : الحجة في بيان المحجة ١/٣١٤ – ٣٢٢ ، و١/٣٦١ – ٣٦٦ و ٢/١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠-٤١ ، ٤٦-٦٢ ، ومواضع أخرى منه .

(٢) الانساب ٣/٤٠٨-٤٠٩ ، التدوين ٤/١١٩ ، تذكرة الحفاظ ٤/١٢٧٧ ، سير أعلام النبلاء ٢٠/٨٠ ، البداية والنهاية ١٢/٢٣٣ ، طبقات المفسرين للداودي ١/١١٤-١١٥ ، التدوين ٤/١١٩ .

(٣) التحبير ١/٢٢٢ – ٢٢٥ ، معجم البلدان ١/٥٣٨ ، التقييد لابن نقطه ٢٤٤ ، سير أعلام النبلاء ٢٠/٦٠ ، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٧٣ .

(٤) التحبير ١/٤٠٢ – ٤٠٣ ، طبقات الشافعية البكرى ٧/١٥٢ – ١٥٣ .

عليه أبو سعد مجلساً من أمالي جده ، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وخمسمائة [١] .

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله الفنْدِيني من قرية فنْدين[٢] ، كان فقيه القرية ، سمع من الامام أبي المظفر ، وقرأ عليه أبو سعد شيئاً من الاحاديث الالف التي جمعها جده ، توفي بقرية فُندين سنة ست وثلاثين وخمسمائة [٣] .

- أبو بكر الشاشي : عمر بن عبد الرحيم ، من أهل شاش ، سكن مرو وسمع الحديث من أبي المظفر ، سمع منه أبو سعد السمعاني بعض مروياته ، ولد بشاش في حدود سنة خمسين وأربعمائة ، وتوفي بمرو سنة ثمان أو تسع وعشرين وخمسمائة [٤] .

- أبو الفتح : فضل الله بن محمد بن محمود بن علي بن شجاع الشجاعي السَّرْخَسِي من أهل سَرْخَس [٥] ، سمع بمرو أبا المظفر السمعاني توفي بنيسابور سنة ثمان وعشرين وخمسمائة [٦] .

- أبو عبد الله : محمد بن سعد بن محمد بن عبد العزيز بن يوسف الفاشانى من قرية فاشان [٧] كان شيخاً ، صالحاً سديد السيرة ، سمع أبا المظفر السمعاني ، وقرأ عليه أبو سعد السمعاني أجزاء من الاحاديث الالف التي جمعها جده ، ولد في حدود خمسين وأربعمائة وتوفي بفاشان سنة ست وثلاثين وخمسمائة [٨] .

---

(١) التحبير ١/٣٧٥ .

(٢) فنْدِين بالضم ثم السكون وكسر الدال المهملة وياء مثناه من تحت ، ونون ، من قرى مرو . مراصد الاطلاع ٣/١٠٤٥ .

(٣) الانساب ١٠/٤٤٩ ، معجم البلدان ٤/٢٧٨ .

(٤) التحبير ١/٥١٨ - ٥١٩ .

(٥) (سَرْخَس) بالفتح ثم السكون وفتح الخاء المعجمة واخره سين مهملة ويقال سرخس بالتحريك مدينة قديمة من نواحي خراسان بين نيسابور ومرو مراصد الاطلاع ٢/٧٠٥ .

(٦) التحبير ٢/١٣٠ .

(٧) فاشان بالشين المعجمة وآخره نون قرية من نواحي مرو مراصد الإطلاع ٢/١٠١٤ .

(٨) التحبير ٢/١٣٠

- أبو المجد الشيرازي : محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الفارسي ، الشيرازي ، سكن مرو ، كان صالحاً ، حسن السيرة سمع بقراءته الكثير ، وكان من المختصين بالامام أبي المظفر ولد في حدود سنة أربعين وأربعمائة ومات سنة خمس وعشرين وخمسمائة [1] .

- أبو طاهر السنجي : محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي سهل بن أبي طلحة المروزي ، الحافظ ، المؤذن ، الخطيب ، فقيه ، صالح ، تفقه على أبي المظفر وسمع الكثير منه ولد سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وتوفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة [2] .

- أبو نصر الفاشاني : محمد بن محمد بن يوسف الفاشاني ، المروزي ، من أهل قرية فاشان كان إماماً مفسراً مفتياً محدثاً ديناً فاضلاً عارفاً بالأدب والنحو حسن السيرة صنف أخبار العلماء سمع أبا المظفر السمعاني وغيره ولد سنة أربع وخمسين وأربعمائة وتوفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة [3] .

نكتفي بذكر هؤلاء الجماعة العلماء النبهاء الفضلاء من تلاميذ أبي المظفر رحمه الله وهذه العينة المشهورة من تلاميذه إن دلت على شيء فإنما تدل على سعة علمه وتنوع معارفه وعظيم قدره فتلاميذه منهم الحافظ والفقيه والاصولي والمفسر واللغوي ولا شك أن أبا المظفر -رحمه الله - له باع في كل هذه الفنون ، فكل تلميذ أخذ عنه فناً أو أكثر من فنونه الكثيرة فمنهم من أخذ عنه الحديث ، ومنهم من أخذ عنه الفقه ومنهم من أخذ عنه الاصول إلى غير ذلك.

ومن بركة علم العالم أن ترى آثاره في تلاميذه ومؤلفاته ، في حياته ، ومن بعد مماته وهي من الاعمال الصالحة الجارية التي يكرم الله بها من شاء من عباده ، ممن ورث علم الكتاب والسنة .

---

(١) التحبير ٢/٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) الانساب ٧/٢٦٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٣٣٦ ، ٦/١٨٧ - ١٨٨ ، شذرات الذهب ٤/١٥٠.

(٣) التحبير ٢/٢٣١ - ٢٣٢ ، الانساب ٧/٢٢٥ ، ١٠/١٣٤ - ١٣٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦/٣٩١ .

المطلب السابع : مؤلفاته

قلما نجد علماً من أعلام المسلمين السائرين على منهج السلف الصالح - رضي الله عنهم - يقتصر جهده العلمي ، على جانب دون آخر ، من الجوانب العلمية ، بل الغالب عليهم تعدد النشاط وتنوع العطاء الايجابي فلا يقتصر الواحد منهم على الفتوى دون غيرها ولا التدريس دون غيره ولا الوعظ والتذكير فقط ، بل إننا نجد أن الواحد منهم مفتياً ومدرساً وواعظاً مذكراً ومؤلفاً بارعاً ومجاهداً بقلمه ولسانه في الدفاع عن السنة والرد على المبتدعة وكل هذا التنوع يحتاجه المجتمع المسلم في كل عصر ومصر .

والعالم العامل هو الذي يتفاعل مع قضايا الامة ، ويساهم في إيجاد الحلول لها والوقوف في وجه أهل الباطل والاهواء ، ومن هنا تأتي أهمية التأليف .

وتتجلى هذه الأهمية في ثلاثة أمور :

الأمر الأول : يساهم التأليف في نفع من لم يحضر درس ذلك العالم ، ولم يأخذ عنه مباشرة ، فاللاحق يستفيد من تأليف السابق إما بشرح مشكل أو جمع متفرق ، أو غير ذلك من مقاصد التأليف [1] .

الأمر الثاني : إن التأليف يساهم في حفظ هذا الدين الذي تكفل الله سبحانه بحفظه وقد حفظ الله دينه بجهود العلماء الذين دونوه ، ونقحوه ، وردوا عنه كل دخيل ، ولو لم تدون السنة مثلاً : وعلم اللغة لضاع الدين واندرست معالمه ولكن الله سبحانه حفظ دينه بما أكرم من وجود علماء قضوا أعمارهم في خدمته وبيانه للناس ، هذا بالإضافة إلى أن مدارك الناس وأفهامهم تتفاوت فما يفهمه واحد قد لا يفهمه آخر ، وما يستنبطه زيد قد لا يهتدي إليه عمرو ، وهكذا وهذا مصداقاً لقوله ﷺ « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » [2] .

---

(١) انظر : قواعد التحديث . للشيخ محمد جمال الدين القاسمي ص ٣٨ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ح (٢٦٥٨) ، وأبو داود ، كتاب العلم باب فضل نشر العلم ح (٣٦٦٠) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة ٤٠٣ .

وقوله ﷺ « فرب مبلغ أوعى من سامع »[1] .

وعليه فلو لم توجد مؤلفات تحفظ جهود العلماء لضاع ذلك الجهد ، المستنبط من الكتاب والسنة وفي ذلك خسارة كبيرة لمن يأتي بعد العلماء السابقين .

الأمر الثالث : إن التأليف عمل صالح غير منقطع ، فأجره موصول كلما استفاد منه الناس ، لحديث « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[2] .

فلهذه الأمور المهمة وغيرها ، لا يمكن أن يحجم عالم عامل عن الخوض في هذا الميدان والمساهمة فيه ، ابتغاء النفع العاجل للناس ، بتيسير أمر هذه الشريعة الغراء وتقريبها منهم ، ولأجل الحصول على الثواب الجزيل ، والخير العميم ، في دار السلام جوار الملك العلام سبحانه .

والإمام السمعاني - رحمه الله - كان من أحرص الناس على حيازة ذلك الخير العظيم وقد عرف حاجة عصره ومجتمعه إلى علمه ، وهو كذلك كغيره من الناس في أمس الحاجة إلى ثواب يلحقه بعد مماته وعلى هذا فقد جاءت مشاركاته متعددة وإسهاماته متنوعة فقد واجه مشاكل الناس العملية التي ترجع إلى الأمور الفقهية بالفتوى ، كما واجه غفلة الناس واشتغالهم بالدنيا بالوعظ والتذكير ، كذلك تصدر لطلاب العلم والراغبين فيه يأخذون عنه الرواية ، كما وقف مثل الطود الشامخ في وجه أهل التأويل ، أهل الباطل والتدجيل ، من المعتزلة ، والقدرية ، والرافضة ، والأشاعرة ، وغيرهم ، ومن هذه الإسهامات إسهامه في مجال

---

(١) سنن الترمذي : كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ح (٢٦٥٩) وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأبو يعلي الموصلي في المسند ٦٢/٩ رقم ٥١٢٦ وحسن المحقق إسناده ، وصححه الشيخ الألباني . صحيح الترغيب والترهيب ح (٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الوصية ، باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته ح (١٦٣١) . وقال النووي « قال العلماء معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته ، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الاشياء الثلاثة لكونه كان سببها فإن الولد من كسبه ، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف » شرح صحيح مسلم ١٦٧/٤ .

التأليف فقد ألف كتباً عديدة في فنون متنوعة وهي تظهر بدون أدنى شك انفعال السمعاني وتأثره بما يجري حوله .

وعلى الرغم من أن معظم مؤلفاته ما زالت في عداد المفقود إلا أن الموجود منها وكذلك ما نقل عن المفقود يعطي فكرة واضحة عن جهد أبي المظفر - رحمه الله - في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة . وقد حمله على ذلك واقع العصر الذي كثرت فيه البدع وتعددت فيه النحل ، وتزاحمت فيه المذاهب المختلفة ، كما حمله على ذلك أيضاً حاجات الناس وتعدد مطالبهم ، هذا بالإضافة إلى أن علوم الشريعة كلها مترابطة ومتداخلة ، لا يستغني عالم عن واحد منها .

وقد ألف الامام السمعاني - رحمه الله - في التفسير والحديث والفقه والأصول والعقيدة وغيرها .

وكل هذه المؤلفات ، أثنى عليها العلماء ، ومدحها الفضلاء ، ممن وقف عليها وهم غير متهمين بالمداراة ، ولا المحاباة ، وسنذكر كل هذه المؤلفات إن شاء الله مع إعطاء فكرة موجزة عن كل واحد منها قدر الإمكان وذلك حسب فنونها وهي :

أولاً : التفسير

ألف أبو المظفر - رحمه الله - كتاباً في تفسير القرآن وصف بأنه التفسير الحسن المليح الذي استحسنه كل من طالعه [1] وهذا التفسير توجد منه نسختان مصورتان بالجامعة الإسلامية واحدة مصورة عن المكتبة الأزهرية ، والأخرى عن دار الكتب المصرية وكل من النسختين تنقصها سورة الكهف وأواخر سورة الإسراء .

وقد قام مجموعة من طلاب الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بتحقيقه وبقي جزء منه بدون تحقيق من بداية سورة التوبة إلى نهاية سورة يوسف .

ومع تحقيق أغلب هذا التفسير ، إلا أنه بقي كغيره من كتب التراث ، رهين المكتبات

---

(١) الانساب ٢٢٣/٧ ، البداية والنهاية ١٦٤/١٢ ، النجوم الزاهرة ١٦٠/٥، طبقات المفسرين ٣٣٩/٢ .

وعرضة للغبار ، ولا أظن أنه سيطبع بشكله الحالي ، والذي يظهر من خلال دراسة هذا التفسير أن أبا المظفر أملاه إملاء ، ولم يقم بكتابته بنفسه ، والاسم الذي يوجد على المخطوطة هو اسم ابنه تاج الاسلام أبي بكر السمعاني ، وهذا لا شك أنه خطأ ، فلم يثبت أحد من المترجمين لأبي بكر أنه ألف في التفسير ، وقد قال ابنه أبو سعد : ألف أبي مؤلفات لم يتم له شيء منها [١] ولعل أبا بكر هذا هو الذي كان يكتب التفسير أثناء إملاء والده فاشتبه ذلك على النساخ فوضع اسمه عوض اسم والده والله أعلم .

ثانياً : مؤلفاته في الحديث

أولاً : الانتصار لأهل الحديث [٢] : وهو مختصر على ثلاثة أبواب ، الباب الأول : في الحث على التمسك بالسنة والجماعة ، والباب الثاني : في فضل الحديث ، والباب الثالث : في شجرة العلم . وهذا الكتاب ما زال في عداد الكتب المفقودة ، وقد نقل عنه كثير من العلماء الذين وقع بأيديهم وأفادوا منه ومن هؤلاء : الحافظ إسماعيل بن محمد التيمي تلميذ الامام السمعاني فقد نقل عنه في كتابه الحجة في مواضع كثيرة سنشير إليها في ثنايا البحث كما أفاد منه الحافظ ابن حجر في فتح الباري [٣] وابن قيم الجوزية في الصواعق المرسلة [٤] ، والسيوطي [٥] في صون المنطق [٦] في ست وثلاثين صفحة ، وهذا يدل على أن الكتاب موجود إلى القرن العاشر الهجري .

وهذا الكتاب مهم ، وقد كان مصدراً رئيساً في هذا البحث ، وهو على الرغم من أنه

---

(١) قال الداودي في طبقات المفسرين : « وكان قد وصل في التفسير الذي يذكره في مجلس الوعظ إلى قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ المائدة (٣) ، انظر : طبقات المفسرين ٢/٢٥٨ - ٢٦٢ .

(٢) الانساب ٧/٢٢٤ ، طبقات المفسرين ٢/ ٣٤٠ ، الرسالة المستطرفة للكتاني ٤٣ .

(٣) فتح البارى ١٣/٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٣، و ١٣/٥٠٧ .

(٤) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٤٨٤ و ٤٩٦ .

(٥) هو : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السيوطي جلال الدين عالم مشارك في جملة من الفنون ولد سنة ٨٤٩ ، وتوفي ٩١١ هـ . انظر : البدر الطالع ١/٣٢٨ .

(٦) صون المنطق ١٤٧ - ١٨٣ .

مفقود إلا أن ما نقل عنه يكفي للدلالة على أهميته .

ثانياً : منهاج السنة [1] : وهذا الكتاب لا ندري عنه شيئاً سوى نسبته إلى الامام السمعاني في كتب التراجم ، إلا أنه واضح من عنوان الكتاب أنه في عقيدة أهل السنة .

ثالثاً : المسند في القدر [2] وهو كتاب مسند في القدر ، يشتمل على الاحاديث الواردة في القدر ، وسبب تأليف هذا الكتاب كما تقدم أن أبا القاسم علي بن محمد السمعاني أرسل إلى أبي المظفر يعاتبه على انتقاله من مذهب أبي حنيفة وهو مذهب والده فرد أبو المظفر قائلاً « ما تركت مذهب الوالد في الأصول ، ولكني تركت مذهب أهل القدر ، فإن أهل مرو صاروا في أصول معتقدهم إلى عقيدة أهل القدر وألف كتاب القدر وأرسله إلى أخيه ، فرضي عنه هذا الأخير [3] .

وهو كتاب كبير في عشرين جزءاً ، وهو من الكتب المفقودة ، ذكره أبو المظفر -رحمه الله - في كتاب الانتصار [4] وفي تفسير سورة الأنبياء [5] كما أن ردود أبي المظفر - رحمه الله - الكثيرة على القدرية في تفسيره تظهر أنه مستحضر لعقيدة القدرية ، والرد عليها وهو دافع قوي للتأليف .

وقد نقل عنه النووي في شرحه على صحيح مسلم [6] وكذلك الحافظ ابن حجر [7] وكذلك أفاد منه تلميذه أبو القاسم الأصبهاني كثيراً في كتابه الحجة [8] .

---

(١) الانساب ٢٢٣/٧ ، سير أعلام النبلاء ١١٧/١٩ ، طبقات المفسرين ٢/ ٣٤٠ .

(٢) الانساب ٢٢٣/٧ ، وفيات الاعيان ٣/ ٢١٠ ، سير أعلام النبلاء ١١٧/١٩ ، طبقات المفسرين ٣٤٠/٢ .

(٣) الانساب ٢٢٣/٧ - ٢٢٤ .

(٤) انظر : صون المنطق (١٧٠) .

(٥) انظر : تفسير السمعاني ٢٠ ، بتحقيق قارى محمد إقبال .

(٦) شرح صحيح مسلم ١٨٦/١٦ .

(٧) فتح الباري ٤٧٧/١١ .

(٨) انظر : الحجة في بيان المحجة ١٩/٢ ، وما بعدها إلى ص ٦٢ .

رابعاً : الأحاديث الالف الحسان [1]

جمعها من مسموعاته عن مائة شيخ ، عن كل شيخ عشرة أحاديث ، وتسمى الامالي في الحديث فقد أملى قريباً من تسعين مجلساً وتكلم على الالف المذكورة فأحسن وهذه الاحاديث كانت متداولة في حياة حفيده أبي سعد ، فقد أخذ كثيراً منها عن جماعة من شيوخه كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وقد ذكر إسماعيل باشا البغدادي [2] في هدية العارفين ، أنه جمع ألف حديث عن ألف شيخ[3] وهذا أظنه - والله أعلم - سبق قلم من صاحب الهدية ، أو خطأ من النسّاخ إما الذين نقل عنهم أو الذين جاءوا من بعده إذ أن كل المترجمين الذين سبقوا صاحب الهدية والذين هم أصحاب مادته العلمية لم يذكروا الألف حديث عن ألف شيخ ، ولو كان هذا المؤلف من ضمن مؤلفات السمعاني لكان ذكره أولى ، والعناية به أحرى من ذكر الالف حديث عن مائة شيخ وخاصة حفيده أبا سعد لا يمكن أن تغيب عنه مثل هذه المعلومة وهو الذي عاش مع والده تاج الإسلام ابن أبي المظفر ، والتقى بأغلب تلاميذ جده إن لم يكن التقى بهم كلهم وهذا فخر لأبي سعد - رحمه الله - حيث إن لجده ألف شيخ ، ولهذا فإني استبعد حصول هذا .

ثالثاً : كتبه في أصول الفقه

صنف الإمام السمعاني - رحمه الله - في أصول الفقه كتاباً واحداً سماه القواطع [4] وقد مدحه كثير ممن ترجم لابي المظفر - رحمه الله - قال حفيده أبو سعد : « وهو يغني عما

---

(١) الانساب ٢٢٣/٧ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٤٠ ، الرسالة المستطرفة ص ٧٨ .

(٢) هو : إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادي ، مشهور بإسماعيل باشا البغدادي ، مؤرخ ، وأديب ، وعالم بالكتب ومؤلفيها ، من آثاره : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، هدية العارفين . توفي سنة ١٣٣٩هـ ١٩٢٠م ، انظر : معجم المؤلفين ٢٨٩/٢ ، الأعلام ٣٢٦/١ .

(٣) هدية العرفين ٤٧٣/٢ .

(٤) الانساب ٢٢٣/٧ ، وفيات الاعيان ٢١١/٣ ، سير أعلام النبلاء ١١٧/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٤٢/٥ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٤٠ .

صنف فيه » وقال السبكي [1] : « لا أعرف في أصول الفقه أحسن من كتاب القواطع ولا أجمع » [2] .

وللكتاب ميكروفيلم بمكتبة الجامعة الإسلامية قسم المخطوطات رقم ٢١٧٧ .

وقد قام الدكتور عبد الله بن الشيخ جافظ حكمي بتحقيق جزء منه ، من أول الكتاب إلى كتاب القياس ، وقدمه رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ولعل عنده النية في تحقيق الباقي منه أعانه الله على ذلك ، كما أعلن الدكتور حسن هيتو منذ أكثر من عشر سنوات أنه يحقق في الكتاب ولكنه لم يظهر إلى الآن ، كما أنني علمت أنه يحقق في السودان أيضاً ، واسأل الله أن يعين على إخراجه حتى ينتفع به المسلمون .

رابعاً : مؤلفاته في الخلاف

ألف أبو المظفر السمعاني - رحمه الله - في اختلاف الفقهاء ثلاثة كتب وهي :

أولاً : البرهان [3] وهو مشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية .

ثانياً : الاوسط [4] أو الأواسط ولا نعلم عن هذين الكتابين سوى نسبتهما إلى أبي المظفر - رحمه الله - في كتب التراجم ، والذي يظهر أنهما في الخلاف بين الحنفية والشافعية، فإن الحرب الكلامية كانت قائمة على قدم وساق في عهد الامام السمعاني بين الفريقين .

ثالثاً : المختصر ويلقب بالإصطلام [5] وهو كتاب مشهور سار ذكره في الآفاق رد

---

(١) هو : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، ولد سنة ٧٢٧ ، بالقاهرة ، وقدم دمشق ولزم الذهبي ، وتخرج به ، له مصنفات كثيرة منها : طبقات الشافعية الصغرى ، والوسطى ، والكبرى ، معيد النعم ، ومبيد النقم ، منتهى السول والأمل في علمي الأصول . توفي سنة ٧٧١ . انظر : الدرر الكامنة ٢/٤٢٥-٤٢٨ ، شذرات الذهب ٦/٢٢١-٢٢٢ ، البدر الطالع ١/٤١٠-٤١١ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/٣٤٣ .

(٣) الانساب ٧/٢٢٣ ، وفيات الأعيان ٣/٢١١ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/٣٤٠ .

(٤) الانساب ٧/٢٢٤ .

(٥) الانساب ٧/٢٢٤ ، وفيات الأعيان ٣/٢١١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٣٤٢ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/٣٤٠ .

فيه على أبي زيد الدبوسي ، الحنفي ، وأجاب فيه عنْ الاسرار التي جمعها .

وهذا الكتاب توجد له مصورة بالمكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تحت رقم ١٤٣٨ .

ويقوم الدكتور نايف العمري بتحقيقه وقد صدر منه الجزء الاول وهو يشتمل على كتاب الطهارة والصلاة .

خامساً : كتب منوعة

أولاً : معجم الشيوخ [١] وقد حدث بهذا المعجم علي بن عبد الخالق اليشكرى [٢] رواها عن الفقيه الكبير أبي ابراهيم إسحاق بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن نوح النوحى النسفي الحنفي .

ثانياً : الطبقات [٣] قال ابن العماد وله الطبقات أجاد فيه وأحسن [٤] .

ثالثاً : الرسالة القوامية [٥] وهي في تقديم أدلة الامامة ، وفضائل الصحابة ، صنفها لنظام الملك .

وقد أفاد منها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأشار إليها في منهاج السنة [٦] ، والفتاوى الكبرى [٧] ومجموع الفتاوى [٨] .

كما أشار إليها الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه على صحيح مسلم قال

---

(١) هدية العارفين ٤٧٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٧١/١٩ .

(٢) قال ذلك الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء . ولم أقف على ترجمة علي بن عبد الخالق اليشكري هذا .

(٣) شذرات الذهب ٣٩٣/٣ .

(٤) المصدر السابق ٣٩٣/٣ .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٦/٥ .

(٦) منهاج السنة ٤٩٧/٥ ، و ٥٠٢/٧ .

(٧) الفتاوى الكبرى ٤٦٥/١ .

(٨) مجموع الفتاوى ٣٩٨/٤ .

-رحمه الله - « وقد صنف العلماء - رضي الله عنهم - في معرفة رجحانه - أي أبي بكر رضي الله عنه - أشياء كثيرة مشهورة في الأصول وغيرها ومن أحسنها فضائل الصحابة رضي الله عنهم للامام أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني »[1] .

والكتب الثلاثة الأخيرة تعتبر في عداد المفقود ، إذ لا يوجد لها ذكر ، إلا ما جاء في كتب التراجم أو ما نقل عن الرسالة القوامية .

تلك هي كتب الامام السمعاني - رحمه الله - وهي على جلالتها ، وقيمتها العلمية ، ما زالت بعيدة عن متناول طلبة العلم نسأل الله - سبحانه - أن يعين على إخراج الموجود منها ، كما نسأله - سبحانه - أن ييسر العثور على المفقود منها حتى تنتفع بها الامة كما انتفعت بغيرها من الكتب ، وتكون سبباً في إلحاق الرحمة برجل جند لسانه وقلمه في الدفاع عن السنة وأهلها ، ودفع البدعة والرد على أهلها ، فإن هذا أقل واجب علينا تجاه أسلافنا الذين حفظ الله بهم دينه ، وأبان سبيله ، وأقام حجته ، فجزاهم الله عن أمة محمد ﷺ ما هو أهله فإنه سبحانه أهل التقوي وأهل المغفرة .

المطلب الثامن : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

تبوأ أبو المظفر - رحمه الله - مكانة علمية عالية بين علماء عصره ، ومما يدل على علو منزلته وعظيم مكانته العلمية ما يلي :

أولاً : المناظرات العلمية التي جرت بينه وبين علماء عصره من مخالفي مذهبه ، فقد ناظر على مذهب الامام أبي حنيفة - رحمه الله - قريباً من الثلاثين سنة[2] .

ومن مناظراته العلمية - رحمه الله - مناظراته لعلماء بغداد ، وكان ذلك سنة إحدى وستين وأربعمائة عندما دخلها وهو في طريقه إلى الحج فقد ناظر بها الفقهاء ، وجرت بينه وبين أبي نصر بن الصباغ مناظرة أجاد فيها السمعاني الكلام[3] .

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢١٢/١ .

(٢) المنتخب ٤٤٣ ، التدوين ١١٩/٤ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٢/٥ .

وقال أبو علي بن الصفار : « إذا ناظرت أبا المظفر فكأني أناظر أحدا من التابعين »[1] .

ومن المعلوم أنه لا يقدر على مناظرة العلماء ، ومبارزة الفحول النبهاء ، إلا من أوتي حظاً وافرا من العلم وسعة الإطلاع .

ثانياً : ما حصل من الاضطراب والتشويش العام لأتباع المذهب الحنفي ، عندما انتقل أبو المظفر - رحمه الله - إلى مذهب الامام الشافعي رحمه الله وهو يدل على المكانة العلمية العالية التي كان يتمتع بها أبو المظفر عند الحنفية ولو كان رجلاً عادياً ، لما حصل كل ذلك الاضطراب والتشويش ، وقد اضطر أبو المظفر - رحمه الله - بسبب ذلك إلى الخروج من مرو إلى نيسابور[2] .

ثالثاً : خروج العلماء والفقهاء في خدمته لما اضطر إلى الخروج من مرو إلى نيسابور فقد رافقه في رحلته هذه ذو المجدين أبو القاسم الموسوي وطائفة من الاصحاب وفي خدمته عدة من الفقهاء[3] .

ولم يبلغ به تلك الدرجة من الاحترام والتقدير إلا ما أوتيه من العلم .

رابعاً : الاستقبال الكبير الذي قوبل به من قبل علماء الشافعية بنيسابور ، فقد أكرموا مورده ، وعقد له مجلس التذكير في مدرسة الشافعية ، حتى استحكم أمره عندهم ولو كان أبو المظفر - رحمه الله - على غير المرتبة العالية التي هو بها ما حصل له ذلك الاكرام ولا قوبل بذلك التقدير والاحترام .

خامساً : صدور الأمر من نظام الملك بتعيينه مدرساً بمدرسة الامام الشافعي بمرو لما عاد إليها .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ .

(٢) المنتخب ٤٤٢ ، التدوين ١١٩/٤ ، سير أعلام النبلاء ١١٦/١٩ .

(٣) المنتخب ٤٤٢ ، التدوين ١٩٩/٤ ، سير أعلام النبلاء ١١٦/١٩ .

ولا يُمَكَّنُ من مثل تلك المناصب في ثلك الازمنة ، إلا من كان مشهوداً له بالتمكن من العلم والتبحر فيه .

سادساً : كثرة ثناء العلماء عليه : ومما يبين مكانة أبي المظفر العلمية ذلك السيل الجرار ، من الثناء العطر عليه ، فقد أثنى عليه كل من ترجم له .

قال فيه عبد الغافر الفارسي : « وحيد عصره في وقته ، فضلاً ، وطريقة ، وزهداً وورعاً من بيت العلم والزهد » [(١)] .

وقال أبو علي بن الصفار : « إذا ناظرت أبا المظفر فكأني أناظر رجلاً من التابعين مما أرى عليه من آثار الصالحين سمتاً وحشمة وحياء » [(٢)] .

وقال حفيده أبو سعد السمعاني : « هو إمام عصره بلا مدافعة ، وعديم النظير في وقته ، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه ، ومن طالع تصانيفه وأنصف ، عرف محله من العلم [(٣)] .

وقال إمام الحرمين المعاصر لأبي المظفر : « لو كان الفقه ثوباً طاوياً لكان أبو المظفر طرازه » [(٤)] .

وقال ابن خلكان [(٥)] « إمام عصره بلا مدافعه ، أقر بذلك الموافق والمخالف » [(٦)] .

---

(١) المنتخب من السياق ٤٤٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٨/١٩ .

(٣) الانساب ٢٢٣/٧ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٢/٥ .

(٥) هو : أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، ولد سنة ٦٠٨ ، وتفقه على والده بمدرسة إربل ثم انتقل إلى الموصل ، ثم إلى حلب ، ثم قدم دمشق ، ثم إلى القاهرة ، من تصانيفه : وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان ، توفي سنة ٦٨١ . انظر : البداية والنهاية ٣١٨/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٥٣/٧، الوافي بالوفيات ١٢١/٦ .

(٦) وفيات الأعيان ٣١١/٣ .

ووصفه شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه أحد الأئمة الستة من أصحاب الشافعي - رحمه الله -[1] .

تلك هي شهادة بعض العلماء لأبي المظفر - رحمه الله - وهي غيض من فيض ، وكلها تشهد بفضله وتقدمه في العلم ، وتكشف عن سر سبب إقبال الناس عليه ، واستفادتهم منه وهو شأن العلماء العاملين الذين اختارهم الله لنشر تعاليم دينه ، وإحياء سنة نبيه ﷺ .

---

(١) الفتاوى الكبرى ١/٤٦٥ .

المبحث الخامس : عقيدة أبي المظفر رحمه الله

لقد تقدم أن أبا المظفر - رحمه الله - عاش نصف عمره الأول على مذهب الأحناف والذي يظهر أن علماء الحنفية في عصر الإمام أبي المظفر - رحمه الله - ولا سيما في مدينة مرو ، كان الغالب عليهم مذهب المعتزلة .

وقد أشار أبو المظفر - رحمه الله - إلى ذلك حيث قال « ما تركت المذهب الذي عليه الوالد في الاصول ، بل انتقلت عن مذهب القدرية ، فإن أهل مرو صاروا في أصول اعتقادهم إلى رأي أهل القدر »[1] .

وانتقال الإمام أبي المظفر - رحمه الله - عن مذهب الحنفية يدل على أنه كان على العقيدة التي كانت سائدة بينهم .

وأما بعد انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - فقد كان على عقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم - ، ويدل على ذلك أمور

الأول : مؤلفاته التي ألفها كلها بعد انتقاله - رحمه الله - عن مذهب الحنفية ، وكثير من تلك المصنفات في الانتصار لعقيدة السلف الصالح - رضي الله عنهم - فقد ألف -رحمه الله - .

أولاً : تقديم الأدلة في إثبات إمامة الصديق - رضي الله عنه - وواضح من عنوان الكتاب أنه يرد فيه على الشيعة معتقدهم بعدم صحة خلافة الصديق رضي الله عنه .

ثانياً : المسند في القدر ، وقد سار في هذا الكتاب على منهج السلف الصالح ورد

---

(١) الانساب ٢٢٣/٧ ، ومما يدل على أن الاحناف كان الغالب عليهم الاعتزال ما قاله الالكائي - رحمه الله- « واستتاب أمير المؤمنين القادر بالله فقهاء المعتزلة الحنفية في سنة ثمان وأربعمائة ، ثم نهاهم عن الكلام ، والتدريس ، والمناظرة في الاعتزال ، والرفض ، والمقالات المخالفة للإسلام ، والسنة ، وأخذ خطوطهم بذلك ، وأنهم مهما خالفوه ، حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم » شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧٢٣/٤ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ٢٥٢/٦ .

فيه على المخالفين كما هو واضح من النقول التي نقلها عنه تلميذه قوام السنة أبو القاسم الاصبهاني رحمه الله ، وكذلك ما قرره في تفسيره في مسألة القدر موافق لعقيدة السلف رضي الله عنهم .

ثالثاً : منهاج أهل السنة ، والذي يظهر من عنوان الكتاب أنه بيان لعقيدة السلف رضي الله عنهم ، فإن أهل السنة عند الامام السمعاني - رحمه الله - هم السلف الصالح وأتباعهم كما قرر ذلك في غير موضع .

رابعاً : الانتصار لاهل الحديث ، وقد دعا في هذا الكتاب إلى التمسك بالكتاب والسنة ، واتباع السلف الصالح - رضي الله عنهم - ، وترك الابتداع ، كما رد على المنحرفين عن منهج السلف قولهم بعدم صحة الاحتجاج بخبر الآحاد في العقيدة . كما رد على القول بوجوب النظر ، وكل ذلك موافق لمنهج السلف رضي الله عنهم .

ومما جاء في كتاب الانتصار لأهل الحديث قوله : « باب الحث على السنة والجماعة والاتباع ، وكراهة التفرق والابتداع . اعلم أن الله تعالى أمر خلقه بلزوم الجماعة ، ونهاهم عن الفرقة ونديهم إلى الإتباع وحثهم عليه ، وذم الابتداع وأوعدهم عليه ، وذلك بين في كتابه وسنة رسوله قال الله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [1] وقال ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [2] .

وقال ﴿ وأن هذا صرطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصىكم به لعلكم تتقون ﴾ [3] .

وأمر تعالى باتباع النبي ﷺ في آيات كثيرة ، وقد وردت الاحاديث حاثة على لزوم

---

(١) آل عمران الآية (١٠٣) .

(٢) الشورى الآية (١٣) .

(٣) الأنعام الآية (١٥٣) .

سنته واجتناب كل بدعة ، وإذا ثبت أنا أمرنا بالاتباع والتمسك بأمر النبي ﷺ ولزوم ما شرعه لنا من الدين والسنة ، ولا طريق لنا إلى الوصول إلى هذا إلا بالنقل والحديث بمتابعة الأخبار التي رواها الثقات والعدول من هذه الأمة ، عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة من بعده فنشرح الآن قول أهل السنة إن طريق الدين هو السمع والأثر ، وأن طريقة العقل والرجوع إليه وبناء السمعيات عليه مذموم في الشرع ، ومنهي عنه »[1] .

إن من يعرف نفس السلف في مؤلفاتهم ، يظهر له بوضوح ، نفس الإمام السمعاني -رحمه الله - السلفي في كلامه السابق ، والذي يقرر فيه وجوب التمسك بالكتاب والسنة ولزوم الجماعة وترك التفرق والابتداع ، وعدم اعتماد العقل كمصدر أول في تقرير مسائل العقيدة .

الأمر الثاني : ما قرره في تفسيره مما هو موافق لعقيدة السلف ، ففي باب الأسماء والصفات قرر - رحمه الله - وجوب إثبات الصفات لله عز وجل ، الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تأويل ولا تحريف ولا تعطيل كما سيأتي بيان ذلك وفي باب الإيمان قرر - رحمه الله - أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص ، وتلك هي عقيدة السلف المباينة لعقيدة الاشاعرة ، وغيرهم ، ممن تنكب الصواب في هذا الباب وغيره .

الأمر الثالث : ما جاء أنه سئل عن اخبار الصفات فقال : « عليكم بدين العجائز وصبيان الكتاتيب »[2] .

وهذه الكلمة جاءت عن غيره من الأئمة ، ومرادهم الإيمان والتسليم لما جاء به الكتاب أو جاءت به السنة ، من غير تنطع ولا تأويل ، ولا رد لما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، أو أخبر به رسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته ، ولا صرف له عن ظاهره وذلك هو المعبر عنه بايمان العجائز وصبيان الكتاتيب ، وقد استبعد الشيخ شعيب الأرناؤوط صدور هذه الكلمة من أبي

---

(١) صون المنطق ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ١١٩/١٩ .

المظفر رحمه الله مستدلاً على ذلك بمالا طائل من رواته وفي ظني أنه لم يفهم مراد الامام السمعاني رحمه الله بهذه الكلمة ، فإن مراده والله أعلم قطع الطريق أمام أهل الكلام الذين يخوضون في أسماء الله سبحانه وصفاته بمتاهات العقول ، بعيداً عن هدى الكتاب والسنة .

والحال أن العقل ليس له أن يخوض ولا أن يستقل في معرفة ما يجب لله سبحانه من الأسماء والصفات بل عليه الرجوع إلى ما ورد به السمع وقبوله بالتسليم والاذعان ، وقد أشار إلى هذا المعنى الامام السمعاني - رحمه الله - حيث قال : « وإنما علينا أن نقبل ما عقلناه إيماناًوتصديقاً ، ومالم نعقله قبلناه تسليماً واستسلاماً ، وهذا معنى قول القائل من أهل السنة إن الإسلام قنطرة لا تعبر إلا بالتسليم »[1] .

ومما جاء عن الإمام السمعاني - رحمه الله - فيما يتعلق بالصفات أنه سئل عن الاستواء فقال : -

جئتماني لتعلما سر سُعدى   تجداني بسر سُعدى شحيحاً

إن سُعدى لمنية المتمنى   جمعت عفة ووجها صبيحاً[2]

وسيأتي أنه - رحمه الله - يثبت صفة الإستواء على وفق عقيدة السلف - رضي الله عنهم -.

الأمر الرابع : وصف العلماء له بأنه من أهل السنة والجماعة كما جاء ذلك عن غير واحد من أهل العلم ،فقد قرنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بخلص أهل السنة[3]وأفاد من كتابه تقديم الأدلة في غير موضع كما سبقت الإشارة إلى ذلك ،كما أثنى عليه الامام ابن قيم الجوزية رحمه الله قال : «وقال إمام عصره المجمع على إمامته ، أبو المظفر السمعاني ..»[4].

---

(١) صون المنطق ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٩/١٩ .

(٣) مجموع الفتاوى ٧٦/١ .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة ٤٨٤ .

وقال فيه الذهبي رحمه الله : « تعصب لاهل الحديث والسنة والجماعة وكان شوكاً في أعين المخالفين وحجة لاهل السنة »[1] .

فشهادة هؤلاء العلماء لابي المظفر - رحمه الله - لا يتطرق إليها المداراة ولا المحاباة بل هي شهادة عالم خبير بأحوال الرجال وعقائدهم ، متأكد من كل ما يقول وهم . من هم ؟ رحمهم الله جميعاً ، فقد كانوا حماة الدين وحراس العقيدة في القرن الثامن الهجري ، وما زالت في حلوق المارقين من أهل البدع منهم غصة .

الأمر الخامس : منهجه في العقيدة

ومما يدل دلالة قاطعة على سلفية الشيخ - رحمه الله - منهجه في العقيدة ، فقد سلك - رحمه الله - نفس منهج السلف ورد على المخالفين كما قرر - رحمه الله - إن عقيدة السلف هي العقيدة الصحيحة التي يجب اعتقادها ولا تجوز مخالفتها .

ومما قاله - رحمه الله - حاكياً لمنهج السلف ومقرراً له : « وأما أهل الحق فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم ، وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسنة ، فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه ، وشكروا الله عز وجل حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه ، وإن وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنة، ورجعوا بالتهمة على أنفسهم ، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق ورأي الانسان قد يرى الحق وقد يرى الباطل ، وهذا معنى قول أبي سليمان الداراني[2] وهو واحد زمانه في المعرفة : ما حدثتني نفسي بشيء إلا طلبت لها شاهدين من الكتاب والسنة ، فإن أتى بهما وإلا رددته في نحره »[3] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/١١٦ .

(٢) هو : عبد الرحمن بن أحمد وقيل ابن عطية ، وقيل ابن عسكر العش الداراني، من العباد الزهاد المتبعين للآثر ولد في حدود أربعين ومائة ومات سنة ٢١٠ ، وقيل ٢٠٥ ، انظر سير أعلام النبلاء ١٠/١٨٢ .

(٣) صون المنطق ١٦٦ - ١٦٧ .

وقال – رحمه الله – : « وأما أهل السنة – سلمهم الله – فإنهم يتمسكون بما نطق به الكتاب ، ووردت به السنة ، ويحتجون له بالحجج الواضحة ، والدلائل الصحيحة ، على حسب ما أذن فيه الشرع ، وورد به السمع ، ولا يدخلون بآرائهم في صفات الله تعالى ولا في غيرها من أمور الدين ، وعلى هذا وجدوا سلفهم وأئمتهم »[1] .

وقال – رحمه الله – مبيناً منهج المخالفين للسلف وحاكما عليه بالبطلان : « وأما سائر الفرق فطلبوا الدين لا بطريقه لأنهم رجعوا إلى معقولهم ، وخواطرهم ، وآرائهم فطلبوا الدين من قبله ، فإذا سمعوا شيئاً من الكتاب والسنة عرضوه على معيار عقولهم ، فإن استقام قبلوه ، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردوه ، فإن اضطروا إلى قبوله حرفوه بالتأويلات البعيدة والمعاني المستنكرة ، فحادوا عن الحق وزاغوا عنه ونبذوا الدين وراء ظورهم وجعلوا السنة تحت أقدامهم ، تعالى الله عما يصفون »[2] .

كما رد على المتكلمين قولهم بعدم حجية خير الآحاد في مسائل العقيدة بـ « أن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ ورواه الثقات والأئمة ، وأسنده خلفهم عن سلفهم إلى رسول الله ﷺ وتلقته الأمة بالقبول فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم هذا عامة قول أهل الحديث والمتقنين من أهل السنة »[3] .

كل هذا يدل دلالة واضحة على عقيدة الشيخ الامام السمعاني – رحمه الله – السلفية بل واعتزازه بها ودفاعه عنها وسيأتي في بيان جهوده – رحمه الله – في تقريره العقيدة السلف ما يؤكد صحة هذه النتيجة ، والله أعلم .

---

(١) صون المنطق ١٧٥ .

(٢) صون المنطق ١٦٦ .

(٣) صون المنطق ١٦٠ – ١٦١ .

الباب الأول

جهود أبي المظفر رحمه لله

في تقرير عقيدة السلف في توحيد الله عز وجل

وفيه تمهيد ومدخل واربعة فصول

الفصل الأول

أول ما يجب على المكلف

الفصل الثاني

توحيد الربوبية

الفصل الثالث

توحيد الإلهية

الفصل الرابع

توحيد الأسماء والصفات

تمهيد

التوحيد أساس الدين وقاعدة الإسلام الصلبة التي يقوم عليها بناؤه ، وذلك لتعلقه بحق الله سبحانه على خلقه ، من الاقرار به سبحانه ، إقراراً يستوجب محبته ، والإنابة إليه والتوكل عليه ، والخوف منه ، ورجاءه ، والإيمان بأسمائه وصفاته ، وتنزيهه سبحانه عما لايليق به .

وإحكام التوحيد إحكام لبقية مسائل العقيدة ، وذلك لارتباطها به وصدورها عنه ولما كان التوحيد متعلقاً بحق الله والله سبحانه غير مشاهد ، كان الطريق الاسلم والأقوم لمعرفة الله وتوحيده هو الخبر الصادق عن الله عن طريق رسله ، إذ لا أحد أعلم بالله من الله ، ولاأحد أعلم بعد الله بالله من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .

وهذا الذي كان عليه السلف رضي الله عنهم فإنهم سلكوا في الطريق إلى معرفة الله سبحانه وفي بقية مسائل العقيدة مادل عليه الكتاب والسنة ، وبذلك كانوا على نور من ربهم . فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق . قال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتب مبين يهدي به الله من اتبع رضونه سبل السلم ويخرجهم من الظلمت إلى النور بإذنه ويهديهم إلي صرط مستقيم ﴾ [1] وقال سبحانه ﴿ ولكن جعلنه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صرط مستقيم ﴾ [2] وقال عز وجل ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [3] .

وعلى الرغم من وضوح التوحيد من كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله ﷺ ووضوحه عند السلف ، فإنه قد التبس على كثير من الناس فهم حقيقة التوحيد. وذلك بسبب الشبهات من جهة ، وبسبب الإعراض عن كتاب الله سبحانه وسنة رسوله وتقديم ما

---

(١) المائدة آية (١٥ - ١٦) .

(٢) الشورى آية (٥٢) .

(٣) النور آية (٤٠) .

تهوى النفوس من جهة أخرى .

وانحراف أهل البدع عن الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة والذي دان به سلف الأمة ، دفع السلف رضي الله عنهم وأتباعهم إلى الرد على المبتدعة ، وتقرير الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة ، ونقله عدول الأمة ، إحقاقاً للحق ، وقمعاً للباطل وحفظاً للعقيدة صافية للأجيال اللاحقة تحقيقاً لوعد الله سبحانه بحفظ دينه . قال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحفظون ﴾ [1] .

وتبعاً للسابقين الأولين من السلف الصالحين . أدلى الامام السمعاني رحمه الله بدلوه في بيان وتقرير عقيدة السلف رضي الله عنهم كما رد على مخالفيها . وفي هذا الباب سنقف إن شاء الله على جهده المشكور في هذا الجانب من جوانب العقيدة ، وهو توحيد الله عز وجل وذلك بعد مدخل نتعرف من خلاله على تعريف التوحيد من حيث اللغة والشرع .

---

(١) الحجر آية (٩) .

مدخل
في تعريف التوحيد

التوحيد لغة : مصدر من الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه - وَحَّدَ - يقال وَحَّدَ يُوَحِّدُ توحيداً إذا جعله واحداً ، أي : فرداً ، فكلمة توحيد تدل على الوحدة والانفراد . قال ابن فارس[1] رحمه الله : « الواو والحاء والدال أصل يدل على الإنفراد . من ذلك الوحده . وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله »[2] .

وقال ابن الاثير « وكان رجلاً متوحداً ، أي : منفرداً لا يخالط الناس ولا يجالسهم »[3] .

وأصدق من تنطبق عليه الوحدة والانفراد ، هو : الله عز وجل . وذلك لتفرده سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً .

قال الزجاج[4] رحمه الله « والله تعالى هو الواحد في الحقيقة ، ومن سواه من الخلق آحاد تركبت »[5] .

---

(١) هو : الامام العلامة اللغوي المحدث أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني ، الرازي المشهور بـ (ابن فارس) صاحب كتاب المجمل ، ومعجم مقاييس اللغة ، وغيرهما من الكتب المفيدة . كان رأساً في الأدب بصيراً بفقه مالك مناظراً ، متكلماً على طريقة أهل الحق ، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين . توفي بالري سنة ٣٩٥ ، انظر : وفيات الأعيان ١/١١٨ - ١٢٠ ، وانظر : مقدمة الدكتور عبد السلام محمد هارون لكتاب معجم مقاييس اللغة ١/٣ - ٣٧ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٦/٩٠ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ٥/١٦٠ .

(٤) هو : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج النحوي من أهل العلم بالأدب والدين مجمع على إمامته ، كان يخرط الزجاج ببغداد وإليه نسبته من كتبه « تفسير أسماء الله الحسنى » ولد ٢٤١ ، وتوفي ٣١١ هـ انظر : بغية الوعاة ١/٤١١ ، تاريخ بغداد ٦/٨٩ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٣٦٠ .

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٥٧ .

وقال الزجاجي [1] رحمه الله : « فالله عز وجل ، الواحد ، الأول ، الأحد ، الذي لا ثاني له ، ولا شريك ، ولا مثل ، ولا نظير ، لم يسبقه في أولويته شيء » [2] .

ولا تكون الوحدة والانفراد في غير الله سبحانه إلا باعتبار دون اخر ، يقال فلان واحد قبيلته : أي : في الشجاعة والجرأة أو الكرم والجود أو سداد الرأي وحسن التدبير أو نحو ذلك أما كونه بشراً ، عاقلاً ، يأكل ويشرب ، وجد بعد أن لم يكن فليس منفرداً بذلك .

أما في حق الله سبحانه فالوحدة والانفراد ثابتة من كل وجه .

التوحيد شرعاً :

التوحيد شرعاً هو : شهادة أن لا إله إلا الله إقراراً بالقلب ، ونطقاً باللسان ، وعملاً بما تضمنته كلمة التوحيد من إخلاص العبادة لله وحده ، وترك عبادة من سواه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « التوحيد الذي جاءت به الرسل يتضمن إثبات الالهية لله وحده ، بأن يشهد أن لا إله إلا هو ، ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له ، ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله ، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات » [3] .

فأساس التوحيد إفراد الله سبحانه بالعبادة . وذلك يتضمن الإقرار بربوبيته سبحانه ، والإيمان بأسمائه وصفاته ، وقد انتظمت ذلك كله كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). ومن أجل ذلك كان الإقرار بهذه الكلمة ، نطقاً باللسان ، واعتقاداً بالجنان ، وعملاً بما تضمنته من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة من سواه ، هو : التوحيد المطلوب شرعاً .

---

(١) هو : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النحوي شيخ العربية تلميذ العلامة أبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج من مؤلفاته الكثيرة : « إشتقاق أسماء الله الحسنى » توفي سنة ٣٤٠ ، انظر: إنباه الرواة ٢ / ١٦٠ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٩ - ٥٠ ، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٧٥ .

(٢) إشتقاق أسماء الله الحسنى ص ٩٠ .

(٣) انظر : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ٢٦ ، والدين الخالص ١/ ٥٧ .

قال أبو الفتح نصر المقدسي [1] : « قيل لابن سريج [2] ما التوحيد ؟ قال : توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين أشهد أن لا إله إلا الله » [3] .

وقال الامام مالك رحمه الله « التوحيد ما قاله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » [4] فما عصم به الدم والمال فهو حقيقة التوحيد » [5] .

ومن خلال التعريف الشرعي للتوحيد نسجل الملحوظات التالية :

الملحوظة الأولى : أن التوحيد بمعناه الشرعي لا يتحقق إلا بثلاثة أمور :

الأمر الأول : الاعتقاد الجازم بوجوب عبادة الله وحده دون من سواه ، وذلك مستلزم للإقرار بربوبيته سبحانه ، واتصافه بالأسماء الحسنى والصفات العلا .

---

(١) هو : أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود النابلسي ، المقدسي ، شيخ الشافعية في وقته بالشام ، من كتبه « الحجة على تارك المحجة » توفي سنة (٤٩٠) . انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/١٣٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٣٥١ .

(٢) هو : أحمد بن عمر بن سريج ، شيخ الشافعية في وقته . أخذ الفقه عن أصحاب الشافعي ، كالمزني وغيره وعنه انتشر مذهب الشافعية في الآفاق ، صنف نحو أربعمائة مصنف توفي سنة ٣٠٦ عن سبع وخمسين سنة ، انظر : وفيات الأعيان ١/٦٦ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٠١ ، البداية والنهاية ١١/١٣٨ .

(٣) الحجة على تارك المحجة لأبي نصر المقدسي ٢/٩٨٢ ، رقم الاثر ٦٨٦ .

(٤) أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل » وفي رواية لمسلم « حتى يؤمنوا بي وبما جئت به » . صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ٣/٢٦٢ ، وكتاب استتابة المرتدين ، باب قتل من أبى قبول الفرائض ١٢/٢٧٥ ، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وقول الله تعالى ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ ١٣/٢٥٠ ، صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، ح ٢٠ - ٢١

(٥) الحجة على تارك المحجة ٢/٩٨٢ ، رقم الأثر ٦٨٦ .

الأمر الثاني : النطق باللسان بشهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الذي لا ينطق بكلمة التوحيد وهو غير عاجز عنها لا يسمى موحداً وإن اعتقد ذلك بقلبه .

الأمر الثالث : العمل بمقتضى ما دلت عليه كلمة التوحيد من التحلي بإخلاص العبادة لله وحده والتخلي عن كل معبود سوى الله عز وجل .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ [١] رحمه الله « قوله من شهد أن لا إله إلا الله أي : من تكلم بها ، عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضاها ، باطناً وظاهراً ، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولهما ، كما قال الله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ [٢] وقوله ﴿ إلا من شهد بالحق وهو يعلمون ﴾ [٣] أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ، ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراء من الشرك وإخلاص القول والعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، فغير نافع بالإجماع » [٤] .

الملوحظة الثانية :

أن التوحيد الشرعي يشتمل على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : توحيد الربوبية : وهو الإقرار بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحي المميت ، المتفرد بالتقدير والتدبير ، المتصرف في خلقه بما شاء وكيف شاء .

النوع الثاني : توحيد الالهية : وهو إفراد الله سبحانه بالعبادة والتأله والخضوع والذل والحب والإفتقار والتوجه إليه تعالى وحده دون من سواه .

---

(١) هو : عبد الرحمن بن حسن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ولد في الدرعية سنة ١١٩٣هـ وتوفي في الرياض سنة ١٢٨٥هـ من مؤلفاته « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » انظر : علماء نجد ١/٥٦ ، الأعلام ٣/٣٠٤ .

(٢) محمد آية ١٩ .

(٣) الزخرف آية ٨٦ .

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٥٨ .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات . وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، الكاملة من كل وجه ، المبرأة عن كل نقص ، التي لا يشاركه فيها سبحانه وتعالى أحد ، والتي يجب أن تثبت له سبحانه كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ إثباتاً بلا تحريف ولا تعطيل ، وتنزيهاً بلا تشبيه ولا تمثيل [1] .

فهذه الأنواع الثلاثة : كلها اشتملت عليها على التمام والكمال كلمة التوحيد لا إله إلا الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في حديثه عن كلمة التوحيد : « شهادة أن لا إله إلا الله . فيها الالهيات الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الالهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وهذه الأصول الثلاثة : تدور عليها أديان الرسل ، وما أنزل إليهم وهي الاصول الكبار التي دلت وشهدت بها العقول والفطر [2] .

ولذلك يسمى دين الإسلام دين التوحيد : لأن مبناه على أن الله سبحانه واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له ، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ند له [3] .

ويسمى توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ؛ بالتوحيد العلمي الخبري الاعتقادي وبتوحيد المعرفة والإثبات .

ويسمى توحيد الالهية : بالتوحيد الطلبي الارادي ، وبتوحيد القصد والطلب وبتوحيد العبادة .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله : « وملاك النجاة والسعادة والفوز بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما مدار كتب الله تعالى ، وبتحقيقهما بعث الله تعالى رسوله ﷺ

---

(١) انظر : مختصر لوامع الانوار البهية . للشيخ العلامة محمد بن علي بن سلوم ص ١٠٤ .

(٢) التنبيهات السنية ص : ٩ .

(٣) انظر : الدين الخالص ١/٥٦ .

وإليهما رغب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، كُلُّهم من أولهم إلى آخرهم .

أحدهما : التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي ، المتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص .

والتوحيد الثاني : عبادته وحده لا شريك له ، وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه ، والتوكل عليه ، والرضى به رباً ، وإلهاً ووليا ، وأن لا يجعل له عدلاً في شيء من الأشياء» [١] .

وقال أيضاً : رحمه الله « وأما التوحيد الذي دعا إليه رسل الله ، ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله . وهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول : هو حقيقة ذات الرب تعالى ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله وعلوه فوق سمواته على عرشه ، وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه ، وقد أفصح القرآن الكريم عن هذا النوع جد الافصاح . كما في أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر سورة الحشر ، وأول سورة تنزيل السجدة ، وأول سورة آل عمران ، وسورة الإخلاص بكاملها وغير ذلك .

النوع الثاني : مثل : ما تضمنته سورة ﴿ قل يأيها الكفرون ﴾ وقوله ﴿ قل يأهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ﴾[٢] الآية ، وأول ﴿ تنزيل الكتب ﴾ وآخرها ، وأول سورة يونس وآخرها وأول سورة الأعراف ، وآخرها وجملة سورة الأنعام وغالب سورة القرآن ، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد» [٣] .

الملحوظة الثالثة :

أن التوحيد وإن كان يشتمل على ثلاثة أنواع كما تقدم ، فإن الثلاثة كلهامتلازمة

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ٩٣ .

(٢) آل عمران آية ٦٤ .

(٣) مدراج السالكين ٣/٤٤٩ .

كل واحد منها لا ينفك عن الآخر .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[1] : « وهي - أي أنواع التوحيد - متلازمة كل نوع منها لا ينفك عن الآخر ، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر فماذاك إلا لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب »[2] .

الملحوظة الرابعة :

أن انقسام التوحيد إلى ثلاثة أنواع ليس ابتداعاً من المتأخرين كما يظن البعض .

بل قد دلت عليه كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، ودل عليه استقراء القرآن الكريم، وعليه صنيع السلف في مؤلفاتهم ، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[3] رحمه الله : « قد دل استقراء القرآن العظيم ، على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام .

الأول : توحيده في ربوبيته ، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء ، وذكر الادلة القرآنية عليه ثم قال :

الثاني : توحيده جل وعلا في عبادته ، وضابط هذا النوع هو تحقيق معنى (لا إله إلا الله) وهي متركبة من نفي وإثبات ، فمعنى النفي منها : خلع جميع أنواع المعبودات

---

(١) هو : الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أئمة الدعوة السلفية في القرن الثالث عشر ولد في الدرعية سنة ١٢٠٠هـ مات مقتولاً في الدرعية سنة ١٢٣٣هـ ، من مؤلفاته تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد . انظر : علماء نجد ٢٩٣/١ ، الأعلام ١٢٣/٣ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣ .

(١) هو : الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد مختار بن عبد القادر الشنقيطي ، ولد سنة ١٣٢٥هـ بقطر شنقيط ، بدولة موريتانيا الإسلامية ، وهاجر إلى المملكة العربية السعودية ، وتبوأ المكانة اللائقة به ، وهو رحمه الله من مؤسسي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، له مؤلفات عدة من أهمها أضواء البيان ، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ وانظر : ترجمة تلميذه الشيخ عطية محمد سالم له في أضواء البيان ١٩/١ ، وانظر : جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف ١٨ - ٨٨ ، ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، تأليف عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس .

غير الله كائنة ما كانت ، في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت ، ومعنى الإثبات منها : إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام ، وأكثر آيات القرآن الكريم في هذا النوع من التوحيد ، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم : ﴿ أجعل الألهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [1] وذكر الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد وهي كثيرة ثم قال رحمه الله .

الثالث : توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته ، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين :

الأول : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم ، كما قال تعالى ﴿ليس كمثله شيء ﴾ [2] .

والثاني : الإيمان بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله كما قال بعد قوله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف قال تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾[3] »[4] .

وهذا الذي دل عليه القرآن الكريم ، دل عليه صنيع السلف في مؤلفاتهم ، كما في كتاب التوحيد للإمام البخاري من صحيحه ، فقد ضمنه توحيد الالهية ، وتوحيد الربوبية وأما توحيد الأسماء والصفات فقد أخذ القسط الأكبر منه ، وكذلك سمى الامام ابن خزيمة رحمه الله كتابه « التوحيد » وهو في توحيد الأسماء والصفات ، وقسم ابن مندة رحمه الله كتابه « التوحيد » إلى أربعة أقسام : توحيد الربوبية ، توحيد الالهية ، توحيد الأسماء ،

---

(١) ص آية (٥) .

(٢) الشورى آية (١١) .

(٣) طه آية (١١٠) .

(٤) أضواء البيان ٣/ ٤١٠ - ٤١١ .

توحيد الصفات [١] .

قال الإمام السمعاني رحمه الله نقلاً عن بعض أهل المعرفة « إنما أعطينا العقل لإقامة العبودية ، لا لإدراك الربوبية ، فمن شغل ما أعطى لإقامة العبودية بإدراك الربوبية فاتته العبودية ، ولم يدرك الربوبية » [٢] .

فعمل السلف في مصنفاتهم ، وما نقل عنهم من تفريق بين أنواع التوحيد ، يدل دلالة واضحة على أن السلف رضي الله عنهم كانوا يفرقون بين توحيد الربوبية ، وتوحيد الالهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وأن هذا التقسيم ليس ابتداعاً من المتأخرين ، وإذا كان المشركون يفرقون بين توحيد الربوبية ، وتوحيد الالهية ، فيقرون بالأول ، وينكرون الثاني [٣] بل ورد عنهم الإقرار بكثير من الأسماء والصفات [٤] ، فكيف بالسلف رضي الله عنهم ؟ وهم أهدى سبيلاً ، وأقوم قيلاً ، وأقوى برهاناً ، وبرهانهم في ذلك كتاب الله عز وجل .

قال الشيخ بكر أبو زيد « هذا التقسيم الإستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة ، وابن جرير الطبري ، وغيرهما . وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية [٥] وابن

---

(١) انظر : مقدمة الدكتور علي ناصر فقيهي لكتاب التوحيد ص ٣٣ .

(٢) صون المنطق ص ١٨٠ .

(٣) أخبر سبحانه عن المشركين أنهم كانوا يقرون بتوحيد الربوبية قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموت والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ العنكبوت آية (٦١) . كما أخبر سبحانه عن إنكارهم لتوحيد الالهية قال عز وجل ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ الصافات ٣٥ .

(٤) من ذلك إقرارهم بعلو الله سبحانه واستوائه على العرش ومنه قول أمية بن أبي الصلت

مجدوا الله فهو للمسجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الخلق وسوى فوق السماء سريرا

انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية ٢ / ٣١٠ .

(٥) أورد هذا التقسيم في عدة مواضع من كتبه انظر : على سبيل المثال : العقيدة التدمرية ص ٤ – ٥ .

القيم [1] وقرره الزبيدي [2] في تاج العروس [3] وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان [4] في آخرين ، رحم الله الجميع . وهو استقراء تام لنصوص الشرع ، وهو مطرد لدى أهل كل فن كما في استقراء النحاة كلام العرب . إلى اسم ، وفعل ، وحرف ، والعرب لم تفه بهذا ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب وهكذا في أنواع الإستقراء » [5] .

الملحوظة الخامسة :

قصور التعريفات المبتدعة للتوحيد ، والتي من بينها « أن التوحيد هو اعتقاد أن الله واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له وواحد في أفعاله لا نظير له» [6] .

وهذا التعريف قاصر جداً عن التوحيد المطلوب ، فهو إنما ينطبق على توحيد الربوبية ، ولا يشتمل على توحيد الالهية : الذي هو أعظم أنواع التوحيد ، وفيه وقع الخصام والنزاع بين الرسل وأقوامهم ، وهو أعظم ما دلت عليه كلمة لا إله إلا الله .

هذا بالإضافة إلى أن هذا التوحيد نفسه قد أقر به المشركون ، ولم يمنعهم ذلك من الحكم عليهم بالشرك ، والكفر ، والقتل ، والخلود في النار .

ولو كان تعريف المتكلمين للتوحيد صحيحاً - وهو التوحيد المراد شرعاً - لكان

---

(١) انظر : مدراج السالكين ٢٤/١ - ٢٥ ، ٤٤٩/٣ .

(٢) هو : محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، الزبيدي مشارك في جملة من الفنون ، من مؤلفاته تاج العروس ولد سنة ١١٤٥ وتوفي ١٢٠٥ ، انظر : الأعلام ٧٠/٧ .

(٣) تاج العروس ٥٢٨/٢ .

(٤) أضواء البيان ٤١٠/٣ .

(٥) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير ص ٣٠ .

(٦) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ٤٢/١ وهذا تعريف الأشاعرة وهو قاصر عن التوحيد المطلوب شرعاً كما ترى ، انظر : بيان تلبيس الجهمية ٤٦٧/١ - ٤٦٩ .

المشركون موحدين ولما جاز قتالهم واستحلال دمائهم وأموالهم ، وسبي ذرياتهم ونسائهم . وهو ما يقطع بقصور تعريف التوحيد عند المتكلمين عن التوحيد شرعاً [1] .

تلك هي أهم الملحوظات التي تستفاد من التعريف الشرعي المتقدم للتوحيد ، وهي تدل على وضوح توحيد الله عز وجل من كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله ﷺ ووضوحه عند السلف رضي الله عنهم .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٩٧/٣ - ٩٨ - ١٠٥ ، بيان تلبيس الجهمية ٤٧٨/١ و تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ٣٤ .

الفصل الأول

جهود أبي المظفر رحمه الله
في تقرير عقيدة السلف في أول ما يجب على المكلف

وفيه تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول : التوحيد أول ما يجب على المكلف .

المبحث الثاني : رد أبي المظفر رحمه الله على المتكلمين فيما ذهبوا إليه في أول مايجب على المكلف .

تمهيد

تقدم أن التوحيد يشتمل على أنواع ثلاثة : وأن من أنواعه توحيد الالهية ، الذي هو إفراد الله سبحانه بالعبادة . وهذا النوع من أنواع التوحيد هو أعظم أنواع التوحيد ، فمن أجله خلق الله الخلق ، وأنزل الكتب ، وأقام سوق الجنة والنار ، وبسببه انقسم الناس إلى أبرار وفجار .

وقد دلت آيات الكتاب العزيز ، على أن الإنسان جاء إلى الأرض بالتوحيد ولتحقيق التوحيد. قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ كان الناس أمة وحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [2] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » [3] .

ولما انحرفت البشرية عن التوحيد أرسل الله سبحانه وتعالى إليها الرسل ، وأنزل عليها الكتب ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت ﴾ [4] .

ولما بعث الله نبيه محمداً ﷺ كان أول شيء دعا إليه التوحيد ، كما أن آخر شيء

---

(١) الذاريات آية (٥٦) .

(٢) البقرة آية (٢١٣) .

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ٢/٣٣٤ . والحاكم (٢/٥٤٦) وقال : صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وقال ابن كثير « صحيح سنداً ومعنى ، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (١/٢٥٠) وانظر : بيان تلبيس الجهمية ١/٤٥١ - ٤٥٢ ، وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية ٢/٢٠٥.

(٤) النحل آية ٣٦ .

نهى عنه وحذر منه الشرك [1] النقيض الأول للتوحيد ، وعلى نهجه سار السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وأتباعهم يدعون الناس إلى توحيد الله عز وجل فكان أول واجب عندهم هو النطق بالشهادتين ، اللتين هما مفتاح الدخول في الإسلام .

ولما حدثت البدع بين المسلمين ، وحصل الإنحراف عن فهم السلف رضي الله عنهم لدى كثير منهم ، كان من المسائل التي حصل فيها الإنحراف مسألة أول ما يجب على المكلف فذهب أهل البدع من المعتزلة ، والأشاعرة ، إلى أن أول ما يجب على المكلف هو النظر المؤدي إلى معرفة البارئ عز وجل ، بناء على شبهات انقدحت في أذهانهم ، وأدلة نقلية طوعوها لما قررته عقولهم سلفاً ، وهي لا تدل بحال على ما استدلوا بها عليه ، كما سنرى ذلك في موضعه إن شاء الله .

وفي جهد من جهود أبي المظفر رحمه الله في تقرير عقيدة السلف ، تعرض لهذه المسألة من مسائل العقيدة ، وقرر فيها مذهب السلف بأدلته من الكتاب والسنة ، كما رد على المبتدعة ، وأبطل شبهاتهم وألزمهم بإلزامات لا انفكاك لهم عنها ، مبيناً رحمه الله جناية مقولتهم هذه على العقيدة ، وخطورتها على المسلمين .

وفي هذا الفصل سنعرض لجهده رحمه الله في تقريره لعقيدة السلف في أول ما يجب على المكلف ، وذلك من خلال المبحثين التاليين :

---

(١) في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال - وهو كذلك - « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً » صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب الصلاة ، باب ٥٥ ، ٥٣٢/١ ، صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن إتخاذ القبور مساجد ح ٥٢٩ . ٥٣٠ . ٥٣١ .

المبحث الأول
التوحيد أول ما يجب على المكلف

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : دلالة القرآن الكريم على أن التوحيد أول واجب .

المطلب الثاني : دلالة السنة على أن التوحيد أول واجب .

المطلب الثالث : إجماع السلف رضي الله عنهم على أن التوحيد أول واجب

تمهيد

أول ما يجب على المكلف من أهم المسائل التي شغلت بال كثير من أهل العلم .

وقد دار الجدل حول هذه القضية بداية من القرن الثاني الهجري .

وما كان لهذه المسألة أن تثار ، ولا لهذه القضية أن تطرح ، لولا أن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام سلكوا منهجاً عقلياً متطرفاً في إثبات العقائد . متأثرين في ذلك بالمنهج اليوناني ، الذي يقوم على إخضاع المسائل العقدية للنظر العقلي ، بعيداً عن الاهتداء بنور الوحي .

وقد خدع كثير من المنتسبين إلى الإسلام بهذا المنهج ، وظنوا أنه الضالة التي لايمكن للمرء أن يصل إلى العقيدة التي يطمئن إليها القلب وينشرح لها الصدر إلا بها .

ولذلك ذهبوا يقررون مسائل العقيدة وفق نظرهم القاصر ، فما أثبتته عقولهم أثبتوه ، وما نفته عقولهم نفوه .

ومن تلك المسائل التي أخضعوها للنظر العقلي مسألة أول ما يجب على المكلف .

وما كان لمسائل العقيدة عامة ومسألة أول ما يجب على المكلف خاصة أن يستقل العقل بتقريرها ولا الوصول فيها إلى الحق فما الذي بقي للوحي إذن ؟!

بل إن مسائل العقيدة عامة الأصل في إثباتها الوحي ثم إن العقل السليم يدل على صحة ما جاء به الوحي وقرره .

ومسألة أول ما يجب على المكلف من أعظم ما بينه الوحي - قرآناً وسنة - غاية البيان ، ولذلك لايوجد فيها بين علماء السلف خلاف ، بل إن القرآن ، والسنة وإجماع السلف رضي الله عنهم كلها متظافرة على أن التوحيد أول ما يجب على المكلف .

وقد تعرض أبو المظفر رحمه الله لهذه المسألة المهمة وقرر رحمه الله . أن أول ما

يجب على البالغ العاقل من بني آدم إنما هو توحيد الله عز وجل المتضمن إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه ، قال رحمه الله منكراً على من خالف في أول واجب على المكلف ، ومقرراً لعقيدة السلف « وعلى أنا لا ننكر النظر ، قدر ما ورد به الكتاب والسنة ، لينال المؤمن بذلك زيادة اليقين ، وثلج الصدر ، وسكون القلب ، وإنما أنكرنا طريقة أهل الكلام فيما أسسوا . فإنهم قالوا : أول ما يجب على الإنسان النظر المؤدي إلى معرفة البارئ عز وجل ، وهذا قول مخترع ، لم يسبقهم إليه أحد من السلف وأئمة الدين »[1] .

والذي عليه السلف وأئمة الدين كما سيأتي بيانه - أن التوحيد أول واجب . وقد نبه رحمه الله على الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح رضي الله عنهم على ذلك .

وذلك في معرض رده على المتكلمين فيما ذهبوا إليه من القول بوجوب النظر .

المطلب الأول : دلالة القرآن الكريم على أن التوحيد أول واجب .

القرآن الكريم كله في توحيد الله عز وجل ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وأفعاله ، فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده ، وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب ، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله في التوحيد ، وحقوقه ، وجزائه ، وفي شأن

---

(١) صون المنطق ١٧١ .

الشرك ، وأهله ، وجزائهم [١] .

وكون القرآن الكريم كله في توحيد الله سبحانه أكبر دليل على أن التوحيد أعظم واجب وأوله ومع هذا الدليل الظاهر ، الذي لو لم يكن دليل غيره لكان كافياً هناك أدلة أخرى ، وردت في القرآن الكريم ، تدل دلالة واضحة على أن التوحيد هو أعظم واجب ، وأوله ومن تلك الادلة : ما احتج به أبو المظفر رحمه الله على المتكلمين مبيناً رحمه الله أن القرآن الكريم دل على أن التوحيد أول واجب ، وليس النظر ولا غيره ، كما هي مذاهب أهل الكلام .

قال رحمه الله « وأما أهل السنة سلمهم الله فإنهم يتمسكون بما نطق به الكتاب ، ووردت به السنة ، ويحتجون له بالحجج الواضحة ، والدلائل الصحيحة على حسب ما أذن فيه الشرع ، وورد به السمع ، ولايدخلون بآرائهم في صفات الله تعالى ، ولافي غيرها من أمور الدين ، وعلى هذا وجدوا سلفهم ، وأئمتهم . وقد قال الله تعالى : ﴿ يأيها النبي إنا أرسلنك شهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ [٢] . وقال أيضاً : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ [٣] ، وقال ﷺ في خطبة الوداع ، وفي مقامات له شتى ، وبحضرته عامة أصحابه رضي الله عنهم « ألا هل بلغت » [٤] وكان مما أنزل إليه وأمر بتبليغه أمر التوحيد ، وبيانه بطريقته ، فلم يترك النبي

---

(١) انظر : مدراج السالكين ٣/ ٤٥٠ .

(٢) الأحزاب آية ٤٥-٤٦ .

(٣) المائدة آية ٦٧ .

(٤) صحيح مسلم : كتاب القسامة ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ح ١٦٧٩ .

ﷺ شيئاً من أمور الدين ، وقواعده ، وأصوله ، وشرائعه ، وفصوله ، إلا بينه ، وبلغه على كماله وتمامه ، ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه ، إذ لو أخر فيها البيان لكان قد كلفهم مالا سبيل لهم إليه »[1] .

ساق أبو المظفر رحمه الله في النص السابق آيتين من كتاب الله عز وجل مستدلاً بهما على أن التوحيد أول ما يجب على المكلف .

ووجه دلالتهما على ذلك ظاهرة .

أما الآية الأولى وهي قوله تعالى : ﴿ يأيها النبي إنا أرسلنك شهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[2] . فوجه دلالتها أن الله سبحانه أخبر أنه أرسل رسوله محمداً ﷺ بالدعوة إلى التوحيد ، فإن الدعوة إلى الله هي : الدعوة إلى لا إله إلا الله وقيل إلى الإسلام[3] وعلى كلا القولين ، المراد به توحيد الله عز وجل ، ولم يرسله بالدعوة إلى النظر ولا إلى الإستدلال إبتداء .

وكونه ﷺ أرسل بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل ، دليل على أنه أول واجب ، إذ لو كان غيره أوجب منه ، لكان التنبيه عليه من باب أولى .

وما أشار إليه الامام أبو المظفر رحمه الله من دلالة الآية المتقدمة على أن التوحيد أول واجب ، وأن الرسول ﷺ أرسل بالدعوة إلى التوحيد ، نبه عليه غيره من العلماء قال ابن جرير الطبري رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وداعياً إلى الله ﴾ « يقول وداعياً إلى توحيد

---

(١) صون المنطق ١٧٥ .

(٢) الأحزاب آية ٤٥ - ٤٦ .

(٣) انظر : تفسير السمعاني ٤١٠ تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

الله وإفراد الالهية له ، وإخلاص الطاعة لوجهه ، دون كل من سواه ، من الالهة والأوثان ، وروى بسنده عن قتادة في قوله ﴿ وداعياً إلى الله ﴾ إلى شهادة أن لا إله إلا الله » [1] .

والآيات التي تدل على أن الرسول ﷺ أرسل بدعوة الناس إلى توحيد الله عز وجل كثيرة . من ذلك قوله سبحانه ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله وحد ﴾ [2] .

وقوله عز وجل ﴿ قل يأهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [3] .

وقال عز وجل ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحن الله وما أنا من المشركين ﴾ [4] .

والدعوة إلى توحيد الله مهمة الرسل جميعاً من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت ﴾ [5] .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله « التوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى ، قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ١٨/٢١ .

(٢) الكهف آية ١١٠ .

(٣) آل عمران آية ٦٤ .

(٤) يوسف آية ١٠٨ .

(٥) النحل آية ٣٦ .

يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [1] .

وقال هود لقومه ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [2] .

وقال صالح لقومه ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [3] .

وقال شعيب لقومه ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [4] .

وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت﴾[5] .

فالتوحيد مفتاح دعوة الرسل » [6] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وقد أرسل الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد ، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [7] وقال تعالى ﴿ وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن ءالهة يعبدون ﴾ [8] وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضللة ﴾ [9] وقال تعالى ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبت واعملوا صلحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة وحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [10] .

---

(١) الاعراف آية ٥٩ .

(٢) الأعراف آية ٦٥ .

(٣) الأعراف آية ٧٣ .

(٤) الأعراف آية ٨٥ .

(٥) النحل آية ٣٦ .

(٦) مدارج السالكين ٣/٤٤٣ .

(٧) الأنبياء آية ٢٥.

(٨) الزخرف آية ٤٥ .

(٩) سورة النحل آية ٣٦ .

(١٠) المؤمنون آية ٥١-٥٢ .

وقد قالت الرسل كلهم مثل : نوح وهود وصالح وغيرهم ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعتهم »[1] .

وقال رحمه الله « وقد أخبر الله تعالى عن كل من الرسل مثل : نوح ، وهود وصالح ، وشعيب ، وغيرهم ، أنهم قالوا لقومهم ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ وهذا أول دعوة الرسل وآخرها »[2] .

ولايكون التوحيد أول دعوة الرسل ، إلا وهو أول واجب على المكلف ، إذ لو كان غير التوحيد أوجب منه ؛ لبدأ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم به ، أو نبهوا عليه وكل ذلك لم يقع ، فدل ذلك على أن التوحيد هو أول ما يؤمر به العباد سواء في عهد الرسل او من بعدهم كما هو الحال بعدَ الرسول ﷺ .

وأما الآية الثانية وهي :

قوله سبحانه ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[3] [4].

فوجه دلالتها على أن التوحيد أول واجب . هو أن الله سبحانه أمر رسوله محمداً ﷺ بالبلاغ ، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين ، وشهد له ربه سبحانه بكمال دينه وتمامه .

ومن أعظم ما بلغ ﷺ أمر التوحيد وقد بين ﷺ بقوله وفعله أن التوحيد أول واجب كما سيأتي بيان ذلك ولم يثبت عنه خلاف ذلك .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى وجه الدلالة من الآية

فقد قال رحمه الله بعد أن ذكر الآية المتقدمة مستدلاً بها على أن التوحيد أول

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٢/١١ .

(٢) منهاج السنة النبوية ٣٤٦/٥ .

(٣) المائدة آية ٦٧ .

(٤) انظر صون المنطق ص : ١٧٥ .

واجب » وقد قال ﷺ في خطبة الوداع وفي مقامات له شتى وبحضرته عامة أصحابه رضي الله عنهم ألا هل بلغت [(١)] .

وكان مما أنزل إليه ، وأمر بتبليغه أمر التوحيد وبيانه بطريقته ، فلم يترك النبي ﷺ شيئاً من أمور الدين ، وقواعده ، وأصوله ، وشرائعه ، وفصوله إلا وبينه وبلغه على كماله وتمامه ، ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة ، إذ لو أخر فيها البيان لكان قد كلفهم مالا سبيل لهم إليه »[(٢)] .

وما قرره أبو المظفر رحمه الله من أن الدين قد كمل ، وأن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين ، وأن من أعظم ما بلغه أمر التوحيد ، قرره غيره من أهل العلم ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فقد بين رحمه الله أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين ، وبين البيان الشافي ، الكافي ، القاطع للعذر ، إذ أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق ، وأقدر الناس على بيان الحق ، وأنصح الخلق للخلق ، مما يستوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد ، ومما قاله رحمه الله « أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب إعتقادها ويجب أن تذكر قولاً ، أو تعمل عملاً ، كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل أما القسم الأول : فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول ﷺ البلاغ المبين ، وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه ، وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول ﷺ لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام

---

(١) تقدم عزوه ص ١٥٢ .

(٢) صون المنطق ١٧٥ .

الواجب والمستحب »[1] .

فكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، موافق لما قرره أبو المظفر رحمه الله ومؤكد له .

وما قرره أبو المظفر رحمه الله وغيره من أهل العلم من دلالة القرآن الكريم على أن التوحيد أول واجب ، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل غير ما ذكر ، ومن ذلك .

أولاً : دلالة القرآن الكريم على أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً ، ولم يتركهم سدى ، وإنما خلقهم ليعبدوه وليقوموا بذكره ، وشكره ، قال تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقنكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعوَن ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بـطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾[3] وقال جل وعلا ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[4] .

وكونه سبحانه خلق الخلق لعبادته ، يقتضي أن يكون أودع في نفوسهم من معرفته والإقرار به ما يستلزم قيامهم بمهمة العبادة ، وقد نصب لهم سبحانه من الأدلة الظاهرة والحجج الباهرة ، ما يجعل وجوده سبحانه أظهر من كل موجود وكل ذلك يقتضي أن يكون التوحيد أول واجب .

ثانياً : الأمر الصريح في كتاب الله عز وجل بتوحيد الله سبحانه وتقديمه على غيره من الواجبات ، ومجيء الأمر بالتوحيد بصيغ مختلفة ، مما يدل على شدة الإهتمام به ، وكمال العناية بشأنه .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٢٧ .

(٢) المؤمنون آية ١١٥ .

(٣) ص آية ٢٧ .

(٤) الذاريات آية ٥٦ .

فقد جاء الأمر الصريح بالتوحيد مقدماً على غيره من الواجبات في آيات كثيرة منها قوله سبحانه ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالولدين إحسناً ﴾ [1] وقال جل وعلا ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [2] وقال عز وجل ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ [3] وأخبر سبحانه أنه أمر بالتوحيد قال تعالى ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [4] وقل عز وجل ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [5] وقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً وحداً لا إله إلا هو سبحنه عما يشركون﴾[6] .

كما أخبر سبحانه بأنه أخذ الميثاق على العباد بأن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [7] وإقرارهم بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الالهية ، وقال سبحانه ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني ءام أن لا تعبدوا الشيطن إنه لكم عدو مبين ﴾ [8] وقال عز وجل ﴿ وإذ أخذنا ميثق بني إسراءيل أن لا تعبدوا إلا الله وبالولدين إحسناً ﴾ [9] .

وأخبر سبحانه بأنه حكم وقضى بعبادته وحده لا شريك له قال تعالى ﴿ وقضى ربك

---

(١) النساء آية ٣٦ .

(٢) البقرة آية ٢١ .

(٣) قريش آية ٣ .

(٤) يوسف آية ٤٠ .

(٥) البينة آية ٥ .

(٦) التوبة آية ٣١ .

(٧) الأعراف آية ١٧٢ .

(٨) يس آية ٦٠ .

(٩) البقرة آية ٨٣ .

ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسناً ﴾ [1] فهذا التنوع في الصيغ التي ورد بها الأمر بالتوحيد من الأمر به مقدماً على غيره ، والإخبار بأن الله سبحانه أمر عباده به ، والتأكيد بأخذ الميثاق على العباد بالتوحيد ، كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن التوحيد أعظم واجب وأوله ولا يعقل أن يحظى التوحيد بكل هذا الإهتمام والعناية التي لم يحظ بها واجب غيره ، ويكون غيره أوجب منه .

ثالثاً : ومما يدل على أن التوحيد أول واجب أن أول أمر في القرآن الكريم يشنف السمع ، هو الأمر بعبادة الله وحده قال تعالى ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [2] .

كما أن أول نهي ورد في القرآن الكريم ، النهي عن الشرك ، النقيض الأول للتوحيد قال تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ [3] .

رابعاً : إن التوحيد هو وصية الأولين للآخرين ، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم عليه السلام وابنه يعقوب قال تعالى ﴿ ووصى بها إبرهيم بنيه ويعقوب يبني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله ءابائك إبرهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [4].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله « ووصى بهذه الكلمة ، أعني بالكلمة ﴿ أسلمت لرب العلمين ﴾ وهي الإسلام ، الذي أمر به نبيه ﷺ وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له ، يعني بقوله ووصى بها إبراهيم بنيه عهد إليهم بذلك وأمرهم به

---

(١) الإسراء آية ٢٣ .

(٢) البقرة آية ٢١ .

(٣) البقرة آية ٢٢ .

(٤) البقرة آية ١٣٢ - ١٣٣ .

وأما قوله ﴿ ويعقوب ﴾ فإنه يعني ووصى بذلك أيضاً يعقوب بنيه » [١] .

ووصية الأنبياء عليهم السلام بالتوحيد دون غيره ظاهر الدلالة في أن التوحيد أعظم واجب وأوله وآخره .

خامساً ، وسادساً ، وسابعاً .

بيان القرآن الكريم أنه بسبب التوحيد أنقسم الناس إلى مؤمنين وفجار ، وقامت سوق الجنة والنار ، وأبيحت الدماء والأموال ، قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون ﴾ [٢] وقال عز وجل ﴿ وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [٣] وقال جل وعلا ﴿ قتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينَون دين الحق من الذين أوتوا الكتب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صغرون ﴾ [٤] .

فكل ذلك يدل على أن توحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة أول واجب كما يشهد بصحة عقيدة السلف ، وأن الحق فيما اعتقدوه ، ودانوا به لله عز وجل .

وفي إشارة إلى كل ما تقدم من دلالة القرآن الكريم على مكانة التوحيد ، ومنزلته من الدين ، يقول الامام العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله : « وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات ، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات ، وبها أرسل الله تعالى رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه ولأجلها نصبت الموازين ، ووضعت الدواوين وقام سوق الجنة والنار وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، فهي منشأ الخلق والأمر والثواب ، والعقاب ، وهي الحق الذي خلق له الخليقة ، وعنها وعن

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٥٦٠ .

(٢) ن آية ٣٥-٣٦ .

(٣) الشورى آية ٧ .

(٤) التوبة آية ٢٩ .

حقوقها السؤال والحساب وعليها يقع الثواب والعقاب وعليها نصبت القبلة وعليها أسست الملة ولأجلها جردت سيوف الجهاد ، وهي حق الله على الجميع فهي كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام وعنها يسأل الأولون والآخرون ، فلا تزول قدما عبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين : ماذا كنتم تعبدون ، وبماذا أجبتم المرسلين فجواب الأولى : بتحقيق لا إله إلا الله معرفة وإقراراً وعملاً وجواب الثانية : بتحقيق أن محمداً رسول الله ، معرفة وإقراراً وانقياداً وطاعة »[1] .

المطلب الثاني : دلالة السنة على أن التوحيد أول واجب

إذا كان القرآن الكريم كله في توحيد الله عز وجل ، وقد دل على أن أول واجب على المكلف هو التوحيد ؛ فإن السنة كذلك ، كلها في توحيد الله تعالى وقد دلت على أن أول واجب على المكلف هو التوحيد ، فإن السنة ما هي إلا تفسير للقرآن وبيان لمعناه .

وقد بدأ الرسول ﷺ دعوته بالتوحيد ، وختمها بالتحذير من الشرك الذي هو النقيض الأول والأكبر للتوحيد ، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أن التوحيد أول واجب وآخره، ولو كان غير التوحيد أول واجب لما أهمله الرسول ﷺ ولا أخره ، إذ أن الإهمال والتأخير كلاهما غير جائز في حقه ﷺ .

أما عدم جواز الإهمال فوجهه : أن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ بالبلاغ قال تعالى ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[2] .

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين ، وشهد له ربه سبحانه بكمال دينه وتمامه ، قال تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[3] .

---

(١) زاد المعاد ١/٣٤ .

(٢) المائدة آية (٦٧) .

(٣) المائدة آية (٣) .

وشهد له أصحابه بالبلاغ أيضاً كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله في حجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ ، «أيها الناس ؟ إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد : أنك قد بلغت وأديت ونصحت »[1] .

وأما عدم جواز التأخير فوجهه : أن تأخير البيان عن وقت الحاجة غير جائز كما هو مقرر في أصول الفقه[2] .

فكيف إذا كان هذا البيان هو بيان أول واجب وأعظمه ؟! فهذا عدم جواز تأخيره من باب أولى .

وليس هذا الدليل المجمل وحده هو الذي يدل على أن التوحيد أول واجب ، بل هناك أدلة تفصيلية من قول الرسول ﷺ وفعله ، تدل دلالة ظاهرة على أن أول واجب على المكلف هو توحيد الله عز وجل .

وقد نبه أبو المظفر رحمه الله على ذلك ، قال رحمه الله :

« هذا وقد تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين»[3] ، وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله »[4] .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ (ح ١٢١٨) .

(٢) انظر : روضة الناظر وجنة المناظر ٥٧/٢ .

(٣) وقد أشار إلى هذا التواتر الحافظ ابن حجر ، انظر الفتح ٣٥٣/١٣ .

(٤) أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم » صحيح البخاري بشرح الفتح كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ٢٦١/٣ . صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ح ١٩ .

وقال ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »[1] ومثل هذا كثير[2] .

دلالة الأحاديث المتقدمة على أن التوحيد أول واجب ظاهرة ، لا خفاء فيها ، إذ لو كان غير التوحيد أول واجب لكان أمر النبي ﷺ به أولى ، وعنايته به أحرى . والشواهد على صحة قول أبي المظفر رحمه الله « إن الرسول ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين كثيرة ، وقد أورد بعضها في تفسيره ، وأشار إلى بعضها في كتاب الانتصار وهي :

أولاً : دعوته ﷺ قريشاً إلى التوحيد

فقد روى أبو المظفر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صعد ذات يوم الصفا وقال : ياصباحاه ؟ فاجتمعت قريش . فقالوا : مالك ؟ فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم مصدقي ؟ قالوا : بلى . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك . ألهذا دعوتنا جميعاً ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب... ﴾ إلى أخر السورة »[3] [4] .

ثانياً : دعوته ﷺ العرب إلى توحيد الله عز وجل .

قال أبو المظفر رحمه الله وعن طارق بن عبد الله المحاربي[5] أنه قال : كنت بسوق ذي المجاز[6] فإذا أنا بشاب يقول : أيها الناس ؟ قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . وإذا الرجل

---

(١) جاء ذلك من حديث أبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهم . وقد تقدم عزوه إلى الصحيحين ص ١٣٧ .

(٢) صون المنطق ١٧٢ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب التفسير ، سورة ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ ٧٣٧/٨ .

(٤) تفسير السمعاني ١١١٤ بتحقيق سليمان صالح الخزى .

(٥) طارق بن عبد الله المحاربي صحابي نزل الكوفة ، وروى عنه أبو الشعثاء ، وربعي بن خراش ، وأبو حمزة وحديثه عند النسائي وغيره . انظر : الإصابة ٢١٢/٢ .

(٦) سوق ذي المجاز موضع قرب عرفة على بعد فرسخ منه ، على يمين الإمام ، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام ، معجم البلدان ٥٥/٥ .

خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبه وهو يقول : أيها الناس ؟ لا تصدقوه فإنه كذاب . قال فسألت عنهما فقيل : إن الشاب محمد ﷺ ، والرجل الذي خلفه عمه أبو لهب »[1] [2] .

ثالثاً : دعوته ﷺ عمه أبا طالب لما حضرته الوفاة إلى لا إله إلا الله .

قال أبو المظفر رحمه الله « وقد صح برواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن أبا طالب لما حضره الموت دخل النبي ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أمية وغيرهما ، فقال رسول الله ﷺ « يا عم ؟ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية أزغت عن ملة الأشياخ . فما زال رسول الله ﷺ يقول وهم يقولون : حتى كان آخر كلمة قالها أنا على ملة الأشياخ . ويعني بالأشياخ عبد المطلب وهاشم ، وعبد مناف » . وهذا الخبر في الصحيحين[3] .

وذكر مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ دخل على أبي طالب وقد حضرته الوفاة ، فقال : ياعم ؟ اشهد أن لا إله إلا الله ، أشفع لك يوم القيامة ، فقال : لولا أن تعيرني نساء قريش فيقلن جزع عند الموت لأقررت بها عينك »[4][5] .

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٤٤/٣ - ٤٥ ، وقال العظيم أبادي في التعليق المغنى « رجاله كلهم ثقات » وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٧٦/٨ - ٣٧٧ ، رقم ٨١٧٥ ، وانظر : مجمع الزوائد ٢٤/٦-٢٥-٢٦ .

(٢) تفسير السمعاني (١١١٨) تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري كتاب التفسير ، باب ﴿ إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ٥٠٦/٨ ، صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ح ٢٤ ، مع اختلاف يسير .

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ح ٢٥ ، وفيه « لولا أن تعيرني قريش » ، وكذلك فيه « أشهد لك يوم القيامة » .

(٥) تفسير السمعاني ٢١٠ - ٢١١ بتحقيق حافظ أو البركات محمد حزب الله .

رابعاً : دعوته ﷺ رسول هرقل إلى الإسلام .

قال أبو المظفر رحمه الله : وعن سعيد بن أبي راشد [1] أن هرقلا بعث رسولاً من تنوخ إلى النبي ﷺ . فجاء إليه وهو بتبوك يحمل كتاب هرقل ، فقال له النبي ﷺ : ياأخا تنوخ ! أسلم . فقال : إني رسول ملك جئت من عنده وأكره أن أرجع إليه بخلاف ما جئت به . فضحك النبي ﷺ وقرأ قوله تعالى ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [2] [3] .

خامساً : دعوته ﷺ الملوك إلى الإسلام .

فقد أرسل ﷺ الرسل إلى الملوك . إلى كسرى ، وقيصر ، وملك الإسكندرية ، وإلى أكيدر دومة ، وغيرهم من ملوك الاطراف ، وكتب إليهم كتباً على ما عرف ونقل واشتهر [4] [5] .

وفي كل رسائله ﷺ يدعو إلى الإسلام والتوحيد ، ولم يدع إلى غيره وفي ذلك البرهان الواضح على أن التوحيد هو أول واجب على المكلف ، إذ لو كان غير التوحيد أول واجب لدعا إليه ﷺ قبل غيره ، أو نبه عليه ولما لم يحدث ذلك ، علم أن التوحيد أول واجب على المكلف وهو ما دان به السلف رضي الله عنهم .

---

(١) سعيد بن أبي راشد ويقال ابن راشد روى عن يعلى بن مره الثقفي وعن التنوخي النصراني رسول هرقل ، وعنه عبد الله بن عثمان بن خثيم ، وذكره ابن حبان في الثقات . انظر : تهذيب التهذيب (٢٦/٤) .

(٢) القصص آية (٥٦) .

(٣) انظر : تفسير السمعاني ٢١١ تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

(٤) صون المنطق ١٧٢ .

(٥) في صحيح مسلم من حديث أنس « أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشي ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى » . صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل ح ١٧٧٤ ، وانظر زاد المعاد ٦٨٨/٣ ، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين .

وما قرره الامام أبو المظفر رحمه الله من دلالة السنة على صحة عقيدة السلف رضي الله عنهم قرره غيره من أهل العلم . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « والنبي ﷺ لم يدع أحداً من الخلق إلى النظر ابتداء ، ولا إلى مجرد إثبات الصانع ، بل أول ما دعا إليه الشهادتان وبذلك أمر أصحابه »(١) .

المطلب الثالث : اجماع السلف رضي الله عنهم على أن التوحيد أول واجب

ومما يدل على أن التوحيد أول ما يجب على المكلف : ما جرى عليه عمل المسلمين من عهد الرسول ﷺ وأصحابه ، ومن بعدهم ، من التابعين وأتباعهم ، من دعوة الكفار إلى الإسلام والشهادتين ، حتى أصبح ذلك من مقررات الشرع الثابتة ، ومن الامور المعلومة من الدين بالضرورة .

وهو إجماع من السلف على أن التوحيد أول واجب . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ذلك بقوله « وإنما يكون حكم الكافر في الشرع : أن يدعى إلى الإسلام ، فإن أبى وسأل النظرة والإهمال لايجاب إلى ذلك ، ولكنه إما أن يسلم ، أو يعطي الجزية (٢) أو يقتل ، وفي المرتد إما أن يسلم ، أو يقتل (٣) وفي مشركي العرب على ما عرف »(٤) .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/٨) .

(٢) اتفق العلماء : على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ، سواء كانوا عرباً أم عجماً ، ومن المجوس ، واختلفوا فيما سوى ذلك ، فذهب الشافعي وأحمد وأبو ثور وأبو حنيفة ، إلى أنها لا تؤخذ إلا ممن تقدم ذكرهم ، إلا المرتد ، وذهب الإمام مالك ، والأوزاعي ، إلى أنها تؤخذ من كل عابد وثن ، أو نار ، أو جاحد أو مكذب ، سواء كان عربياً ، أو أعجمياً ، تغلبياً أو قرشياً كائناً من كان ، إلا المرتد ، انظر: الجامع لاحكام القرآن ٨/ ١١٠ ، شرح السنة للبغوي ١١/ ١٧٠ ، المغني لابن قدامة ٨/٤٩٦ .

(٣) الردة الرجوع من دين الإسلام إلى الكفر. واختلف في استتابة المرتد، قيل : لا يستتاب ، وقيل : يستتاب وعلى القول بالاستتابة اختلف في مدتها ، قيل : يستتاب فإن تاب وإلا قتل مكانه ، وقيل : يستتاب ثلاثة أيام ، وقيل : غير ذلك ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ٣/٤٧ ، المغني لابن قدامة ٨/١٢٣ .

(٤) تقدمت الإشارة إلى أن مشركي العرب قيل : لا تؤخذ الجزية منهم بحال ، وهو مذهب الشافعي وغيره وقيل: تؤخذ منهم كما هو مذهب مالك وغيره .

وأشار رحمه الله إلى أن على ذلك إجماع المسلمين [(١)] .

ونقل رحمه الله عن أبي العباس بن سريج قوله : « لو أن رجلاً جاءنا وقال : إن الأديان كثيرة ، فخلوني أنظر في الأديان ، فما وجدت فيه الحق قبلته ، وما لم أجد تركته ، لم نخله ، وكلفناه الإجابة إلى الإسلام ، وإلا أوجبنا عليه القتل » [(٢)] .

وما قرره رحمه الله من إجماع السلف على أن التوحيد أول واجب . قرره غيره من أهل العلم كذلك .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : « وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين ، وعلماء المسلمين ، فإنهم مجمعون على ما علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين ، سواء كان معطلاً ، أو مشركاً ، أو كتابياً ، وبذلك يصير الكافر مسلماً ، ولا يصير مسلماً بدون ذلك » [(٣)] .

وقال رحمه الله : « والمقصود ... أن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان ، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ » [(٤)] .

---

(١) انظر صون المنطق ١٧٢ .

(٢) صون المنطق ١٧٢ ، وما ذكره أبو العباس بن سريج فيه تفصيل : فإن الكافر له أحوال ، فإن كان في حالة قتال مع المسلمين فلا يمهل بل . إما : أن يسلم أو يدفع الجزية إن كان من أهلها ، أو يقاتل ، وإن كان أسيراً فلا يتعين قتله ، فإذا طلب الأمان ورجي إسلامه أُمِّنَ ، وإن كان مرتداً فلا يؤخر عند الجماهير فوق ثلاث ، وإن كان حربياً في غير حال قتال وطلب الأمان حتى يسمع القرآن وينظر دلائل الاسلام أمن لقوله سبحانه ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ التوبة ٦ ، انظر : درء تعارض العقل والنقل ٨/١٥ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٨/٧ .

(٤) المصدر السابق ٨/١١ .

وقال أبو بكر بن المنذر [1] : « أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأن كل ما جاء به محمد ﷺ حق ، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف الإسلام ، وهو بالغ صحيح يعقل أنه مسلم » [2] .

وهذا الإجماع من حماة الدين ، وحراس العقيدة وحملة الشريعة ، لا يعكر عليه ما سيأتي من خلاف المتكلمين ، فإن إجماع السلف رضي الله عنهم متقدم على بدعة المتكلمين وهو إجماع مستند إلى النصوص الثابتة من الكتاب والسنة ، الواضحة في دلالتها ، وبدعة المتكلمين لا تستند إلا إلى شبهات مدفوعة بما تقدم من الأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع صدر الامة من الصحابة والتابعين وأتباعهم ، ثم إنها منقوضة بردود العلماء والتي سنقف عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو : محمد بن إبراهيم بن المنذر ، أبو بكر النيسابوري مجمع على إمامته وجلالته ووفور علمه جمع بين التمكن من علمي الفقه والحديث له مصنفات مهمة ونافعة منها : « الإجماع » ولد السنة (٢٤٢) وتوفي سنة (٣١٨) على الأرجح . انظر : سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٩٠ .

(٢) الإجماع لابن المنذر (١٤٤) ، وزاد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله نقلاً عن ابن المنذر أيضاً « فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتداً يجب عليه ما يجب على المرتد » درء تعارض العقل والنقل (٨/٧) وانظر : الجامع لاحكام القرآن (٣٣١/٧ - ٣٣٢) .

المبحث الثاني
رد أبي المظفر رحمه الله على المتكلمين فيما ذهبوا إليه في أول مايجب على المكلف

وفيه تمهيد وخمسة مطالب :

المطلب الأول : القول بأن النظر أول واجب قول مخترع .

المطلب الثاني : الرد على شبهات المتكلمين .

المطلب الثالث : اللوازم الباطلة المترتبة على القول بأن النظر أول واجب .

المطلب الرابع : نتيجة القول بأن النظر أول واجب .

المطلب الخامس : تحذير أبي المظفر رحمه الله من الاشتغال بأقوال المتكلمين .

تمهيد

ذهب جمهور المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة إلى أن أول ما يجب على البالغ العاقل من بني آدم . النظر المؤدي إلى معرفة الباري عز وجل [1] .

وهو قول مبني على أن الله سبحانه غير معلوم ، وأن معرفته سبحانه يجب أن تتقدم على عبادته ، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنظر والإستدلال .

وجمهور المعتزلة والأشاعرة : وإن اتفقوا على القول بأن النظر أول واجب ، فإنهم اختلفوا في الموجب لذلك .

فذهب المعتزلة إلى أن الموجب للنظر العقل . بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين عندهم ، ومفادها ، أن العقل يمكنه وحده أن يدرك الحسن والقبح في الأشياء كلها ، وذلك لما فيها من صفات تدل على أنها حسنة أو قبيحة فالصدق حسن والكذب قبيح والعقل يدرك ذلك وحده حتى قبل ورود الشرع . ومما يحسنه العقل ، بل ويوجبه شكر المنعم - والمراد به هنا الخالق جل وعلا - أداء لحقه ودفعاً للضرر المتوقع من عدم شكره ومن ثم أوجبوا على كل إنسان البحث عن الحق بعقله ، خوفاً من العقاب ، وطلبا للثواب ، وشكرا للمنعم ، من غير توقف على الرسالة .

والسبيل الوحيد عند المعتزلة إلى معرفة المنعم هو النظر والإستدلال ، ومن هنا كان أول ما يجب على المكلف النظر المؤدي إلى معرفة المنعم ، وذلك حتى يتأتى القيام شكره .

---

(١) القول بأن أول واجب هو النظر. هو المشهور عن المتكلمين وهناك أقوال لهم أخرى ، أهمها : أن أول واجب المعرفة ، وقيل : القصد إلى النظر ، وقيل أول جزء من النظر . وبالغ بعضهم فقال : إن أول واجب هو الشك في وجود الخالق سبحانه . انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني ٣٣ ، شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ٣٩ ، الإرشاد إلى قواطع الأدلة للجويني ٣١ ، درء تعارض العقل والنقل ٣٥٣/٧ ، المواقف في علم الكلام للإيجى ٣٢ ، شرح أم البراهين للسنوسي ١٤ ، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ٣٧ .

ذلك دليل المعتزلة اليتيم الذي شغبوا به على المسلمين .

وذهب الأشاعرة إلى أن الموجب للنظر الشرع .

ودليل الشرع على وجوب النظر كما صاغه الأشاعرة من وجهين :

الوجه الأول : إجماع الأمة على وجوب معرفة الله سبحانه . ولا سبيل إليها إلا بالنظر ، فوجب تبعاً لذلك ، بناء على أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

قال الجويني : « فإن قيل : ما الدال على وجوب النظر والإستدلال من جهة الشرع؟ قلنا : أجمعت الأمة على وجوب معرفة الباري تعالى ، واستبان بالعقل أنه لا يتأتى الوصول إلى اكتساب المعارف إلا بالنظر ، ومالا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب »[1].

الوجه الثاني : ما ورد في القرآن الكريم من الأمر بالنظر والإستدلال والرجوع إلى الاعتبار ، ومجادلة المشركين بالدلائل العقلية . كما جاء أيضاً في القرآن الكريم ذم التقليد وكل ذلك يدل على وجوب النظر على حد زعمهم[2] .

تلك هي : مجمل شبهات المتكلمين التي بنوا عليها القول بأن النظر أول واجب . والتي هي : وجوب معرفة الله سبحانه ، وجوب النظر ، الوجوب العقلي ، الامر في القرآن الكريم بالنظر والإستدلال ، ذم القرآن الكريم للتقليد .

وقول المتكلمين بأن النظر أول واجب باطل ومردود ، وذلك لمخالفته لما دل عليه الكتاب والسنة ، وإجماع السلف رضي الله عنهم .

---

(١) الإرشاد للجويني ٣١ ، وانظر : الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ٣٣ .

(٢) قال الرازي في تفسير قوله سبحانه ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموت والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ المطلب الأول : أن التقليد غير جائز ، ولا بد من النظر والإستدلال ، والدليل على أن الأمر كذلك قوله ﴿ أولم يتفكروا ﴾ . التفسير الكبير للرازي ٧٧/١٥ . وقال في تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة « إنما ذكر هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيهاً على أنه لافرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد وفيه أقوى دليل على وجوب النظر ، والإستدلال ، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل ، أو على ما يقوله الغير من غير دليل التفسير الكبير للرازي ٧/٥ .

وفي جهد آخر من جهود أبي المظفر رحمه الله في تقرير عقيدة السلف في أول ما يجب على المكلف ، رد على المتكلمين قولهم بأن النظر أول واجب ، وأبطل ما تعقلوا به من شبهات وبين رحمه الله خطورة مذهبهم على الإسلام والمسلمين ، والتي منها تلك اللوازم الباطلة التي تلزم على القول به - والتي سنقف عليها فيما بعد إن شاء الله - كما نبه رحمه الله على العاقبة السيئة التي آل إليها أمر كثير من القائلين به وذلك شأن الباطل . فإنه لا يجسر إلا إلى باطل مثله ، وهو ما دفعه إلى أن يحذر من سلوك مسلك المتكلمين والسير على طريقتهم وذلك لما فيه من مخالفة منهج السلف من جهة ولعاقبته غير الحميدة من جهة أخرى .

المطلب الأول : القول بأن النظر أول واجب قول مخترع في الإسلام

رد أبو المظفر رحمه الله القول بأن النظر أول واجب ، بأنه قول مخترع ، محدث ، لم يسبقهم إليه أحد من السلف ، ولو كان النظر أول واجب لما خفي على السلف ، ولنقلوه كما نقلوا غيره ، ولا يصح بحال أن يخفى أول واجب على الصدر الأول ولا أن يكتموه .

قال أبو المظفر رحمه الله « وإنما أنكرنا طريقة أهل الكلام فيما أسسوا فانهم قالوا : أول مايجب على الإنسان النظر المؤدي إلى معرفة الباري وهذا قول مخترع ، لم يسبقهم إليه أحد من السلف وأئمة الدين ، ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها ، لا منقولاً من النبي ﷺ ولا من الصحابة ، ولا من التابعين بعدهم وكيف يجوز أن يخفى عليهم أول الفرائض ؟ وهم صدر الأمة ، والسفراء بيننا وبين رسول الله ﷺ ولئن جاز أن يخفى الفرض الأول على الصحابة والتابعين ، حتى لم يبينوه لأحد من هذه الأمة ، مع شدة اهتمامهم بأمر الدين وكمال عنايتهم حتى استخرجه هؤلاء بلطيف فطنتهم في زعمهم فلعله خفى عليهم فرائض أخرى ولئن كان هذا جائزاً فلقد ذهب الدين واندرس ، لأنا إنما نبنى أقوالنا على أقوالهم ، فإذا ذهب الأصل . فكيف يمكن البناء عليه نعوذ بالله من هذه المقالة الفاحشة القبيحة ! والتي تؤدي إلى الإنسلاخ من الدين ، وتضليل الأئمة الماضين »[1] .

---

(١) الحجة في بيان المحجة ٢/١١٧ - ١١٨ ، صون المنطق ١٧١ - ١٧٢ .

وما قرره الإمام أبو المظفر رحمه الله من بطلان القول بأن النظر أول واجب ، وأنه لم يكن من عقيدة السلف رضي الله عنهم ، قرره غيره من أهل العلم أيضاً .

قال الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : « والذي أقول إنه من نظر في إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وعبد الرحمن وسائر المهاجرين والأنصار وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجاً علم أن الله عز وجل لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة ، ودلائل الرسالة ، لا من قبل حركة ، ولا من باب الكل والبعض ، ولا من باب كان ويكون ، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجباً ، وفي الجسم ونفيه والتشبيه ونفيه لازماً ، ما أضاعوه ، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم ، ولا أطنب في مدحهم ، وتعظيمهم ، ولو كان ذلك من عملهم مشهوراً ، ومن أخلاقهم معروفاً ، لاستفاض عنهم وشهروا به كما شهروا بالقرآن والروايات » [1] .

والمنقول عن السلف رضي الله عنهم ليس عدم القول بأن النظر أول واجب فحسب ، بل المنقول عن السلف رضي الله عنهم إنكار القول بأن النظر أول واجب ، وتبديع القائلين به وتضليلهم، ومن ذلك أن أبا العباس بن سريج سئل ما التوحيد ؟ فقال « توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين أشهد أن لا إله إلا الله ، وتوحيد أهل الباطل من المسلمين الخوض في الأعراض والاجسام ، وإنما بعث محمد ﷺ بإنكار ذلك » [2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « ونحن نعلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ وسلف الأمة بطلان قول هؤلاء . وأن الرسول ﷺ لم يأمر أحداً بهذه الطرق ، ولا علق إيمانه ومعرفته بالله بهذه الطرق ، بل القرآن وصف بالعلم والإيمان من لم يسلك هذه الطرق . ولما ابتدع بعض هذه الطرق من ابتدعها أنكر ذلك سلف الأمة وأئمتها ، ووسموا هؤلاء

---

(١) التمهيد ٧/١٥٢ .

(٢) الحجة على تارك المحجة لأبي الفتح نصر المقدسي ٢/٩٨٣ .

بالبدعة والضلالة» [1] .

ومما يدل على صحة ما قرره الامام أبو المظفر رحمه الله من أن القول بأن النظر أول واجب قول محدث ، ما تقدم من إجماع السلف على أن التوحيد أول واجب ، وهو ما يقتضي أن يكون القول بأن النظر أول واجب مجمعا على بطلانه وحدوثه أيضاً ، فإنه لا يجتمع القول بالاجماع على أن التوحيد أول واجب مع القول بأن أول واجب النظر أبداً .

شبهة وجوابها

قال أبو المظفر رحمه الله : « وقد تعقب بعض أهل الكلام بأن السلف كما أنهم لم يعتنوا بدلائل العقل في التوحيد ، فإنهم لم يشتغلوا بالتعريفات في أحكام الحوادث ، وقد قبل الفقهاء ذلك واستحسنوه ، ودونوه في كتبهم ، فكذلك علم الكلام ، ويمتاز علم الكلام بأنه يتضمن الرد على الملحدين وأهل الأهواء ، وبه تزول الشبهة عن أهل الزيغ ، ويثبت اليقين لأهل الحق ، وقد علم الكل . أن الكتاب لم تعلم حقيقته ، وأن النبي لم يثبت صدقه إلا بأدلة العقل » .

وقد أجاب رحمه الله عن هذه الشبهة بقوله : «أما أولاً : فإن الشارع والسلف الصالح نهوا عن الابتداع ، وأمروا بالاتباع ، وصح عن السلف أنهم نهوا عن علم الكلام ، وعدوه ذريعة إلى الشك والإرتياب ، وأما الفروع : فلم يثبت عن أحد منهم النهي عنها ، إلا من ترك النص الصحيح ، وقدم عليه القياس ، وأما من اتبع النص وقاس عليه فلا يحفظ عن أحد من أئمة السلف إنكار ذلك ، لأن الحوادث في المعاملات لاتنقضي ، وبالناس حاجة إلى معرفة الحكم ، فمن ثم تواردوا على استحباب الاشتغال بذلك ، بخلاف علم الكلام .

وأما ثانياً : فإن الدين قد كمل لقوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [2] فإذا كان أكمله وأتمه ، وتلقاه الصحابة عن النبي ﷺ واعتقده من تلقى عنهم ، وأطمأنت به نفوسهم ، فأي حاجة بهم إلى تحكيم العقول ؟ والرجوع إلى قضاياها ، وجعلها أصلاً ،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٢/٨ .

(٢) المائدة آية ٣ .

والنصوص الصحيحة الصريحة تعرض عليها ، فتارة يعمل بمضمونها ، وتارة تحرف عن مواضعها ، لتوافق العقول ، وإذا كان الدين قد كمل ، فلا تكون الزيادة فيه إلا نقصاناً في المعنى مثل : زيادة أصبع في اليد ، فإنها تنقص قيمة العبد الذي يقع به ذلك »[1] .

المطلب الثاني : الرد على شبهات المتكلمين

القول بأن النظر أول واجب ، مبني على جملة من الشبه التي دارت في أذهان المتكلمين كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، والتي منها :

وجوب معرفة الله سبحانه ، دلالة العقل على وجوب النظر ، الأمر في القرآن الكريم بالنظر والاستدلال ، ذم القرآن الكريم للتقليد ، وقد رد الإمام أبو المظفر رحمه الله على هذه الشبه مبيناً رحمه الله عدم صحة دلالتها على القول بأن النظر أول واجب .

الشبهة الأولى : القول بوجوب معرفة الله سبحانه

من خلال استعراض شبهات المتكلمين السابقة ، يتبين بوضوح ، أن الشبهة الرئيسة ، والتي دندن حولها المتكلمون جميعاً ، وجعلوها أصلاً لما ذهبوا إليه من المذاهب الفاسدة ، والأقوال الكاسدة ، هي شبهة وجوب معرفة الله سبحانه ، وقد رد الامام أبو المظفر رحمه الله على هذه الشبهة وبين السبيل الصحيحة المؤدية إلى معرفة الله سبحانه والتي هي هداية الله سبحانه للعبد وتوفيقه له للإيمان .

وقبل أن نورد رد أبي المظفر رحمه الله على هذه الشبهة أود الإشارة ، إلى أن معرفة الله سبحانه هي أوجب الواجبات ، وأول المهمات ، لاشك في ذلك ولا ريب ، غير أن المعرفة الواجبة حقاً ، ليست تلك المعرفة التي أوجبها المتكلمون واستدلوا عليها بما تقدم بيانه ، بل المعرفة الواجبة أشمل ، وأعظم ، وأكمل من تلك المعرفة المنقوصة ، التي لاتحتاج إلى أن يوجبها أحد كما أنها لا تحتاج إلى كبير عناء ، في سبيل إثباتها وإقامة الأدلة عليها، كما سيتضح ذلك فيما بعد .

---

(١) فتح الباري ٣٥٢/١٣ ، وانظر : صون المنطق ١٥٧ - ١٦٠ ، وجامع بيان العلم وفضله ٩٢/٢ .

وقد أجاب أبو المظفر رحمه الله على القول بوجوب معرفة الله سبحانه بقوله :« إن الله تعالى هو الذي يعرف العبد ذاته ، فيعرف الله بالله ، لا بغيره ، لقوله عز وجل ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [١] ، ولم يقل : ولكن العقل يهدي من يشاء . وقال تعالى : ﴿ ويهدي من يشاء إلى صرط مستقيم ﴾ [٢] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

- وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « والله لولا الله ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ، ولا صلينا » [٣] فهذه الدلائل دلت أن الله تعالى هو المعرِّف ، إلا أنه إنما يعرِّف العبد نفسه مع وجود العقل ، لأنه سبب الإدراك والتمييز ، لا مع عدمه ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إن في ذلك لآيت لقوم يعقلون ﴾ [٤] .

وقال ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ [٥] وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن أصحاب النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [٦] والله يعطي العبد المعرفة بهدايته إلا أنه لا يحصل ذلك مع فقد العقل . وهذا كما أن العبد لايعرف الله بجسمه ، ولا بشخصه ، ولا بروحه ، ولا يعرفه مع عدم جسمه ، وشخصه ،

---

(١) القصص آية (٥٦) .

(٢) يونس آية (٢٥) .

(٣) أخرج البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره ، وكان رجلاً كثير الشعر ، وهو يرتجز بقول عبد الله بن رواحة « اللهم لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، ان الاعدا قد بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا . انظر : صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الجهاد ، باب الرجز في الحرب ٦/١٦١ .

(٤) الروم آية ٢٤ .

(٥) ق آية (٣٧) .

(٦) الملك آية (١٠) .

وروحه . كذلك لا يعرف الله بالعقل ، ولا يعرفه مع عدم العقل ، ونظير هذا أيضاً : أن الولد لا يكون مع فقد الوطئ ، ولا يكون بالوطئ ، بل يكون بإنشاء الله وخلقه . وكذلك لا يكون الزرع إلا في أرض ، وبذر ، وماء ، ولا يكون بذلك ، بل يكون بقدرة الله وإنباته . قال الله تعالى : ﴿ أفرءيتم ما تحرثون ءأنتم تزرعونه أم نحن الزرعون ﴾ [1] ، معناه : أأنتم تنبتونه أم نحن المنبتون . يقال للولد زرعه الله أي : أنبته الله ، وأمثال هذا كثير ، والموفق يكتفي باليسير ، والمخذول لايشفيه الكثير »[2] .

فالطريق إذاً إلى معرفة الله سبحانه كما يراها أبو المظفر رحمه الله ، وكما هو الحق أن الله سبحانه هو الذي يُعرِّف العبد نفسه ، وأنه إنما يعرف الله بالله سبحانه لا بغيره ، وهذه المعرفة التي عناها أبو المظفر رحمه الله هي المعرفة الواجبة حقاً ، والتي أشرت إليها فيما سبق .

ذلك أن معرفة الله سبحانه نوعان :

النوع الأول : معرفة إقرار بوجوده سبحانه ، وربوبيته على خلقه ، وهذه المعرفة هي المعبر عنها بتوحيد الربوبية ، وهي فطرية ضرورية لا يسع أحدا إنكارها . وسيأتي لأبي المظفر في توحيد الربوبية أن معرفة الاقرار فطر عليها الخلق جميعاً ، وأنه ما من أحد يرجع إلى نفسه إلا علم أن له خالقاً ورازقاً ومدبراً وحكيماً عليماً .

وهذه المعرفة هي التي دندن حولها المتكلمون ، وأجهدوا أنفسهم في معرفة السبيل إلى أعرف المعارف وأظهر موجود .

النوع الثاني : معرفة توجب محبته سبحانه ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والخوف منه ، وهذه المعرفة هي المعبر عنها بتوحيد الالهية ، وهي أوجب الواجبات ، وأعظم المهمات ومن أجلها خلق الله الأرض والسموات ، وهذه المعرفة هي التي قرر الامام أبو المظفر

---

(١) الواقعة آية (٦٣) .

(٢) الحجة في بيان المحجة ١/٣١٧ - ٣١٩ .

أنها لا تحصل إلا بهداية الله سبحانه وتوفيقه للعبد .

قال الامام ابن قيم الجوزية رحمه الله : « معرفة الله سبحانه نوعان :

الأول : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس جميعاً البر والفاجر والمطيع والعاصي .

والثاني : معرفة توجب الحياء منه ، والمحبة له ، وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه ، وخشيته ، والإنابة إليه والانس به ، والفرار من الخلق إليه »[١] .

وقال رحمه الله وهذه المعرفة لها طريقان :

الطريق الأول : النظر في مفعولاته ، والطريق الثاني : التفكر في آياته وتدبرها فتلك اياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة ، المعقولة فالنوع الأول : كقوله سبحانه ﴿ إن في خلق السموت والأرض واختلف اليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾[٢] إلى آخر الآية وقوله ﴿ إن في خلق السموت والأرض واختلف اليل والنهار لآيت لأولي الألبب ﴾[٣] وهو كثير في القرآن . والثاني : كقوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾[٤] وقوله ﴿ افلم يدبروا القول ﴾[٥] وقوله ﴿ كتب أنزلنه إليك مبرك ليدبروا ءايته ﴾[٦] وهو كثير أيضاً »[٧] .

فالعقل يرشد ويدل ويشير إلى وجود الخالق سبحانه ، وذلك من خلال آياته الكونية الدالة على وجوده وتفرده سبحانه ، وكذلك آياته المسموعة ، التي لا تدل على صدق الرسول ﷺ فحسب ، بل تدل على وجود المرسل أيضاً ، ووجوب الالتزام بأمره ونهيه إلا أن معرفة

---

(١) الفوائد ١٢١ .

(٢) البقرة آية (١٦٤) .

(٣) آل عمران آية (١٩٠) .

(٤) محمد آية (٢٤) .

(٥) المؤمنون آية (٦٨) .

(٦) ص آية (٢٩) .

(٧) الفوائد ٣١ - ٣٢ .

الله سبحانه لا تحصل بالعقل وحده ، بل لا بد من هداية الله سبحانه للعبد قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد في السماء﴾ [1] .

وإذا تقرر أن معرفة الله سبحانه لا تتأتى بالنظر والاستدلال فقط ، وإنما يعرف الله بالله ، بطل أن يكون النظر أول واجب ووجب الاقبال على دين الله سبحانه ، والوقوف على حقائق الكتاب والسنة ، فإن فيهما من العلم النافع ، والعمل الصالح ، ما ينشرح به الصدر ، ويطمئن به القلب ، وتستريح به النفس ، ويجد به المؤمن حلاوة الإيمان .

وإبطال أبي المظفر رحمه الله لهذه الشبهة من شبه أهل الكلام إبطال لبقية الشبهات من باب أولى .

الشبهة الثانية : دلالة العقل على أن النظر أول واجب

العقل من أعظم نعم الله سبحانه على الإنسان ، والتي فضل بسببها على كثير من مخلوقات الله سبحانه ، واستحق بها الخلافة في الأرض ، وهو آلة التميز والادراك ، يميز به الانسان بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والحسن والقبيح ، وبه تأهل لان يتلقى تكليف الله سبحانه لعباده بالأمر والنهي وما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب ، فالعقل مناط التكليف لدى الانسان ومهمته الاولى الإشارة إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، ومعرفة حقيقة النفس البشرية وأنها مخلوقة مربوبة لله رب العالمين ومهمته الثانية : أن يتلقى عن الله سبحانه عن طريق رسله ، وأن يقوم بالتزام الامر واجتناب النهي ، وليس له أن يحرم شيئاً ، أو يوجب شيئاً ، يترتب عليه الثواب والعقاب في الآخرة ، فإن ذلك لله وحده حتى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ليس لهم أن يوجبوا إلا ما أوجبه الله سبحانه ولا أن يحرموا إلا ما حرمه الله تعالى ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ [2] ﴿ قل لا أجد

(١) الانعام آية (١٢٥) .

(٢) الانعام آية (١٥١) .

فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ﴾ [1] .

وإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس لهم أن يحرموا شيئاً ولا أن يوجبوه إلا بإذن الله عز وجل فكيف بعقل الانسان الضعيف القاصر المحدود الذي ينطلق في مقرراته واستنتاجاته من محدودية الزّمان والمكان اللذين يعيش فيهما ؟! وقد ذهب المعتزلة إلى أن العقل يوجب ما يترتب عليه الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ومن ذلك . دلالته على أن النظر أول واجب. وهو قول باطل ومردود ، وذلك لمخالفته الكتاب والسنة وإجماع السلف رضي الله عنهم . وقد رد أبو المظفر رحمه الله على قول المعتزلة المشار إليه سابقاً وبين رحمه الله مهمة العقل ، ومستدلاً بالكتاب والسنة على أنه ليس للعقل أن يوجب شيئاً ولا أن يحرمه ، كما بين رحمة الله ما يترتب على القول بأن العقل دل على أن النظر أول واجب من استغناء الخلق عن الخالق ، وسقوط الخوف والرجاء عنهم ، ومشاركتهم للخالق في معنى من معاني الربوبية .

ومما قاله رحمه الله دافعاً به شبهة المعتزلة ، ومبيناً منزلة العقل من الدين « اعلم أن مذهب أهل السنة أن العقل لا يوجب شيئاً على أحد ، ولا يرفع شيئاً عنه ، ولا حظ له في تحليل أو تحريم ولا تحسين ولا تقبيح [2] ولو لم يرد السمع ما وجب على أحد شيء ، ولا دخلوا في ثواب ولا عقاب » [3] .

---

(١) الانعام آية (١٤٥) .

(٢) قوله رحمه الله إن العقل لا يحسن ولا يقبح ، ليس على اطلاقه . فإن العقل يحسن ويقبح ، إلا أن الثواب والعقاب لايترتبان إلا على ما حسنه الشرع أو قبحه ، والذي يظهر أن مراد أبي المظفر رحمه الله بالتحسين والتقبيح التحسين والتقبيح الشرعيان المترتب عليهما الثواب والعقاب فإنه قرر رحمه الله في الفقرة التي تلي الفقرة المحشى عليها أن العقل يميز بين الحسن والقبيح ، وذلك هو تحسينه وتقبيحه ، مع العلم أن هذه العبارة نقلها عن أبي المظفر رحمه الله قوام السنة ، والسيوطي ، ولم ينقلها الحافظ ابن حجر رحمهم الله . وانظر : مدراج السالكين ١/١٢٧ .

(٣) صون المنطق ١٧٨ - ١٧٩ ، وانظر : الحجة ١/٣١٤ - ٣١٦ ، فتح البارى ١٣/٣٥٣ .

وقال أيضاً : « ومعنى قولنا إنما أعطينا العقل لاقامته العبودية هو أنه آلة التمييز بين القبيح والحسن ، والسنة والبدعة ، والرياء والاخلاص ، ولولاه لم يكن تكليف ، ولا توجه أمر ولا نهي ، فإذا استعمله على قدره ولم يجاوز به حده ، أدى ذلك إلى العبادة الخالصة ، والثبات على السنة ، واستعمال المستحسنات ، وترك المستقبحات »[1] .

فمهمة العقل كما حددها الإمام السمعاني رحمه الله في كلامه السابق هي : تحقيق العبودية لله وحده ، والتمييز بين الحسن والقبيح ، والسنة والبدعة، والرياء والإخلاص وبه التكليف كان وليس له أن يوجب شيئاً، أو يحرمه، وقد استدل رحمه الله على ذلك بالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله سبحانه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[2] وقوله عز وجل ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[3] وقال سبحانه حاكياً عن الملائكة فيما خاطبوا به أهل النار ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم ءايت ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ﴾[4] قال رحمه الله « فأقام الحجة عليهم ببعثة الرسل ، فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثه، الرسل شرطاً لوجوب العقوبة » .

وأما السنة فقد استدل بقوله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله »[5] قال رحمه الله « فدل على أنه[6] الداعي إلى الإيمان ، وعندهم أن الداعي إلى الإيمان هو العقل ، وجاء الكتاب مؤيداً لهذا قال تعالى ﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾[7] فدل هذا على أن الدعوة له وأن الحجة تقوم به »[8] .

---

(١) صون المنطق ١٨٠ ، الحجة ١/٣١٩ .

(٢) الاسراء آية (١٥) .

(٣) النساء آية (١٦٦) .

(٤) الانعام آية (١٣٠) .

(٥) تقدم عزوه ص ١٣٧ .

(٦) الضمير يعود على الرسول ﷺ .

(٧) الاعراف آية (١٥٨) .

(٨) صون المنطق ١٧٨ - ١٧٩ ، الحجة ١/٣١٦ .

وما قرره الامام السمعاني رحمه الله من أن حجة الله على عباده إنما تقوم بإرسال الرسل ، وأن الرسل هم الدعاة إلى الله عز وجل ، دليل على عجز العقل بمفرده عن القيام بمهمة الاهتداء إلى الله وإفراده سبحانه بالعبادة وما يتبع ذلك من الايمان باليوم الآخر .

والبعث والجزاء ، والقدر ، وغير ذلك من مسائل العقيدة التي لا يمكن للعقل أن يهتدي إليها بعيداً عن قبس الوحي الالهي . قال الدكتور فاروق أحمد الدسوقي « لو خلق الله العقل البشري مؤهلاً لمثل هذه الموضوعات ، لما أرسل الرسل إلى البشرية ، ولكن الرسالات السماوية نزلت من السماء حتى لا يبرر أحد يوم القيامة ضلاله وفسوقه بالجهل ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [1] فلو كان العقل وحده كفيلاً بهداية الانسان للحق الكامل ، والخير الخالص ، لما جاز للناس أن يحتجوا بعدم إرسال الرسل ، ولكن الله تعالى الذي خلق الإنسان وعقله وفكره جعل لعقله حدوداً وموضوعات خاصة تليق به ، وجعل حقائق الغيب والتشريع خارج هذه الحدود ومخالفة لموضوعات العقل، ومن ثم شاء سبحانه أن يرسل الرسل حتى لا تكون هناك حجة للناس ، لعلمه تعالى أنه بدون الوحي السماوي لا يهتدي الإنسان إلى الحق أبداً ، ولا يصل إلى الخير المنشود في دنياه وأخراه » [2] .

والقول بدلالة العقل على أن النظر أول واجب يؤدي إلى استغناء الناس عن بعثة الرسل ، وهو ما يكذبه الواقع التاريخي ، فإننا نرى من خلال تاريخ البشرية ، أن الناس كلما ابتعدوا عن عصر الرسل إلا وانحرفوا عن الدين الصحيح ، إلى الشرك والوثنيات التي ترفضها العقول السليمة والفطر المستقيمة ، فضلاً عن الدين ، وذلك من أكبر الأدلة على عدم قدرة العقل على أن يصل إلى الحق بمفرده بعيداً عن الوحي .

---

(١) النساء آية (١٦٥) .

(٢) القضاء والقدر في الإسلام ١/ ٧١ .

كما أن القول بدلالة العقل على أن النظر أول واجب : فيه استغناء العباد عن الخالق سبحانه وسقوط الخوف والرجاء عنهم ، وهو هدم لركن العبودية التي وجد الإنسان من أجلها ، والله سبحانه لا ينزل الناس إلا المنزلة التي يظهر من خلالها فقرهم ، وضعفهم ، وحاجتهم إلى خالقهم ، تأكيداً لقهره ، وعبوديتهم له ، وعن هذا المفهوم قال أبو المظفر رحمه الله نقلاً عن بعض أهل العلم « العقل حجة الله على جميع الخلق ، لأنه سبب التكليف ، إلا أن صاحبه لا يستغني عن التوفيق في كل وقت ، ونفس العقل بالتوفيق كان . والعاقل محتاج في كل وقت إلى توفيق جديد ، تفضلاً من الله تعالى . ولو لم يكن كذلك ، لكان العقلاء مستغنين عن الله بالعقل ، فيرتفع عنهم الخوف والرجاء ويصيرون آمنين من الخذلان ، وهذا تجاوز عن درجة العبودية وتعد عنها ومحال من الأمر إذ ليس من الحكمة أن ينزل الله تعالى أحداً غير منزلته ، فإذا أغنى عبيده عن نفسه ، فقد أنزلهم غير منزلتهم ، وجاوز بهم حدودهم ، ولو كان هذا هكذا لاستوى الخلق والخالق في معنى من معاني الربوبية ، والله تعالى ليس كمثله شيء في جميع المعاني »[1] .

فبطلان أن يسوى الله سبحانه وتعالى بينه وبين خلقه في معاني الربوبية ، وحاجة العقل البشري إلى التوفيق الالهي ، مع ما تقدم من حاجة العباد إلى الرسل ، وأن الحجة لا تقوم إلا بهم كل ذلك يدل على بطلان قول المعتزلة بالوجوب العقلي كما أن جهد أبي المظفر رحمه الله في إبطال هذه الشبهة غير خاف .

الشبهة الثالثة : ورود الامر في القرآن بالنظر والاستدلال

من شبهات المتكلمين التي بنوا عليها القول بأن النظر أول واجب ، ورود الامر في القرآن بالنظر والاستدلال .

ولا ريب أنه ورد في كثير من آيات القرآن الكريم الحث على النظر ، ومجادلة المشركين بدلائل العقل .

---

(١) صون المنطق ١٨١ ، الحجة ٣١٩ - ٣٢٠ .

قال تعالى ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموت والأرض وما خلق الله من شيء﴾[1]

وقال عز وجل ﴿ إن في خلق السموت والأرض واختلف اليل والنهار لآيت لاولي الألبب﴾[2]

وقال تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ [3] .

غير أن ذلك لا يدل على وجوب النظر ، فضلاً عن أن يكون النظر أول واجب .

وقد أجاب أبو المظفر رحمه الله عن هذه الشبهة بقوله « إنا لا ننكر النظر قدر ما ورد به الكتاب والسنة ، لينال المؤمن بذلك زيادة اليقين ، وثلج الصدر ، وسكون القلب وإنما أنكرنا طريقة أهل الكلام فيما أسسوا ، فإنهم قالوا : أول ما يجب على الإنسان النظر ، المؤدي إلى معرفة الباري عز وجل ، وهذا قول مخترع . لم يسبقهم إليه أحد من السلف وأئمة الدين »[4] .

وكون السلف لم يقولوا بأن النظر أول واجب ، دليل قاطع على أن ما ورد في القرآن الكريم من الحث على النظر لايدل على ماذهب إليه المتكلمون ، وإنما المراد به الحث على التفكر في آيات الله الكونية ، ليزداد المؤمن بذلك يقيناً إلى يقينه ، ويتيقن الكافر أن خالق هذا الكون لم يخلقه عبثاً ، ولن يتركه سدى ، وأنه قادر على إحياء الموتى، وبعثهم ، ومجازاتهم .

ومما يوضح هذا أن المخاطبين بالنظر في القرآن الكريم طائفتان :

الطائفة الأولى : المؤمنون وهم المنتفعون حقاً بما ورد في القرآن الكريم من الحث على النظر ، قال تعالى ﴿ وما تغني الآيت والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [5] .

---

(١) الاعراف آية (١٨٥) .

(٢) آل عمران آية (١٩٠) .

(٣) الغاشية آية ١٧ - ٢٠ .

(٤) صون المنطق ١٧١ .

(٥) يونس آية (١٠١) .

ومما ورد في القرآن الكريم مما فيه حث للمؤمنين على النظر قوله سبحانه ﴿ إن في خلق السموت والأرض واختلف اليل والنهار لآيت لأولي الألبب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموت والأرض ربنا ما خلقت هذا بطلاً سبحنك فقنا عذاب النار ﴾ (١) .

فهذه الآية وما في معناها ، فيها حث وترغيب للمؤمنين على التفكر والاعتبار . وهي لا تدل بحال على أن النظر أول واجب . إذ أن المؤمنين قد حصل لهم من الإيمان بالله سبحانه ورسوله ، واليوم الآخر مالا يحتاجون معه إلى الاستدلال على وجود الخالق سبحانه ولا إلى إثبات الصانع . وإنما المراد من الحث على النظر – والله أعلم – أن النظر في مخلوقات الله والتفكر فيها ، فيه زيادة يقين ، وطمأنينة القلب ، وقوة في دين الله عز وجل فإن الكون كله فيه دليل على وجود خالقه وقدرته وعلمه وإرادته ، ففي الكون تظهر آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلا والوقوف على آثار الاسماء الحسنى والصفات العلا دافع للمرء لمحبة الله ، والتوكل عليه ، والخوف منه ، ورجاءه ، والانابة إليه . وقد أشار المولى عز وجل في القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله سبحانه ﴿ ربنا ما خلقت هذا بطلاً سبحنك فقنا عذاب النار ﴾ فاستحضار المؤمن لأسماء الله سبحانه وصفاته تجعل منه مؤمناً قوياً يتوجه إلى ربه ومولاه سبحانه بالدعاء والانابة وهو المقصود من دعوة المؤمنين إلى التفكر والاعتبار وهذا المعنى قد أشار إليه أبو المظفر رحمه الله كما تقدم .

الطائفة الثانية : الكفار ، والكفار الذين أمروا بالنظر والإستدلال لم يكن نزاعهم في وجود الخالق سبحانه فقد كانوا يقرون بالخالق عز وجل كما أخبر المولى عز وجل عنهم في كثير من آيات القرآن الكريم ، قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموت والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران الآية (١٩٠ – ١٩١) .

(٢) العنكبوت آية (٦١) .

وإنما كان نزاعهم في وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وفي البعث الآخر . كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ [1] ، وقوله سبحانه على لسانهم ﴿ أجعل الالـهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [2] ، وقال سبحانه ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ [3] .

وما ورد في القرآن الكريم من حث الكفار على النظر والإعتبار المقصود منه لفت انتباههم وتذكيرهم بمعان ليست خافية عليهم ، وهي : أن هذا الكون كله من صنع الله ، الذي أتقن كل شيء وإذا كان ذلك كذلك . فإنه سبحانه وحده المستحق للعبادة دون من سواه قال تعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [4] وقال سبحانه ﴿ واتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حيوة ولا نشوراً ﴾ [5] .

فمنطوق الآية يدل على أن الكفار عبدوا من دون الله ءالهة لا تخلق شيئاً ولا تملك القدرة على الضر والنفع والموت والحياة والنشور .

ومفهومها أنه لا يستحق العبادة إلا من يقدر على الخلق ، والضر والنفع ، والإحياء والإماتة ، والنشور وليس ذلك لأحد إلا الله عز وجل وهو ما يوجب عبادته وحده دون من سواه[6] .

وهذا المعنى قد ورد في آيات كثيرة من الكتاب العزيز قال تعالى ﴿ أمن خلق

---

(١) الصافات آية (٣٥) .

(٢) ص آية (٥) .

(٣) التغابن آية (٧) .

(٤) النحل آية (١٧) .

(٥) الفرقان آية (٣) .

(٦) انظر : أضواء البيان ٦/٢٦٨ .

السموت والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خللها أنهراً وجعل لها روسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمت البر والبحر ومن يرسل الريح بشراً بين يدي رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهنكم إن كنتم صدقين ﴾ [(١)] .

وكذلك الشان بالنسبة إلى البعث ، فإن من مقاصد القرآن الكريم من دعوة الكفار إلى النظر والإعتبار ، إقناعهم بقدرة الله سبحانه على إحياء الموتى ، وعلى البعث والجزاء فإن من قدر على الخلق الأول قدرته على الإعادة الثانية أهون ، هذا في مفهوم الناس ، وإلا فإن الله عز وجل له القدرة التامة في البدء وفي الإعادة ، قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [(٢)].

وقال تعالى داعياً الكفار إلى النظر مستدلاً بذلك على البعث والنشور ﴿ افلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنينها وزينها ومالها من فروج والأرض مددنها وألقينا فيها روسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مبركاً فأنبتنا به جنت وحب الحصيد والنخل بسقت لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ [(٣)] .

وكذلك بالنسبة إلى كل الناس ، من بعد كفار قريش ، حثهم على النظر والاعتبار إنما هو من باب إقامة الحجة عليهم ، في أن المستحق للعبادة وحده دون من سواه هو الله عز

---

(١) النمل الآيات (٦٠ - ٦٤) .

(٢) الروم آية (٢٧) .

(٣) ق الآية ٦ - ١١ .

وجل كما أنه سبحانه قادر على بعث الناس وإحيائهم بعد موتهم ، وليس في كل ما ورد في القرآن الكريم من الحث على النظر والإعتبار ، ما يدل على أن النظر أول واجب ولافيه إيجاب النظر على كل أحد . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « والقرآن الكريم ليس فيه أن النظر أول الواجبات . ولافيه إيجاب النظر على كل أحد ، وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس »[1].

قال أبو محمد بن حزم[2] رحمه الله « وأما قولهم إن الله عز وجل قد ذكر الاستدلال في غير موضع من كتابه ، وأمر به ، وأوجب العلم به . والعلم لا يكون إلا عن استدلال ، فهذه أيضاً زيادة أقحموها ، وهي قولهم « وأمر به » فهذا لا يجدونه أبداً . ولكن الله تعالى ذكر الاستدلال وحض عليه ، ونحن لا ننكر الاستدلال ، بل هو فعل حسن مندوب إليه محضوض عليه كل من أطاقه ، لأنه تزود من الخير ، وهو فرض على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق ، نعوذ بالله عز وجل من البلاء ، وإنما ننكر كونه فرضاً على كل واحد لا يصح إسلام أحد دونه ، هذا هو الباطل المحض »[3] .

والنظر الذي ورد به القرآن الكريم هو غير النظر الذي قرره المتكلمون . فإن القرآن الكريم جعل من نفس الأدلة الكونية دليلاً على وجود الخالق سبحانه وتفرده وذلك من حيث

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/٨ .

(٢) هو : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي القرطبي ، عالم الاندلس في زمانه ، أصله من فارس ، وولد بقرطبة . قال ابن كثير : « واشتغل بالعلوم النافعة ، وبرز فيها ، وفاق أهل زمانه . وكان أديباً ، شاعراً ، فصيحاً ، صاحب تصانيف جليلة ، إلا أنه كان كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه ، والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهرياً في الفروع لايقول بشيء من القياس الجلي ولاغيره ، ومع هذا من أشد الناس تأويلاً في باب الأصول وآيات الصفات » من تصانيفه « المحلى » « المغرب في تاريخ المغرب» « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ولد سنة ٣٨٤ ، وتوفي سنة ٤٥٦ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/١٨٤-٢١٢ ، البداية والنهاية ١٢/٩٨ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/٧٣ .

وجودها ، ودقة صنعها ، وقوة إحكامها ، واستمرارها على نظام واحد .

فوجود الكائنات يدل على وجود الخالق ، ودقة الصنع وقوة الاحكام واستمرار نظام الكون من غير اختلال يدل على قدرة الخالق سبحانه وتفرده بالخلق والتقدير . وأما النظر على طريقة أهل الكلام : فإنهم قسموا الوجود إلى قديم وحادث ، وقالوا إن الحادث لا يخلو من أن يكون جسماً ، أو جوهراً ، أو عرضاً ، وهذه طريقة باطلة . لم يرشد إليها القرآن الكريم ولا أتى بها.

وبهذا يتضح أن ما ورد في القرآن الكريم من الحث على النظر والإستدلال لا يدل على أن النظر أول واجب ، كما أنه لا يدل على صحة الطريقة المبتدعة من قبل أهل الكلام .

ولايفهم مما تقدم أن العقل لايرشد إلى التوحيد ، فهذا لم يقله أحد من السلف ، ولانقل عن أتباعهم ، فإن العقول السليمة ترشد إلى وجود الخالق سبحانه ، وإلى استحقاقه للعبادة دون من سواه . وإنما المقصود إبطال قول من يقول إن العقل يستقل بمعرفة الله وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على ذلك بقوله « ونحن لا ننكر أن العقل يرشد إلى التوحيد وإنما ننكر أنه يستقل بإيجاب ذلك ، حتى لا يصح إسلام إلا بطريقه ، مع قطع النظر عن السمعيات ، لكون ذلك خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب ، والأحاديث الصحيحة التي تواترت ولو بالطريق المعنوي . ولو كان كما يقول أولئك لبطلت السمعيات التي لا مجال للعقل فيها أو أكثرها . بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعيات . فإن عقلناه فبتوفيق الله ، وإلا اكتفينا باعتقاد حقيته [١] ، على وفق مراد الله سبحانه وتعالى » [٢] .

الشبهة الرابعة : ذم القرآن الكريم للتقليد

ورد فى كثير من من آيات القرآن الكريم ذم التقليد ، والنعي على الكفار اتباع آبائهم وكبرائهم من غير حجة ولا تبصر ، قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا

(١) هكذا في فتح الباري ولعل الصواب حقيقته .

(٢) فتح البارى ١٣/٣٥٣ .

بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [1] وقال عز وجل ﴿ بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثرهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثرهم مقتدون﴾[2] .

وقد استدل المتكلمون بذم القرآن للتقليد ، على أن إيمان المقلد لا يصح ، وأنه يجب على كل أحد النظر والاستدلال ، حتى يصل بنفسه إلى معرفة الله ، ويخرج بذلك من ربقة التقليد [3] ، وقد رد أبو المظفر رحمه الله على هذه الشبهة من وجهين .

الوجه الأول : أن التقليد إنما هو قبول قول الغير من غير حجة ، وليس منه اتباع الرسول ﷺ . فإن قول الرسول ﷺ هو نفس الحجة ، وعليه فلا يكون تقليداً ، وإنما يكون اتباعاً وهو ماورد به الكتاب والسنة .

الوجه الثاني : أن المسلمين قد قامت لهم الدلائل السمعية على نبوة رسول الله ﷺ وذلك بما نقل إليهم أهل الإتقان والثقات من الرواة مالا يعد كثرة من المعجزات والبراهين الدالة على صدق النبي ﷺ فلما صحت عندهم نبوته ، ووجدوا صدقه في قلوبهم ، وجب عليهم تصديقه فيما أنبأهم به من الغيوب ، ودعاهم إليه من وحدانية الله عز وجل ، وإثبات أسمائه وصفاته وسائر شرائط الإسلام » [4] .

وما قرره الامام أبو المظفر رحمه الله من عدم دلالة الآيات الواردة في ذم التقليد على وجوب النظر ، قرره غيره من أهل العلم . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر احتجاج المتكلمين بالايات الواردة في ذم التقليد على القول بوجوب النظر « والجواب : أن المذموم من التقليد أخذ قول الغير بغير حجة ، وهذا ليس منه حكم رسول الله ﷺ . فإن الله أوجب اتباعه فيما يقول ، وليس العمل فيما أمر به أو نهى عنه داخلاً تحت التقليد

---

(١) البقرة آية (١٧٠) .

(٢) الزخرف آية ٢٢ - ٢٣ .

(٣) انظر ص ١٧٢ من هذا البحث .

(٤) صون المنطق ١٧١ بتصرف .

اتفاقاً . وأما من دونه ممن اتبعه في قول قاله واعتقد أنه لو لم يقله لم يقل به ، فهو المقلد المذموم ، بخلاف ما لو اعتقد ذلك في خبر الله ورسوله فإنه يكون ممدوحاً . وأما احتجاجهم بأن أحداً لا يدري قبل الاستدلال أي الأمرين هو الهدى فليس بمسلم بل من الناس من تطمئن نفسه ، وينشرح صدره للإسلام من أول وهلة ، ومنهم من يتوقف على الاستدلال ، فالذي ذكروه هم أهل الشق الثاني ، فيجب عليه النظر ، ليقي نفسه النار لقوله تعالى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [(١)] ويجب على كل من استرشده أن يرشده ويبرهن له الحق . وعلى هذا مضى السلف الصالح من عهد النبي ﷺ وبعده . وأما من استقرت نفسه إلى تصديق الرسول ﷺ ، ولم تنازعه نفسه إلى طلب دليل توفيقاً من الله وتيسيراً ، فهم الذين قال الله في حقهم ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمن وزينه في قلوبكم ﴾ [(٢)] الاية وقال ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلم ﴾ [(٣)] الآية وليس هؤلاء بمقلدين لآبائهم ولا لرؤسائهم ، لانهم لو كفر آباؤهم أو رؤساؤهم لم يتابعوهم ، بل يجدون النفرة عن كل من سمعوا عنه ما يخالف الشريعة » [(٤)] .

وقال رحمه الله « وقد انفصل بعض الأئمة عن ذلك ، بأن المراد بالتقليد أخذ قول الغير بغير حجة ، ومن قامت عليه الحجة ، بثبوت النبوة حتى حصل له القطع بها فمهما سمعه من النبي ﷺ كان مقطوعاً عنده بصدقه ، فإذا اعتقده لم يكن مقلداً ، لأنه لم يأخذ بقول غيره بغير حجة وهذا مستند السلف قاطبة في الأخذ بما ثبت عندهم من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ فيما يتعلق بهذا الباب » [(٥)] .

---

(١) التحريم آية (٦) .

(٢) الحجرات آية (٧) .

(٣) الانعام آية (١٢٥) .

(٤) فتح الباري ١٣/٣٥١ .

(٥) المصدر السابق ١٣/٣٥١ .

ومما يدفع شبهة المتكلمين أيضاً : أن الآيات التي ورد فيها ذم التقليد واردة في حق الكفار الذين اتبعوا من نهوا عن اتباعه ، وتركوا اتباع من أمروا باتباعه . وقد كلفهم الله الاتيان ببرهان على دعواهم ، بخلاف المؤمنين فإنه لم يرد قط أنه أسقط اتباعهم حتى يأتوا بالبرهان . وكل من خالف الله ورسوله فلا برهان له أصلاً . وإنما كلف الإتيان بالبرهان تبكيتاً وتعجيزاً [1] .

وبهذا يتضح أنه لا مستند لأهل الكلام في دعواهم أن ذم القرآن للتقليد يقتضي أن يكون النظر أول واجب . وأن دعواهم هذه دليل على سوء فهمهم لما دل عليه كتاب الله عز وجل .

المطلب الثالث : اللوازم الباطلة المترتبة على القول بأن النظر أول واجب

ومما يدل على تهافت قول المتكلمين - إضافة إلى ما تقدم من الردود - وبطلانه ، تلك اللوازم المترتبة على القول بأن النظر أول واجب . وقد نبه الامام السمعاني رحمه الله على جملة من اللوازم الباطلة التي تترتب على قول المتكلمين ، مبيناً رحمه الله خطورتها على الإسلام والمسلمين ومستدلاً بذلك على بطلان قولهم . ومن تلك اللوزام :

أولاً : القدح في السلف

فقد رأينا فيما سبق أن السلف رضي الله عنهم لم يسلكوا طريق المتكلمين في أول ما يجب على المكلف ، وإنما سلكوا نهج الرسول ﷺ ، وما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

والقول بأن النظر أول واجب : لا شك أنه قدح فيهم ، وطعن في منهجهم ، وتعريض بعدم صحة عقيدتهم ، وفي هذا المزلق الخطير من الباطل والعاقبة السيئة لصاحبه مالا يقادر قدره .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا اللازم بقوله « وسلوكه - أي القول بأن

---

(١) انظر : فتح الباري ٣٥٢/١٣ .

النظر أول واجب - يعود عليهم - أي السلف - بالطعن والقدح ، ونسبتهم إلى الجهل ، وقلة العلم في الدين ، واشتباه الطريق عليهم ، وبلغني أنه كان لأبي هاشم الجبائي [١] ابنة تسمى فاطمة ، وكان أصحابه يقولون : إن فاطمة بنت أبي هاشم ، أعلم بالله وبطريق الحق ، من فاطمة بنت محمد ﷺ فنعوذ بالله من طريق يؤدي إلى هذا القول » [٢] .

وهذا اللازم الذي ذكره أبو المظفر يأتي من أحد وجهين :

الوجه الأول : أن يكون السلف رضي الله عنهم خفي عليهم وجه الصواب في هذه المسألة ، ولم يعلموه . وهذا فيه نسبة السلف إلى الجهل لا محالة .

الوجه الثاني : أن يكون السلف رضي الله عنهم علموا وجه الصواب في هذه المسألة ولم يبلغوه . وفي هذا اتهام لهم بكتمان العلم ، وعدم النصح للأمة . وكلا الوجهين باطل ، وذلك لدلالة النصوص على تزكيتهم ، بل وعلى وجوب اتباعهم ، والاقتداء بهم . وهو ما يوجب قطعاً ، كونهم على الحق . وأنهم أعلم بالحق سبحانه ، وبالطريق الموصل إليه من غيرهم .

ولا يشك عاقل ، أن المتكلمين أحق بوصف الجهل وباشتباه الطريق عليهم ، من السلف الصالح رضي الله عنهم .

وقد يترقى قولهم بأن النظر أول واجب إلى الطعن في الرسول ﷺ فإنه ﷺ لم يجعل أول واجب على المكلف النظر ، وإنما دعا أمته إلى التوحيد كما تقدم بيانه .

ثانياً : تكفير عامة المسلمين

لأن جمهور المسلمين لم يعرفوا الله سبحانه بالطريق الذي رسمه المتكلمون . ولو

---

(١) هو : أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي ، من كبار معتزلة البصرة ، والفرقة التي تنسب إليه تسمى البهشمية . توفي سنة ٣٢١ ، انظر عنه وعن مذهبه : ، تاريخ بغداد ١١/٥٥ ، الملل والنحل ١/١١٨ ، وفيات الاعيان ٢/٣٥٥ ، ميزان الاعتدال ٣/٦١٨ .

(٢) صون المنطق ١٧٦ ، وانظر : فتح الباري ١٣/٥٠٧ .

عرض عليهم لما أحسنوه ، ولا فهمه كثير منهم وبناء على قول المتكلمين بأن النظر أول واجب ، يكون عامة المسلمين كفاراً . إذ أن هذا لازم من لوازم القول به .

وقد صرح بعض سفهاء المتكلمين بتكفير العامة . وقد نبه الامام أبو المظفر رحمه الله على هذا اللازم بقوله « ومن قبيح ما يلزمهم في اعتقادهم ، أنا إذا بنينا الحق على ما قالوه ، وأوجبنا الدين بالطريق الذي ذكروه ، وجب من ذلك تكفير العوام بأجمعهم ، لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد ، ولو عرض عليهم طريق المتكلمين في معرفة الله تعالى ما فهمه أكثرهم ، فضلاً من أن يصير فيه صاحب استدلال وحجاج ونظر ، وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه سلفهم وأئمتهم في عقائد الدين ، والعض عليها بالنواجذ ، والمواظبة على وظائف العبادات ، وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشبهات والشكوك ، تراهم لا يحيدون عما اعتقدوه وإن قطعوا إرباً إرباً ، فهنيئاً لهم هذا اليقين ، وطوبى لهم هذه السلامة فإذا كفروا هؤلاء الناس . فهم السواد الأعظم وجمهور الأمة فماذا إلا طي بساط الاسلام وهدم منار الدين وأركان الشريعة ، وأعلام الإسلام وإلحاق هذه الدار – أعني : دار الاسلام – بدار الكفر ، وجعل أهليهما بمنزلة واحدة . ومتى يوجد في الألوف من المسلمين على الشرط الذي يراعونه لتصحيح معرفة الله سبحانه – ويبلغ بأبي المظفر رحمه الله الحزن والاسى مداه حيث يقول – أولا يجد المسلم ؛ ألم هذه المقالة القبيحة الشنيعة في قلبه بل لو تقطع حسرات من عظيم ما اقترفوه وموهوا على الناس ، لكان جديراً بذلك . وإن قالوا : إنا لا نكفر العوام . فقد ناقضوا أصولهم ، حيث أثبتوا حقيقة المعرفة والإيمان بغير طريقها على أصولهم . وأظن أن من قال عنهم ذلك فإنما هو سلوك التقية ورد تشنيع الناس عليهم ، وإلا فاعتقادهم وطريقتهم في أصولهم ما ذكرنا »[1] .

وقد ذهب بعض المتكلمن فعلاً إلى تكفير العامة .

---

(١) الحجة في بيان المحجة ٢/ ١٤٥ – ١٤٦ ، صون المنطق ١٧٧ – ١٧٨ ، فتح الباري ١٣/ ٥٠٧ .

قال ابو عبد الله القرطبي [1] « ذهب بعض المتأخرين والمتقدمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله سبحانه بالطرق التي طرقوها ، والابحاث التي حرروها ، لم يصح إيمانه وهو كافر . فيلزم على هذا تكفير عامة المسلمين ، وأول من يبدأ بتكفيره آباؤه ، وأسلافه وجيرانه ، وقد أورد على بعضهم هذا . فقال : لا تشنع علي بكثرة أهل النار » [2] .

قلت : وهذا يصح أن يقال له . إذا لم تستح فاصنع ما شئت . فإن تكفير المسلمين خطير وهو في الغالب يبوء به قائله . فقد صح عن النبي ﷺ قوله « أيما امرئ قال لأخيه يا كافر . فقد باء بها أحدهما . إن كان كما قال . وإلا رجعت عليه » [3] .

ثالثاً : إقرار الكفار على ماهم عليه من الكفر والشرك . وترك الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام .

ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة . أن الاسلام دين الله عز وجل إلى الناس جميعاً وأن المسلمين مكلفون بدعوة الناس إلى الإسلام . فمن استجاب فقد سلك طريق السعادة في الدنيا ، وترجى له السعادة في الآخرة ، ومن لم يستجب ، فإن كان من أهل الكتاب ، فهو مخير بين أن يدفع الجزية ، أو يقاتل . وإن كان من غيرهم من أهل الشرك والأوثان ، فلا خيار له ، إلا الإسلام أو القتل .

هذا حكم الشرع وبه جرى عمل المسلمين من عهد الرسول ﷺ ، والصحابة والتابعين وأتباعهم .

وأما على القول بأن النظر أول واجب . فإن هذه الأحكام تعطل تماماً ، بل يجب

---

(١) هو : أبو عبد الله : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري ، الخزرجي ، الأندلسي ، القرطبي ، من كبار المفسرين . من مؤلفاته : الجامع لأحكام القرآن ، التذكار في أفضل الأذكار ، التذكرة في أحوال الموتى وأحوال الآخرة ، توفي سنة ٦٧١ هـ . انظر : طبقات المفسرين للداودي ٦٩/٢ ، الديباج المذهب ٣١٧ .

(٢) الجامع لاحكام القرآن ٣٣٢/٧ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب حال إيمان من قال لأخيه يا كافر ، ح ٦٠ .

إقرار الكفار على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى يتمكنوا من معرفة الله سبحانه بالدلائل العقلية . وقد تمتد فترة النظر إلى أزمان بعيدة ، مما يعطل فريضة من أعظم فرائض الدين وهي الجهاد .

وقد نبه الامام أبو المظفر رحمه الله على هذا اللازم لقول المتكلمين بقوله : « وإذا جعلنا الأمر على ما قاله أهل الكلام ، لم يكن الأمر على هذا الوجه ، ولكن ينبغي أن يقال له – أعني الكافر – عليك النظر والإستدلال ، لتعرف الصانع بهذه الطريق ، ثم تعرف الصفات بدلائلها وطرقها ، ثم مسائل كثيرة ، إلى أن يصل الأمر إلى النبوات . ولا يجوز على طريقهم الاقدام على هذا الكافر بالقتل والسبي إلا بعد أن يذكر له هذا ، ويمهل . لأن النظر والإستدلال لا يكونَ إلا بمهلة خصوصاً إذا طلب الكافر ذلك . وربما لا يتفق النظر والإستدلال في مدة يسيرة ، فيحتاج إلى إمهال الكفار مدة طويلة ، تأتي على سنين حتى يتمكنوا من النظر على التمام والكمال ، وهو خلاف إجماع المسلمين »[1] .

رابعاً : القول بأن النظر أول واجب فيه تصويب للكفار بل والحكم لهم بالثواب والطاعة حال نظرهم ، وإن لم يدخلوا في الإسلام .

وفي توضيح هذا اللازم يقول أبو المظفر رحمه الله تعالى « وقد جعل أهل الكلام من تخلف عن الإسلام ناظراً فيه وفي غيره من الأديان ،مقيماً على الطاعة ، مؤتمراً بأمره محموداً في فعله . وهذا جهل عظيم في الإسلام . وينبغي على قولهم إذا مات في مدة النظر والمهلة قبل قبول الإسلام أنه مات مطيعاً لله ، مقيماً على أمره . لابد من إدخاله . الجنة كما يدخل المسلمين . وقد قال الله تعالى ﴿ ومن يبتغ غير الإسلم ديناً فلن يقبل منه وهو في

---

(١) الحجة في بيان المحجة ١١٩/٢ ، وانظر : صون المنطق ١٧٢ .

الآخرة من الخسرين ﴾ [1] وقال ﷺ « لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة » [2] وهو حديث ثابت لا شك فيه[3] .

خامساً : من اللوازم الباطلة التي تلزم على قول المتكلمين ، عدم الحاجة إلى إرسال الرسل في الدعوة إلى الله عز وجل ، والتعريف به ، وبما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلا ، إذ أن العقل قد قام بهذه المهمة . بل على منطق المتكلمين لا ينبغي لغيره أن يقوم بهذه المهمة أصلاً . وهذا تعطيل لأعظم مهمة أرسل من أجلها الرسل ، وأنزلت من أجلها الكتب ، ألا وهي تعريف الناس بربهم ، ودعوتهم إلى توحيده ، وإخلاص العبادة له وحده . وهل احتاج الناس إلى الرسل إلا بعد انحرافهم عن التوحيد وعن معرفة الله المعرفة الحقة .

فكيف يقال بعد هذا إن العقل يستقل بمعرفة الله سبحانه ، وأن وجود الرسل وعدمهم سواء . وهو لازم للقول بأن النظر أول واجب ، وهل عرف المتكلمون الله سبحانه بطريقتهم هذه ؟ أم تاهوا في ظلمات بعضها فوق بعض من الشك والحيرة والاضطراب ؟ وتوصلوا إلى إثبات حقيقة مسلوبة الاسماء والصفات ، لا وجود لها إلا في أذهانهم .

وقد بين أبو المظفر رحمه الله هذا اللازم بقوله « وما أوحش قول من يقول : إنه لا دعوة لأحد من النبيين والمرسلين إلى الإيمان على الحقيقة ، وأن وجودهم وعدمهم في هذا بمنزلة واحدة ، ولو لم يكونوا كان وجوب الإيمان على الناس على الجهة التي وجبت عليهم بعد وجودهم ، ولاحظ لدعوتهم في هذا ، وإنما الحظ لدعوتهم في الشرائع وفروع العبادات ، فقد

---

(١) آل عمران آية (٨٥) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه (ح ٢٩٥٨) ، والامام أحمد في المسند ٢/ ٢٩٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣١ ، وقال صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي . وصححه الشيخ الألباني ، انظر: إرواء الغليل ٤/ ٣٠١، رقم ١١٠١.

(٣) صون المنطق ١٧٣ ، الحجة ٢/ ١٢٠ .

جعلوا عقولهم دعاة إلى الله تعالى ، ووضعوها موضع الرسل فيما بينهم . ولو قال قائل: لا إله إلا الله عقلي رسول الله لم يكن مستنكراً عند المتكلمين من جهة المعنى . فظهر فساد قول من سلك هذا »[1].

تلك هي بعض اللوازم الباطلة . التي تلزم على القول بأن النظر أول واجب . والتي نبه عليها أبو المظفر رحمه الله وهي وحدها كافية في هدم بنيان المتكلمين من أساسه ، فكيف إذا انضاف إليها ما تقدم من أدلة على بطلان قول المتكلمين .

المطلب الرابع : نتيجة القول بأن النظر أول واجب

من أنصح الأدلة على صحة عقيدة السلف ، وبطلان قول المتكلمين في أول ما يجب على المكلف ، تلك النتيجة الحتمية لكل من العقيدتين .

أما عقيدة السلف رضي الله عنهم فنتيجتها اليقين ، وطمأنينة القلب ، وانشراح الصدر ، والثبات على دين الله عز وجل [2] وأما المتكلمون فقد أدى بهم النظر والإستدلال إلى الاضطراب ، والشك في دين الله سبحانه ، والحيرة . بل كان النظر مرقاة إلى الزندقة وسلماً إلى الإلحاد ، وطريقاً إلى سائر أنواع البدع والضلالات . وذلك ما قرره الإمام السمعاني رحمه الله بقوله :

« ومما يدل على صحة ما ذهبنا إليه من أن الدين طريقه الإتباع ، أنا إذا سلكنا طريق الإنصاف ، وطرحنا المكابرات من جانب فلا بد من الإنقياد لما قلناه ، لأن المقصود في الإبتداء إذا كان هو إصابة الحق : فليتدبر المرء المسلم المسترشد أحوال هؤلاء الناظرين كيف تحيروا في نظرهم ، وارتكسوا فيه . فلئن نجا واحد بنظره فقد هلك فيه الألوف من الناس ،

---

(١) صون المنطق ١٧٩ ، الحجة ٢/٣١٧ .

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « فأما ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى فأمر يجل عن الوصف ، ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع مالا يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين ، وهذا ظاهر مشهود لكل أحد » مجموع الفتاوى ٤/٢٩ ، ٤/٤٩ .

وإلى أن يبصر واحد فواحد بنظره طريق الحق بنظر رحمة سبق من الله له فقد ارتطم بطريق الكفر والضلالات والبدع بنظرهم أضعاف أضعاف عدد الأولين ، وهل كانت الزندقة والإلحاد وسائر أنواع الكفر والضلالات والبدع منشأها وابتداءها إلا من النظر ؟ فلو أنهم أعرضوا عن ذلك ، وسلكوا طريق الإتباع ما أداهم إلى شيء منها . فما من هالك في العالم ؟ إلا وبدوّ هلاكه من النظر . وما من ناج في الدين سالك سبيل الحق ، إلا وبدوّ نجاته من حسن الاتباع . أفيستجيز مسلم أن يدعو الخلق إلى مثل هذا الطريق المظلم ، ويجعله سبيل منجاتهم ؟ وكيف يستجيز ذو لب وبصيرة أن يسلك مثل هذا الطريق ؟! وأنى له الأمان من هذه المهالك ؟ وكيف له المنجاة من أودية الكفر ؟ وعامتها بل جميعها ، إنما يهبط عليها من هذه المرقاة ؟ - أعني طلب الحق من النظر - ولو أعطى الخصم النصفة لا يجد بداً من الإقرار أن من كان غوره في النظر أكثر كانت حيرته في الدين أشد ، وأعظم .

وهل رأى أحد متكلماً أداه نظره وكلامه إلى تقوى في الدين ؟ أو ورع في المعاملات ، أو سداد في الطريقة ؟ أو زهد في الدنيا ؟ أو إمساك عن حرام وشبهة ؟ أو خشوع في عبادة ؟ أو زيادة من طاعة ؟ إلا الشاذ النادر ، قل : لو قلبت القصة كنت صادقاً تراهم أبداً منهمكين في كل فاحشة ، متلبسين بكل قاذورة ، لا يرعوون عن قبيح ، ولا يرتدعون من باطل ، إلا من عصمه الله . فلئن دلهم النظر على اليقين وحقيقة التوحيد ، فبئس ثمرة اليقين هذا ، وتعساً لتوحيد أداهم إلى مثل هذه الأشياء ، وأوردهم هذه المتالف في الدين ، ومن الله التوفيق وحسن المعونة »[1] .

وهذا الكلام من أبي المظفر رحمه الله ليس تحاملاً منه على أهل الكلام كما قد يظن البعض . بل هي حقيقة نقلها كثير من أهل العلم ، وهي تدل دلالة قاطعة على ضلال المتكلمين فيما ذهبوا إليه في أول مايجب على المكلف ، ومن اعتماد العقل في تقرير مسائل

---

(١) الحجة في بيان المحجة ٢/ ١٢٠ - ١٢٢ ، وانظر : صون المنطق ١٧٣ - ١٧٤ .

العقيدة ، وعدم الرجوع إلى ما قرره الوحي . قال أبو عبد الله القرطبي « وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك ، وببعضهم إلى الإلحاد ، وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع ، وتطلبهم حقائق الامور من غيره ، وليس في قوة العقل ما يدرك ما في نصوص الشرع من الحكم التي استأثر بها . وقد رجع كثير من أئمتهم عن طريقهم . حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال : ركبت البحر الأعظم ، وغصت في كل شيء نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فراراً من التقليد ، والآن قد رجعت واعتقدت مذهب السلف هذا كلامه أو معناه . وعنه أنه قال عند موته : يا أصحابنا ؟ لا تشتغلوا بالكلام . فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغت ما تشاغلت به »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « المخالفون لأهل الحديث هم مظنة فساد الاعمال : إما عن سوء عقيدة ونفاق ، وإما عن مرض في القلب وضعف إيمان . ففيهم من ترك الواجبات ، واعتداء الحدود ، والاستخفاف بالحقوق ، وقسوة القلب ، ما هو ظاهر لكل أحد ، وعامة شيوخهم يرمون بالعظائم »[2] .

وقال رحمه الله « وما يوجد من إقرار أئمة الكلام والفلسفة وشهادتهم على أنفسهم وعلى بني جنسهم بالضلال ، ومن شهادة أئمة الكلام بعضهم على بعض كذلك ، فأكثر من أن يحتمله هذا الموضع ، وكذلك ما يوجد من رجوع أئمتهم إلى مذهب عموم أهل السنة وعجائزهم كثير . وأئمة السنة والحديث لا يرجع منهم أحد . لأن الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد »[3] .

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٥٠ ، وما ذكره القرطبي عن الجويني ذكره غير واحد من الذين ترجموا له ، انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٨٦/٥ ، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٧١ - ٤٧٤ ، العواصم والقواصم لابن الوزير اليماني ٤/ ٦٠-٦٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٥٣ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٣ ، وانظر : المصدر نفسه ٤/ ٢٧ . ٢٨ . ٥٠ . ٥١ . ٧٢ . ٧٣ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٦١ .

المطلب الخامس : تحذير أبي المظفر رحمه الله من الاشتغال بأقوال أهل الكلام

لم يقتصر الإمام السمعاني رحمه الله على رد قول المتكلمين بوجوب النظر . بل حذر رحمه الله من الاشتغال بكلامهم ، والاغترار بكثرة مقالاتهم ، فإنها كثيرة التناقض ، لا تروي غليلاً ، ولا تشفي عليلاً ، ولا تدل على الحق الذي تسكن إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب ، وينشرح إليه الصدر ، وذلك شأن الباطل فإنه لا يثبت به حق ، ولا تقوم به حجة .

ومما قاله رحمه الله « وإياك رحمك الله أن تشتغل بكلامهم ، ولا تغتر بكثرة مقالاتهم ، فإنها سريعة التهافت ، كثيرة التناقض ، وما من كلام تسمعه لفرقة منهم ، إلا ولخصومهم عليه كلام يوازيه أو يقاربه ، فكل بكل معارض ، وبعض ببعض مقابل ، وإنما يكون تقدم الواحد منهم، وفلجه على خصمه بقدر حظه من البيان ، وحذقه في صناعة الجدل والكلام ، وأكثر ما يغلب بعضهم بعضاً : إنما هو إلزام من طريق الجدل ، على أصول لهم ومناقضات على أقوال حفظوها عليهم ، فهم يطالبونهم بقودها وطردها . فمن تقاعد عن ذلك سموه من طريق الجدل منقطعاً وجعلوه مبطلاً ، وحكموا بالفلج لخصمه . والجدل لا يتبين به حق ، ولا تقوم به حجة . وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين ، كلتاهما باطلة ، ويكون الحق في ثالثة غيرهما . فمناقضة أحدهما صاحبه لا تصحح مذهبه ، وإن أفسد به قول خصمه . لأنهما مجتمعان في الخطأ ، مشتركان فيه ، لقول الشاعر :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور

وإنما كان الأمر كذلك : لأن واحداً من الفريقين لا يعتمد في مقالته أصلاً صحيحاً ، وإنما هو آراء تتقابل ، وأوضاع تتكافأ ، وتتعادل ، ولو أنصفوا في المحاجة لزم الواحد منهم أن ينتقل عن مذهبه كل يوم كذا وكذا مرة ، لما يورد عليه من الإلزامات ، وتراهم ينقطعون في الحجاج ولا ينتقلون . وهذا هو الدليل على أنه ليس قصدهم طلب الحق ، إنما طريقهم اتباع الهوى فحسب . فإذا ألزم قال : هذا إلزام علي لا على مذهبي ... أو يوجد من ينفصل

عن هذه الشبهة ممن ينتحل ديني ومذهبي ، فإذا راعينا مثل هذا ، لم تقم حجة على كافر أبداً ، وما هذا إلا طريق يوهم جميع الكافرين أنهم على الحق ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً » [١] .

وليس الإمام السمعاني وحده هو الذي يحذر من مقالات أهل الكلام فقد تقدمه كثير من علماء السلف ، كما نقل ذلك الامام السمعاني نفسه عنهم [٢] ونقله غيره [٣] من أهل العلم . وتحذير السلف من الإشتغال بأقوال أهل الكلام إنما هو لتحصين العقل المسلم من الانحراف والانزلاق في مهاوي الهلكة ، وقطع الطريق أمام تيارات الالحاد والزندقة والتشكيك في دين الله عز وجل ، وحفظاً على الوحدة العقدية بين المسلمين ، والتي لا يمكن أن تكون إلا بالإعتصام بالكتاب والسنة ، والإهتداء بما كان عليه السلف رضي الله عنهم .

ونشير في نهاية هذا المبحث وبناء على ما تقدم ذكره إلى أنه يجب على المسلم العاقل أن يحمي نفسه من الإنزلاق في خضم التيارات الباطلة ، والأفكار المتضاربة ، وذلك بأن يسلك المحجة البيضاء التي مضى عليها خيارنا ، وأن يبتعد عن سماع الآراء الباطلة التي ابتدعها أقوام انحرفوا عن جادة الحق ، واتبعوا أهواءهم وما ألفوه عن آبائهم ومشايخهم فوقعوا في الحيرة والاضطراب ، وتفرعت أمامهم السبل وحق عليها قول الله تعالى ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [٤].

---

(١) صون المنطق ١٧٦ – ١٧٧ ، ونلاحظ أن ماقاله الإمام السمعاني هنا مأخوذ بنصه من كتاب الغنية عن الكلام وأهله للامام الخطابي ، انظر : صون المنطق ٩٩ – ١٠٠ .

(٢) صون المنطق ١٥٠ – ١٥٧ .

(٣) انظر : الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ٢/٤٢٩ –٥٤٤ .

(٤) الأنعام آية ١٥٣ .

الفصل الثاني

جهود أبي المظفر رحمه الله في توضيح توحيد الربوبية

وفيه تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول : الأدلة على توحيد الربوبية

المبحث الثاني : في بيان أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم إفراد الله بالعبادة

تمهيد :

لقد تقدمت الإشارة إلى أن توحيد الربوبية يعني الإقرار بوجود الله الخالق سبحانه الرزاق الحكيم العليم المتفرد بالتقدير والتدبير .

وهذا النوع من أنواع التوحيد الأدلة عليه أظهر من أن تخفى . فما من شيء في الوجود إلا وفيه دلالة ظاهرة على وجود الخالق سبحانه ، وعلى تفرده بالتقدير والتدبير .

ومن أظهر الأدلة على وجود الله سبحانه : أن النفوس مفطورة على الإقرار به ، بل وعلى محبته والإنابة إليه والتوكل عليه والخوف منه ورجائه . ولذلك كان أول ما يجب على المكلف هو القيام بما يستلزمه الاقرار بوجود الخالق سبحانه . من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة كل من سواه .

ومع ظهور الادلة على وجوده سبحانه ، وفطر النفوس على الإقرار به ، والإذعان له ، فقد وجد في بني آدم من يظهر إنكار وجود الله ، أو يقر به ولكنه يصرف حقه إلى غيره من المخلوقين ، أو ينكر الحكمة التي من أجلها خلق الله الخلق وبسط الرزق . وذلك ما اقتضى أن يُذكّر بالأدلة الدالة على وجوده سبحانه ، وتفرده وعلمه وقدرته ، وحكمته البالغة ومشيئته النافذة . وفي جهد من جهود أبي المظفر رحمه الله في تقرير عقيدة السلف في توحيد الله عز وجل تعرض لهذا النوع من أنواع التوحيد وبين رحمه الله المنهج الصحيح للإستدلال على توحيد الربوبية ، ونبه إلى جملة من الادلة الدالة على وجود الله سبحانه وتفرده كما أشار أيضاً إلى ما يستلزمه الإقرار بتوحيد الربوبية من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة كل من سواه .

وللوقوف على جهد أبي المظفر رحمه الله في توضيح توحيد الربوبية فإنني قسمت هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : في ذكر الأدلة التي تدل على وجود الخالق سبحانه وتفرده والتي أشار إليها أبو المظفر رحمه الله .

المبحث الثاني : في بيان أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم إفراد الله بالعبادة .

المبحث الأول
الأدلة على توحيد الربوبية

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : دلالة الفطرة

المطلب الثاني : دلالة المعجزات

المطلب الثالث : الدلالة الكونية

تمهيد :

وجود الخالق سبحانه وتفرده بالخلق والتقدير ظاهر لا يحتاج إلى دليل . إذ أن المستدل نفسه دليل على وجود خالقه . فإن المستدل مخلوق . ولا وجود لمخلوق بدون خالق إلا في أذهان سفهاء بني آدم . قال سبحانه ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخلقون أم خلقوا السموت والأرض بل لا يوقنون ﴾ [1] .

هذا بالإضافة إلى أن الكون كله دليل على وجود الخالق سبحانه ، مسبح بحمده خاضع لحكمه ، منقاد لأمره . ﴿ وله أسلم من في السموت والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ [2] .

فالأدلة على توحيد الربوبية ظاهرة لاخفاء فيها وقد نبه الامام السمعاني رحمه الله على أهم الدلائل على توحيد الربوبية وأقواها . نوردها من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : دلالة الفطرة

من أعظم الأدلة على وجود الخالق سبحانه كونه فطر عباده على الإقرار به ، بل وإلى محبته والإنابة إليه ، والفزع والإلتجاء عند الشدائد إليه .

والإقرار بوجود الخالق سبحانه من أهل الأديان ظاهر. وأما غيرهم من الوثنيين وعباد الأصنام والطبائعيين فالضرورات والشدائد تظهر ذلك ، وقد يظهر من غير ضرورة ، كمن يسأل عمن خلق هذا الكون فيقول الله . وهو كثير في بني آدم .

وقد أوضح أبو المظفر رحمه الله في أكثر من موضع أن الناس جميعاً فطروا على الإقرار بالخالق عز وجل وقد استدل على ذلك بإقرار الكفار بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله عز وجل . واستدل أيضاً بما يظهر عند الشدائد وفي أوقات الضيق من رجوع الكفار إلى الله عز وجل والتجائهم إليه .

---

(١) الطور آية ٣٥ - ٣٦ .

(٢) آل عمران آية ٨٣ .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ [1] والصحيح في معنى الفطرة هو : أن كل إنسان يولد على أنه متى سئل من خلقك ؟ فيقول : الله خلقني ، وهو المعرفة التي تقع في أصل الخلقة » [2] .

وفي إشارة منه إلى المعرفة السابقة قال رحمه الله « وهذه المعرفة هي التي أخبر الله بوجودها من الكفار وذلك في قوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموت والأرض ليقولن الله﴾ [3] وقال تعالى ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [4] فحين ظهرت لهم حال الضرورة ، وانقطعوا عن أسباب الخلق ، ولم يبق لهم تعلق بأحد ظهرت فيهم المعرفة الغريزية» [5] .

وهذا القدر من الفطرة والذي قرر الإمام السمعاني رحمه الله أنه موجود عند كل أحد دليل من داخل النفس البشرية يهتف بوجود الخالق سبحانه ، وبتفرده . وهو من أرسخ المعارف وأثبت العلوم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله « الإقرار بالله والإعتراف بالصانع ثابت في الفطرة كما قرره الله سبحانه في كتابه في مواضع فلا يحتاج هذا إلى دليل ، بل هو أرسخ المعارف ، وأثبت العلوم ، وأصل الأصول » [6] .

وقال رحمه الله أيضاً : « فالنفوس مفطورة على علم ضروري موجود فيها بالخالق الذي خلق السموات ، وأنه خلق السموات والأرض ، ليس شيء منها خلق الناس . كما قال

---

(١) الروم آية (٣٠) .

(٢) تفسير السمعاني ٢٩٢ ، تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

(٣) لقمان آية (٢٥) .

(٤) العنكبوت آية (٦٥) .

(٥) الحجة ٢/٤٢ .

(٦) مجموع الفتاوى ٢/٧٢ .

موسى لفرعون لما قال ﴿ وما رب العلمين ﴾ [١] قال ﴿ رب السموت والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [٢] وقال ﴿ فمن ربكما يموسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٣] »[٤] وقد نبه على هذا الدليل بعض أهل الكلام ، وهم الذين تاهوا في باب معرفة الله سبحانه ، أقرحذاقهم بأن معرفة الله سبحانه والإقرار بوجوده ضرورة يجدها كل واحد في نفسه ولا يمكنه دفعها . قال الشهرستاني [٥] « وأما تعطيل العالم عن الصانع العليم القادر الحكيم ، فلست أراها مقالة ، ولا عرفت عليها صاحب مقالة ، إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا كان العالم في الأزل اجزاء مبثوثة تتحرك على غير استقامة فاصطكت اتفاقاً ، فحصل العالم بشكله الحالي الذي تراه عليه ... ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو يعترف بالصانع ولكنه يحيل سبب وجود العالم على البخت والاتفاق ، احترازاً عن التعليل فما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان . وإن الفطرة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها بصانع عليم قادر حكيم » [٦] .

وهذا الإجماع الحاصل من بني آدم على الإقرار بوجود الخالق سبحانه وذلك على الرغم من تعدد نحلهم ، واختلاف مذاهبهم ، وكثرة معتقداتهم ، ناتج عن قوة الإدلة الدالة على ذلك ، وشدة ظهورها والتي من أبرزها دلالة الفطرة . ولا يعكر على ذلك ما يظهره شذاذ الافاق من دعوى إنكار الخالق سبحانه . فهذا منهم من باب المكابرة والعناد ،

---

(١) الشعراء آية (٢٣) .

(٢) الشعراء آية (٢٤) .

(٣) طه آية (٤٩ - ٥٠) .

(٤) مجموع الفتاوى ٢٣٤/٨ .

(٥) هو : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى الإمام الأشعري من مؤلفاته « الملل والنحل » و « نهاية الإقدام في علم الكلام » وغيرها من الكتب السائرة في علم الكلام ، ولد سنة ٤٧٩ ، وتوفي سنة ٥٤٨ ، انظر : وفيات الأعيان ٢٧٣/٤-٢٧٥ ، سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٢٠ .

(٦) نهاية الإقدام في علم الكلام ١٢٣ - ١٢٤ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل ١٢٨/٣ - ١٢٩ ، و ٣٩٦/٧ - ٣٩٧ .

والاستنان بسنة شيخ طريقتهم ، وزغيم ملتهم فرعون . وقد حكى الله سبحانه عن شيخهم في الكفر إقراره في نفسه بوجود الخالق سبحانه قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [1] وقال عز وجل على لسان موسى عليه السلام مخاطباً فرعون ومحتجاً عليه ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموت والأرض بصائر وإني لأظنك يفرعون مثبوراً ﴾ [2] .

ففرعون وأتباعه كاذبون فيما ذهبوا إليه من إنكار الخالق سبحانه . بدليل هذه الآيات .

وبدليل ظهور الإقرار من المشركين بوجود الخالق سبحانه عندما تلجؤهم إلى ذلك الضرورة ، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن فرعون نفسه ، إقراره بوجود الخالق والإيمان به، وذلك عندما داهمه الغرق ، وأحاطت به الأمواج من كل جانب . قال تعالى على لسانه ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال ءامنت أنه لا إله إلا الذي ءامنت به بنوا إسرءيل وأنا من المسلمين ﴾ [3] » [4] .

الفطرة تسلتزم أكثر من مجرد الإقرار :

والنفوس ليست مفطورة على الإقرار بوجود الخالق سبحانه فحسب ، بل الفطرة التي خلق الله الناس عليها تستلزم أكثر من مجرد الإقرار . فإنها تستلزم محبة الخالق سبحانه والتوكل عليه ، والخوف منه ، ورجاءه ، والفزع عند الشدائد إليه . وهي التوحيد الذي أمر الله به . وخلق الخلق من أجله . وقد فسر السلف رضي الله عنهم الفطرة في قوله

---

(١) النمل آية (١٤) .

(٢) الإسراء آية (١٠٢) .

(٣) يونس آية (٩٠) .

(٤) انظر : شرح الطحاوية ٢٦/١ .

عز وجل ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ [1] بأنها الإسلام . قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله « أجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ الإسلام . وهو المعروف عند عامة السلف » [2] .

وقال ابن كثير في تفسير الآية يقول تعالى « فسدد وجهك . واستمر على الدين الذي شرعه الله لك ، من الحنفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها ، وكملها لك ، غاية الكمال . وأنت مع ذلك ، لازم فطرتك السليمة ، التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره » [3] .

وقد دلت السنة أيضاً : على أن الإنسان يولد على حالة لو بقي عليها ، بحيث لم تتغير ولم تتبدل لكان حنيفاً مسلماً لله رب العالمين . ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله ﷺ ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء . ثم يقول ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ » [4] .

وليست هذه الحالة – والتي هي الفطرة – إلا التوحيد ، الذي خلق الله من أجله الاولين والآخرين ، والذي من أسباب الإنحراف عنه أن يُهود الطفل ، أو ينصر ، أو يمجس ، ولا يستقيم تفسير الحديث إلا على هذا المعنى [5] .

---

(١) الروم آية (٣٠) .

(٢) التمهيد ١٨/٧٢ ، وانظر : جامع البيان عن تأويل القرآن ٢٠/٤٠ ، وصحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب التفسير ، باب لاتبديل لخلق الله ٨/٥١٢ ، شفاء العليل ٥٦٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/٣٢٠ .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ٣/٢٤٥ ، وكتاب التفسير ، باب لاتبديل لخلق الله ٨/٥١٢ ، صحيح مسلم : كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، ح ٢٦٥٨ .

(٥) انظر : شرح الحديث والكلام عليه ، فتح الباري ٣/٢٤٥-٢٥٠ ، درء تعارض العقل والنقل ٨/٣٥٩ – ٤٦٨ ، شفاء العليل ٥٥٩-٦٠٠ ، تحفة الاحوذي ٦/٢٨٧ .

ومما يدل على أن المراد بالفطرة التوحيد أيضا ما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه « يقول إني خلقت عبادي حنفاء كلهم . وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[1] .

فالحنيفية التي خلق الله عباده عليها هي توحيده عز وجل المتضمن لمحبته والإنابة إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « والله تعالى فطر عباده على محبته ومعرفته. وهذه هي الحنيفية التي خلق الله عباده عليها »[2] .

وبهذا يتبين أن ما صححه الإمام السمعاني رحمه الله من أن معني الفطرة في الآية هي الفطرة الغريزية التي هي الإقرار بوجوده سبحانه وإن كان ذهب إليه بعض أهل العلم إلا أن الصحيح : أن الله فطر عباده على الإقرار به وعلى محبته . فالاقرار داخل فيما فطر الله عليه الناس ، وليس هو كل الفطرة .

وعلى كل تقدير فالإقرار بتوحيد الربوبية حاصل من جميع الخلق .

وعلى هذا : فطريق الإستدلال بدلالة الفطرة على توحيد الربوبية ، طريق صحيح مستقيم ، دل عليه الكتاب والسنة ، وأجمع عليه السلف رضي الله عنهم .

وأبو المظفر رحمه الله عندما يستدل على توحيد الربوبية بدلالة الفطرة إنما هو متبع لما دل عليه الكتاب والسنة ومقرر لمنهج السلف رضي الله عنهم .

ولايفهم مما تقدم ، أن المولود حين يخرج من بطن أمه يخرج وهو يعلم دين الإسلام ويريده ، فإن الله يقول ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهتكم لا تعلمون شيئاً ﴾[3] ولكن فطرته مقتضية لدين الإسلام لقربه . فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ، ومحبته وإخلاص

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ح ٢٨٦٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٤٢٦/٧ .

(٣) النحل آية ٧٨ .

الدين له . وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئاً فشيئاً بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من العوارض [(١)] .

المطلب الثاني : دلالة المعجزات

ومن الدلائل الواضحات ، والآيات البينات ، على وجود الخالق سبحانه ، وتفرده بالتقدير والتدبير ، واتصافه سبحانه بالعلم والقدرة ، والحكمة البالغة ، والمشيئة النافذة معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والتي أمدهم بها للدلالة على صدقهم فيما اخبروا به من المغيبات ، وفيما دعوا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه .

ومن تلك المعجزات معجزات نبينا محمد ﷺ فهي دلائل نبوته ، وعلامة صدقه ، وحجة ناطقة بوجود مرسله سبحانه ، وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى أن ما تواتر واستفاض من معجزات نبينا محمد ﷺ يوجب تصديقه في كل ما أخبر به من توحيد الله عز وجل ، وأسمائه وصفاته ، والذي من ضمنه توحيد الربوبية . قال رحمه الله « فإن المسلمين قد قامت لهم الدلائل السمعية على نبوة رسول الله ﷺ لما نقل إلينا أهل الإتقان والثقات من الرواة مالا يعد كثرة من المعجزات والبراهين والدلالات التي ظهرت عليها ، وقد نقلها أهل الحديث في كتبهم ، ودونوها ... فلما صحت عندهم نبوته ، ووجدوا صدقه في قلوبهم ، وجب عليهم تصديقه فيما أنبأهم به من الغيوب ، ودعاهم إليه من وحدانية الله عز وجل وإثبات صفاته وسائر شرائط الإسلام » [(٢)] .

وما قرره الإمام السمعاني رحمه الله من دلالة المعجزات على توحيد الله عز وجل قرره غيره من أهل العلم . بل قد صرح غير واحد من أهل العلم بأن طريق الإستدلال بمعجزات

---

(١) انظر : شفاء العليل لإبن القيم ص ٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٢) صون المنطق ١٧١ ، وانظر : الحجة في بيان المحجة ١١٦/٢ وكلام السمعاني رحمه الله مقتبس من كتاب « الغنية عن الكلام وأهله » للإمام أبي سليمان الخطابي . أنظر : صون المنطق ٩٦ - ٩٧ ، والصواعق المرسلة ١١٩٦/٣ .

الأنبياء من أقوى الطرق وأنفعها في إثبات وجود الله سبحانه وتفرده . وذلك لأنها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها ، وطريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها ، ولجمعها بين دلالتي الحس والعقل .

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله « وهذا الطريق . من أقوى الطرق وأصحها ، وأدلها على الصانع وصفاته ، وأفعاله ، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها فإنها جمعت بين دلالة الحس ، والعقل . ودلالتها ضرورية بنفسها . ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل دليل على وجود الصانع ، وحياته ، وقدرته ، وإرادته ، وعلمه بالكليات والجزئيات ، وعلى رسالة الرسول ، وعلى المبدأ والمعاد . فكل قواعد الدين في هذه العصا . وكذلك اليد ، وفلق البحر طرقاً . والماء قائم بينهما كالحيطان ، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم ، وضرب حجر مربع بعصا . فتسيل منه اثنتا عشرة عيناً ، تكفي أمة عظيمة ، وكذلك سائر آيات الأنبياء .. مما هو من أعظم الأدلة على الصانع ، وصفاته ، وأفعاله ، وصدق رسله ، واليوم الآخر. وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ، ودلهم بها كما دلهم بما يشاهدونه من أحوال الحيوان ، والنبات ، والمطر ، والسحاب ، والحوادث التي في الجو والأرض »[1] .

ودلالة المعجزات على وجود الخالق سبحانه وتفرده من وجوه .

الوجه الأول : أنها دلت على صدق المرسل . وهو ما يوجب تصديقه في كل ما أخبر به . ومن المعلوم أن مما أخبر به الأنبياء هو وجود الخالق سبحانه .

الوجه الثاني : أن دلالة المعجزة على صدق المرسل دليل أيضاً : على وجود المرسل. فإن الرسول لم يدع أن المعجزة من عند نفسه . وإنما قال : هي من عند الله خالق كل شيء ،

---

(١) الصواعق المرسلة ١١٩٧/٣ - ١١٩٨ .

وربه ومليكه . والذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

الوجه الثالث : الحدوث الضروري . حيث أنها وجدت بعد أن لم تكن . وكل ذلك أمام أعين الناظرين الحاضرين لوقوعها .

الوجه الرابع : مخالفتها للطبائع والعادات المألوفة عند الناس . مما يقطع بوجود فاعل مختار يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد .

قال ابن الوزير اليماني [1] رحمه الله « وأما دلالة المعجزات : فهي من أقوى الدلالات ، وأوضح الآيات ، وذلك لجمعها بين أمرين واضحين لم يكن نزاع المبطلين إلا فيهما أو أحدهما وهما : الحدوث الضروري ، والمخالفة للطبائع والعادات . وهذا هو الذي أراه الله خليله عليه السلام حين سأل الله طمأنينة قلبه ، والذي احتج به موسى الكليم عليه السلام على فرعون . وسماه شيئاً مبيناً . كما حكاه الله تعالى في سورة الشعراء حيث قال فرعون ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ قال موسى ﴿ أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصدقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للنظرين ﴾ إلى قوله ﴿ فألقي السحرة سجدين ﴾ [2] » [3] .

ولقوة دلالة المعجزات على صدق المرسَل ، ووجود المرسِل ، نجد أن تأثيرها فيمن شاهدها قوي جداً حيث ينقلب المشاهد من مكذب جاحد معاند للرسول ولما جاء به ، إلى مؤمن موحد مجاهد في سبيل الدين الذي آمن به بكل غال ونفيس . وما قرره الإمام ابن الوزير اليماني والشيخ ابن القيم رحمهما الله ، يؤكد صحة ما قرره الإمام السمعاني رحمه

---

(١) هو : محمد بن إبراهيم بن علي المرتضى بن الفضل . الإمام الكبير ، المجتهد المطلق ، المعروف بابن الوزير اليماني صاحب التصانيف من مؤلفاته « العواصم والقواصم » « الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم » « إيثار الحق عن الخلق » وغيرها ، ولد سنة ٧٧٥ ، وتوفي سنة ٨٤٠ ، انظر : البدر الطالع ٨١/٢ - ٩٣ .

(٢) الشعراء الآيات (٢٩ - ٤٦) .

(٣) إيثار الحق عن الخلق ص ٥٤ .

الله من أن المعجزات دليل على وجود الخالق سبحانه وعلى تفرده بالتقدير والتدبير .

وفيما قرره الامام السمعاني رحمه الله جهد منه في توضيح منهج السلف في الاستدلال على توحيد الربوبية . وهو المنهج الذي دل عليه القرآن الكريم وأرشد إليه .

المطلب الثالث : الدلالة الكونية

الكون كله دليل على وجود خالقه وتفرده سبحانه . وقد نبه أبو المظفر رحمه الله على دليل من الأدلة الكونية الدالة على وجود الخالق سبحانه . وتفرده وهو دليل الثمار المختلفة التي تخرج من أرض واحدة ، وماء وهواء وحرارة واحدة ، ومع ذلك تكون مختلفة في الطعم واللون ، والشكل ، والصغر والكبر ، وهو ما يقطع بوجود فاعل مختار متفرد بالخلق والإيجاد .

وهذا الدليل جاء ذكره في قوله عز وجل ﴿ وفي الأرض قطع متجورت وجنت من أعنب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء وحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيت لقوم يعقلون ﴾ [(١)] .

قال أبو المظفر رحمه الله « وفي الآية رد على أصحاب الطبيعة [(٢)] فإن الماء واحد، والهواء واحد ، والتراب واحد ، والحرارة واحدة ، والثمار مختلفة ، في اللون والطعم ، وقلة الريع وكثرة الريع [(٣)] . والطبيعة الواحدة يستحيل أن توجد شيئين مختلفين . فدل على أن الجميع من الله تعالى [(٤)] » .

---

(١) الرعد آية (٤) .

(٢) الطبيعة الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان ، والطبيعة أيضاً الحالة التي أوجد الله الخلق عليها ، وأنشأهم عليها ، وأصحاب الطبيعة هم الذين يزعمون أن الطبيعة وحدها هي الوجود ، وهي وحدها المؤَثِّرُ ، والمؤَثَّرُ فيه ، وليس لها خالق مدبر متصرف تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .انظر لسان العرب ٢٣٢/٨ .

(٣) الريع النماء والزيادة : لسان العرب ١٣٧/٨ .

(٤) تفسير السمعاني ٧-٨ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

وما أشار إليه الامام السمعاني رحمه الله من دلالة الآية على بديع صنع الله وعظيم قدرته ، وتفرده بالخلق والإيجاد ، ودلالتها على بطلان قول أصحاب الطبيعة الذين يقولون بأن الطبيعة وحدها التي تخلق وتوجد الأشياء .

أشار إليه غيره من أهل العلم قال الإمام القرطبي رحمه الله « قوله تعالى ﴿متجورت ﴾ أي قرى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تتفاوت فيها الثمار والتمر ، فيكون البعض حلواً ، والبعض حامضاً ، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر ، واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ، وفي هذا أدل دليل على وحدانيته ، وعظيم صمديته والإرشاد لمن ضل عن معرفته ، فإنه نبه سبحانه بقوله : ﴿ تسقى بماء واحد ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع ، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف »[1] .

وقال الامام ابن كثير رحمه الله « أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها والوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وذا في غاية المرارة ، وذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الإختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد »[2] .

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله « وفي هذا من الدلائل على بديع صنعه وعظيم قدرته مالا يخفى على من له عقل ، فإن القطع المتجاورة ، والجنات المتلاصقة ، المشتملة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٨١/٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥١/٤ .

على أنواع النبات ، مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات [1] في الأكل فيكون طعم بعضها حلواً ، والآخر حامضاً ، وهذا في غاية الجودة ، وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق في حسنه وهذا غير فائق ، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه ، وتعالى شانه . لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين : إما اختلاف المكان الذي هو المنبت ، أو اختلاف الماء الذي تسقى به . فإذا كان المكان متجاوراً ، وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذي تسقى به واحد ، لم يبق سبب للإختلاف في نظر العقلاء إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب » [2] .

وليست الآيات الكونية المتقدمة والتي نبهت الآية الكريمة على دلالتها على وجود الخالق سبحانه وتفرده وحدها هي التي تدل على توحيد الربوبية . بل آيات الله في الأنفس والآفاق أكثر من أن تحصى . قال تعالى ﴿ سنريهم ءايتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [3] .

وقال عز وجل ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [4] وقال عز وجل ﴿ لخلق السموت والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [5] .

والاستدلال بالآيات الكونية على توحيد الربوبية ، منهج من مناهج القرآن الكريم والتي منها الآية السابقة ، والتي أوضح الإمام السمعاني وغيره من أهل العلم أن فيها أبلغ رد على من ادعى أن للكون خالقاً موجوداً غير الله عز وجل .

---

(١) هكذا في فتح القدير « وتتفاضل في الثمرات في الأكل » والذي يظهر أن صحة العبارة هكذا « تتفاضل في الثمرات وفي الأكل »

(٢) فتح القدير ٣/٦٥ .

(٣) فصلت آية (٥٣) .

(٤) الذاريات آية (٢١) .

(٥) غافر اية (٥٧) .

وفي تنبيه الإمام السمعاني رحمه الله على هذا الدليل الذي أشارت إليه الآية توضيح منه رحمه الله للمنهج الصحيح في الإستدلال على توحيد الربوبية ، وهو الإستدلال بنفس الأدلة الكونية على وجود الخالق سبحانه وعظمته وقدرته وإرادته .

ومن خلال الأدلة المتقدمة على توحيد الربوبية والتي نبه عليها الامام السمعاني رحمه الله تتجلى حقيقة هامة ، وهي رحمة الله سبحانه بخلقه حيث قد دلهم على نفسه سبحانه وذلك بما أودع في نفوسهم من معرفته ، والإقرار به ، وبما نصب لهم من الأدلة الكونية ، وما أمد به أنبياءه من المعجزات الباهرات والآيات المحكمات ، والتي كلها تدل على وجود الخالق وعلى علمه ، وقدرته فهو سبحانه الدال ، وهو المدلول عليه ، كما أن الانسان هو المستدل ، وهو الدليل على وجود خالقه ، وفاطره ، ومدبر أمره ، والمتصرف فيه بما شاء ، وكيف شاء ، فسبحانه من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

المبحث الثاني : في بيان أن الاقرار بتوحيد الربوبية يستلزم إفراد الله بالعبادة

لقد تقرر فيما سبق أن الإقرار بوجود الخالق سبحانه فطري في النفس البشرية ، كما أن الأدلة الكونية الظاهرة يستحيل معها عقلاً إنكار وجود الخالق سبحانه ، فوجوده سبحانه أظهر من كل موجود ، ولهذا قالت رسل الله عز وجل ﴿ أفي الله شك ﴾ [1] أي ليس في الله شك[2] .

والإقرار بوجود الخالق سبحانه وتفرده يستلزم إفراده بالعبادة ، إذ لا يستساغ لا شرعاً ولا عقلاً أن يخلق الله الخلق ويبسط الرزق ويشكر غيره ويعبد سواه . وقد أوضح الامام أبو المظفر رحمه الله أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم عبادة الله وحده دون من سواه . قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ﴾ « أي ولئن سألت المشركين من خلق السموات والأرض ﴿ ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ [3] وهذا على طريق التعجب من حالهم . أي : كيف يعبدون الأصنام ويزعمون أن لله شريكاً وقد أقروا أن الله خالق السموات والأرض » [4] وعند قوله عز وجل ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ [5] قال رحمه الله «فيه قولان : أحدهما : أن معناه : أم خلقوا من غير أن يكون لهم خالق وصانع . أي : تكونوا بأنفسهم. وقوله ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أي : خلقوا أنفسهم . والمراد على هذا القول أنهم إذا لم يدعوا أنهم تكونوا من غير خالق وصانع ولا ادعوا أنهم الذين خلقوا

---

(١) إبراهيم آية (١٠) .

(٢) تفسير السمعاني ٦٧ تحقيق فاروق حسن محمد أمين .

(٣) الزخرف آية (٩) .

(٤) تفسير السمعاني ٩٩ ، تحقيق محمد الامين بن الحسين الشنقيطي .

(٥) الطور آية ٣٥ .

أنفسهم ، وأقروا أن خالقهم هو الله فلا ينبغي أن يعبدوا معه غيره »[1] [2] .

فكلام أبي المظفر رحمه الله واضح في أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألهية الذي هو الغاية من خلق العباد ، وعليه يترتب الثواب والعقاب . وتوحيد الألهية متضمن لتوحيد الربوبية ، ولا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر ، إلا عند المكابرة والعناد. وما قرره رحمه الله من أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الالهية يدل عليه الشرع والعقل ، كما أشرت إلى ذلك سابقاً وقد نبه على ذلك غير واحد من أهل العلم أيضاً .

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله « والألهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها في العبادة ، ومن لوازمها توحيد الربوبية ، الذي أقر به المشركون . فاحتج الله عليهم به فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الألهية »[3] .

وقال الشيخ محمد الامين الشنقيطي رحمه الله « ويكثر القرآن العظيم الإستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته . ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير ، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده . ووبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده ، لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الإعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده »[4] .

---

(١) تفسير السمعاني ٧٣٤ - ٧٣٦ بتحقيق محمد الأمين بن الحسين الشنقيطي .

(٢) والقول الثاني : أن معنى الآية ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ أي : لغير شيء ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقنكم عبثاً ﴾ (المؤمنون آية ١١٥) ، وقوله ﴿ أيحسب الإنسن أن يترك سدى ﴾ (الانسان ٣٦) . وقد رجع الإمام السمعاني رحمه الله القول الأول : تفسير السمعاني ٧٣٥ ، تحقيق محمد الأمين بن الحسين الشنقيطي .

(٣) إغاثة اللهفان ١٣٥/٢ .

(٤) أضواء البيان ٤١١/٣ .

الفصل الثالث
جهود أبي المظفر رحمه الله في توضيح توحيد الألهية

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تعريف لفظتي (الإله والعبادة) والعلاقة بينهما

المبحث الثاني : أهمية توحيد الالهية

المبحث الثالث : الأدلة على وجوب إفراد الله بالعبادة

المبحث الرابع : ذكر جملة من أنواع توحيد العبادة

المبحث الخامس : توضيح جملة من المسائل المتعلقة بالشرك

تمهيد

لقد تقدم أن المراد بتوحيد الألهية هو إفراد الله سبحانه بالعبادة وترك عبادة كل ما سواه ، كما تبين أيضاً : أن توحيد الألهية هو أعظم أنواع التوحيد.

وقد قرر الإمام السمعاني رحمه الله أن أول ما يجب على المكلف هو توحيد الله عز وجل ، كما قرر أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الالهية .

وفي جانب آخر من جوانب اهتمام أبي المظفر رحمه الله بتقرير عقيدة السلف رضي الله عنهم تعرض لمسائل أخرى متعلقة بتوحيد الإلهية غير ما تقدم ، فقد نبه على المعنى الصحيح لكل من لفظتي (الإله والعبادة) وأشار إلى جملة من الأدلة التي تدل على أهمية توحيد الألهية ، وعلى وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة . وأشار إلى ذكر جملة من أنواع توحيد العبادة ، كما تطرق إلى ذكر بعض نواقض التوحيد . تلك هي مجمل القضايا المتعلقة بتوحيد الألهية ، والتي تطرق إليها السمعاني رحمه الله ، والتي سنقف عليها في هذا الفصل إن شاء الله .

المبحث الأول : تعريف لفظتي الإله والعبادة والعلاقة بينهما

الوقوف على المعنى الصحيح لكل من لفظتي (الإله والعبادة) مهم ، ذلك أن فهم توحيد الإلهية كما جاء به الكتاب العزيز والسنة ودان به السلف رضي الله عنهم يتوقف على معرفة المعنى الصحيح لكل من اللفظتين السابقتين .

وقد تطرق أبو المظفر رحمه الله في تفسيره إلى تعريف كل من لفظة (الإله) ، ولفظة (العبادة) تعريفاً صحيحاً سليماً نقف عليه فيما يلي :

أولاً : تعريف لفظة « إله » .

عرف الإمام السمعاني رحمه الله لفظة (إله) بأنه المعبود فقد قال عند قوله عز وجل ﴿وهو الله في السموت وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ﴾ [1] « قال ابن الأنباري [2] معناه هو المعبود في السموات وفي الأرض » [3] .

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [4] « أي : معبود سواه [5] »

وعند قوله تعالى ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ [6] قال رحمه الله « أي معبود في السماء والأرض » [7] .

---

(١) الأنعام آية (٣) .

(٢) هو : محمد بن القاسم بن بشار أبو بكر بن الأنباري ، النحوي ، اللغوي ، كان من أعلم الناس بالنحو والأدب وأكثرهم حفظاً ، وكان صدوقاً ، فاضلاً من أهل السنة سمع ثعلبا وخلفا ، من تصانيفه « غريب الحديث » و « الاضداد » و « المذكر والمؤنث » ولد سنة ٢٧١ ، وتوفي سنة ٣٢٨ وقيل ٣٢٧ . انظر : وفيات الاعيان ٣٤١/٤ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٥ .

(٣) تفسير السمعاني ١١ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٤) المؤمنون آية (٢٣) .

(٥) تفسير السمعاني ٢٥٤ ، تحقيق محمد إقبال .

(٦) الزخرف آية (٨٤) .

(٧) تفسير ١٩٨ ، تحقيق محمد الأمين بن الحسين بن أحمد الشنقيطي .

وهذا المعنى الذي ذكره أبو المظفر رحمه الله للفظة (الإله) هو الذي يدل عليه وضع الكلمة في اللغة ، وعليه المحققون من أهل العلم فقد نقل أبو المظفر رحمه الله عن ابن الأنباري وهو من أئمة اللغة أن « الإله » هو المعبود ، وكذلك قال غيره من أهل العلم ومنهم ابن جرير الطبري رحمه الله قرر ذلك في تفسيره قال رحمه الله في تفسير البسملة « وأما تأويل قول الله « الله » فإنه على معنى ما روى لنا عن عبد الله بن عباس : هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق .. وساق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال : الله ذو الألهية والمعبودية على خلقه أجمعين .

قال ابن جرير رحمه الله : فإن قال لنا قائل : فهل لذلك في فَعَل ويَفعَل أصل كان منه بناء هذا الإسم ؟ قيل : أما سماعاً من العرب فلا ، ولكن استدلالاً .

فإن قال : وما دل على أن الألهية هي العبادة ، وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلاً في فعل ويفعل ؟ قيل : لا تمانع بين العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبادة ويطلب ما عند الله جل ذكره تأله فلان . بالصحة ولاخلاف ومن ذلك قول رؤبة ابن العجاج [1] .

لله در الغانيات المدة سبحن واسترجعن من تألهي

يعني من تعبدي وطلبي الله بعمل . ولا شك أن التأله التفعل من أله يأله وأن معنى أله إذا نطق به عَبَدَ الله » [2] .

وكون الإله هو المعبود كما قرره أبو المظفر رحمه الله وقرره غيره من أهل العلم يرد

---

(١) هو : رؤبة بن العجاج عبد الله بن رؤبة بن أسد بن صخر بن كنيف بن عمرة يتصل نسبه بزيد بن مناة ، الراجز المشهور من مخضرمي الدولتين ، ومن أعراب البصرة ،سمع من أبي هريرة رضي الله عنه ،والنسابة البكرى وعداده في التابعين ، وروى عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والنضر بن شميل ، وخلف الأحمر . وغيرهم . وله رجز مشهور ، مات سنة ١٤٥ . انظر : معجم الأدباء ٣٤١/٣ ، سير أعلام النبلاء ١٦٢/٦.

(٢) جامع البيان ٥٤/١ .

قول من قال من أهل الكلام . إن معنى (الإله) : القادر على الاختراع وهو قول باطل ومردود إذ لو كان معنى (الإله) القادر على الإختراع لما حكم الله سبحانه على المشركين بالكفر والشرك فإن المشركين كانوا يقولون بأن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر الحكيم العليم .

وينكرون تفرد الله سبحانه بالألهية قال تعالى ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ [١] وقال تعالى على لسانهم ﴿ أجعل الألهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [٢] وفي ذلك أدل دليل على أن (الإله) هو المعبود ، وعلى بطلان قول من فسر (الإله) بأنه القادر على الإختراع [٣] .

ثانياً : تعريف العبادة

إذا تقرر أن « الإله » هو المعبود . فما هو معنى العبادة ؟

عرف الإمام السمعاني رحمه الله العبادة بقوله « والعبادة هي الطاعة . من التذلل والخضوع . يقال : طريق معبد . أي : مذلل » [٤] وقد أكد رحمه الله في أكثر من موضع أن الطاعة تسمى عبادة وهذا باعتبار المعنى اللغوي .

وأما المعنى الشرعي للعبادة فإن أبا المظفر رحمه الله لم يتعرض له إلا أنه بناء على ما قرره رحمه الله من المعنى اللغوي السابق للعبادة فإن عبادة الله هي طاعته سبحانه فيما أمر به ونهى عنه مع كمال حبه سبحانه وغاية الخضوع والذل له . إذ ليس هناك من يستحق كمال الحب وغاية الخضوع والذل له إلا الله عز وجل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريف العبادة ، وبيان ما تشتمل عليه، ووجوب إفراد الله سبحانه بها « والإله الذي يألهه القلب بكمال الحب ، والتعظيم ، والإجلال

---

(١) الصافات آية (٣٥) .

(٢) ص آية (٥) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٣/١٠١، اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٥٥ ، تيسير العزيز الحميد ٧٣ - ٧٨ .

(٤) تفسير السمعاني ١٥ ، تحقيق عبد القادر منصور .

والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك وهذه هي : العبادة التي يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفين من عباده ، وبها بعث رسله »[1] .

وقال رحمه الله « والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضاء بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك ، هي من العبادات لله وحده »[2] .

وهكذا نرى شمولية العبادة لكل أمر يحبه الله سبحانه وأمر به ، من الأقوال والأعمال ، والاعتقادات . وعبادته سبحانه إنما هي طاعته بامتثال أمره فيما أمر به ونهى عنه .

ثالثاً : العلاقة بين الألهية والعبودية :

نلاحظ من خلال ما تقدم مدى الترابط بين لفظتي (الاله ، والعبادة) فالإله هو: المعبود . ولا معبود حقاً إلا الله عز وجل والعبادة هي : الطاعة مع كمال الحب وغاية الخضوع والذل والإنقياد للإله الحق سبحانه ، ولذلك يسمى توحيد الألهية بتوحيد العبودية فالترابط بين الكلمتين وثيق جداً .

وقد قرر الإمام السمعاني رحمه الله تبعاً للسلف السابقين ، أن كل عبادة وردت في القرآن الكريم ، على سبيل الأمر بها أو الثناء على أصحابها فالمراد بها التوحيد . أي : توحيد الله بالعبادة . قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي

---

(١) العبودية ٨ - ٩ .

(٢) العبودية ٥ .

خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [1] « قوله تعالى ﴿ اعبدوا ﴾ وحدوا . قال ابن عباس « كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد » [2] .

وعند قوله عز وجل ﴿ وإبرهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾ [3] قال رحمه الله « أي : أطيعوا الله واحذروا معصيته وقد قيل : إن قوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي : وحدوا الله وكل عبادة في القرآن الكريم بمعنى التوحيد » [4] .

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ يعبادي الذين ءامنوا إن أرضي وسعة فإيي فاعبدون ﴾ [5] « أي : وحدوني واطيعوني » [6] فكون العبادة تسمى توحيداً أكبر دليل على قوة الترابط بين كل من الألهية والعبودية .

ومما يدل أيضاً على شدة هذا الترابط وقوته أنه إذا أضيف إلى كل من لفظتي (الالهية) (والعبودية) لفظة (توحيد) يحصل بينهما ترادف في المعنى بحيث يدل كل واحد منهما على ما يدل عليه الآخر فإذا قيل : توحيد الألهية فمعناه : إفراد الله بالعبادة ، وإذا قيل : توحيد العبادة فمعناه : إفراد العبادة لله عز وجل .

وما قرره رحمه الله من أن كل عبادة في القرآن الكريم تسمى توحيداً ، ليس على إطلاقه ، فإن العبادة التي تسمى توحيداً هي : العبادة التي أمر الله سبحانه بها ، وأثنى على أصحابها ، وهي : عبادته وحده دون من سواه .

أما ما ورد في القرآن الكريم من لفظة (العبادة) عند الحديث على عبادة الكفار

---

(١) البقرة آية (٢١) .

(٢) تفسير السمعاني ٥٤ ، تحقيق عبد القادر منصور .

(٣) العنكبوت آية (١٦) .

(٤) تفسير السمعاني ٢٤٤ ، تحقيق حافظ أبو البركات .

(٥) العنكبوت آية (٥٦) .

(٦) تفسير السمعاني ٢٦٥ ، تحقيق حافظ أبو البركات .

لأصنامهم ، مثل : قوله تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطناً وما ليس لهم به علم وما للظلمين من نصير ﴾ [1] فهذه لا تسمى توحيداً ، بل هي الشرك بعينه المناقض لتوحيد الله عز وجل وهي : إنما سميت عبادة باعتبار المعنى اللغوي ، لا باعتبار المعنى الشرعي الذي تكون فيه العبادة بمعنى التوحيد ، والعلم عند الله تعالى .

ونلاحظ من خلال ما تقدم وضوح عقيدة السلف في فهم معنى توحيد الألهية وسدادها ، وفهم أبي المظفر رحمه الله لها ، كما يتضح مدى انحراف أهل البدع وبعدهم بسبب ذلك عن الحق الواجب المترتب على فهم حقيقة توحيد الالهية ، فقد رأينا كيف أن أهل الكلام فسروا (الإله) بالقادر على الإختراع ، وهو معنى باطل لا يؤدي إلى المعنى الذي يؤدي إليه كون (الإله) بمعنى المعبود .

كما أن عدم فهم كثير من المسلمين للمعنى الصحيح للعبادة ، أدى بهم إلى الإنحراف عن التوحيد إلى الشرك ، وذلك ببذل الطاعة الواجبة لله تعالى لغيره ، ظناً منهم أن العبادة ليست إلا : الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وما عدى ذلك لا يسمى عبادة .

وبسبب هذا الفهم السقيم للعبادة توجه كثير من المسلمين بالدعاء إلى غير الله كما بذلوا نذورهم لغير الله سبحانه ، وأطاعوا العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله عز وجل ، ووقعوا في أنواع من الشرك المنافي لتوحيد الله عز وجل .

---

(١) الحج آية (٧١) .

المبحث الثاني : أهمية توحيد الألهية

لقد أوضح الإمام السمعاني رحمه الله كما مر معنا فيما سبق ، أن توحيد الألهية هو : أول واجب على المكلف كما بين أيضاً : أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألهية . وفي ذلك دلالة ظاهرة على أهمية توحيد الألهية وعظم مكانته .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى دلائل أخرى ، تدل على أهمية توحيد الألهية أشرت إليها فيما سبق عرضاً ، ونذكرها هنا إظهاراً لجهد أبي المظفر رحمه الله في توضيح وبيان عقيدة السلف رضي الله عنهم .

الدلالة الأولى : أن الله خلق الخلق من أجل توحيده

من الدلائل الظاهرة على أهمية توحيد الألهية هي : أن الله سبحانه خلق الخلق كلهم من أجل هذا النوع من أنواع التوحيد . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذه الدلالة عند قوله عز وجل ﴿ أفحسبتم أنما خلقنكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [1] .

قال رحمه الله « الآية تدل على أن الآدمي لم يخلق لطلب الدنيا والإشتغال بها وإنما خلق ليعبد الله ويقوم بأمره » [2] .

وعبادة الله التي خلق الآدمي من أجلها هي توحيده سبحانه المتضمن إفراده بالعبادة.

وقد دلت على هذا المعنى آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل قال تعالى﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[3] .

وقال جل وعلا ﴿ تبرك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت

---

(١) المؤمنون آية (١١٥) .

(٢) تفسير السمعاني ٣٢١ ، تحقيق قارئ محمد إقبال فضل حسين .

(٣) ص آية (٢٧) .

والحيوة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [1] وقال سبحانه ﴿ أيحسب الإنسن أن يترك سدى ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [3] .

فهذه الآيات كلها تدل على أن الإنسان خلق من أجل عبادة الله عز وجل التي هي توحيده وإخلاص الدين له . قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الأخيرة «والتحقيق إن شاء الله تعالى في معنى الآية الكريمة ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أي : لآمرهم بعبادتي وأبتليهم ، أي : أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وإنما قلنا هذا هو التحقيق في معنى الآية ، لأنه تدل عليه ءايات محكمات من كتاب الله فقد صرح تعالى في ءايات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً ، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم » [4] .

الدلالة الثانية : أنه من أجل التوحيد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب .

ومما يدل على أهمية توحيد الألهية أن الله سبحانه ما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا من أجله . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذه الدلالة عند قوله عز وجل ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ [5] قال رحمه الله « وهذا هو الذي بعث الله لأجله الرسل ، فإن الله تعالى ما بعث رسولاً إلا ليعبدوه ويتقوه ويطيعوا رسله » [6] .

وكون المولى عز وجل يرسل الرسل وينزل الكتب من أجل توحيد الألهية ، دليل على عظيم مكانته ، وأنه هو الحد الفاصل بين عباد الرحمن وأحبائه ، وبين أعدائه أتباع الشياطين ويكفي للدلالة على مكانة توحيد الألهية أنه لم تقع بين الأنبياء ، وأممهم الخصومة

---

(١) الملك آية (١-٢) .

(٢) القيامة آية (٣٦) .

(٣) الذاريات آية (٥٦) .

(٤) أضواء البيان ٦٧٣/٧ .

(٥) نوح آية (٣) .

(٦) تفسير السمعاني ٦٠٦ تحقيق عبد البصير مختار حسن .

والجدال بل وسفك الدماء إلا على تحقيقه لله عز وجل والإبتعاد عما يضاده .

الدلالة الثالثة : أنه حق الله على العباد .

ومن الدلائل الواضحة على أهمية توحيد الألهية ، أنه حق الله على العباد . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذه الدلالة عند قوله عز وجل ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾[1].

قال رحمه الله « وروى عن معاذ أنه قال « كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لي : يا معاذ ! فقلت : لبيك وسعديك ، فقال : أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم قال : يا معاذ ! قلت: لبيك وسعديك . قال أتدري ما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن يدخلهم الجنة ولا يعذبهم[2] »[3] .

وكون العبادة هي حق الله على العباد دليل على أهمية توحيد الألهية . وتتضمن هذه الدلالة دلالة أخرى ، وهي : أن دخول الجنة والنجاة من النار متوقف على تحقيق توحيد الألهية .

وكل هذه الدلائل فيها إشارة واضحة إلى أن توحيد الألهية هو : أهم أنواع التوحيد وأساسها ، وبه تتم سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، وبتركه تحل به الخسارة وأنواع المصائب كما أخبر الله عز وجل عن ذلك في آيات كثيرة .

---

(١) النساء آية (٣٦) .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الجهاد ، باب اسم الفرس والحمار ٥٨/٦ ، وكتاب اللباس ، باب إرداف الرجل خلف الرجل ٣٩٧/١٠ ، وكتاب الإستئذان ، باب من أجاب بلبيك وسعديك ٦٠/١١ ، وكتاب الرقاق ، باب من جاهد نفسه في طاعة الله ٣٣٧/١١ ، وكتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء الرسول ﷺ أمته إلى التوحيد ٣٤٧/١٣ . صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ح ٣٠ .

(٣) تفسير السمعاني ٣٥٥ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس

منها قوله عز وجل ﴿ ولو أن أهل الكتب ءامنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنت النعيم ولو أنهم أقاموا التورية والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ (١) .

وقوله سبحانه ﴿ ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركت من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذنهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقينهم ماء غدقاً ﴾ (٣) .

وقوله جل وعلا ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسكله عذاباً صعداً ﴾ (٤) وقوله تعالى ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ (٥) .

هذا بالإضافة إلى أن العقل السليم لو فكر في هذا مجرداً عن الأدلة لرآى أن تحقيق توحيد الألهية هو الذي قام على أساسه هذا الكون الذي اقتضت حكمته عز وجل إيجاده لإظهار ألوهيته وقهره وعظيم سلطانه .

---

(١) المائدة آية (٦٥-٦٦) .

(٢) الاعراف آية (٩٦) .

(٣) الجن آية (١٦).

(٤) الجن آية (١٧) .

(٥) الحج آية (٣١) .

المبحث الثالث : الأدلة على وجوب إفراد الله بالعبادة

الإله الحق الذي يستحق أن يعبد ويذكر ويشكر هو : الإله الذي يخلق ويرزق ، ويحي ويميت ، ويعطي ويمنع ، وينفع ، ويضر ، وليس ذلك إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

تلك حقيقة قررها الله عز وجل في كتابه العظيم في أكثر من موضع قال تعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [(١)] .

وقال عز وجل ﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [(٢)] .

وقال جل وعلا ﴿ واتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا يملكون موتاً ولا حيوة ولا نشوراً ﴾ [(٣)] .

والعقل السليم والفطرة المستقيمة يدلان أيضاً : على أن الذي ينبغي أن يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر هو الذي بيده العطاء والمنع ، والحياة والموت والنفع والضر وهو الله عز وجل ، وأما غيره ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فمن الظلم أن يصرف إليه حق غيره . ولهذا كان الشرك من أعظم أنواع الظلم قال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم﴾[(٤)] وقال عز وجل ﴿ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمنهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [(٥)] .

---

(١) النحل آية (١٧) .

(٢) الحج آية (٧٣) .

(٣) الفرقان آية (٣) .

(٤) لقمان آية (١٣) .

(٥) الأنعام آية (٨٢) .

واستناداً إلى آيات الكتاب العزيز فقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على أن المستحق للعبادة دون من سواه هو الله عز وجل مستدلاً على ذلك بأمور .

الأمر الأول : دلالة الخلق والإيجاد . أي : أن المستحق للعبادة وحده هو الخالق سبحانه المتفرد بالتقدير والتدبير قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ أم اتخذوا ءالهة من الأرض هم ينشرون ﴾ [1] « وفي قوله (من الأرض) أي : من الخشب والحجارة ، وقد كانت عامة أصنام المشركين من الخشب والحجارة وهي من الأرض وقوله ﴿ هم ينشرون ﴾ أي يحيون ، ولا يستحق الألهية إلا من يقدر على الأحياء والإيجاد من العدم لأنه الإنعام بأبلغ وجوه النعم وهذا لا يليق بوصف البشر وكل محدث » [2] .

الأمر الثاني : دلالة السموات والأرض . ووجه دلالتهما على وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة . أنهما : من أعظم ما يشاهده الإنسان ، وهما : مع عظم حجمهما وضخامة جرمهما مخلوقتان مربوبتان لله رب العالمين ، يملكهما ويتصرف فيهما كيف يشاء ، وفيهما أعظم دلالة على قدرته سبحانه وعظمته وهو ما يوجب محبته وحده والإنابة إليه والخوف منه ورجاءه والتوكل عليه وتلك هي العبادة . قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ولله ملك السموت والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ [3] « فيه إشارة إلى أن المستحق للألوهية من له ملك السموات ومن له هذه القدرة فاعبدوا » [4] .

وعند قوله عز وجل ﴿ وهو الذي خلق السموت والأرض بالحق ﴾ [5] .

قال رحمه الله « أي : لإظهار الحق . لأنه جعل صنعه دليل وحدانيته » [6] .

---

(١) الأنبياء آية (٢١) .

(٢) تفسير السمعاني ١٧ ، تحقيق محمد إقبال فضل حسين .

(٣) المائدة آية (١٧) .

(٤) تفسير السمعاني ٦١١ تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٥) الأنعام آية (٧٣) .

(٦) تفسير السمعاني ٨٨ تحقيق طلال عرقسوس .

وقال رحمه الله عند قوله جل وعلا ﴿ قال بل ربكم رب السموت والأرض الذي فطرهن ﴾ « أي خلقهن ﴿ وأنا على ذلكم من الشهدين ﴾ [1] ، أي : على أنه الإله الذي لا يستحق العبادة غيره ، وأن الأصنام ليست بآلهة » [2] .

الأمر الثالث : أن الذي يستحق أن يعبد هو الذي يملك الضر والنفع والعطاء والمنع وليس ذلك لأحد إلا الله عز وجل ، أما من لا يملك الضر والنفع والعطاء والمنع كالأصنام وغيرهم فلا يستحق أن يعبد بحال .

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموت والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ [3] « المراد من الآية ذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضر » [4] .

وإذا انتفى استحقاق من لا يملك جلب نفع أو دفع ضر وجبت للعبادة لله وحده الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير .

تلك هي : بعض الأدلة التي نبه الإمام السمعاني رحمه الله على أنها تدل على وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة . والأدلة على وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة كثيرة . ولو لم يكن هناك دليل إلا ضعف الإنسان ، وفقره ، وحاجته إلى من يملك نفعه وضره وغناه وفقره وحفظه وسلامته ، وحياته وموته ، لكان ذلك كافياً في وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة لأن الذي يملك ذلك حقيقة هو الله عز وجل وحده دون من سواه [1] .

---

(١) الأنبياء آية (٥٦) .

(٢) تفسير السمعاني ٤٤ تحقيق محمد إقبال فضل حسين .

(٣) النحل آية ٧٣ .

(٤) تفسير السمعاني ٢٠٩ تحقيق فاروق حسين محمد الأمين .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ١/ ٢١ – ٣٣ ، طريق الهجرتين ٢٤ – ٢٥ .

المبحث الرابع : ذكر جملة من أنواع توحيد العبادة

سبق وأن عرفنا أن العبادة هي الطاعة . والطاعة متعددة ومتنوعة . فهناك طاعة القلب ، وهناك طاعة القلب مع الجوارح ، وكل من طاعة القلب والجوارح أنواع . ويجمعها كلها توحيد العبادة .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى جملة من أنواع توحيد العبادة نوردها من خلال المطالب التالية .

المطلب الأول : التوكل

وهو في اللغة « من توكل بالأمر إذا ضمن القيام به ووكل أمره إلى فلان إذا اعتمد عليه ، ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزا عن القيام بنفسه »[1] .

التوكل شرعاً :

وأما في الشرع فقد عرفه الإمام السمعاني رحمه الله بقوله « والتوكل هو الاعتماد على الله والثقة به »[2] .

وهذا التعريف يحتاج إلى إضافة شرط هو : « مع الأخذ بالأسباب » فإن التوكل على الله عز وجل والثقة به ، مع عدم الأخذ بالأسباب ، نقص في العقل ، وعدم فهم لحقيقة التوكل .

والتوكل أصل من أصول التوحيد التي لا يتم توحيد العبد إلا بها . وقد جاء الأمر به في كثير من آيات الكتاب العزيز . قال تعالى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[3] ، وقال سبحانه ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾[4] وقال جل وعلا ﴿ فتوكل على الله إنك

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث ٥/٢٢١ .

(٢) تفسير السمعاني ٥١٨ تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٣) هود آية ١٢٣ .

(٤) الفرقان آية ٥٨ .

على الحق المبين﴾[1] .

والأمر في الآيات السابقة للوجوب . فهي تدل على وجوب التوكل على الله وحده دون ما سواه .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله إلى أن التوكل يجب أن يكون على الله وحده كما أمر سبحانه عباده بذلك ، وحثهم عليه . قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ولله ما في السموت وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ [2] « أي : اتخذوه وكيلاً ولا تتكلوا على غيره »[3] .

ومما يدل على وجوب التوكل على الله وحده أن الله سبحانه جعله شرطاً في حصول الإيمان قال تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [4] وهو ما يدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه [5] ومثلها قوله تعالى ﴿ وقال موسى يقوم إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [6] ففي الآيتين دلالة ظاهرة على أن قوة التوكل دليل على قوة الإيمان ، وضعف التوكل دليل على ضعف الإيمان ، وهو ما يقتضي أن يكون التوكل أصلا لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام وأن منزلته منها كمنزلة الرأس من الجسد فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته إلا على ساق التوكل [7] .

والتوكل على الله عز وجل لا ينافي الأخذ بالأسباب ، بل إن الله تعالى كما أمر بالتوكل والإعتماد عليه وحده أمر بالأخذ بالأسباب كذلك . قال تعالى ﴿ وهزي إليك بجذع

---

(١) النمل آية ٧٩ .

(٢) النساء آية (١٣٢) .

(٣) تفسير السمعاني ٥١٨ تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٤) المائدة آية (٢٣) .

(٥) انظر طريق الهجرتين ٤٢٣ ، مدراج السالكين ١٢٩/٢ ، فتح المجيد ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٦) يونس آية (٨٤) .

(٧) انظر : فتح المجيد ٥٠٣ .

النخلة تسقط عليك رطباً جنياً ﴾ [1] وقال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام ﴿ وقال يبني لا تدخلوا من باب وحد وادخلوا من أبوب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ [2] وفي سنن الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رجل « يا رسول الله : أعقلها ؛ وأتوكل أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : أعقلها وتوكل » [3] .

كما أن الأخذ بالأسباب لا يعني أن للأسباب تأثيراً مستقلاً فيما يقوم به المرء من أعمال بل إن خالق الأسباب ومسبباتها هو الله عز وجل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع ، فعلى العبد أن يكون معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة ، فإن كانت الأسباب مقدورة له فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض ، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جُنَّة الحرب ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط » [4] .

وإذا كان التوكل على الله نوع من أنواع العبادة فإن التوكل على غيره سبحانه شرك بالله عز وجل وانحراف عن التوحيد وهو نوعان :

---

(١) مريم آية (٢٥) .

(٢) يوسف آية (٦٧) .

(٣) سنن الترمذي : أبواب صفة القيامة ، باب اعقلها وتوكل ح ٢٥١٩ ، وحسنه الشيخ الألباني حفظه الله . انظر : صحيح الجامع رقم الأثر ١٠٦٨ .

(٤) مجموع الفتاوى ٥٢٨/٨ - ٥٢٩ ، وانظر : مدراج السالكين ١٢٠/٢ و ٤٠٧/٣ . ٤٩٦-٥٠١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ٣٥١/٢ ومدراج الصعود ص ٢١٤ .

أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالتوكل على الأموات والطواغيت ، في رجاء المطالب من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة فهذا شرك أكبر .

والثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك . فهذا نوع من الشرك الأصغر وهو شرك خفي لا يتفطن إليه إلا من ألهمه الله السداد والرشاد .

لأن الوكالة الجائزة هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه ، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب [1] .

وكل ما تقدم يؤكد ما قرره الامام السمعاني رحمه الله من وجوب التوكل على الله وحده دون ما سواه .

المطلب الثاني : الشكر

وهو الثناء على المحسن بما أولى من المعروف . يقال شكرته وشكرت له وتعديته باللام أفصح . قال الله تعالى ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [2] وقال جل ذكره ﴿ أن اشكر لي ولولديك إليّ المصير [3] ﴾ [4] .

وشكر الله هو الثناء عليه سبحانه على ما أسدى من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة بالقلب ، إقراراً بالنعم واعترافاً ، وباللسان ذكراً وثناء ، وبالجوارح طاعة لله

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٩٧ - ٤٩٨ ، وانظر فتح المجيد ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٢) البقرة آية (١٥٢) .

(٣) لقمان آية (١٤) .

(٤) بصائر ذوي التمييز ٣/٣٣٤ .

وانقيادا لأمره واجتناباً لنهيه [1] .

والله سبحانه أعظم منعم على الإطلاق بل إن إحسان المحسنين من إحسانه سبحانه .

وقد نبه الامام السمعاني رحمه الله على وجوب شكر الله عز وجل .

قال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ الله الذي سخر البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [2] .

« قال ابن عيينة الشكر واجب على كل مسلم لأن الله قال ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ فرزق العباد ليشكروه » [3] .

وقول ابن عيينه رحمه الله بوجوب شكر الله عز وجل دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل فإن الله سبحانه أمر بشكره في كتابه ، والأمر يقتضي الوجوب قال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [4] وقال سبحانه ﴿ يأيها الذين ءامنوا كلوا من طيبت ما رزقنكم واشكروا لله ﴾ [5] .

وقال جل وعلا ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ [6] وقال تعالى ﴿بل الله فاعبد وكن من الشكرين ﴾ [7] .

وقد أثنى الله سبحانه على الشاكرين ، ووعدهم الجزاء الحسن والمزيد . كما ذم عدم شكره ، وجعله من الكفر الذي لا يحبه ولا يرضاه .

قال تعالى ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي

---

(١) انظر : مدراج السالكين ٢/٢٤٦ ، تيسير الكريم الرحمن ١/٨٤ .

(٢) الجاثية آية ١٢ .

(٣) تفسير السمعاني ٢٥٥ ، تحقيق محمد الأمين بن الحسين الشنقيطي .

(٤) البقرة آية (١٥٢) .

(٥) البقرة آية (١٧٢) .

(٦) العنكبوت آية (١٧) .

(٧) الزمر آية (٦٦) .

لشديد﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشكرين﴾[2] وقال سبحانه ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾[3] .

وقال سبحانه ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ [4] .

فكل هذه الآيات تدل على وجوب الشكر . وأن الله سبحانه يحب من عباده أن يشكروه . كما أنه لا يرضى لهم عدم شكره والشكر ليس واجباً فحسب ، بل هو إحدى القاعدتين اللتين مبنى الدين عليهما وهما الذكر والشكر .

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله « ومبني الدين على قاعدتين : الذكر والشكر . قال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [5] وقال النبي ﷺ لمعاذ « والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك »[6] وبين رحمه الله الذكر المطلوب والنافع ثم قال « وأما الشكر فهو : القيام بطاعته ، والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً وهذان الامران هما : جماع الدين . فذكره مستلزم لمعرفته ، وشكره متضمن لطاعته وهذان هما : الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض ، ووضع لأجلها الثواب والعقاب ، وأنزل الكتب وأرسل الرسل وهي الحق

---

(١) ابراهيم آية (٧) .

(٢) آل عمران آية (١٤٤) .

(٣) النمل آية (٤٠) .

(٤) الزمر آية (٧) .

(٥) البقرة آية ١٥٢ .

(٦) اخرجه ابو داود : كتاب الصلاة ، باب الاستغفار ح ١٥٢٢ ، والامام احمد ٥/٢٤٥ و ٢٤٧ ، والحاكم ١/٢٧٣ ، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما »[1] .

أركان الشكر :

وللشكر أركان لا يتحقق إلا بها . وقد أشار إليها أبو المظفر رحمه الله مجملة .

قال رحمه الله « والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها »[2] .

ومع اشتمال كلام السمعاني رحمه الله على أركان الشكر إلا أنه يحتاج إلى توضيح .

وقد فصل القول في أركان الشكر الإمام ابن القيم رحمه الله وهو ما يوضح كلام السمعاني السابق .

قال ابن القيم رحمه الله « والشكر مبني على خمسة قواعد : خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره»[3] وخضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، وثناؤه بها عليه ، وأن لا يستعملها فيما يكره كلها تندرج تحت قول السمعاني رحمه الله مع القيام بحقها .

المطلب الثالث : الخوف والرجاء

من أنواع العبادات التي أمر الله سبحانه بها وأثنى على فاعليها الخوف منه سبحانه ورجاؤه .

قال تعالى ﴿ إنما ذلكم الشيطن يخوف أوليا٫ه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[4] وقال عز وجل ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي

---

(١) الفوائد ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) تفسير السمعاني ٧٧ تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) مدراج السالكين ٢/٢٤٤ .

(٤) آل عمران آية (١٧٥) .

المأوى ﴾ [1] وقال عز وجل ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾ [3] وقال عز وجل ﴿ إن الذين ءامنوا والذين هاجروا وجهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم ﴾ [4] والآيات في ذلك كثيرة وكلها تدل دلالة ظاهرة على وجوب الخوف من الله سبحانه ورجائه .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على وجوب الخوف والرجاء من الله وحده فقال عند قوله عز وجل ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ [5] .

« الرجاء تعليق النفس ممن يطلب منه الخير . وعن علي رضي الله عنه قال : لا ترجون إلا ربك ولا تخافن إلا من ربك » [6] .

والسبب في كون المرء لا يرجو إلا ربه ، ولا يخاف إلا من ربه أن الذي يملك العطاء والمنع ، والنفع والضر ، حقيقة هو الله عز وجل . لذلك يجب على المرء أن لا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه . ومما يدل على تأكد وجوب الخوف والرجاء أنهما من مقتضيات الإيمان ولوازمه التي لا يتم إلا بها .

كما أن انتفاءهما عن العبد يوقعه في ضدهما وهما الأمن والقنوط من رحمة الله عز وجل وكل منهما ممقوت عند الله ومتوعد عليه .

قال تعالى ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخسرون ﴾ [7] وقال

---

(١) النازعات آية (٤٠-٤١) .

(٢) الرحمن آية (٤٦) .

(٣) الاحزاب آية (٢١) .

(٤) البقرة آية (٢١٨) .

(٥) الإسراء آية (٢٨) .

(٦) تفسير السمعاني ٢٩٥ تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

(٧) الأعراف آية (٩٩) .

سبحانه ﴿ ولا تايئسوا من روح الله إنه لا يايئس من روح الله إلا القوم الكفرون ﴾ [1] وقال جل وعلا ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ [2] .

والمؤمن في سيره إلى ربه عز وجل لا بد له من خوف يحدوه إلى سعة رحمة الله وعفوه كما أن لا بد له من رجاء يناديه ويستحثه السير إلى فضل الله ورضوانه .

فالخوف والرجاء مقامان من مقامات ثلاثة لابد منهما لمن يرجو الله والدار الآخرة وهي : المحبة ، والخوف ، والرجاء .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله « والخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي : الخوف ، والرجاء ، والمحبة . وقد ذكره سبحانه في قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ [3] فجمع بين المقامات الثلاثة فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه ثم يقول ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ فذكر الحب والخوف والرجاء ، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه فهم عبيده ، كما أنكم عبيده فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له » [4] .

وقال رحمه الله « والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه قال تعالى ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ [5] وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم ﴿ إنهم كانوا يسرعون في الخيرت

---

(١) يوسف آية (٨٧) .

(٢) الحجر آية (٥٩) .

(٣) الإسراء آية (٥٦-٥٧) .

(٤) طريق الهجرتين ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٥) المائدة آية ٤٤ .

ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ [1] فالرغب الرجاء والرغبة ، والرهب الخوف والخشية ، وقال عن ملائكته الذين آمنهم من عذابه ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [2] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » [3] وفي لفظ آخر « إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى » [4] وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء» [5] وقال الله تعالى ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلمؤا ﴾ [6] فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف ... ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به » [7] .

فقوة الخوف والرجاء دليل على قوة الإيمان وضعفها دليل على ضعفه .

وكل ما تقدم يؤكد ما قرره الإمام السمعاني رحمه الله من وجوب الخوف من الله سبحانه ورجائه وحده وما ذلك إلا لأن الخوف والرجاء نوع من أنواع العبادة وأصل من أصول التوحيد التي ينبغي ألا تصرف لغيره سبحانه .

---

(١) الأنبياء آية (٩٠) .

(٢) النحل آية (٥٠) .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب ٥١٣/١٠ . صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله وشدة خشيته ح ٢٣٥٦ .

(٤) صحيح البخاري ، بشرح فتح البارى : كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح ١٠٤/١١ .

(٥) أخرجه أبو داود : كتاب الصلاة باب البكاء في الصلاة ح ٩٠٤، والنسائي : كتاب السهو ، باب البكاء في الصلاة ح ١٢١٤ ، والإمام أحمد ٢٥/٤ ، والحاكم ٢٦٤/١ ، وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه والبغوي في شرح السنة ٣٤٥/٣ وقال محققه إسناده قوي وصححه ابن خزيمة ، وابن حبان والحاكم، والأزيز : صوت ينبعث من الصدر عند البكاء وهو مأخوذ من أزيز المرجل وهو الغليان ، والمرجل : الإناء الذي يغلي فيه الماء . انظر : النهاية في غريب الحديث ٤٥/١ ، ٣١٥/٤ .

(٦) فاطر آية (٢٨) .

(٧) طريق الهجرتين ٤٦٦ ، وانظر : مدراج السالكين ٥١١/١ - ٥١٣ .

المطلب الرابع : الدعاء

الدعاء لغة : كالنداء . ومعناه الطلب [1].

ومعنى الدعاء : استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده إياه المعونة .

وحقيقته : إظهار الإفتقار إليه ، والتبرؤ من الحول والقوة ، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل ، وإضافة الجود والكرم إليه ولذلك كان الدعاء من أعظم أنواع العبادة بل هو العبادة . كما دل على ذلك الكتاب والسنة وذلك لما فيه من إظهار الافتقار إلى الله والتذلل إليه ، والخضوع والإطراح بين يديه ، وتلك هي الغاية من أنواع العبادة [2] .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا النوع من أنواع العبادة مبيناً رحمه الله أهميته ومنزلته من الدين ، ومشيراً إلى بعض المسائل المتعلقة به ، والتي سنقف عليها من خلال المسائل التالية :

المسألة الأولى : الدعاء هو العبادة

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾[3] « قد ثبت برواية نعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال «الدعاء هو العبادة وقرأ هذه الآية » [4]

---

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن ١٦٩ ، فتح الباري ٩٤/١١ .

(٢) انظر : شأن الدعاء لأبي سليمان الخطابي ص ٣ - ٤ ، الدعاء المأثور وآدابه لأبي بكر الطرطوشي ص ٣١-٣٢.

(٣) غافر آية ٦٠ .

(٤) أخرجه الترمذي : كتاب التفسير ح ٢٩٧٣ ، وقال حديث حسن صحيح ، وأبو داود كتاب الصلاة ، باب الدعاء ح ١٤٧٩ ، والإمام أحمد ٢٧١/٤ ، وابن حبان ، انظر الإحسان بترتيب ابن حبان ١٢٤/٢، والحاكم ٤٩٠/١ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الالباني ، انظر : المشكاة ٦٩٣/٢ ، هامش (٢) .

وعن ثابت [1] قلت لأنس : الدعاء نصف العبادة . قال : هو كل العبادة [2] وقوله ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي عن دعائي ويقال عن توحيدي » [3] .

تقدم أن العبادة هي الطاعة مع كمال الحب وغاية الذل . وأعظم طاعة يتجلى فيها كمال الحب وغاية الخضوع والذل والافتقار هي الدعاء . ولذلك كان الدعاء هو العبادة كما دلت عليه الآية الكريمة . وكما فسرها بذلك رسول الله ﷺ وكفى بتفسيره بياناً .

وقد جاء في أكثر من آية في القرآن الكريم الأمر بدعاء الله سبحانه وحده والتوجه إليه دون من سواه قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [4] وقال عز وجل ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [5] وقال تعالى ﴿ وأن المسجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [6] .

والدعاء إنما يكون ممن يملك الضر والنفع وليس ذلك إلا الله عز وجل قال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ [7] .

ودعاء غير الله عز وجل هو من الشرك الذي لا يغفره الله عز وجل قال تعالى ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا

---

(١) هو : ثابت بن أسلم أبو محمد البناني ، مولاهم البصري ، وبنانة هم بنو سعد بن لؤي ، ولد في خلافة معاوية رضي الله عنه ، وحدث عن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مغفل ، وأنس بن مالك ، وغيرهم ، وعنه عطاء بن أبي رباح ، وحميد الطويل ، وسليمان التيمي ، توفي سنة ١٢٧ . انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٢٠ .

(٢) انظر : جامع البيان عن تأويل القران ٧٩/٢٤ .

(٣) تفسير السمعاني ٤٧٢ ، تحقيق ثناء الله غلام سرور بوتو .

(٤) الاعراف آية (١٨٠) .

(٥) البقرة آية (١٨٦) .

(٦) الجن آية (١٨) .

(٧) الأسراء آية (٥٦) .

ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [1] والدعاء هو لب العبادة ومخها والتي لا يجوز أن تصرف إلا لله عز وجل .

وهو ملجأ الناس جميعاً المؤمن يلجأ إلى الله تعالى في وقت الرخاء والشدة والمشرك يلجأ إلى الله رغماً عنه عند الشدائد كما أخبر الله سبحانه عن المشركين ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ [2] .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في كلامه عند قوله ﷺ « إن الدعاء هو العبادة » « هذه الصفة المقتضية للحصر من جهة تعريف المسند إليه ، ومن جهة تعريف المسند ، ومن جهة ضمير الفصل ، تقتضي أن الدعاء هو أعلى أنواع العبادة ، وأرفعها ، وأشرفها . والآية الكريمة دلت على أن الدعاء من العبادة . فإن الله سبحانه أمر عباده أن يدعوه ، ثم قال : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة ، وأن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار ولا أقبح من هذا الإستكبار ، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالقه ورازقه ، وموجده من العدم وخالق العالم كله ، ورازقه ، ومحييه ، ومميته ، ومثيبه ، ومعاقبه ، فلاشك أن هذا الاستكبار ضرب من الجنون وشعبة من كفران النعم [3] .

المسألة الثانية : أنواع الدعاء .

الدعاء ينقسم إلى نوعين :

– دعاء مسألة : وهو سؤال الله بأسمائه الحسنى

– دعاء عبادة وهو التعبد لله بمقتضى هذه الأسماء

والنوعان متلازمان [4]

---

(١) فاطر آية (١٣-١٤) .

(٢) الإسراء آية (٦٧) .

(٣) تحفة الذاكرين ص ١٩-٢٠ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ١٥/ ١٠-١١ واقتضاء الصراط المستقيم ٧٨٧/٢و٧٩١ ، وبدائع الفوائد ١٦٤/١ ، و٣٠٢/٣ ، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وجهوده في تقرير عقيدة السلف ١٧٦ .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى نوعي الدعاء عند قوله عز وجل ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾[1] قال رحمه الله « إذا فرغت من الصلاة فانصب للدعاء وارغب إلى الله في المسألة وقوله عز وجل ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ هو الحث على الدعاء والمسألة »[2].

فعطفه رحمه الله المسألة على الدعاء إشارة منه والله أعلم إلى نوعي الدعاء ، إذ أن العطف يقتضي المغايرة .

وقد قرر غير واحد من أهل العلم أن الدعاء نوعان وأن النوعين متلازمان .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « إن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء مسألة ، ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾[3] يتناول نوعي الدعاء وبكل منها فسرت الآية ، قيل : أعطيه إذا سألني، وقيل : أثيبه إذا عبدني والقولان متلازمان وليس من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً »[4].

المسألة الثالثة : إخفاء الدعاء

للدعاء آداب ينبغي على الداعي أن يراعيها حتى يكون دعاؤه أحرى بالقبول وأقرب إلى الإجابة ، وذلك . مثل : إظهار الخضوع والخشوع والتذلل بين يدي الله عز وجل ومثل : إخفائه عن الناس وعدم رفع الصوت به إلا لحاجة . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى أدب من آداب الدعاء وهو إخفاؤه عن الناس .

---

(١) الشرح آية (٧ - ٨) .

(٢) تفسير السمعاني ٩٠٩-٩١٢ ، تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٣) البقرة آية (١٨٦) .

(٤) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٠-١١ ، وانظر : زاد المعاد ١/ ٣٣٥ ، أضواء البيان ١/ ١٨٣ ، ٧/ ٩٦ .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ [1] « أي : ضارعين متذللين خاشعين ﴿ وخفية ﴾ أي سراً . »

وروي أنه ﷺ رأى قوماً يصيحون بالدعاء فقال لهم : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً وإنما تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم » [2] أي : بالعلم والقدرة » [3] وما أشار إليه رحمه الله من دلالة الآية والحديث على فضل اخفاء الدعاء دل عليه أيضاً ثناء الله سبحانه وتعالى على من يخفي الدعاء، قال تعالى ﴿ ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [4] وقال عز وجل ﴿ قل من ينجيكم من ظلمت البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ [5] .

والأمر بالدعاء والثناء على من يخفيه إنما هو لما فيه من الإخلاص والبعد عن الرياء قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله « وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء » [6] .

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله إلى جملة من فوائد إخفاء الدعاء والتي منها :

أولاً : أنه أعظم إيماناً . لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي .

ثانياً : أنه أعظم في الأدب والتعظيم لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم ، ومن

---

(١) الاعراف آية (٥٥) .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الجهاد باب ما يكره من رفع الصوت ، ١٣٥/٦ ، وانظر البخاري بشرح فتح الباري ٤٧٠/٧ ، ١٨٧/١١و٢١٣و٥٠٠ ، و٣٧٢/١٣ . وأخرجه مسلم : كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ح ٢٧٠٤ .

(٣) تفسير السمعاني ٢٧٥ - ٢٧٦ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٤) مريم آية (٢-٣) .

(٥) الأنعام آية (٦٣) .

(٦) أضواء البيان ٢٠٤/٤ .

رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي ، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت .

ثالثاً : أنه أبلغ في التضرع ، والخشوع الذي هو روح الدعاء وسببه ومقصوده .

رابعاً : أنه أبلغ في الإخلاص .

خامساً : أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء . فإن رفع الصوت يفرقه فكلما خفي صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه .

سادساً : وهو من النكت البديعة - أنه دال على قرب صاحبه من القريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [1] فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه .

سابعاً : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال وأن اللسان لا يمل ، والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه ، وهذا نظير من يقرأ ويكرر فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له ، بخلاف من خفض صوته .

ثامناً : إن إخفاء الدعاء أبعد له عن القواطع والمشوشات .

تاسعاً : أنه أبعد عن حسد الحاسدين فإن الدعاء من اعظم النعم وكل ذي نعمة محسود » [2] .

تلك هي بعض فوائد إخفاء الدعاء وهو وإن كان أفضل ، إلا أنه ليس على إطلاقه فإنه يتحتم في كثير من الحالات رفع الصوت بالدعاء ، وذلك مثل : الدعاء في خطب الجمع والأعياد ، والإستسقاء ، وأدعية النوازل ، وغير ذلك مما شرع الشارع فيه رفع الصوت بالدعاء .

---

(١) مريم آية ٣ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/١٥-١٨ بتصرف يسير .

المسألة الرابعة : النهي عن التعدي في الدعاء

ومن المسائل المهمة المتعلقة بالدعاء النهي عن التعدي فيه . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذه المسألة مبيناً رحمه الله معنى الإعتداء في الدعاء ومنبهاً على أن الإعتداء منهي عنه ، قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ [1] « قال ابن جريج [2] : الجهر بالدعاء عدوان . وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال « سيكون أقوام يعتدون في الطهور والدعاء » [3] .

وقيل : من الاعتداء في الدعاء أن يسأل لنفسه درجة ليس من أهلها ، بأن يسأل درجة الأنبياء وليس بنبي ، ويسأل درجة الشهداء ، وليس بشهيد » [4] .

والذي يتضح من أقوال أهل العلم أن الراجح في معنى الإعتداء في الدعاء هو أن يسأل مالا ينبغي له .

والإعتداء في الدعاء منهي عنه كما يستفاد من قوله عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ [5].

ومما يدل على النهي عنه أيضاً : قوله عز وجل ﴿ فلا تسئلني ما ليس لك به

---

(١) الأعراف آية (٥٥) .

(٢) هو : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي ، مولاهم ، أصله رومي ولد سنة ٨٠ روى عن أبيه وعطاء ابن ابي رباح وحكيمة بنت رفيقة وغيرهم . روى عنه ابناه عبد العزيز ، ومحمد ، والأوزاعي ، والليث بن سعد وغيرهم توفي سنة ١٥٠ . انظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٥/٦ ، تهذيب التهذيب ٤٠٢/٦-٤٠٥ ، ميزان الإعتدال ٦٥٩/٢ .

(٣) رواه أبو داود : كتاب الطهارة باب الإسراف في الماء ح ٩٦ من حديث عبد الله بن مغفل ، ورواه ابن ماجة كتاب الدعاء باب كراهية الاعتداء في الدعاء ح ٣٨٤ ، ورواه الامام أحمد ٨٧/٤ ، وابن حبان ، انظر : الإحسان ٢٦٨/٨ ، والبغوي في شرح السنة ٥٣/٢ وصحح محقق شرح السنة إسناده .

(٤) تفسير السمعاني ٢٧٥-٢٧٦ تحقيق طلال عرقسوس .

(٥) الأعراف آية ٥٥ .

عـلم ﴾[1] قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية « أي : لا تطلب مني الشيء الذي لا تعلم أن في طلبك إياه مصلحة ، لأنك إذا سألت شيئاً لا ينبغي وقوعه فقد طلبت من الله أن يفعل مالا ينبغي ، فكأنك هنا قلت اللهم أنج كافراً من الكفار فإذا جهلت شيئاً فتوقف حتى تعلم المصلحة في طلبه . ويؤخذ من الآية الكريمة أن العبد إذا اشتبه عليه الأمر في شيء هل في سؤاله ربه أن يقضيه مصلحة أولاً ؟ فإنه لا يسأل الله ذلك ، خوفاً من أن يكون مما يسخط الله تعالى ... ويؤخذ من هذا أنه لو علمك إنسان دعاء أعجمياً لا تعرف معناه لا ينبغي أن تدعو به »[2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في توضيح معنى الاعتداء ، وعدم محبة الله سبحانه له « فالإعتداء في الدعاء : تارة بأن يسأل مالا يجوز له سؤاله من المعونة على المحرمات ، وتارة يسأل مالا يفعله الله . مثل : أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأل أن يدفع عنه لوازم البشرية ، من الحاجة إلى الطعام والشراب ، أو يسأله بأن يطلعه على غيبه ، أو أن يجعله من المعصومين ، أو يهب له ولداً من غير زوجة ، ونحو ذلك من سؤاله اعتداء لا يحبه ، ولا يحب سائله »[3] .

---

(١) هود آية ٤٦ .

(٢) معارج الصعود ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/١٥ ، وانظر : بدايع الفوائد ١٣/٣ ، وفتح القدير للشوكاني ٢/٥٠-٥٣ .

المبحث الخامس
توضيح جملة من المسائل المتعلقة بالشرك

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الشرك .

المطلب الثاني : النهي عن الشرك .

المطلب الثالث : أسباب الشرك .

المطلب الرابع : لاحجة لأحد في دعوى الشرك .

المطلب الخامس : ذكر جملة من أنواع الشرك .

تمهيد :

إذا كان التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة . وهو التوحيد المتضمن لتفرد الله سبحانه بخصائص الربوبية التي لا يشاركه فيها غيره ، فإن صرف شيء من العبادة لغير الله هو إنحراف عن التوحيد ، وإشراك بالله عز وجل فيما لا يستحقه غيره .

والإنحراف عن توحيد الألهية مثله مثل نسبة شيء من خصائص الربوبية كعلم الغيب والتأثير المستقل في الكائنات إلى غير الله ، فإنه شرك أيضاً : إلا أن الأول شرك في الألهية والثاني شرك في الربوبية .

والشرك على كل حال هو النقيض الأول للتوحيد . وهو أعظم ذنب عصي به المولى عز وجل ولذلك كانت عقوبته من بين سائر الذنوب أن لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [1] .

وإذا كان الشرك نقيض التوحيد فإنه من الضروري لمن يتحدث عن التوحيد أن يتطرق إلى الشرك أيضاً : لأنه لا يتم توضيح وبيان التوحيد إلا بتوضيح ما يضاده وينافيه . كما قيل : وبضدها تتمايز الأشياء .

وقد تعرض أبو المظفر رحمه الله إلى الحديث عن الشرك . وبين رحمه الله جملة من المسائل المتعلقة به ، فقد عرف الشرك ، ونبه على جملة من الأسباب المؤدية إليه ، وقرر في أكثر من موضع نهي الشارع عنه ، وذكر رحمه الله جملة من أنواع الشرك .

وإظهاراً لجهد أبي المظفر رحمه الله في توضيح عقيدة السلف رضي الله عنهم المبنية على إخلاص التوحيد لله عز وجل فقد خصصت هذا المبحث لحديث أبي المظفر رحمه الله عن الشرك وقسمته إلى المطالب التالية :

---

(١) النساء آية (٤٨) ، والآية (١١٦) .

المطلب الأول : تعريف الشرك

عرف الإمام السمعاني رحمه الله الشرك لغة بقوله « الاشراك هو الجمع بين الشيئين في معنى »[1] .

وأما في الشرع فقد عرفه رحمه الله بقوله « فالإشراك بالله هو أن يجمع مع الله غيره فيما لا يجوز إلا لله »[2] .

قلت : ومالا يجوز إلا لله يدخل فيه جميع أنواع العبادة من إخلاص الدين لله عز وجل ومحبته سبحانه والتوكل عليه والخوف منه ورجائه والإستعانة به والإلتجاء إليه والتوجه بالدعاء والنسك والنذر إليه وطاعته سبحانه فيما لا يجوز أن يطاع فيه غيره كالتحليل والتحريم وغير ذلك . فكل ذلك يدخل فيما لا يجوز إلا لله عز وجل .

وهذا التعريف للشرك تعريف جامع مانع . يقطع دابر كل شرك في العبادة وغيرها .

وهو يدل على أن الشرك يدخل في أمور كثيرة ، لأن ما لا يجوز إلا لله كثير .

وقد أوضح أبو المظفر رحمه الله الإجمال المتقدم في تعريف الشرك عند قوله سبحانه ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العلمين ﴾[3] .

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ « أي : أشباهاً وأكفاء وأمثالاً وشركاء

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه[4] :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[5]

---

(١) تفسير السمعاني ٩٩ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٢) المصدر السابق ، وانظر : النهاية في غريب الحديث ٢/٤٦٦ ، والمفردات في غريب القرآن ٢٥٩-٢٦٠ .

(٣) فصلت آية (٩) .

(٤) هو : حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي من بني النجار شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام ، مات سنة ٥٤ ، وقيل ٤٠ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢/٥١٢ - ٥٢٣ ، الإصابة ١/٣٢٥ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه ص ٢٠ .

قال أهل المعاني قوله ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ أي : تطيعون غيره في معاصيه ، وقال بعضهم : من ذلك أن يقول الرجل : لولا كلبة فلان لدخل اللصوص داري ، ولولا إرشاد فلان لهلكت ونحو ذلك »[1] .

فمن أشرك بالله سبحانه شيئاً فقد جعله نداً لله وهو كفر به سبحانه وانحراف عن التوحيد قال تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾[2].

وبناء على تعريف أبي المظفر رحمه الله للشرك وتفسيره لقوله سبحانه ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ فإن الشرك يتضمن ثلاثة أمور :

الأمر الأول : صرف أعمال العباد التي لا تجوز أن تصرف إلا لله لغيره سبحانه .

الأمر الثاني : نسبة أفعال الله سبحانه إلى غيره من الأنداد والشركاء المزعومين .

الأمر الثالث : إشراك غير الله سبحانه مع الله في الأسماء والصفات ، كل ذلك يدخل في قول الامام السمعاني رحمه الله « والإشراك بالله هو أن يجمع مع الله غيره فيما لا يجوز إلا لله » .

المطلب الثاني : النهي عن الشرك

الشرك بجميع أنواعه منهي عنه ، أشد النهي . وصاحبه معرض لسخط الله وعقوبته ، فإن كان الشرك شركاً أكبر فإنه لا يغفره الله عز وجل إلا بالتوبة منه ، والإقلاع عنه وإن كان الشرك شركاً أصغر فصاحبه تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه ، وإن شاء أخذه به ، هذا إن لم يتب ، فإن تاب تاب الله عليه .

وقد ورد في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ النهي عن الشرك والتحذير منه ، والوعيد عليه .

---

(١) تفسير السمعاني ٤٨٦ ، تحقيق ثناء الله علام سروربوتو ، وانظر : جامع البيان عن تأويل القرآن ١٩٣/١ ، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٣٠-٢٣١ ، زاد المسير ١/ ٤٩ .

(٢) البقرة آية ٢٢ .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى جملة من تلك النصوص التي ورد فيها النهي عن الشرك بالله عز وجل والتحذير منه نوردها من خلال الأوجه التالية :

الوجه الأول : أن الشرك من أعظم الذنوب

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [1] .

« وقد ثبت برواية عمرو بن شرحبيل [2] عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت : يا رسول الله ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت : ثم أي يا رسول الله ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك . ثم قرأ قوله تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ الآية[3] »[4] .

الوجه الثاني : أن الشرك من أعظم أنواع الظلم

قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [5] وقال عز وجل ﴿ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمنهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [6] .

---

(١) الفرقان آية (٦٨) .

(٢) هو : عمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمذاني ، الكوفي ، حدث عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وعنه : أبو وائل ، والشعبي ، والقاسم بن مخيمرة ، وثقه ابن معين ، وغيره ، وأخرج له البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، توفي سنة ٦٣ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٣٥/٤ ، الإصابة ١١٤/٣ - ١١٥ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير باب قول الله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ ١٦٣/٨ ، وانظر : صحيح البخاري مع الفتح ٤٩٢/٨ و١٠/ ٦٣٣ و١٢/ ١١٤ و ١٨٧ و١٣/ ٤٩١ و٥٠٣ . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب ح ٨٦ .

(٤) تفسير السمعاني ٥٢٤ تحقيق قارئ محمد إقبال .

(٥) لقمان آية (١٣) .

(٦) الأنعام آية (٨٢) .

قال أبو المظفر رحمه الله « معناه الذين ءامنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وهذا قول أبي بكر وعلي وحذيفة وسلمان أن المراد بالظلم الشرك .

وقد صح برواية ابن مسعود أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة ، وقالوا أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ ليس الأمر كما تظنون ، إنما الظلم هاهنا الشرك . وقرأ قوله تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [1] ومعنى الآية الذين آمنوا بالله ولم يشركوا به أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » [2] .

الوجه الثالث : أن الشرك من فعل اليهود المنهي عنه

قال تعالى : ﴿ وجوزنا ببني إسرءيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يموسى اجعل لنا إلهـاً كما لهم ءالهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وبـطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلـهاً وهو فضلكم على العـلمين ﴾ [3] .

قال أبو المظفر رحمه الله في قوله عز وجل ﴿ أغير الله أبغيكم إلهاً ﴾ « أي : أطلب لكم إلهاً تعظمونه غير الله وهو فضلكم على العالمين ؟ وفي الخبر المعروف أن رسول الله ﷺ لما رجع من حنين مر على شجرة يقال لها ذات أنواط ، وقد عكف حولها قوم من الأعراب يعظمونها وقد علقوا عليها أسلحتهم . فقال أصحابه : يا رسول الله ؟ لو جعلت لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر ، هذا مثل ما قال قوم موسى لموسى إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » [4] [5] .

---

(١) الحديث أورده أبو المظفر رحمه الله بالمعنى . وهو في الصحيحين . انظر : صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٨٧/١ . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه ح ١٢٤ .

(٢) تفسير السمعاني ١٠٠ - ١٠١ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) الاعراف آية ١٣٨ - ١٤٠ .

(٤) الحديث أخرج نحوه الترمذي : كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ح ٢١٨١ ، والإمام أحمد في المسند ٢١٨/٥ ، وابن أبي عاصم في السنة ،رقم الأثر ٧٦، وصححه الشيخ الألباني حفظه الله.

(٥) تفسير السمعاني ٣٣٩ - ٣٤٠ ، تحقيق طلال عرقسوس .

الوجه الرابع : أن الشرك عبادة لغير الله وهي منهي عنها . قال تعالى ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ [1] قال أبو المظفر رحمه الله « وهو النهي عن الشرك » [2] .

الوجه الخامس : أن الجنة حرام على المشرك

قال تعالى ﴿ وقال المسيح يبني إسرءيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأويه النار وما للظلمين من أنصار ﴾ [3] .

قال أبو المظفر رحمه الله « روى أبو سفيان بن نافع[4] عن جابر أن النبي ﷺ سئل ما الموجبتان قال : من وحد الله لا يشرك به شيئاً وجبت له الجنة ، ومن أشرك بالله وجبت له النار » [5] [6] .

وهذا الوعيد متحقق في الشرك الأكبر ، وأما الشرك الأصغر فهو تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عفا عنه وإن شاء أخذ به .

وكل ما تقدم يدل دلالة قاطعة على عظيم خطر الشرك ، وسوء عاقبته وانحراف المشرك عن توحيد الله عز وجل قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وما نقموا

---

(١) الأنعام آية (٥٦) .

(٢) تفسير السمعاني ٦٧ تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) المائدة آية ٧٢ .

(٤) هو : أبو سفيان طلحة بن نافع الاسكاف الواسطي ، عراقي ، صدوق ، روى عن جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وغيرهم . وروى عنه الأعمش ، ومحمد بن إسحاق ، وشعبة ، وغيرهم . وأخرج له مسلم وأصحاب السنن الأربعة ، وأخرج له البخاري مقروناً مع غيره . انظر : الجرح والتعديل ٤/٤٧٥ ، سير أعلام النبلاء ٥/٢٩٣ ، تقريب التهذيب ٢٨٣ ، ٦٤٥ ، ترجمة رقم ٣٠٣٥ .

(٥) أخرج نحوه الامام مسلم رحمه الله كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار ح ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ .

(٦) تفسير السمعاني : ٦٨٥ - ٦٨٦ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ [1] وقد ورد في بعض الأخبار عن النبي ﷺ قال : « لا تشرك بالله وإن قتلت وأحرقت » [2][3] .

المطلب الثالث : أسباب الشرك

ليس هناك من سبب معقول يحمل المشركين على الشرك بالله عز وجل إلا التكبر والعناد ، واتباع الهوى ، وتقليد الآباء والرؤساء ، من غير حجة ولا تبصر وهو إن دل على شيء فإنما يدل على جهل المشركين وبعدهم عن منطق الشرع والعقل والفطرة .

وبناء على ما قرره المولى عز وجل في كتابه العزيز أشار أبو المظفر رحمه الله إلى جملة من الأسباب التي آلت بالمشركين إلى الشرك والإنحراف عن التوحيد والتي هي :

أولاً : التكبر

أشار أبو المظفر رحمه الله في عدة مواضع من تفسيره إلى أن التكبر سبب من أسباب الإنحراف عن التوحيد فقد قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ والذين كذبوا بـايتنا واستكبروا عنها ﴾[4] « وإنما ذكر الإستكبار لأن كل مكذب كافر ، وكل كافر مستكبر ، وإنما كذب وكفر تكبراً . قال تعالى ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يسكتبرون﴾ [5] أي : استكبروا عن الإقرار بالوحدانية » [6] .

وقال عند قوله عز وجل ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ [7] « أي : تكبروا تكبراً . وقد

---

(١) البروج آية ٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجة - كتاب الفتن - باب الصبر على البلاء ح ٤٠٣٤ ، والإمام أحمد ٢٣٨/٥ ، وصححه الشيخ الألباني ، إرواء الغليل ٨٨/٧ رقم ٢٠٢٦ .

(٣) تفسير السمعاني ٦١٠ ، تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٤) الاعراف آية (٣٦) .

(٥) الصافات آية (٣٥) .

(٦) تفسير السمعاني ٢٤٨-٢٤٩ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٧) نوح آية (٧) .

بينا أن الشرك وترك الإقرار بالتوحيد استكبار »[1] .

وعند قوله عز وجل ﴿ وأما الذين كفروا أفلم تكن ءايتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾[2] . قال رحمه الله « أي : طلبتم الكبرياء والعظمة ، بترك التوحيد وكل كافر متكبر »[3] .

وما ذكره الإمام السمعاني رحمه الله من أن التكبر سبب من أسباب الشرك والإنحراف عن التوحيد تدل عليه ءايات كثيرة من كتاب الله عز وجل وهناك ثلاثة أمثلة ظاهرة الدلالة في كون التكبر من أعظم أسباب الشرك .

المثال الأول : ما حكاه الله سبحانه عن زعيم المتكبرين إبليس عليه لعنة الله من أن من أهم أسباب لعنه وطرده وإبعاده عن رحمة الله هو تكبره عن السجود لآدم قال تعالى ﴿ فسجد الملئكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكفرين . قال يـإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾[4] .

المثال الثاني : ما حكاه الله سبحانه عن قوم صالح قال تعالى ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن ءامن منهم أتعلمون أن صلحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي ءامنتم به كفرون ﴾[5] .

وكذلك الشأن بالنسبة لقوم شعيب .

المثال الثالث : ماحكاه الله سبحانه عن قارون وفرعون وهامان قال تعالى ﴿ وقرون

---

(١) تفسير السمعاني ٦٠٩ تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٢) الجاثية آية (٣١) .

(٣) تفسير السمعاني ٢٨٤ تحقيق محمد الأمين بن الحسين الشنقيطي .

(٤) ص آية ٧٣ - ٧٨ .

(٥) الاعراف آية ٧٥ - ٧٦ .

وفرعون وهمن ولقد جاءهم موسى بالبينت فاستكبروا في الأرض وما كانوا سبقين ﴾ [1] .

فهذه الأمثلة تبين بوضوح أن كل جبار عنيد خارج عن حكم التوحيد إلا وسبب من أسباب انحرافه عن التوحيد هو التكبر .

وهي تبين أيضاً : أن هذا المرض غالباً ما يصاب به علية القوم كما هو واضح من خلال الآيات السابقة .

والتوحيد والتكبر نقيضان لا يجتمعان .

فإن التوحيد خضوع واستكانة ، وإظهار للإفتقار والذلة إلى قيوم السموات والأرض سبحانه ، والتكبر بعكس ذلك تماماً . فهو شعور بالعظمة ، وامتلاء بالغرور الكاذب ، وادعاء بعدم الحاجة إلى المعبود الحق . فالقلب المريض بالتكبر لا مكان فيه لتوحيد الله عز وجل .

ومن الغريب العجيب أن المتكبر يأنف ويستكبر عن عبادة ربه ومولاه عز وجل مع أنه في نفس الوقت يقع في عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « الإستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكاً بالله ، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو مقصود القلب بالقصد الأول فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك ، ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه » [2] .

ثانياً : اتباع الهوى

من الأسباب الحاملة على الإشراك بالله عز وجل اتباع الهوى . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا السبب .

---

(١) العنكبوت آية (٣٩) .

(٢) العبودية ٣٢ .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ أفرءيت من اتخذ إلهه هوايه ﴾[1] « قال سعيد بن جبير كان الواحد منهم يعبد الشيء فإذا رآى غيره أحسن منه طرح الأول وأخذ الثاني فعبده ، وقال قتادة [2] في معنى الآية لا يهوى شيئاً إلا ركبه فهو يعبد هواه وقيل : اتخذ إلهه هواه أي : أطاع هواه وانقاد له كما ينقاد العابد لمعبوده .

وقد ثبت أنه ﷺ قال « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة » [3] » [4] .

وكون اتباع الهوى عبادة لغير الله عز وجل يعني أن اتباع الهوى سبب من أسباب الشرك والإنحراف عن التوحيد ووجه ذلك أن التوحيد هو طاعة الله عز وجل فيما لا يجوز أن يطاع فيه غيره ، فإذا وجدت في القلب طاعة لغير الله مما تميل إليه النفس وتهواه حل الشرك محل التوحيد .

والهوى لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق الذم وما ذلك إلا لأنه سبب من أسباب الشرك أو الوقوع في معصية الله على أقل تقدير .

قال تعالى ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[5] وقال سبحانه ﴿ واتبع هوايه وكان أمره فرطاً ﴾[6] وقال جل وعلا ﴿ بل اتبع الذين

---

(١) الجاثية آية (٢٣) .

(٢) هو : قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري الأعمى أحد علماء التابعين وحفاظهم . كان عالماً بالفقه والتفسير توفي سنة ١١٧ وعمره ٥٧ سنة . انظر : سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩-٢٨٣ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري كتاب الجهاد باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٦/٨١ و ١١/٢٥٣ .

(٤) تفسير السمعاني ٢٦٩ - ٢٧٠ تحقيق محمد الأمين الشنقيطي .

(٥) الأعراف آية (١٧٦) .

(٦) الكهف آية (٢٨) .

ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ [2] . ونقل القرطبي عن الشعبي [3] قوله « إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار » [4] .

ثالثاً : الغلو

الغلو هو : الإفراط ومجاوزة الحد بالتعظيم ، في القول والاعتقاد . والمقصود به هنا الغلو في الصالحين . والغلو سبب من أكبر أسباب الإنحراف عن التوحيد .

وقد كان أول انحراف عن التوحيد في تاريخ البشرية بسبب الغلو في محبة الصالحين وكان ذلك في قوم نوح عليه السلام كما في صحيح الإمام البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل ﴿ وقالوا لا تذرن ءالهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ [5] قال « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى أقوامهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت» [6] .

---

(١) الروم آية (٢٩) .

(٢) النازعات آية (٤٠ - ٤١) .

(٣) هو : عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار ، وذو كبار قيل من أقيال اليمن ، الإمام علامة العصر أبو عمرو الهمداني ثم الشعبي الحميري ، من كبار التابعين قال ابن عيينة « علماء الناس ثلاثة : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه . روى عن علي وسعد بن أبي وقاص وزيد بن ثابت وجمع غفير من الصحابة . واختلف في سنة وفاته قيل ١٠٣ ، وقيل ١٠٥ ، وقيل ١٠٧ . انظر : سير أعلام النبلاء ٤/٢٩٤ - ٣١٩ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٦٧ ، وانظر : حلية الأولياء ٤/ ٣٢٠ .

(٥) نوح آية (٢٣) .

(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير ، تفسير سورة نوح باب « وداً ولا سواعاً ولا يغوث » ٨/٦٦٧ .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى أن الغلو سبب من أسباب الإنحراف عن التوحيد كما نبه رحمه الله إلى أن النبي ﷺ قد حذر أمته من الغلو .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ يأهل الكتب لا تغلوا في دينكم ﴾ [1] « الغلو مجاوزة الحد والآية في النصارى .

قال الحسن يجوز أن يكون في اليهود والنصارى ، فإنهم غلوا في أمر عيسى أما اليهود بالتقصير في حقه ، وأما النصارى بمجاوزة الحد فيه .

والغلو غير محمود في الدين روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » [2]) [3] .

وهلاك من كان قبلنا جاء من طريق تعظيم الصالحين وتقديسهم ، وإنزالهم غير منزلتهم ، وتلبيس الشيطان على المشركين بأن لهم دلالة ووجاهة عند الله ، وأنهم لا يصلون إلى تحقيق ما يريدون من عند الله إلا عن طريقهم كما كان يزعم كفار قريش ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [4] .

والغلو ليس خاصاً بأمة من الأمم بل هو عام في اليهود والنصارى والمسلمين .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في قوله عز وجل ﴿ يأهل الكتب لا تغلوا في دينكم ﴾ [5] والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى واليهود في عزير كما قال تعالى ﴿ ألم يأن

---

(١) النساء آية (١٧١) .

(٢) اخرجه النسائي : كتاب المناسك ، باب التقاط الحصى ح ٣٠٥٧ ، وابن ماجة : كتاب المناسك ، باب قدر حصى الرمي ح ٣٠٢٩ ، والإمام أحمد ١/٢١٥ ، ٣٤٧ ، والحاكم ١/٤٦٦ ، وصححه الشيخ الألباني انظر: الصحيحة ١٢٨٣ .

(٣) تفسير السمعاني ٥٥٦ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٤) الزمر آية (٣) .

(٥) النساء آية ١٧١ .

للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فسقون ﴾ [1] ولهذا قال النبي ﷺ « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم » [2]) [3] .

وواقع المسلمين منذ قرون عديدة يشهد بوقوع الغلو في هذه الأمة . وبسببه بنيت المشاهد ، وعبدت القبور من دون الله عز وجل ، ووقعت الأمة فيما حذرها منه الرسول ﷺ وهو شاهد حي وملموس على أن الغلو سبب من أهم الأسباب التي تؤدي إلى الإنحراف عن التوحيد .

رابعاً : اتباع الآباء والرؤساء

ومن أسباب الشرك والانحراف عن التوحيد : اتباع الآباء والرؤساء ، من غير حجة ولا تبصر ، قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [4] . وقال عز وجل ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ [5] .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا المعنى عند قوله عز وجل ﴿ ولو ترى إذ الظلمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ [6] .

---

(١) الحديد آية (١٦) .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الانبياء ، باب قول الله ﴿ واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ ٦/٤٧٨ .

(٣) فتح المجيد ٢٩٧ .

(٤) البقرة آية (١٧٠) .

(٥) الأحزاب آية (٦٦ - ٦٧) .

(٦) سبأ آية (٣١) .

قال رحمه الله « ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ « أي : استحقروا وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي : تجبروا وهم القادة والأشراف ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ أي : لولا أنكم كنتم قادتنا ، ورؤساءنا ، لآمنا بالله وبرسوله »[1] .

فالآية واضحة في معناها وكذلك تفسير أبي المظفر رحمه الله لها ظاهر الدلالة ؛ في كون التقليد : سببا من أسباب الانحراف ، وعدم قبول الحق المتمثل في توحيد الله عز وجل والتقليد المذموم والذي أشارت إليه الآيات السابقة هو تقليد من ليس قوله بحجة وذلك مثل : تقليد أهل الكفر فإنهم لا حجة لهم في ترك التوحيد ، بل الحجة عليهم ، أما اتباع الكتاب والسنة فلا يسمى تقليداً ، بل هو اتباع وهو مأمور به ، بخلاف التقليد فإنه مذموم ومنهي عنه .

خامساً : الجهل

ومن الأسباب الحاملة على الشرك الجهل . وهذا السبب هو أساس الأسباب المتقدمة كلها ، فكل سبب من الأسباب السابقة الحاملة على الشرك ، ناتج عن الجهل بحقيقة النفس وحقيقة المعبودات إذ لو عرف المشرك حق المعرفة حقيقة نفسه ، وذلك بالوقوف على ضعفها وفقرها وحاجتها إلى خالقها ورازقها ومدبر أمرها ، وعرف أيضاً حقيقة المعبودات ، وأنها لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضراً فضلاً لغيرها لم يرض بغير الله معبودا ولا بسواه محموداً .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا السبب قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وإن جهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾[2] « قوله ما ليس لك به علم إنما قال هذا لأن الشرك كله عن جهل فإن العالم لا يشرك بالله »[3] .

والأدلة على صحة ما قرره رحمه الله كثيرة ، ولا أدل على ذلك من أن الله سبحانه

---

(١) تفسير السمعاني ٥٣ تحقيق ثناء الله غلام سروربوتو .

(٢) العنكبوت آية (٨) .

(٣) تفسير السمعاني ٢٣٨ تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

وصف المؤمنين الموحدين بالعلم والإيمان .

قال تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صلحاً﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وقال الذين أوتو العلم والإيمن لقد لبثتم في كتب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾[2] وقال عز وجل ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلمؤا ﴾[3] .

كما وصف سبحانه المشركين بعدم العلم ، وبأنهم كالأنعام ، بل هم أضل قال تعالى ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾[4] وقال سبحانه ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقنهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعم بل أضل سبيلاً ﴾[6] وقال عز وجل ﴿ ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾[7] .

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الجهل من أهم أسباب الشرك والإنحراف عن التوحيد .

المطلب الرابع : لا حجة لأحد في دعوى الشرك

و الشرك مهما تعددت أسبابه فإنه لا حجة لأحد في دعوى الشرك ، بل الحجة على المشركين ، فإن الأدلة العقلية والفطرية والشرعية ، كلها متظافرة على وجوب إفراد الله

---

(١) القصص آية (٨٠) .

(٢) الروم آية (٥٦) .

(٣) فاطر آية (٢٨) .

(٤) العنكبوت آية (٤١) .

(٥) النحل آية (٤١) .

(٦) الفرقان آية (٤٤) .

(٧) النجم آية (٢٨) .

سبحانه بالعبادة ، كما تدل على عدم أهلية من سوى الله عز وجل لأن يكون معبوداً .

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً ءاخر لا برهن له به ﴾ [1] « أي : لا بينة ولا حجة له به ، قال أهل العلم : لا حجة لأحد في دعوى الشرك وإنما الحجة عليهم » [2] .

المطلب الخامس : ذكر جملة من أنواع الشرك

الشرك من حيث الجملة ينقسم باعتبار أنواع التوحيد إلى ثلاثة أقسام : وكل منها يكون أكبر وأصغر مطلقاً ، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه ، ويكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه .

أما القسم الأول : فهو الشرك في الربوبية وهو نوعان .

النوع الأول : شرك التعطيل . وهو تعطيل العالم عن الخالق الرازق المدبر الحكيم العليم سبحانه ، وهذا الشرك من أقبح أنواع الشرك . وهو لا يكاد يوجد في نفوس الخلق حقيقة وإنما ادعاء وإلا فحقيقة مشركي هذا النوع الإقرار في نفوسهم بالخالق سبحانه .

النوع الثاني : الشرك في الأفعال . وهو نسبة أفعال الله سبحانه إلى خلقه مع الإقرار بوجوده سبحانه وذلك كشرك عباد الكواكب وغيرهم ممن يعتقد أن أحداً ما غير الله عز وجل ينفع ويضر ويرزق ويقبض إلى غير ذلك وهذا النوع من الشرك كثير في بني آدم .

القسم الثاني : الشرك في الأسماء والصفات وهو نوعان أيضاً .

النوع الأول : تشبيه الخالق بالمخلوق . كمن يقول يد كيدي ، وسمع كسمعي واستواء كاستوائي ، وهو شرك المشبهة .

النوع الثاني : اشتقاق أسماء لآلهة المشركين الباطلة من أسماء الاله الحق كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز .

---

(١) المؤمنون آية (١١٧) .

(٢) تفسير السمعاني ٣٢٣ ، تحقيق قاري محمد اقبال فضل حسين .

القسم الثالث : الشرك في توحيد الألهية والعبادة . قال القرطبي رحمه الله « وأصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله في الألهية . وهو الشرك الأعظم ، وهو شرك الجاهلية ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله في الفعل وهو قول من قال إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده ، وإن لم يعتقد كونه إلهاً »[1] .

والشرك في توحيد الألهية نوعان :

النوع الأول : أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله ، ويسأله الشفاعة كمن يسأل الله ، ويرجوه كما يرجو الله ، ويحبه كما يحب الله ، ويخشاه كما يخشى الله وبالجملة أن يجعل لله نداً يعبده كما يعبد الله ، وهذا هو الشرك الاكبر الذي لا يغفره الله عز وجل إلا بالتوبة منه.

النوع الثاني : الشرك الأصغر . كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوق ، وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة فله من عمله نصيب ، ولغيره منه نصيب ، ويتبع هذا النوع من الشرك بالله في الألفاظ ، كالحلف بغير الله ، وقول ماشاء الله وشئت ، ومالي إلا الله وأنت ، وأنا في حسب الله وحسبك ، وقد يكون ذلك شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده[2] تلك هي أنواع الشرك من حيث الجملة .

وأما من حيث التفصيل : فأنواع الشرك كثيرة ، وخصوصاً ما يتعلق منها بنقيض توحيد العبادة ، لأن أنواع العبادة كثيرة كما مر ، وكل نوع منها يمكن أن يدخل عن طريقه الشرك .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على جملة من الأعمال المنافية لتوحيد الله والتي هي من قبيل الشرك به سبحانه وأنواع من أنواعه ، نسوقها من خلال المسائل التالية :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٨١ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٣ - ٤٥ .

المسألة الأولى : شرك الطاعة

وهو أن يطيع المرء غيره فيما لا يجوز أن يطاع فيه غير الله عز وجل .

وقد نبه الإمام السمعاني على هذا النوع من أنواع الشرك قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ [1] « يعني باستحلال الميتة . قال الزجاج في هذا دليل على أن استحلال الحرام وتحريم الحلال يوجب الكفر » [2] .

وعند قوله عز وجل ﴿ وإن جهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ [3] قال رحمه الله « أي : فلا تطعهما في معصيتي . ومن المعروف عن النبي ﷺ أنه قال « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » [4]) [5] .

وعند قوله عز وجل ﴿ وقومهما لنا عبدون ﴾ [6] قال رحمه الله « قال أبو عبيدة [7] تقول العرب لكل من أطاع إنساناً قد عبده » [8] وقال عند قوله عز وجل ﴿ ومن يقل منهم إني إلـه من دونه ﴾ [9] « وهذا دليل على أن من دعا إنساناً إلى طاعته في معصية الخالق فكأنه قال اعبدني واتخذني إلـهاً » [10] .

---

(١) الأنعام آية (١٢١) .

(٢) تفسير السمعاني ١٥٨ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) العنكبوت آية ٨ .

(٤) أورده بهذا اللفظ البغوي في شرح السنة ١٠/٤٤ ، وصححه الشيخ الألباني . انظر : الصحيحة ١٧٥ .

(٥) تفسير السمعاني ٢٣٨ تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

(٦) المؤمنون آية (٤٧) .

(٧) هو : معمر بن المثنى التميمي مولاهم البصري أبو عبيدة ، ولد سنة ١١٠ ، وحدث عن هشام بن عروة ، ورؤبة بن العجاج ، وأبي عمرو بن العلاء ، وحدث عنه علي بن المديني ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو عثمان المازني ، وغيرهم ، له مصنفات منها : « مجاز القرآن » « غريب الحديث » توفي سنة ٢٠٩ ، وقيل ٢١٠ . انظر : سير أعلام النبلاء ٩/٤٤٥ .

(٨) تفسير السمعاني ٢٦٨ تحقيق محمد إقبال فضل حسين .

(٩) الأنبياء آية (٢٩) .

(١٠) تفسير السمعاني ٢٢ - ٢٣ ، تحقيق قارئ محمد اقبال فضل حسين .

وما قرره الإمام السمعاني رحمه الله هنا يؤكد ما سبق تقريره من أن العبادة هي الطاعة . كما أن فيه أن من دعا إنساناً إلى طاعته فيما لا يجوز أن يطاع فيه غير الله فقد اتخذه معبوداً وإلهاً من دون الله عز وجل ، وهو شرك وانحراف عن توحيد الله عز وجل .

ومما يدل على صحة هذا المعنى أيضاً ما ورد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال « أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقال لي : يا عدي !! اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته . فلما انتهيت إليه وهو يقرأ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبنهم أرباباً من دون الله ﴾ [1] حتى فرغ منها . قلت : إنا لسنا نعبدهم ، فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه قال : قلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » [2] قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن « وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لقول الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً وحداً لا إله إلا هو سبحنه عما يشركون ﴾ [3] » [4].

والمقصود بالطاعة في كل ما تقدم الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى فهو مشرك ، ومنحرف عن توحيد الله عز وجل [5] .

وإذا طبقنا هذا الحكم الشرعي ، الواضح ، والصريح ، على واقع المسلمين اليوم في كثير من ديار الإسلام ، لرأينا وبكل وضوح ، تحليل الحرام وتحريم الحلال شاخصاً لا يخفى على أحد ، فقد استحلت الخمر وعلقت على محلاتها لوحات تنادي كل من يريدها ، واستحل

---

(١) التوبة اية ٣١ .

(٢) أخرجه الترمذي كتاب التفسير ح ٣٠٩٤ ، والطبري في جامع البيان ١١٤/١٠ ، وحسنه الشيخ الألباني في غاية المرام ص ٢٠ ، وانظر : الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد ١٢٩-١٣٠ .

(٣) التوبة آية ٣١ .

(٤) فتح المجيد ٥٦٣ .

(٥) انظر : تيسير العزيز الحميد ٥٤٣ .

الزنا وخصصت له أماكن مصرح لها رسمياً ، بل وتحظى بعناية وزارات الصحة ومراقبتها واستحل الربا وحرم الطلاق وتعدد الزوجات ، واستبدلت الأحكم الشرعية بالقوانين الوضعية ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

فكل ذلك وأكثر ، إنما هو تحليل للحرام ، وتحريم للحلال ، وهو شرك بالله عز وجل بصريح الآيات السابقة ، وبصريح سنة الرسول ﷺ وإجماع أهل العلم . فهل يعي المسلمون ذلك ويتنبهوا إلى خطورة ما وقعوا فيه ويصلحوا من شأنهم ذلك ما نأمله . والله الهادي إلى سواء السبيل .

المسألة الثانية : النظر في النجوم

النجوم آية من آيات الله سبحانه الدالة على قدرته ، وعلى بديع صنعه ، وعظيم حكمته .

والحكمة من خلقها كما أخبر الله سبحانه في كتابه أنها زينة للسماء ، ورجوم للشياطين ، ودلالة للناس ، يهتدون بها في ظلمات البر والبحر ، ودلالة على موجدها سبحانه وعظمته . فمن اعتقد فيها غير ذلك فقد قال مالا علم له به .

وفي تاريخ انحراف البشرية عن توحيد الله عز وجل ضل بسبب التعلق بالنجوم طائفتان .

الطائفة الأولى : جعلت من النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب ، وذلك بالاستدلال بحركات النجوم على الحوادث الأرضية وما يحدث مستقبلاً .

والطائفة الثانية : اعتقدت بأن النجوم فاعلة مختارة ، وأن لها تأثيراً مباشراً من تلقاء نفسها في العالم السفلي ، وربما أدى بهم ذلك إلى عبادتها .

وكلا : الطائفتين خارجة عن حكم التوحيد . إما : بادعاء علم الغيب الذي اختص الله به ، وإما : بادعاء وجود فاعل مختار غير الله عز وجل وكلا : الاعتقادين باطل ، ومردود ومناف لتوحيد الله عز وجل المتفرد بالتقدير ، والتدبير ، وبعلم ما كان وما يكون ،

لو كان كيف كان يكون .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على الحكمة من خلق الله سبحانه للنجوم كما أشار إلى انحراف الطائفتين المشار إليهما عن توحيد الله عز وجل .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصبيح وجعلنها رجوماً للشيطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [(1)] « قوله سبحانه ﴿ وجعلنها رجوماً للشيطين ﴾ أي : رجمنا بها الشياطين عن استراق السمع .

قال محمد بن كعب القرضي [(2)] إن النجم لا يطلع لموت أحد ولا لحياته ، ولكنه زينة الدنيا ورجوم الشياطين .

وعن قتادة خلق الله النجوم لثلاثة أشياء ، جعلها زينة للسماء الدنيا ، ورجوماً للشياطين ، وهاديا للناس في الطرق فمن تكلف غير ذلك فقد قال مالا علم له به » [(3)] تلك هي الحكمة من خلق النجوم . ويضاف إليها أنها دالة على عظمة الخالق سبحانه وقدرته قال تعالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرت بأمره ألا له الخلق والأمر ﴾ [(4)] .

وأما عن انحراف المنجمين

فقد قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ [(5)] بعد أن

---

(١) الملك آية (٥) .

(٢) هو : محمد بن كعب بن سليم ، وقيل ابن حيان بن سليم ، الإمام العلامة أبو حمزة ، وقيل أبو عبد الله القرظي المدني ، ولد سنة ٤٠ على الصحيح ، إمام مدرسة التفسير بالمدينة في عهده روى عن أبي أيوب الأنصاري ، وأبي هريرة ، ومعاوية ، وغيرهم . وحدث عنه أخوه عثمان ، وأبو جعفر الخطمي ، وأبو سبرة النخعي ، وغيرهم . قال عون بن عبد الله « ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي » وقال البخاري رحمه الله كان من أئمة التفسير » . توفي سنة ١٢٠ ، وقيل قبل ذلك . انظر : سير أعلام النبلاء ٥/٦٥ ، تقريب التهذيب ص ٥٠٤ ، ترجمة ٦٢٥٧ .

(٣) تفسير السمعاني ٤٩٢ تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٤) الاعراف آية (٥٤) .

(٥) التكوير آية ١٥ .

ذكر أقوال أهل العلم في المراد بالخنس « وهذه الكواكب هي التي يسميها المنجمون بالمتحيرة ويحيلون عليها الأفعال في العالم ، ونحن نتبرأ إلى الله من هذا الإعتقاد الباطل ، ونحيل الجميع على الله تعالى وأما النجوم آيات ودلائل ومسخرات وخلقت لمعان ذكرت من قبل»[1].

فهذا نوع من أنواع الإنحراف عن التوحيد بسبب التعلق بالنجوم .

وهناك انحراف آخر وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث الأرضية . وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا الإعتقاد أيضاً : ونبه على بطلانه .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ علم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ [2] « وفي الآية دليل على أن من قال بالنجوم شيئاً ادعى علماً من الغيب لجهتها فهو كافر بالقرآن » [3] .

ووجه الكفر بالقرآن لمن ادعى علم الغيب من جهة النظر في النجوم ظاهر . ذلك أن الله سبحانه أخبر وخبره صدق وقوله حق أنه مختص بعلم الغيب ، وأنه لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، وليس المنجم ممن ارتضى حتى يطلعه على غيبه ، فمن ادعى علماً من علم الغيب من جهة النجوم فقد كذب القرآن وذلك كفر بالله عز وجل .

وإذا كان هذا حال مدعي علماً من علم الغيب من جهة النجوم فكيف بمن اعتقد أنها فاعلة مختارة ، لا شك أن هذا كفره أشد وشركه أظهر ولذلك تبرأ أبو المظفر رحمه الله من هذا الإعتقاد .

النهي عن النظر في النجوم ليس على إطلاقه :

والنهي عن النظر في النجوم ليس على إطلاقه ، وإنما هو مخصوص بما كان سبباً

---

(١) تفسير السمعاني ٤٧٤ - ٤٧٧ ، تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٢) الجن آية ٢٦ - ٢٧ .

(٣) تفسير السمعاني ٦٧ ، تحقيق سليمان صالح الخزي .

الى الشرك ، والإنحراف عن التوحيد وأما ما كان من النظر في النجوم للاهتداء بها ، ونحوه فهذا ليس داخلاِ في النظر المنهي عنه .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على ذلك فقال : « وقد ورد في الأخبار أن النبي ﷺ نهى عن النظر في النجوم [1] والمعنى هو النظر فيها للقول بالغيب عنها فأما النظر فيها للإهتداء أو للإعتبار أو لمعرفة القبلة وما أشبه ذلك فمطلق جائز » [2] .

وما قرره الإمام السمعاني رحمه الله من أن القدر المنهي عنه من النظر في النجوم هو ما كان ذريعة لإدعاء علم الغيب ، أو اعتقاد أن النجوم فاعلة بنفسها ، وأن هذا القدر كفر بالقرآن واعتقاد باطل .

قرره غيره من أهل العلم . قال الإمام الخطابي [3] رحمه الله « علم النجوم المنهي عنه هو : ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي تقع وستقع في مستقبل الزمان كأوقات هبوب الرياح ، ومجئ المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغيير الأسعار ، وما كان في معناها ، من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها كمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها ، وافتراقها ، ويدعون أن لها تأثيراً في السفليات ، وأنها تجري على قضايا موجباتها ، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب

---

(١) يشير رحمه الله إلى ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود : كتاب الطب باب في النجوم ح ٣٩٠٥ ، وابن ماجة : كتاب الأدب ، باب تعلم النجوم ح ٣٧٢٦ ، والإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني انظر : صحيح الجامع ٦٠٧٤ .

(٢) تفسير السمعاني ٧٠ ، تحقيق سليمان صالح الخزى .

(٣) هو : حَمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستى ، أبو سليمان الخطابي ، ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة وسمع من أبي سعيد بن الأعرابي وإسماعيل بن محمد الصفار ، ومن أبي بكر بن داسة ، وحدث عنه الحاكم ، وأبو حامد الاسفراييني ، وأبو الحسين عبد القادر بن محمد الفارسي . من مصنفاته « أعلام الحديث » شرح فيه صحيح البخاري « معالم السنن » تعليق على سنن أبي داود ، الغنية عن الكلام وأهله « شعار الدين » . توفي رحمه الله سنة ٣٨٨ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٣/١٧ ، معجم الأدباء ٢٥١/٣ .

سواه »[1] .

وقال القرطبي رحمه الله « قال العلماء رحمة الله عليهم لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل ، وأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر بالله ، مفتر عليه بحدسه ، وتخمينه ، وكذبه ، قال بعض العلماء : وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالهم وتباين رتبهم فيهم الملك ، والسوقة والعالم ، والجاهل ، والغنيّ ، والفقير ، والكبير ، والصغير ، مع اختلاف طوالعهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة ؟ وإن قال المنجم قبحه الله إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة أبداً في عمل المواليد ، ولا دلالة فيها على شقي أو سعيد ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم ، وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم »[2] .

وقال البغوي رحمه الله « والمنهي عنه من علم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي تقع في مستقبل الزمان . مثل : إخبارهم بوقت هبوب الرياح ومجيء المطر ووقوع الثلج وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار ونحوها يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب ، واجتماعها وافتراقها وهذا علم استأثر الله عز وجل به لا يعلمه أحد غيره كما قال سبحانه وتعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾[3] فأما ما يدرك من طريق المشاهدة من

---

(١) معالم السنن ٤/٢٢٩ - ٢٣٠ ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ٤٤١-٤٤٢ ، وفتح المجيد ٤٤٤-٤٤٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٢٨ .

(٣) لقمان آية (٣٤) .

علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمت البر والبحر ﴾ (١) وقال جل ذكره ﴿ وعلمات وبالنجم هم يهتدون ﴾ (٢) .

فأخبر الله سبحانه وتعالى أن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك ، ولولاها لم يهتد النائي عن الكعبة إلى استقبالها (٣) .

فكلام هؤلاء العلماء يؤكد ما قرره الإمام السمعاني رحمه الله في أن ما كان من علم النجوم فيه دعوى علم الغيب أو ادعاء أن للنجوم تأثيراً بنفسها فهو كفر ومروق من الدين وخروج عن توحيد الله عز وجل وما كان غير ذلك من الإهتداء بها ونحوه فليس فيه بأس بل قد تدعو الحاجة إليه كأن يحتاج إلى معرفة القبلة أو غيرها من الإتجاهات .

المسألة الثالثة : الاستسقاء بالنجوم والأنواء

الاستسقاء بالنجوم والأنواء هو نسبة السقيا ومجيء المطر إليها

والأنواء جمع نوء وهي منازل القمر

قال ابن الأثير رحمه الله « هي ثمان وعشرون منزلة . ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها . ومنه قوله تعالى ﴿والقمر قدرنه منازل ﴾ (٤) ويسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت من المشرق ، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه إليها فيقولون : مطرنا بنوء كذا . وإنما سمي نوءاً ، لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ينوء نوءاً أي : نهض وطلع » (٥) والاستسقاء بالنجوم والأنواء

---

(١) الأنعام آية (٩٧) .

(٢) النحل آية (١٦) .

(٣) شرح السنة ١٨٣/١٢ .

(٤) يس آية (٣٩) .

(٥) النهاية في غريب الحديث ١٢٢/٥ ، وانظر : معالم السنن ٣٧٣/٥ ، وشرح السنة للبغوي ١٧٤/١٢ .

باطل وذلك لما فيه من نسبة أفعال الله سبحانه إلى غيره .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا الاعتقاد . ونبه على بطلانه . قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعماً وأناسي كثيراً ، ولقد صرفنه بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ (1) « وكفرانهم هو : أنهم إذا مطروا يقولون : مطرنا بنوء كذا . وهو في معنى قوله في سورة الواقعة ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (2) .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال يوماً وقد مطروا ليلة « يقول الله أصبح الناس فريقين : مؤمن بي ، وكافر بالكوكب ، ومؤمن بالكوكب وكافر بي . فمن قال : مطرنا برحمة الله تعالى وفضله فهو مؤمن بي كافر بالكوكب ، ومن قال : مطرنا بنوء كذا فهو كافر بي ومؤمن بالكوكب » (3)) (4) .

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (5) « والقول المعروف في الآية أن الرزق هاهنا هو المطر والتكذيب هو قولهم مطرنا بنوء كذا .

وقد ثبت برواية أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « ألم تروا إلى ما قال ربكم ؟ قال : ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافر يقولون الكواكب

---

(1) الفرقان آية (48 – 50) .

(2) الواقعة آية (82) .

(3) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الأذان ، باب يستقبل الناس الإمام إذا سلم 2/333 ، وكتاب الاستسقاء ، باب قول الله تعالى ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ 2/522 وكتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية 7/439 ، وكتاب التوحيد باب قول الله ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ 13/466 . صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب كفر من قال مطرنا بالنوء ح 71 .

(4) تفسير السمعاني 505 – 506 ، تحقيق محمد اقبال فضل حسين .

(5) الواقعة آية 82 .

وبالكواكب»[1] وفي خبر آخر برواية معاوية الليثي أن النبي ﷺ قال «يصبح الناس مجدبين فيأتيهم الله برزق من عنده فيصبحون مشركين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا» [2]) [3] .

وفيما أورده أبو المظفر رحمه الله من أحاديث دلالة ظاهرة على أنه لا يجوز لأحد أن ينسب أفعال الله إلى خلقه . وأن نسبة مجيئ المطر إلى النجوم والأنواء كفر به سبحانه وانحراف عن التوحيد .

والنسبة هنا نوعان

النوع الأول : أن يعتقد أن للنوء تأثيراً مستقلاً في إنزال المطر ، فهذا كفر . لأنه شرك في الربوبية . والمشرك كافر .

النوع الثاني : أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل لذلك ، المنزل له ، إلا أنه سبحانه أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم. والصحيح : أنه محرم . لأنه من الشرك الخفي وهو الذي أراده النبي ﷺ وأخبر أنه شرك وكفر ، ومن أمر الجاهلية . ومن المعلوم أن المشركين كانوا يقرون بأن الذي ينزل المطر هو الله عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ [4] .

مما يدل على أن شركهم كان من النوع الثاني ، وليس من النوع الأول . ومع ذلك فقد سماه الرسول ﷺ شركاً ، وكفراً ، ومن أعمال الجاهلية التي ينبغي على المسلمين أن لا

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ح ٧٢ .

(٢) أخرجه الامام احمد ٤٢٩/٣ ولفظه « يكون الناس مجدبين فينزل الله تبارك وتعالى عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين ، فقيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا » ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٥/٢ وقال رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثوقون .

(٣) تفسير السمعاني ١٦٩ ، تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٤) العنكبوت آية (٦٣) .

يقعوا فيها . وفي ذلك حماية لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك [1] .

المسألة الرابعة : سب الدهر

الدهر هو ذاك الامتداد الزمني منذ أن خلق الله الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فالدهر هو خلق من خلق الله سبحانه وأثر من صنعه ، تجري فيه أفعال الله سبحانه في خلقه ، ولا أثر للدهر في نفع ، أو ضر ، ولا حياة ، ولا موت ، وإنما كل ما يقع فيه هو بتقدير الله وتدبيره .

وقد اعتقد كثير من الناس في الدهر اعتقادات باطلة فمنهم : من اعتقد بقاء الدهر ، وأنه لا انقضاء له وجعل ذلك سلماً إلى إنكار البعث والجزاء .

ومنهم : من نسب إليه ما يحدث من مصائب ومحن ، وكأن الدهر هو الفاعل المختار لكل ما يحدث فيه ، ومنهم : من يعتقد أن الله سبحانه هو الفاعل لكل ما يحدث في الدهر ، ولكنه يسب الدهر ويذمه لأن ما يكرهه قد حصل له فيه .

وكل هذه الاعتقادات باطلة ومنافية لتوحيد الله سبحانه المتفرد بالتقدير ، والتدبير ، المتصرف في خلقه بما شاء وكيف شاء .

وقد تعرض أبو المظفر رحمه الله إلى هذا الإعتقاد الباطل . مبيناً رحمه الله معنى الدهر ، ومشيراً إلى نهي الشارع عما يعتقده أهل الجاهلية في الدهر ، ومنبهاً بذلك على بطلانه .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ [2] . « قوله عز وجل ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال قتادة « الأيام والليالي ، ويقال وما يهلكنا إلا الدهر أي الموت قال

---

(١) انظر : تيسير العزيز الحميد ٤٥١ - ٥٦١ ، وفتح المجيد ٤٥٢ - ٤٦٠ ، وعون المعبود ٢٨٦/١٠ .

(٢) الجاثية آية ٢٤ .

الشاعر [١]

أمن المنون وريبها يتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

أي : الموت

ويقال : وما يهلكنا إلا الدهر أي : طول العمر وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » [٢] .

وروى العلاء بن عبد الرحمن [٣] عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « يقول الله تعالى استقرضت من ابن آدم فلم يقرضني ، ويسبني وهو يعلم ويقول يا دهراه يا دهراه » [٤] وفي رواية « يا خيبة الدهر وأنا الدهر » [٥] .

وفي رواية ثالثة عن النبي ﷺ أنه قال « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب

---

(١) هو : أبو ذؤيب الهذلي : خويلد بن خالد بن محرز بن زبيد أبو ذؤيب الهذلي شاعر مجيد مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، قدم المدينة عند وفاة النبي ﷺ ، فأسلم وحسن إسلامه ، روى عنه أنه قال : قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج بالإحرام فقلت مه فقالوا : توفي رسول الله ﷺ ، خرج أبو ذؤيب الهذلي مع جند عبد الله بن أبي سرح نحو افريقية ، وعاد مع عبد الله بن الزبير يحملون بشرى الفتح لعثمان رضي الله عنه ، فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها وقيل مات بأفريقية وأشهر شعره عينية رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد ، ومطلعها : أمن المنون وريبها يتوجع . انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٤٠ ، معجم الأدباء ٣/٣٠٦-٣٠٩ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الألفاظ من الأدب ، باب النهي عن سب الدهر ح ٢٢٤٦ .

(٣) هو : العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الإمام المحدث الصدوق أبو شبل الحرقي حدث عن أنس ووالده عبد الرحمن صاحب أبي هريرة وثقه أكثر العلماء وضعفه آخرون توفي سنة ١٣٨ . انظر : سير أعلام النبلاء ٦/١٨٦ ، تقريب التهذيب ص ٤٣٥ رقم ٥٢٤٧ .

(٤) أخرجه الحاكم ٢/٤٥٣ ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٥) في صحيح مسلم كتاب الألفاظ في الأدب باب النهي عن سب الدهر ح ٢٢٤٦ « لا يقل أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر » .

الدهر وأنا الدهر ، أدبر الأمر ، أقلب الليل والنهار »[1] .

وفي معنى الخبر ثلاثة أوجه : أحدهما . أن معناه لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أي : خالق الدهر .

والوجه الثاني : لا تسبوا الدهر ، فإني فاعل الأشياء . وكانوا يضيفون القول إلى الدهر ويسبونه . فإن الله هو الدهر يعني أن الله فاعل الأشياء لا الدهر وهذا قول معتمد .

والوجه الثالث : وهو أنهم كانوا يعتقدون بقاء الدهر وأنه لا يبقى شيء مع بقاء الدهر فقال : لا تسبوا الدهر ، يعني : لا تسبوا الذين يعتقدون أنه الباقي ، فإن الله هو الدهر يعني : فإن الله هو الباقي بقاء الأبد على ما يعتقدون في الدهر »[2] .

قلت : ذكر أهل العلم أن سبب النهي عن سب الدهر أن العرب كانت في جاهليتها إذا أصابتهم شدة ، أو بلاء ، أو نكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم سبوا الله لأنه هو الفاعل في الحقيقة ، فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الإعتبار ، لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال[3] .

وهو ما يرجح كون المراد بالدهر في الأحاديث المعنى الثاني ، وهو الذي قال فيه أبو المظفر رحمه الله وهذا قول معتمد .

وأما المعنى الثالث فبعيد . وهذا بخلاف معنى الآية ، فإن معنى الدهر في الآية

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير ، سورة الجاثية ٥٧٤/٨ ، وكتاب التوحيد باب ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ٤٦٤/١٣ . صحيح مسلم : كتاب الالفاظ من الأدب ، باب النهي عن سب الدهر ٢٢٤٦ .

(٢) تفسير السمعاني ٢٧٣ - ٣٧٦ ، تحقيق محمد الأمين الحسين الشنقيطي .

(٣) انظر : التمهيد ١٥٤/١٨ ، شرح السنة للبغوي ٣٥٧/١٢ ، تيسير العزيز الحميد ٦٠٨ ، فتح المجيد ٦١٥.

كما يدل عليه السياق بقاء الدهر وعدم انتهائه .

والدهر على كل حال ليس اسماً من أسماء الله تعالى وإنما هو خلق من خلقه وظرف تجري فيه أفعال الله سبحانه في خلقه .

ومن مجموع الآية والأحاديث السابقة يتبين أن المشركين نوعان : أحدهما من يعتقد أن الدهر هو الفاعل ، فيسبه لذلك . وهؤلاء هم الدهرية .

الثاني : من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لا شريك له ، ولكن يسبون الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب ، والحوادث ، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلى محله لا لأنه عندهم هو فاعل ذلك »[1] .

وكل ذلك باطل ، ومنهي عنه ، بمجموع دلالة الكتاب والسنة . ووجه منافاة سب الدهر للتوحيد ظاهرة وهي : أن سب الدهر وشتمه إنما هو سب وشتم للفاعل ولا فاعل حقيقة إلا الله عز وجل فإن الحوادث التي تحدث في الدهر إنما هي مسخرة من الله عز وجل .

قال الشيخ ابن قيم الجوزية وفي سب الدهر ثلاث مفاسد عظيمة .

أحدها : سب من ليس أهلاً للسب . فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله ، منقاد لأمره متذلل لتسخيره ، فسابه أولى بالسب والذم منه .

والثانية : أن سبه متضمن للشرك . فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر أو ينفع وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضر ، ورفع من لا يستحق الرفعة ، وحرم من لا يستحق الحرمان وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة كثيرة جداً ، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه .

الثالثة :

أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع فيها الحق أهواءهم

---

(١) انظر : تيسير العزيز الحميد ٦٠٩ .

لفسدت السموات والأرض ، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر ، وأثنوا عليه وفي حقيقة الأمر فرب الدهر هو المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل والدهر ليس له من الأمر شيء فمسبتهم الدهر مسبة لله عز وجل ولهذا كانت مؤذية لله عز وجل .

فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما إما : مسبة الله ، أو الشرك به فإن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب فعله فهو يسب الله تعالى »[1] .

المسألة الخامسة : سب الريح

ومن الأمور المنافية لتوحيد الله عز وجل سب الريح وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى النهي عن سب الريح عند قوله عز وجل ﴿ واختلف اليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الريح ءايت لقوم يعقلون ﴾[2] قال رحمه الله وتصريف الرياح معناه مرة جنوباً ، ومرة شمالاً ، ومرة رحمة ، ومرة عذاباً .. وفي الخبر أن النبي ﷺ قال « الريح من روح الله يأتي مرة بالعذاب ومرة بالرحمة فلا تسبوها ولكن إذا جاءت فسلوا خيرها واستعيذوا بالله من شرها »[3] [4] .

ووجه منافاة سب الريح لتوحيد الله عز وجل هي : أنها مأمورة مسخرة ولا تأثير لها في شيء إلا بأمر الله ، فمسبتها مسبة للفاعل ، وهو الله عز وجل كما تقدم في النهي

---

(١) انظر : تيسير العزيز الحميد ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) الجاثية آية ٥ .

(٣) أخرجه أبو داود : كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا هاجت الريح ح ٥٠٩٧ ، وابن ماجة : كتاب الأدب باب النهي عن سب الريح ح ٣٧٢٧ . وأخرجه الإمام أحمد ٥١٨/٢ ، والحاكم في المستدرك ٢٨٥/٤ ، وقال حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وأخرجه أبو يعلى الموصلي في المسند ٥٢٧/١٠ ح ٦١٤٢ ، وصحح المحقق إسناده وصححه الشيخ الألباني . انظر : صحيح الجامع (٣٥٦٤) .

(٤) تفسير السمعاني ٢٥٠ ، تحقيق محمد الأمين الشنقيطي .

عن سب الدهر وذا يشبهه ، ولا يسب الريح إلا أهل الجهل بالله وبدينه وبما شرعه لعباده [(١)] .

والواجب عند هبوب الريح التوبة ، والإستغفار ، واللجوء إلى الله عز وجل ، فهي قد تأتي بالعذاب تأديباً من الله سبحانه لعباده ، ولهذا جاءت السنة أن على الناس إذا رأوا ما يكرهون عند هبوب الريح أن يلجؤوا إلى الله بالدعاء ، كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال « لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به » [(٢)] .

المسألة السادسة : الطيرة والعدوى

الطيرة بكسر الطا - وفتح - اليا- وقد تسكن

اسم مصدر . من تطير يتطير تطيراً وطيرة كما يقال تخير يتخير تخيراً وخيرة ولم يجئ في المصادر على هذه الزنة غيرهما والطيرة التشاؤم بالشيء .

وأصل التطير : أن العرب كانوا يتشاءمون من السوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع ، أو دفع ضر [(٣)] .

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ٦٦٩ ، وفتح المجيد ٦٧٨ .

(٢) أخرجه الترمذي : كتاب الفتن ، باب ما جاء في النهي عن سب الريح ح ٢٢٥٣ ، وقال حديث حسن صحيح ، وأخرجه ابن ماجة : كتاب الأدب ، باب النهي عن سب الريح ح ٣٧٢٧ ، والإمام أحمد في المسند ١٢٣/٥ ، والحاكم في المستدرك ٢٧٢/٢ . وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني . انظر : صحيح الجامع (٧٣١٥) .

(٣) النهاية في غريب الحديث ١٥٢/٣ ، وانظر : معالم السنن ٣٨٠/٥ وشرح السنة ١٧٠/١٢ . وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ٢٢٩/٢ عن السانح والبارح « وأصل هذا : أنهم كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فما تيامن منها ، وأخذت ذات اليمين سموه سانحاً ، وما تياسر منها ، سموه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح وما جاءهم من خلفهم سموه القعيد فمن العرب من يتشاءم بالبارح ويتبرك بالسانح ومنهم من يرى خلاف ذلك ».

وأما العدوى فهي اسم من الإعداء . يقال أعداه الداء يعديه إعداء إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء [1] .

فالعدوى هي : مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره [2] ، والمقصود هنا هو اعتقاد أن العدوى تعدي بطبعها وهو اعتقاد باطل .

وكل من الطيرة والعدوى مخالف لتوحيد الله عز وجل وشرك به سبحانه وذلك لما فيه من نسبة أفعال الله إلى خلقه .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا الإعتقاد المخالف لتوحيد الله عز وجل في الطيرة والعدوى ونبه على أن الشارع نفى أن يكون للطيرة أو العدوى تأثير من غير تقدير الله سبحانه وتدبيره كما نبّه على أن الشارع نهى عن هذا الإعتقاد وفيما يلي ما قرره رحمه الله عن الطيرة أولاً ثم نتبعه بتوضيح ما يتعلق بأمر العدوى ثانياً .

الطيرة :

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ [3] «أي : تشاءمنا بك وبمن معك » . وفي سبب قولهم هذا قولان . أحدهما : أنهم قالوا ذلك لتفرق كلمتهم .

الثاني : أنهم قالوا ذلك لأنهم أصابهم الجدب ، والقحط فقالوا لصالح هذا من شؤمك » [4] .

فالطيرة هي التشاؤم . كما سبق وأن تقرر .

والتشاؤم يحصل بأمور كثيرة . وأقبح تشاؤم هو التشاؤم بالصالحين من عباد الله

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١٩٢/٣ .

(٢) فتح المجيد ٤٢٧ .

(٣) النمل آية (٤٧) .

(٤) تفسير السمعاني ١٣٦ تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

كما هو حال قوم صالح عليه السلام حيث تشاءموا بنبيهم وكما يحصل من غيرهم [1] .

والتطير ليس خاصاً بقوم دون آخرين ، بل هو سمة من سمات الجاهلية ، فحيث وجدت الجاهلية يوجد التطير ، ولذلك فقد كان التطير شائعاً في أوساط أهل الجاهلية قبل بعثة الرسول ﷺ .

قال أبو المظفر رحمه الله « وقد كان أهل الجاهلية يتطيرون . وكان الرجل منهم إذا خرج لحاجته فطار طائر ، أو لقي شيئاً أو سمع كلاماً يتطير بذلك ، إما : في الامتناع من ذلك الفعل أو في الدخول فيه ، وقد قال بعض الشعراء [2]

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع » [3]

وهذا العمل من أعمال أهل الجاهلية . انحراف منهم عن الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام حيث إنه لا يأتي بالحسنات إلا الله عز وجل ولا يذهب بالسيئات إلا الله سبحانه .

ووجه منافاة الطيرة للحنيفية ظاهر . ذلك أن في الطيرة نسبة أفعال الله سبحانه إلى خلقه ، وذلك باعتقاد المتطير أن ما حصل إنما هو بسبب وجود المتشاءم به وهو شرك في الربوبية ، ولذلك فقد تولى الله عز وجل الرد على هذا الاعتقاد الباطل قال سبحانه ﴿ قال طائركم عند الله ﴾ [4] .

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ٢/٢٣١ .

(٢) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري يكنى أبا عقيل شاعر من شعراء الجاهلية وفرسانهم أدرك زمن النبي ﷺ وقدم عليه هو وقومه وأسلم وحسن إسلامه مات بالكوفة ، ويقال : إن وفاته كانت في بداية خلافة معاوية ، ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً . قيل هو :

الحمد لله إذ لم يأتيني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا

وقيل هو : ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

انظر : الشعر والشعراء ص ١٧١ - ١٧٨ .

(٣) تفسير السمعاني ١٣٦ ، تحقيق حافظ أبو البركات .

(٤) النمل آية (٤٧) .

قال أبو المظفر رحمه الله تعالى « أي : ما يصيبكم من الخير والشر ، ويسمى ذلك طائراً لسرعة نزوله بالإنسان ، فإنه لا شيء أسرع نزولا من قضاء محتوم ، وقيل : طائركم عند الله أي عملكم عند الله وسمي ذلك طائراً لسرعة صعوده إلى السماء »[1] .

قلت : والسياق يرجح التفسير الأول . فإن قوم صالح لما تشاءموا منه ، زعموا أنه جاءهم بالقحط والجدب ، رد الله عليهم بأن ما أصابهم إنما هو من عند الله عز وجل وهو بسبب ذنوبهم وأفعالهم .

فالطيرة إذاً منتفية والله سبحانه هو المتفرد بالتقدير ، والتدبير ، والإيجاد ، وما دلت عليه الآية دلت عليه السنة أيضاً : وقد نبه على ذلك أبو المظفر رحمه الله قال رحمه الله « واعلم أن الطيرة منهي عنها ، وفي بعض الأخبار عن النبي ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة »[2] وعنه ﷺ « أنه كان يحب الفأل ويكره الطيرة »[3] »[4] قلت : والأحاديث في النهي عن الطيرة ونفيها كثيرة . وهي في الصحيحين وغيرهما ، وكلها تدل على إبطال معتقد أهل الجاهلية .

وهل قوله ﷺ « لا طيرة » نفي ، أو نهي ، قال الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله « يحتمل أن يكون نفياً ، وأن يكون نهياً ، أي : لا تطيروا ، ولكن قوله في الحديث « لا عدوى ، ولا صفر ، ولا هامة »[5]. يدل على أن المراد النفي ، وإبطال هذه الأمور التي كانت

---

(١) تفسير السمعاني ١٣٦ تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب الطيرة وباب لاهامة ٢١٢/١٠ . ٢١٥ . وصحيح مسلم : كتاب السلام باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم ح ٢٢٢٤ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب الفأل ٢١٤/١٠ وصحيح مسلم كتاب السلام باب الطيرة والفأل ح ٢٢٢٣ .

(٤) تفسير السمعاني ١٣٦ ، تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

(٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب لاهامة ٢٤١/١٠ . صحيح مسلم : كتاب السلام، باب لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ح ٢٢٢٠ .

الجاهلية تعانيها والنفي في هذا أبلغ من النهي ، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه» [(١)] .

فالطيرة منهي عنها ، على كل حال سواء كانت « لا » في الحديث نافية ، أو ناهية ذلك أن نفي اعتقاد أهل الجاهلية يتضمن النهي عنه .

ومما يدل على النهي عن الطيرة أيضاً تسمية الرسول ﷺ لها شركاً .

ففي سنن الترمذي وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الطيرة من الشرك ، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل » [(٢)] .

وفي مسند الامام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا يا رسول الله ؟ ما كفارة ذلك قال : أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » [(٣)] .

فتسمية الرسول ﷺ للطيرة شركاً صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك وذلك لما فيها من تعلق القلب بغير الله تعالى .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن :

« قال في شرح السنن إنما جعل الطيرة من الشرك لانهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذاهم عملوا بموجبها فكأنهم أشركوا مع الله تعالى [(٤)] .

وقوله في الحديث « وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل » مدرج من كلام ابن

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٤ .

(٢) أبو داود : كتاب الطب باب في الطيرة ح ٣٩١٠ ، والترمذي كتاب السير ، باب ما جاء في الطيرة ح ١٦١٤ ، وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجة : كتاب الطب باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة ح ٣٥٣٨ ، وصححه الشيخ الألباني الصحيحة رقم ٤٢٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٠ ، والهيثمي : في مجمع الزوائد ٥/١٠٥ وقال : فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات ، وصححه الشيخ الألباني الصحيحة ١٠٦٥ .

(٤) فتح المجيد ٤٣٩ .

مسعود كما نبه على ذلك أهل العلم » [1] .

وليس من الطيرة المنهي عنها الفأل . فهو وإن كان من الطيرة على الراجح من أقوال أهل العلم ، إلا أن فيه حسن ظن بالله عز وجل وتوكل عليه وهو لا يرد المرء عن مقصوده بخلاف المنهي عنه من الطيرة ، وهو ما كان فيه سوء ظن بالله عز جل وعدم الرضا بقضائه وحكمه ولذلك فقد كان الرسول ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة والفأل هو الكلمة الطيبة يسمعها الرجل أو يرى المنظر الحسن فيسر بذلك ويغتبط [2] .

قال ابن القيم رحمه الله « أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة ، وهو خيرها فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها ، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر ، ونظير هذا منعه من الرقي بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة » [3] .

وقال ابن القيم رحمه الله أيضاً « وليس في الاعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك . بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ويحب حسن الصوت بالقرآن ، والأذان ، ويستمع إليه ، ويحب معالي الأخلاق ، ومكارم الشيم ، وبالجملة ، يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما ، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الإسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والإستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى

---

(١) قال الحافظ في الفتح ٢١٣/١٠ «وقوله « وما منا إلا » من كلام ابن مسعود . أدرج في الخبر وقد بينه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه » ، وانظر : معالم السنن ٣٧٤/٥ ، وشرح السنة ١٧٨/١٢ .

(٢) انظر : معالم السنن ٣٧٩/٥ ، شرح السنة ١٧٦/١٢ ، فتح الباري ٢١٤/١٠ ، عون المعبود ٢٩٣/١٠ .

(٣) مفتاح دار السعادة ٢٤٥/٢ .

والفوز والظفر ونحو ذلك . فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع إستبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوي بها القلب وإذا سمعت أضدادها أوجب ضد هذه الحال ، فأحزنها ذلك وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما تصدت وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة الشرك » [1] .

ومن خلال ما تقدم يظهر للباحث أن النهي عن الطيرة يرجع إلى الاسباب التالية والله أعلم .

السبب الأول : أن في الطيرة نسبة التأثير في الأحداث إلى غير الله سبحانه وهو شرك .

السبب الثاني : في الطيرة سوء ظن بالله عز وجل وهو مذموم ومن أعمال الكفار والمنافقين قال تعالى ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ ويعذب المنفقين والمنفقت والمشركين والمشركت الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [3] .

الثالث : أن التطير مناف للتوكل على الله عز وجل الذي هو من صميم التوحيد ولهذا جاء في التطير ويذهبه التوكل فالطيرة والتوكل لا يجتمعان ، فإذا كان التوكل من التوحيد فالطيرة ليست منه بل هي منافية له .

الرابع : أن الطيرة من إلقاء الشيطان وتخويفه ووساوسه [4] والشيطان عدو الإنسان وقد أمر الله سبحانه بعدم اتباع خطواته قال تعالى ﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تتبعوا خطوت الشيطن ﴾ [5] .

---

(١) مفتاح السعادة ٢/٢٤٤ .

(٢) الفتح آية (١٢) .

(٣) الفتح آية (٦) .

(٤) انظر : فتح المجيد ٤٢٤ .

(٥) النور آية ٢١ .

وبالجملة فالطيرة عمل من أعمال أهل الجاهلية التي أبطلها الشارع ولم يقرهم عليها ، سداً لذريعة من ذرائع الشرك المنافي لكمال التوحيد .

العدوى :

لم يتطرق أبو المظفر رحمه الله إلى الحديث عن العدوى استقلالاً ، وإنما أورد الحديث الذي تضمن نفي العدوى مستدلاً به على نفي الطيرة كما تقدم ، وذلك لمناسبة الحديث للآية التي كان أبو المظفر رحمه الله بصدد تفسيرها .

ولما كانت العدوى والطيرة من باب واحد فإن حكم العدوى هو حكم الطيرة من حيث نفي العدوى ، والنهي عنها ، وما قيل في الطيرة يقال في العدوى مع ملاحظة الفروق إلا أنه وزيادة في توضيح أمر العدوى لا بد من الإشارة إلى أمرين :

الأمر الأول : أن المنفي من العدوى هو ما كان يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله عز وجل وأن هذه الأمور تعدي بطبعها [1] .

الأمر الثاني : أن حصول العدوى وانتقال المرض من المريض إلى الصحيح بتقدير الله سبحانه وفعله حاصل وموجود . وقد دلت النصوص على وقوعه بإذن الله . ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « لا يوردن ممرض على مصح » [2] وفيهما أيضاً من حديث عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال عن الطاعون « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه» [3] .

---

(١) انظر فتح المجيد ٤٢٨ .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب لاهامة ٢٤١/١٠ . صحيح مسلم : كتاب السلام باب لا عدوى ولا طيرة ح ٢٢٢١ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ١٧٩/١٠ . صحيح مسلم : كتاب السلام باب الطاعون والطيرة ح ٢٢١٩ .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه تعليقاً قال : رسول الله ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ولاهامة ولاصفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد »[1] .

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن للمرض أسباباً ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر مهما كان نوعها ، فكما أنه مأمور أن لا يلقي نفسه في الماء ، وفي النار ، مما جرت العادة أنه يهلك فكذلك مأمور باجتناب أسباب المرض ، كمقاربة المجذوم والقدوم على بلد الطاعون ، ونحو ذلك . إلا أن النهي عن مقاربة الأسباب لا يعني أن للمرض تأثيراً بنفسه ، بل إن خالق الأسباب ومسبباتها هو الله عز وجل لا خالق غيره ولا مقدر سواه .

وعلى ذلك : فمخالطة المريض قد تحصل به العدوى ، وقد لا تحصل وهي إن حصلت فهي بتقدير الله عز وجل ومن اعتقد أن المرض ينتقل بنفسه دون ملاحظة تقدير الله عز وجل فقد أخطأ ، وتقمص شعبة من شعب الشرك ، وقد رأينا الكثير ممن يخالط المرضى ، ومع ذلك لا يصيبه مرضهم ، ورأينا عكس ذلك فهو دليل على أن وراء ذلك أمر مقدر .

المسألة السابعة : الكهانة والعرافة

الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها : ادعاء علم الغيب . كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الإستناد إلى سبب[2] وقد عرف الإمام السمعاني رحمه الله الكاهن بقوله « والكاهن هو الذي يخبر عن الغيب كذباً . يقال تكهن كهانة إذا فعل ذلك »[3] .

ولفظ الكاهن يطلق على العراف « وهو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب ، يستدل بها على مواقعها ، كالشيء يسرق فيعرف المظنونة به السرقة ، وتتهم المرأة بالزنا ، فيعرف من صاحبها ، ونحو ذلك من الأمور »[4] .

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب الجذام ١٠/١٥٨ .

(٢) فتح الباري ١٠/٢١٦ .

(٣) تفسير السمعاني ٧٣٠ ، تحقيق محمد الأمين بن الحسين الشنقيطي .

(٤) معالم السنن ٥/ ٣٧٠ .

ويطلق على من يضرب بالحصى والمنجم ونحوهم .

قال الخطابي رحمه الله فيما ينقله عنه الحافظ ابن حجر [1] « الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فالفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه » [2] .

قال الحافظ رحمه الله « وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصاً في العرب لانقطاع النبوة فيهم ، وهي : على أصناف . منها : ما يتلقونه من الجن . فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام ، فيلقيه إلى الذي يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن ، فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [3] وكانت إصابة الكهان كثيرة جداً .. وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد أن يضمحل ولله الحمد ، ثانيها : ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد ، ثالثها : ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه ، ورابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة ، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر وقد يعتقد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وكل ذلك مذموم شرعاً» [4] .

ولما كانت الكهانة بجميع أنواعها ضربا من ضروب ادعاء معرفة الغيب ، وهو

---

(١) فتح الباري ٢١٦/١٠ ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ٤١٢ .

(٢) فتح الباري ٢١٧/١٠ .

(٣) سورة الصافات آية (١٠) .

(٤) فتح الباري ٢١٧/١٠ .

شرك بالله عز وجل فقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله إلى أن الكهانة والعرافة من الكفر . وأنه مخالف لما ثبت في الشريعة من اختصاص المولى عز وجل بعلم الغيب وأنه لا يطلع على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، وليس الكاهن والعراف ممن ارتضاه حتى يطلعه على غيبه .

قال السمعاني رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾[1] « والغيب كل ما غاب عنك . ويكون ماضياً ويكون في المستقبل . فالماضي منه يجوز أن يعلمه الإنسان بخبر مخبر ونحوه . فأما المستقبل فلا يعلمه إلا الله أو رسول ارتضاه كما في سورة الجن ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾[2] »[3] .

وإذا كان الله عز وجل لا يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسول فإن زمن الرسل قد انتهى ، فمن ادعى علماً من علم الغيب ، فهو كاذب في دعواه ، ثم حتى وإن كان في زمن الرسل فكذب الكهان ظاهر بخلاف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فإن لهم من المعجزات ما يقطع بصدقهم فيما أخبروا به .

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ يلقون السمع وأكثرهم كـٰذبون ﴾[4] « قال أهل التفسير المراد به الكهنة . ومعنى ﴿ يلقون السمع ﴾ أي : يستمعون إلى الشياطين . وقوله ﴿ وأكثرهم كـٰذبون ﴾ أي : جلهم . وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله !! « إن الكهان يخبرون بأشياء وتكون حقاً . قال : تلك الخطفة يخطفها الجني ، فيلقيها حتى يسمع الكاهن ، فيكذب معها مائة كذبة »[5] وفي الخبر

---

(١) الانعام آية (٥٠) .

(٢) الجن آية ٢٧ .

(٣) تفسير السمعاني ٥٧ تحقيق طلال عرقسوس .

(٤) الشعراء آية ٢٢٣ .

(٥) أخرجه مسلم : كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة واتيان الكهان ٢٢٢٨ ، ونحوه في البخاري كتاب الطب باب الكهانة . انظر : فتح الباري ٢١٦/١٠ .

المشهور المعروف أن النبي ﷺ قال « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[1])[2] .

وهذا الوعيد الشديد الذي يتضمنه هذا الحديث يدل دلالة ظاهرة على تحريم الكهانة وإتيان الكهان وأن ذلك مناف لتوحيد الله عز وجل إذ أن الكفر نقيض التوحيد .

وقد جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة اربعين يوماً »[3] ولا تعارض بينه وبين الحديث الذي قبله فإنه يحمل كل واحد منهما على حال من أحوال السائل قال الحافظ ابن حجر رحمه الله « والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة ، وتارة بالتكفير ، فيحمل على حالين من الآتي ، وقد أشار إلى ذلك القرطبي »[4] .

وقد دل على تحريم الكهانة كتاب الله عز وجل وذلك من وجوه

الوجه الأول : أن الكهان طواغيت

قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتب يؤمنون بالجبت والطغوت﴾[5] قال أبو المظفر رحمه الله « قال قتادة الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن »[6] .

وهذا التفسير وارد عن غير واحد من السلف رضي الله عنهم ولا يختص إطلاق اسم الطاغوت على الكاهن فقط بل إن اسم الطاغوت يطلق على الكاهن ، وغيره ، ممن يعبد من دون الله ، قال الإمام مالك رحمه الله « الطاغوت كل ما يعبد من دون

---

(١) أخرجه الامام أحمد ٤٢٩/٢ ، والحاكم ٧٠٨/١ . وقال هذا حديث صحيح على شرطهما جميعاً من حديث ابن سيرين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الشيخ الألباني « وهو كما قالا » انظر : إرواء الغليل ٦٩/٧ .

(٢) تفسير السمعاني ٥٩٥ ، تحقيق قارئ محمد إقبال .

(٣) صحيح مسلم : كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ح ٢٢٣٠ .

(٤) فتح الباري ٢١٧/١٠ .

(٥) النساء آية (٥١) .

(٦) تفسير السمعاني ٣٨٥ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

الله »[1] وقال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله « الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع »[2] .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه أمر في كتابه العزيز بالكفر بالطاغوت قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾[3] .

ويدخل في الأمر بالكفر بالطاغوت الكفر بالكهانة لا محالة .

الوجه الثالث : أن الله سبحانه أثنى على عباده المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت قال تعالى ﴿ والذين اجتنبوا الطغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى﴾[4] وثناؤه سبحانه على من اجتنب عبادة الطاغوت دليل على بغضه للطواغيت وعبادها وعدم محبته لها.

الوجه الرابع : أن الله سبحانه سمى الكهانة عبادة والعبادة لا تكون إلا لله وهو ما يعني أن عبادة الطاغوت شرك بالله ، وانحراف عن التوحيد ، فكل ذلك يدل دلالة قاطعة على منافاة الكهانة للتوحيد ، وأنها ضرب من ضروب الشرك ، والوثنية ، التي جاء الإسلام لإبطالها .

وفي تحريم الكهانة من المصالح الشرعية والحكم الدينية مالا يحيط بعلمه إلا الله عز وجل ومما يمكن الوقوف عليه من خلال النصوص التي تحدثت عن الكهانة ما يلي :

أولاً : التأكيد على تفرد الله سبحانه بالعلم الذي لا يحيط به أحد غيره سبحانه .

ثانياً : تحرير العقل المسلم من أوهام الدجاجلة ، والكذابين . فإن الذي يتعلق قلبه

---

(١) تفسير السمعاني ٣٨٥ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ٥٠ .

(٣) النساء آية (٦٠) .

(٤) الزمر آية (١٧) .

بما يقوله الكهان ، يعيش في أوهام ، ووساوس ، لا يتخلص منها إلا بالكفر بالطاغوت قال تعالى ﴿ والذين اجتنبوا الطغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾ [١] وقال تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [٢] .

ثالثاً : الكهانة سلم للتطير المنافي للتوكل على الله عز وجل . فإن الكهان قد يخبرون بما يتطير به الناس ، كحدوث القحط ، والجدب ، وغلاء الأسعار ، والهزيمة من قبل الأعداء ونحو ذلك مما هو سبب للتطير ، وربما يرجع من أخذ بقول الكاهن عما عزم عليه ، وكل ذلك لا يحبه الله ولا رسوله ﷺ قال تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [٣] .

رابعاً : العمل بأقوال الكهان صرف للناس عن الأخذ بالأسباب فإن المرء قد يستسلم لما يظنه حقاً ، وهو باطل فتفوته بذلك مصالح كثيرة .

خامساً : في تحريم الكهانة تعبيد الناس لرب العالمين ، وربطهم به وحده سبحانه دون من سواه ، ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا يعلم خيراً ولا شراً .

وبالجملة فتحريم الكهانة قطع لسبب من أسباب الانحراف عن التوحيد ، والسقوط في مهاوي الهلكة ، وفيه حماية لجناب التوحيد ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله وحده .

المسألة الثامنة : السحر

ومن الأعمال المنافية لتوحيد الله عز وجل السحر وقد عرفه الإمام السمعاني رحمه الله لغة بقوله « والسحر في اللغة عبارة عن تمويهات وتخييلات وخدع قال امرئ القيس [٤]

---

(١) الزمر آية (١٧) .

(٢) الرعد آية (٢٨) .

(٣) آل عمران آية (١٥٩) .

(٤) هو امرئ القيس بن حجر بن عمرو الكندي ، شاعر من شعراء الجاهلية نشأ نشأة ماجنة وكان أبوه ملكاً على بني أسد فطرده ثم إن بني أسد غدروا بأبيه فقتلوه بعد مقتلة له بهم فلما بلغ امرئ القيس قتل أبيه أقسم أن يثأر له ، وقال ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ، يغلب على شعره الخمريات والتشبيب بالنساء. انظر : الشعر والشعراء ٥٢ ، والبيت في ديوانه ص ١٣٢ .

أرانا موضعين لحتم غيب   ونسحر بالطعام وبالشراب

أي نخدع [١]

وهذه التمويهات والتخييلات والخدع تحصل بطريقة خفية ولطيفة ولذلك قيل في تعريف السحر لغة أيضاً « والسحر عبارة عما خفي ولطف سببه » [٢] وهذا التعريف الأخير في اعتقادي أتم ، وذلك لاشتماله على نوعي السحر كما سيأتي بيانه .

السحر اصطلاحاً :

وأما في الاصطلاح فقد قال عنه أبو المظفر رحمه الله « قال الفراء [٣] السحر قول يقوله إنسان يأخذ به الرجل عن امرأته » [٤] .

قلت : وهذا التعريف غير جامع لحقيقة السحر وذلك لأن القول جزء من مسمى السحر وليس هو كل السحر وإن كان القول ركنه الأساسي .

والتعريف الجامع للسحر اصطلاحاً هو « أن السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيخيل ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين ويؤخذ به الرجل عن امرأته » [٥] . وكل ذلك بإذن الله سبحانه .

---

(١) تفسير السمعاني ١٨٥ تحقيق عبد القادر منصور .

(٢) ذكره في فتح المجيد ٣٨٥ ، وفي القاموس المحيط . باب الراء . فصل السين . « والسحر كل ما لطف مأخذه ودق » .

(٣) هو :يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي ، مولاهم ، الكوفي النحوي ، العلامة ، صاحب التصانيف أبو زكريا الفراء يلقب بالفراء ، قيل لأنه كان يفري الكلام ، ولد سنة ١٤٤ تقريباً ، وأخذ عن أبي الحسن الكسائي ، وقيس بن الربيع ومندل بن علي ، وعنه أخذ سلمة بن عاصم ، ومحمد بن الجهم ، وغيرهما ، قال فيه ثعلب « لولا الفراء لما كانت عربية » من تصانيفه « معاني القرآن » « الوقف والابتداء » « كتاب مشكل اللغة » توفي سنة ٢٠٧ ، انظر : إنباه الرواة ٤/٦-٢٣ ، معجم الأدباء ٥/٦١٩ ، سير أعلام النبلاء ١٠/١١٨-١٢١ .

(٤) تفسير السمعاني ١٨٦ تحقيق عبد القادر منصور .

(٥) الكافي في فقه الامام أحمد ٤/١٦٤ .

وهذا هو السحر المتعارف عليه بين الناس وهو ناقض من نواقض التوحيد وذلك لأن السحر لا يقوم إلا على الشرك بالله عز وجل حيث تجتمع النفوس الشريرة من الجن والإنس ويحصل بينهما من الكفر والشرك مالا يحبه الله سبحانه ولا يرضاه [1] .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على جملة من الأمور المتعلقة بالسحر نوردها في المسائل التالية :

المسألة الأولى : حقيقة السحر .

السحر ضربان : ضرب منه تخييل لا حقيقة له ، وإنما هو قلب للصور في أعين الناس ، ومنه سحر سحرة فرعون . قال تعالى ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ [3] وهذا الضرب من السحر لم ينكره أحد من المسلمين .

الضرب الثاني : ماله حقيقة ، وتأثير بالمرض والتفريق والقتل بإذن الله ، وإرادته القدرية ، وقد دل على هذا الضرب الكتاب والسنة ، وأجمع على وقوعه السلف رضي الله عنهم وأنكره المعتزلة من أهل البدع .

وقد بين الإمام السمعاني رحمه الله أن للسحر حقيقة ، وله تأثيراً ، وأن ذلك هو مذهب أهل السنة .

قال رحمه الله « وحُكي عن الشافعي أنه قال : السحر يخيل ، ويمرض ، وقد يقتل» [4] .

وقد أكد رحمه الله ما يفهم من كلام الامام الشافعي رحمه الله من إثبات حقيقة

---

(١) انظر : النبوات ٢٣٨ .

(٢) الأعراف آية (١١٦) .

(٣) طه آية (٦٦) .

(٤) تفسير السمعاني ١٨٦ ، تحقيق عبد القادر منصور .

السحر وتأثيره بقوله « والسحر يتحقق وجوده على مذهب أهل السنة ويؤثر »[1] . والأدلة على صحة ما قرره أبو المظفر رحمه الله كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم .

دلالة القرآن الكريم :

أما دلالة الكتاب العزيز على إثبات حقيقة السحر وتأثيره فقد قال الله عز وجل ﴿واتبعوا ما تتلوا الشيطين على ملك سليمن وما كفر سليمن ولكن الشيطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هروت ومروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾[2] .

ودلالة هذه الآية على أن للسحر حقيقة وله تأثيراً من وجوه عديدة من أهمها :

الوجه الأول : دلالة الآية على أن السحر يمكن تعلمه فقد جاء فيها ﴿ولكن الشيطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ وجاء فيها أيضاً ﴿فيتعلمون منهما﴾ وكونه يُعَلم دليل على أن له حقيقة ، إذ لو لم تكن له حقيقة لما أمكن تعلمه ، ولا أخبر الله تعالى أنهم يعلمون الناس[3] .

الوجه الثاني : دلالة الآية على أن السحر يفرق به بين المرء وزوجه قال تعالى ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ وفي ذلك دليل على أن للسحر حقيقة وله تأثيراً إذ لو لم تكن له حقيقة ولا تأثير لما أخبر الله أنهم يفرقون به بين المرء وزوجه[4] .

---

(١) المصدر السابق ١٨٦ تحقيق عبد القادر منصور .

(٢) البقرة آية (١٠٢) .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٤٦/٢ .

(٤) انظر : تيسير العزيز الرحمن ٥٧/١ .

الوجه الثالث : تعليق حصول الضرر به بإذن الله وإرادته القدرية دليل على أن له حقيقة وتأثيراً إذ لو لم تكن له حقيقة ولا تأثير لما علق الله سبحانه حصول الضرر به بإذنه سبحانه وإرادته [1] .

ومن الأدلة من الكتاب أيضاً قوله عز وجل ﴿ ومن شر النفثات في العقد ﴾ [2] ووجه دلالة الآية على ذلك أن الله سبحانه أمر بالإستعاذة به من السحر ، وكونه سبحانه يأمر بالإستعاذة منه دليل على أن للسحر حقيقة وله تأثيراً ، إذ لو لم تكن له حقيقة لما أمر الله بالإستعاذة منه [3] إذ كيف يطلب المولى العليم الخبير بالإستعاذة من شيء لا حقيقة له ولا تأثير هذا من أبطل الباطل .

دلالة السنة :

وأما دلالة السنة على إثبات حقيقة السحر وتأثيره فقد قال أبو المظفر رحمه الله « وقد سحر النبي ﷺ فأثر فيه . روي أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، فأطلعه الله عليه ، فأمر به فاستخرج من بئر ذي أروان وكان عليه إحدى عشرة عقدة فأنزل الله تعالى عليه المعوذتين إحدى عشرة آية ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد فكأنما نشط من عقال » [4] [5] .

وهذا الحديث في الصحيحين وإذا كان سيد الخلق ﷺ سحر ، وأثر فيه ، فكيف بغيره ممن ليس له من الحصانة بالذكر والدعاء ما يحفظه من شياطين الإنس والجن وهذا الحديث من أقوى الأدلة على إثبات حقيقة السحر وتأثيره ، ولذلك رده أهل البدع والأهواء

---

(١) انظر : المصدر السابق ٥٧/١ .

(٢) الفلق آية (٤) .

(٣) انظر : الكافي في فقه الإمام أحمد ١٦٤/٤ .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الطب ، باب السحر ٢٢١/١٠ ، صحيح مسلم : كتاب السلام باب السحر ٢١٨٩ .

(٥) تفسير السمعاني ١٨٦ ، تحقيق عبد القادر منصور .

بدعوى أن إثبات سحر النبي ﷺ طعن في مقام النبوة ، وليس كذلك فإن النبي ﷺ بشر يعتريه ما يعتري البشر من الأمراض والأسقام ، والسحر نوع من المرض ، ولا دخل له فيما يبلغه الرسول ﷺ عن ربه فإن ذلك محفوظ من قبل الله عز وجل ﴿ لا يأتيه البطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [1] .

قال الخطابي رحمه الله « فأما ما زعموه من دخول الضرر على النبوة من أجل إثبات السحر وتأثيره في أهلها ووقوع الوهن في أمرها ، فليس في ذلك على ما قدروه . والأنبياء صلوات الله عليهم يجوز عليهم من الأمراض والعلل ما يجوز على غيرهم، إلا فيما خصهم الله به من العصمة في أمر الدين الذي أرصدهم له ، وبعثهم به ، وليس تأثير السحر في أبدانهم بأكثر من القتل ، وتأثير السم ، والأمراض ، وعوارض الاسقام فيهم، وقد قتل زكريا ، وابنه يحي عليهما السلام ، وسم نبينا ﷺ في الشاة التي أهديت له بخيبر ، وقال آخر عمره « ما زالت أكلة خيبر تعادُني فهذا أوان قطعت أبهري » [2] وقال عبد الله ابن مسعود : دخلت على رسول الله ﷺ وهو محموم . فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً. فقال : « إني أوعك وعك رجلين منكم » [3] .

فلم يكن شيء مما ذكرنا قادحاً في نبوتهم ولا دافعاً لفضيلتهم وإنما هو امتحان وابتلاء » [4] .

---

(١) فصلت آية (٨٢) .

(٢) في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع ابهري من ذلك السم » صحيح البخاري بشرح فتح الباري كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ١٣١/٨ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب المرض ، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ١١١/١٠.

(٤) اعلام الحديث ٢/ ١٥٠٠ ، وانظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٧٤/١٤-١٧٥ ، بدائع الفوائد ٢٢٢/٢-٢٢٦ ، زاد المعاد ١٢٤/٤ ، فتح الباري ٢٢٦/١٠-٢٢٧ ، نيل الأوطار ٥٨/٩-٥٩ .

الأدلة من أقوال أهل العلم :

الأدلة من أقوال أهل العلم كثيرة والسلف رضي الله عنهم جميعاً ومن سار على نهجهم يثبتون حقيقة السحر .

قال الخطابي رحمه الله « السحر ثابت ، وحقيقة موجودة ، وقد اتفق أكثر الأمم ، من العرب ، والفرس ، والهند ، وبعض الروم ، على إثباته ، وهؤلاء من أفضل سكان واسطة الأرض ، وأكثرهم علماً ، وحكمة ، وقد ذكر الله عز وجل أمر السحر في كتابه في قصة سليمان وماكان الشياطين يعلمونه في ذلك ، ويعلمون الناس منه . فقال : ﴿ ولكن الشيطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هروت ومروت ﴾ [1] وأمر بالإستعاذة منه فقال : ﴿ ومن شر النفثت في العقد ﴾ [2] وورد في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم أخبار كثيرة ، لا ينكرها لكثرتها إلا من أنكر العيان ، وجحد الضرورة ، ولذلك فرع الفقهاء في كتبهم من الأحكام في السحرة وما يلزمهم من العقوبات فيما يأتونه من أفعالهم كما فعلوه في سائر الجنايات التي يقترفها الجناة ، من أهل العبث ، والفساد ، ولا يبلغ ما لا أصل له ، ولا حقيقة . هذا المبلغ من الشهرة ، والاستفاضة فنفي السحر جهل ، والاشتغال بالرد على من نفاه لغو وفضل » [3] .

ومع الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة ، واتفاق علماء الأمة على إثبات حقيقة السحر فقد شذ طوائف من أهل الكلام ، وغيرهم ، وأنكروا أن تكون للسحر حقيقة . قال ابن قيم الجوزية رحمه الله « وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة ، وغيرهم ، وقالوا : إنه لا تأثير للسحر البتة لافي مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد وقالوا إنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك . وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة

---

(١) البقرة آية (١٠٢) .

(٢) الفلق آية (٤) .

(٣) أعلام الحديث ٢/ ١٥٠٠ - ١٥٠١ ، وانظر : تأويل مختلف الحديث ٢٠٩ - ٢١٩ .

والسلف واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وما يعرفه عامة العقلاء والسحر الذي يؤثر مرضاً وقتلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً ، وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه » [1] .

وقد استدل نفاة حقيقة السحر وتأثيره بما تقدم في الضرب الأول من قوله عز وجل ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ [2] وقوله سبحانه ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ [3] .

قال القرطبي رحمه الله « وهذا لا حجة لهم فيه لأنا لا ننكر أن يكون التخييل من جملة السحر ، ولكن ورد وراء ذلك أمور جوزها العقل ، وورد بها السمع [4] .

المسألة الثانية : هل للسحر تأثير في قلب الأعيان

إذا تقرر أن للسحر حقيقة ، وأن له تأثيراً بحيث يمرض ويفرق ويقتل فهل يتجاوز عمله إلى قلب الأعيان ، بحيث يقلب الآدمي إلى حيوان مثلاً ، أم لا .

قال أبو المظفر رحمه الله « قيل : إنه يؤثر في قلب الأعيان ، فيجعل الآدمي على صورة الحمار ، والحمار على صورة الكلب ، والأصح أنه يخيل ذلك كما بينا » [5] .

وهذا الذي رجحه أبو المظفر رحمه الله هو الذي عليه جمهور أهل العلم كما قرر ذلك الحافظ ابن حجر قال رحمه الله « ولكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين ، أم لا فمن قال أنه يخيل فقط ، منع ذلك ، ومن قال إن له حقيقة اختلفوا هل تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من الأمراض ، أو ينتهي إلى الإحالة ، بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه فالذي عليه الجمهور هو الأول ، وذهب طائفة قليلة إلا الثاني » [6] .

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٢٧ ، وانظر تيسير العزيز الحميد ٣٨٣ .

(٢) الأعراف آية (١١٦) .

(٣) طه آية (٦٦) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/٤٦ .

(٥) تفسير السمعاني ١٨٦ تحقيق عبد القادر منصور .

(٦) فتح الباري ١٠/٢٢٢ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن ٢/٤٥ .

المسألة الثالثة : حكم السحر

السحر في الغالب لا يتأتى إلا بالشرك بالله عز وجل وذلك بطاعة الجن والشياطين الذين لا يخدمون إلا من انسلخ عن دينه ، وباع آخرته بدنياه ، فقد يأمرونه بالسجود لهم واستعمال النجاسات ، مثل : الوضوء ببول الحمير والذبح باسم من أسماء الجن ، ونحو ذلك كما نقل عمن يتعاطى مثل هذا الفعل الشنيع ، وكل ذلك كفر ، وشرك بالله عز وجل ولذلك سماه الله عز وجل في كتابه كفراً ، قال تعالى ﴿ وما كفر سليمن ولكن الشيطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ [1] وعده الرسول ﷺ من كبائر الذنوب كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل يا رسول الله ! وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، واكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المومنات» [2] .

ولم يختلف أهل العلم في كون تعاطي السحر كبيرة من كبائر الذنوب [3] .

وقد نبه الإمام السمعاني رحمه الله على أن العمل بالسحر كفر قال رحمه الله « ولكن العمل به كفر » [4] .

وقد اختلف أهل العلم في كفر الساحر فذهبت طائفة من السلف إلى أنه يكفر وبه

---

(١) البقرة آية (١٠٢) .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتمى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ ٣٩٣/٥ . صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الكبائر وأكبرها ح ٨٩ .

(٣) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٨٨/٢ ، ١٧٤/١٤ .

(٤) تفسير السمعاني ١٨٦ تحقيق عبد القادر منصور .

قال الإمام مالك وأبو حنيفة [1] وأحمد وقيل : لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر وهو قول الامام الشافعي رحمه الله وجماعة من أهل العلم .

قال الامام الشافعي رحمه الله « إذا تعلم السحر ، قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل : ما اعتقد أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها ، فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر » [2].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب « وعند التحقيق ، ليس بين القولين خلاف ، فإنه من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك ، وليس كذلك بل لا يتأتى السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك ، وعبادة الكواكب ، ولهذا سماه الله كفراً في قوله ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ [3] ... وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر وإن سمى سحراً فعلى سبيل المجاز ، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً ، ولكنه يكون حراماً لمضرته يعزر من يفعله تعزيراً بليغاً » [4] وهذا التوفيق من الشيخ سليمان رحمه الله يجمع بين أقوال السلف الصالح رضي الله عنهم في حكم الساحر ، وفي اعتقادي أنه توفيق حسن والله أعلم .

بقيت مسألة متعلقة بالساحر لم يتطرق إليها الإمام السمعاني رحمه الله ولأهمية

---

(١) هو : أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي الكوفي مولى بني تيم الله بن ثعلبة ، ولد سنة ٨٠ ، رأى أنس بن مالك ، ولم تثبت روايته عن أحد من الصحابة ، روى عن عطاء بن أبي رباح ، والشعبي ، والأعرج ، وغيرهم ، وحدث عنه خلق كثير منهم : إبراهيم بن طهمان ، وعبد الله بن المبارك ، وأبو عاصم النبيل ، وغيرهم . وأبو حنيفة هو صاحب المذهب الحنفي ، قال الإمام الشافعي رحمه الله : الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة ، توفي رحمه الله سنة ١٥٠ . انظر : سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٠ - ٤٠٣ .

(٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/١٧٦ ، والمغنى لابن قدامة ٨/١٥١-١٥٢ ، فتح الباري : ١٠/٢٢٤ ، شرح الطحاوية ٢/٧٦٤ ، تيسير العزيز الحميد ٣٩١ ، فتح المجيد ٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) البقرة آية (١٠٢) .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٤ .

هذه المسألة وشدة تعلقها بما نحن فيه أرى من الضروري نقل كلام أهل العلم فيها :

وهذه المسألة هي حكم قتل الساحر

قال ابن ابي العز [1] الحنفي رحمه الله « وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر كما هو مذهب أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد في المنصوص عنه وهذا هو المأثور عن الصحابة كعمر ، وابنه ، وعثمان ، وغيرهم رضي الله عنهم ، ثم اختلف هؤلاء هل يستتاب أم لا ، وهل يكفر بالسحر أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد ؟ وقالت طائفة إن قتل بالسحر قتل ، وإلا عوقب بدون القتل إذا لم يكن في قوله وعمله كفر ، وهذا هو المنقول عن الشافعي ، وهو قول في مذهب أحمد رحمهما الله » [2] .

---

(١) هو : أبو الحسن علي بن علي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي الازدي ، ولد سنة ٧٣١ ، وتتلمذ على والده وبقية علماء بلده ، ومن شيوخه الحافظ ابن كثير ، وابن قيم الجوزية رحمه الله ، وقد كان لهما أكبر الأثر عليه في جذبه إلى المنهج السلفي ، والذي أثمر شرحه للعقيدة الطحاوية والتي هي من أهم مصنفاته . ومن مؤلفاته أيضاً « الإتباع » و « التنبيه على مشكلات الهداية » توفي ابن أبي العز رحمه الله سنة ٧٩٢ . انظر : الدرر الكامنة ٨٧/٣ ، شذرات الذهب ٣٢٦/٦ ، هدية العارفين ٧٢٦/١ ، الأعلام ٣١٣/٤.

(٢) شرح الطحاوية ٧٦٤/٢ ، وانظر : المغنى لابن قدامه ١٥٣/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٧/٢-٤٨ ، شرح النووي على صحيح مسلم ١٧٦/١٤ ، مجموع الفتاوى ٣٤٦/٢٨ ، ٣٨٤/٢٩ ، فتح الباري ٢٢٤/١٠ ، نيل الأوطار ٥٦/٩ ، تيسير العزيز الحميد ٣٨٤ ، فتح المجيد ٣٩٤ .

الفصل الرابع

جهود أبي المظفر رحمه الله في تقرير عقيدة السلف في توحيد الأسماء والصفات

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث

المبحث الأول

توضيح أبي المظفر رحمه الله لبعض ما يتعلق بالأسماء الحسنى

المبحث الثاني

ثبوت الصفات العلا لله عز وجل

المبحث الثالث

موقفه رحمه الله من التأويل

تمهيد

توحيد الأسماء والصفات ركن من أركان التوحيد الثلاثة التي لا يتم توحيد العبد إلا بها .

وقد دل على ثبوت الأسماء الحسنى والصفات العلا لله عز وجل الكتاب والسنة ، وأجمع السلف رضي الله عنهم على وجوب إثبات ما أثبته الله سبحانه لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات ، إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تحريف ولا تعطيل عملاً بقوله سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [1] فقد أثبت سبحانه لنفسه صفتي السمع والبصر ونفى أن يكون في الوجود من يماثله في ذاته وأسمائه وصفاته .

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله « أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة » [2] .

وقد ذهب أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ، والأشاعرة ، إلى التحكم في باب الأسماء والصفات بعقولهم القاصرة ، وآرائهم الكاسدة ، مما سبب لهم اضطراباً كبيراً واختلافاً بيناً .

فنفى الجهمية الأسماء والصفات جملة وتفصيلاً ، وأثبتوا موجوداً لا حقيقة له إلا في الأذهان [3] .

فإن مسلوب الأسماء والصفات عدم محض لا حقيقة له ، ونفى المعتزلة الصفات وأثبتوا أسماء مجردة لا معاني لها [4] .

وخلط الأشاعرة في باب الأسماء والصفات خلطاً عجيباً ، فأثبتوا الأسماء وبعض

---

(١) الشورى آية (١١) .

(٢) التمهيد ٧/١٤٥ ، وانظر : مجموع الفتاوى ٥/٢٦ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٣/٧ .

(٤) المصدر السابق ٣/٨ .

الصفات ، وأولوا البعض الآخر [1] ، وحجة الجميع الفرار من التشبيه ، ولم ينظروا إلى أن إثبات الأسماء والصفات إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ، وأن القول في صفاته سبحانه كالقول في ذاته والقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر [2] .

وعدم الإيمان بأسماء الله سبحانه وصفاته أمر خطير ، فإنه رد لخبر الله سبحانه فيما أخبر به عن نفسه .

ورد لخبر رسوله ﷺ فيما أخبر به عن ربه [3] وإقحام للعقل فيما لا يمكن أن يحيط بعلمه ، والله سبحانه يقول ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ [4] .

وحرمان للعبد من أعظم طريق تعرف الله به إلى خلقه ،وهو أسمائه الحسنى وصفاته العلا .

فإن الله سبحانه إنما تعرف إلى عباده بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وذلك من طريقين :

الطريق الأول : آياته الكونية : فإن الكون كله يشهد بعلم موجده وقدرته ورحمته وحكمته البالغة ، ومشيئته النافذة .

الطريق الثاني : آياته المتلوة في كتابه الكريم ، فإن فيها من الأسماء والصفات الشيء الكثير، وآياته المتلوة نفسها صفة من صفاته دالة ، عليه ، وداعية إليه . قال تعالى ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو علم الغيب والشهدة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلم المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحن الله عما يشركون .

---

(١) المصدر السابق ١٧/٣ .

(٢) المصدر السابق ١٧/٣-٢٥ .

(٣) قال الذهبي رحمه الله : « هذه الصفات من الاستواء ، والاتيان ، والنزول ، قد صحت بها النصوص ، ونقلها الخلف عن السلف ، ولم يتعرضوا لها برد ولاتأويل ، بل أنكروا على من تأولها ، مع إتفاقهم على أنها لاتشبه نعوت المخلوقين ، وأن الله ليس كمثله شيء ، ولاتنبغي المناظرة ولاالتنازع فيها ، فإن في ذلك محاولة الرد على الله ورسوله ، أو حوماً حول التكييف أو التعطيل » سير أعلام النبلاء ٣٧٦/١١ .

(٤) الأسراء آية (٣٦) .

هو الله الخلق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموت والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [1] [2] .

ومعرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته أساس لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه والخوف منه ، ورجائه ، والاطراح بين يديه . ومن كانت معرفته لربه أكبر ، كانت عبوديته لربه أتم ، وأكمل ، فتوحيد الأسماء والصفات مفتاح لتوحيد الالهية ، الذي خلق الإنسان من أجله .

واستحضار أسماء الله سبحانه وصفاته في ذهن الانسان من أعظم ما يستعين به على الاستقامة على دين الله عز وجل وإصلاح نفسه ، فإن من يعلم أن ربه يسمع ، ويرى ، وهو معه بعلمه ، وقدرته ، يستحي من أن يراه ربه حيث نهاه ، وأن يفتقده حيث أمره .

ولأهمية توحيد الأسماء والصفات من جهة ، ولإنحراف أهل البدع فيه من جهة أخرى ، فقد أعطى السلف رضي الله عنهم توحيد الأسماء والصفات ما يستحقه من التبيين والتوضيح ، والرد على من انحرف فيه .

فأفردت فيه مؤلفات وأدرج ضمن مؤلفات جامعة ، وقرره السلف رضي الله عنهم في كتب العقيدة ، والحديث ، والتفسير ، وغيرها بأوضح بيان .

ومن الذين أدلوا بدلوهم في تقرير عقيدة السلف في توحيد الأسماء والصفات أبو المظفر رحمه الله فقد تعرض أثناء تفسيره لكتاب الله عز وجل لتوحيد الأسماء والصفات ، وقرر فيه مذهب السلف رضي الله عنهم من إثبات ما أثبته الله سبحانه لنفسه من الأسماء والصفات ورد على المنحرفين فيه .

وفي هذا الفصل سنقف إن شاء الله تعالى على جهده رحمه الله في تقرير عقيدة السلف في توحيد الأسماء والصفات وذلك من خلال المباحث التالية :

---

(١) الحشر آية (٢٢ - ٢٤) .

(٢) انظر الفوائد ص (٣١) .

المبحث الأول

توضيح أبي المظفر رحمه الله لبعض ما يتعلق بالأسماء الحسنى

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول : ثبوت الأسماء الحسنى لله عز وجل .

المطلب الثاني : الاسماء الحسنى توقيفية .

المطلب الثالث : معنى الالحاد في أسماء الله وأنواعه .

المطلب الرابع : الاسم هل هو المسمى أو غيره .

تعرض أبو المظفر رحمه الله لجملة من المسائل المتعلقة بالأسماء الحسنى نوردها من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : « في ثبوت الأسماء الحسنى لله عز وجل »

الأسماء الحسنى ثابتة لله عز وجل بنص الكتاب والسنة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت الأسماء الحسنى لله عز وجل قال رحمه الله عند تفسير قوله سبحانه ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [1] « هي : ما ورد في الخبر روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة » [2] [3] .

وهذه الآية الكريمة والحديث الشريف من أدلة السلف رضي الله عنهم التي استدلوا بها على وجوب إثبات ما أثبته الله سبحانه لنفسه من الأسماء الحسنى .

ووجه الدلالة ظاهر فإن الله سبحانه أخبر أن له الأسماء الحسنى ولا أحد أعلم بالله سبحانه من الله عز وجل وكذلك رسوله ﷺ أخبر أن لله عز وجل أسماء ولا أحد أعلم بعد الله بالله من رسول الله ﷺ ، وأبو المظفر رحمه الله عندما يثبت أن لله عز وجل الأسماء الحسنى فإنه يقرر بذلك مادان به السلف رضي الله عنهم من الإيمان بالأسماء الحسنى لله عز

---

(١) الأعراف آية (١٨٠) .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الدعوات ، باب لله مائة اسم غير واحد ٢١٤/١١ ، وكتاب التوحيد ، باب إن لله مائة اسم إلا واحد ٣٧٧/١٣ ، وأخرجه مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار ، باب أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ح ٢٦٧٧ . وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات من سننه ح ٣٥٠١ - ٣٥٠٢ - ٣٥٠٣ ، وسرد فيه تسعة وتسعين اسماً من أسمائه سبحانه ، وحكم أهل العلم على ما أورده الترمذي بالادراج . انظر : تفسير القرآن العظيم ٥١٦/٣ .

(٣) تفسير السمعاني ٤٢٩ تحقيق : طلال عرقسوس .

وجل كما جاءت في الكتاب الكريم والسنة النبوية .

والأدلة من الكتاب والسنة التي تثبت الأسماء الحسنى لله عز وجل كثيرة ، قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [1] الاية وقال تعالى ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [2] وقال عز وجل ﴿ هو الأول والآخر والظهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ [3] وقال جل وعلا ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو علم الغيب والشهدة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلم المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحن الله عما يشركون . هو الله الخلق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموت والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [4] .

بل ولا تكاد تخلو آية في كتاب الله عز وجل من اسم من أسمائه تعالى .

وفي الصحيحين من حديث حذيفة والبراء بن عازب رضي الله عنه « أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه قال : اللهم باسمك أحيا ، وباسمك أموت ، وإذا أصبح . قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » [5] .

وفي جامع الترمذي من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فيضره شيء» [6] .

---

(١) البقرة آية (٢٥٥) .

(٢) الاخلاص آية (١-٥) .

(٣) الحديد آية (٣) .

(٤) الحشر آية (٢٢-٢٤) .

(٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا نام ١١/١١٣ ، وباب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن ١١/١١٥ ، وباب ما يقول إذا أصبح ١١/١٣٠ ، وكتاب التوحيد : باب السؤال بأسماء الله تعالى والإستعاذة بها ٣/٣٧٨ . مسلم كتاب : الذكر والدعاء والتوبة ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ح ٢٧١١.

(٦) سنن الترمذي : كتاب الدعوات ، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ح ٣٣٨٥ ، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح .

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا آوى إلى فراشه « اللهم رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك ، شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر»[1] .

والأدلة من السنة على ثبوت الأسماء لله عز وجل أكثر من أن تحصى .

والسلف رضي الله عنهم مجمعون على ما دلت عليه النصوص السابقة[2] سواء ما يتعلق منها بإثباتها لله تعالى أو بإثبات عددها كما في الحديث السابق الذي أورده أبو المظفر إلا أن قوله رحمه الله عن الأسماء الحسنى « هي ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه » يشعر بأن أسماء الله محصورة ، ولا أظنه يقصد ذلك ، والحق أن أسماء الله سبحانه غير محصورة في عدد ،كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه ، وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً ، فقيل : يا رسول الله : أفلا نتعلمها ؟ فقال : بلى . ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها »[3] .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ح ٢٧١٣ .

(٢) انظر في ذلك : الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ص ٢٣ وما بعدها فإنه نقل جملة كبيرة من كلام السلف رضي الله عنهم في وجوب إثبات ما أثبته الله سبحانه لنفسه من الأسماء والصفات.

(٣) أخرجه الامام أحمد في المسند ٣٩١/١ ، والحاكم في المستدرك ٥٠٩/١ وقال صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه ، وتعقبه الذهبي بقوله « قلت وأبو سلمة لا يدرى من هو ولا رواية له في الكتب الستة » ، والحديث صححه ابن قيم الجوزية في بدائع الفوائد ١٩٦/١ ، والشيخ الألباني حفظه الله في الصحيحة ١٩٩ .

قال الامام ابن قيم الجوزية رحمه الله: « إن الأسماء الحسنى لاتدخل تحت حصر ، ولاتحد بعدد ، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده ، لايعلمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، كما في الحديث الصحيح : « اسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » ، فجعل أسماءه ثلاثة أقسام : قسم سمى به نفسه ، فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ، ولم ينزل به كتابه . وقسم أنزل به كتابه ، وتعرف به إلى عباده ، وقسم استأثر به في علم غيبه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا قال «استأثرت به » أي انفردت بعلمه ، وليس المراد انفراده بالتسمي ، لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه ، ومن هذا قوله عليه السلام في حديث الشفاعة « فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن »[1] وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته ، ومنه قوله « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2] وأما قوله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة »[3] فالكلام جملة واحدة ، وقوله من أحصاها دخل الجنة صفة لا خبر مستقل ، والمعنى له أسماء متعددة ، من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة ، وهذا كقولك لفلان ألف شاة أعدها للأضياف فلا يدل على أنه لا يملك غيرها ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء »[4] .

وقال الإمام النووي رحمه الله « اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما المقصود من الحديث الإخبار على دخول الجنة بأحصائها لا الإخبار بحصرها »[5] .

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير سورة ٣١٧/٨ ، وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ٣٩٢/١٣ وباب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٤٧٣/١٣ . صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ح ١٩٤ .

(٢) أخرجه مسلم : كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ح ٤٨٦ .

(٣) سبق عزوه ص ٣١٧ .

(٤) بدائع الفوائد ١٦٦/١ - ١٦٧ .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/١٧ ، وانظر : تفسير القرآن العظيم ٥١٦/٣ ، القواعد المثلى ١٣ .

المطلب الثاني :

« أسماء الله سبحانه توقيفية »

الأسماء الحسنى والصفات العلا لله عز وجل توقيفية ، يقتصر فيها على ما ورد في الكتاب والسنة ، فلا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ولا يسمى كذلك إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ .

وفي تقرير هذه المسألة يقول الامام أبو المظفر رحمه الله « اعلم أن أسماء الله تعالى على التوقيف فإنه يسمى جواداً ولا يسمى سخياً وإن كان في معنى الجواد ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلاً وعلى هذا لا يقال يا خادع يا مكار وإن ورد في القرآن الكريم ﴿ يخدعون الله وهو خدعهم ﴾[1] ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾[2] لكن لما لم يرد الشرع بتسميته لم يجز ذلك »[3] .

وهكذا فإنه لا يجوز في الأسماء القياس ، لأن ذلك من المغيبات التي لا يعلمها إلا الله وحده ، والصفات مثل الأسماء ، وإن لم يذكرها الإمام السمعاني ، فإن السلف متفقون على ذلك وما ذكره الإمام أبو المظفر رحمه الله هو مذهب السلف رضي الله عنهم كما ذكر ذلك غير واحد من أهل العلم قال الامام أحمد رحمه الله « لا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث »[4] وباب الأسماء والصفات واحد وفي هذا يقول أبو الحسن القابسي[5] « أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الإجماع ولا يدخل فيها القياس »[6] .

---

(١) النساء آية (١٤٢) .

(٢) الأنفال آية (٣٠) .

(٣) تفسير السمعاني ٤٢٩ ، بتحقيق طلال عرقسوس .

(٤) الفتوى الحموية الكبرى ص ١٦ .

(٥) هو : الإمام الحافظ الفقيه العلامة : أبو الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي : « نسبة إلى قابس تقع في جنوب تونس الآن » محدث : وفقيه : ومقرئ : أحد رواة صحيح الإمام البخاري ولد سنة ٣٢٤ ، وتوفي بالقيروان سنة ٤٠٣ ، انظر : سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٦٠ .

(٦) فتح الباري ١١/ ٢١٧ .

وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين حفظه الله « أسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزاد فيها ولا ينقص لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه سبحانه من الأسماء فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ [(١)] وقوله ﴿ قل إنما حرم ربي الفوحش ما ظهر منها وما بطن والأثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ [(٢)] ولأن تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى فوجب سلوك الأدب في ذلك والاقتصار على ما جاء به النص » [(٣)] .

ونشير هنا : إلى أن باب الاخبار عن الله سبحانه أوسع من باب الأسماء ، والصفات ، فإنه يجوز أن يخبر عن الله سبحانه بالشيء ، والموجود ، والقائم بالنفس ، والمخالف للحوادث، ولا يسمى بذلك. ولفظ القديم من هذا الباب لعدم ورود النص به »[(٤)].

المطلب الثالث :

« الإلحاد في أسماء الله سبحانه »

الإلحاد في اللغة : العدول ، والميل عن طريق الاستقامة . ومنه الملحد المائل عن الحق ، المدخل فيه ماليس منه ، ويقال ألحد الرجل : إذا مال عن طريقة الحق ، والإيمان [(٥)]

والإلحاد في أسماء الله:هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها[(٦)].

والإلحاد في أسمائه سبحانه أنواع أشار إلى بعض منها الإمام السمعاني رحمه الله

---

(١) الاسراء آية (٣٦)

(٢) الاعراف آية (٣٣) .

(٣) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين حفظه الله ص ١٣ .

(٤) انظر في ذلك : بدائع الفوائد ١٦٢/١ ، الصفات الالهية في الكتاب والسنة النبوية محمد أمان بن علي الجامي ص ١٧٥ .

(٥) انظر : معجم مقاييس اللغة ٢٣٦/٥ .

(٦) الفوائد لابن قيم الجوزية رحمه الله ١٦٩/١ .

عند تفسيره لقوله عز وجل ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمئه ﴾ [1] .

قال رحمه الله « قيل : الإلحاد في الأسماء هنا ؛ كانوا يقولون في مقابلة اسم الله اللات ، وفي مقابلة العزيز العزى ، ومناة في مقابلة المنان .

وقيل : تسميتهم الأصنام آلهة . وهذا أعظم الإلحاد في الأسماء ، فهذا معنى قوله ﴿وذروا اللذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ » [2] .

وما ذكره الإمام السمعاني رحمه الله يرجع إلى نوع واحد من أنواع الإلحاد في أسمائه سبحانه وهو إطلاق مالا يصلح إطلاقه إلا على الله عز وجل من الأسماء على غيره .

قال الامام ابن قيم الجوزية رحمه الله في بيان أنواع الالحاد في أسمائه سبحانه ومنها ما ذكره الامام السمعاني رحمه الله « الإلحاد في أسمائه تعالى أنواع .

أحدها : أن يسمي الاصنام بها كتسميتهم اللات من الالهية ، والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهاً . وهذا إلحاد حقيقة ، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم ، وآلهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بمالا يليق بجلاله .كتسمية النصارى له أباً ، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته ، أو علة فاعلة بالطبع ، ونحو ذلك .

وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص . كقول أخبث اليهود أنه فقير ، وقولهم أنه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم يد الله مغلولة ، وأمثال ذلك ؛ مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته .

ورابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم أنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع ، والبصير ، والحي ، والرحيم ، والمتكلم ، والمريد ، ويقولون لا حياة ، له ولا سمع ولا بصر ، ولا كلام ، ولا إرادة تقوم به ، وهذا من أعظم الالحاد فيها عقلاً ، وشرعاً ، ولغة

---

(١) الاعراف آية (١٨٠) .

(٢) تفسير السمعاني ٤٢٩ تحقيق طلال عرقسوس .

وفطرة . وهو يقابل إلحاد المشركين . فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله ، وجحدوها ، وعطلوها ، فكلاهما ملحد في أسمائه » [1] .

وفي تنبيه الإمام السمعاني رحمه الله على بعض أنواع الالحاد في أسمائه سبحانه ما يبين حرصه رحمه الله على توضيح ما يضاد إثبات الاسماء الحسنى لله عز وجل .

المطلب الرابع :

« الاسم هل هو المسمى أم غيره »

من المسائل التي لها علاقة بالأسماء الحسنى والتي تطرق إليها أبو المظفر رحمه الله مسألة هل الاسم هو المسمى أم غيره .

وهذه المسألة من المسائل الحادثة التي حدثت بعد عصر الأئمة :الامام أحمد وغيره .

والمعروف عن السلف رضي الله عنهم إنكارهم على الجهمية قولهم بأن أسماء الله مخلوقة [2] .

قال ابن جرير الطبري رحمه الله « وأما القول في الاسم هل هو : المسمى أم غيره ، فإنه من الحماقات الحادثة ، التي لا أثر فيها فيتبع ، ولاقول من إمام فيستمع ، والخوض فيه شين ، والصمت عنه زين ، وحسب امرئ من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الصادق عز وجل وهو قوله سبحانه ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [3] وقوله سبحانه ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [4] » [5] .

وقد ذهب جماعة من السلف منهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو القاسم الطبري اللالكائي إلى أن الإسم هو المسمى وقصدهم بذلك الرد على المعتزلة الذين يقولون بأن أسماء

---

(١) الفوائد ١٦٩/١ ، وانظر : القواعد المثلى ١٦ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٨٥/٦ .

(٣) الاسراء الآية ١١٠ .

(٤) الاعراف الآية ١٨٠ .

(٥) صريح السنة ٢٧ .

الله مخلوقة[1] .

وقد ذهب الإمام أبو المظفر رحمه الله في تفسيره إلى أن الاسم هو المسمى .

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ تبرك اسم ربك ذي الجلل والإكرام ﴾[2] والاسم والمسمى واحد عند أكثر أهل السنة »[3] وقال رحمه الله في تفسير قوله عز وجل ﴿فسبح باسم ربك العظيم ﴾[4] وفيه دليل على أن الاسم على المسمى ولا فرق بينهما[5] وفي تفسير قوله عز وجل ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[6] قال رحمه الله في الآية دليل على أن الاسم والمسمى واحد لأن المعنى سبح ربك الأعلى[7] واستدل رحمه الله بقول الشاعر[8]:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر[9]

وما قرره الإمام السمعاني رحمه الله يحتاج إلى شيء من التفصيل فإن الاسم يطلق ويراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه تارة أخرى فإذا قلت قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده فهذا المراد به المسمى نفسه وإذا قلت : الله ، اسم عربي ، والرحمن اسم عربي من أسماء الله تعالى ، ونحو ذلك ، فالاسم هاهنا للمسمى ، ولا يقال غيره ، لما في لفظ الغير من الاجمال[10] .

والذي يظهر أن أبا المظفر رحمه الله يقصد من قوله أن الاسم هو المسمى التسمية وليس هو نفس اللفظ المركب من ألف ، وسين ، وميم ، فإن كان قصده ذلك فمحق ، وإن كان

---

(١) انظر : أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٢٠٤ ، مجموع الفتاوى ٦/١٨٧-١٨٨ .

(٢) الرحمن آية (٧٨) .

(٣) تفسير السمعاني ١٠٤ بتحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٤) الحاقة آية ٥٢ .

(٥) تفسير السمعاني ٥٨٠ تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٦) الأعلى آية (١) .

(٧) تفسير السمعاني ٦٥١ بتحقيق سليمان الحزي .

(٩) هو لبيد بن ربيعة العامري والبيت في ديوانه ٧٩ .

(١٠) انظر : شفاء العليل ٥٤٢ ، وشرح الطحاوية ١/١٠٢ .

يقصد أن نفس اللفظ هو المسمى فهذا خلاف مادل عليه الكتاب والسنة واجمع عليه علماء الأمة وأنا أستبعد أن يكون مراد أبي المظفر هذا [1] والله أعلم .

وسواء أراد أبو المظفر رحمه الله الأول أم الثاني فإن الذي عليه جمهور أهل السنة ودل عليه الكتاب والسنة والمعقول أن الاسم للمسمى وليس هو نفس المسمى .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله « والذين يقولون : إن الاسم للمسمى ، كما يقوله أكثر أهل السنة ، فهؤلاء وافقوا الكتاب ، والسنة ، والمعقول . قال الله تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ [2] وقال ﴿ أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [3] .

وقال النبي ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً » [4] وقال النبي ﷺ « إن لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأحمد ، والماحي ، والحاشر ، والعاقب » [5] وكلاهما في الصحيحين . وأما المعقول . فالاسم مشتق من السمو ، أو من السمة ، على اختلاف بين البصريين والكوفيين ، فالاسم يظهر به المسمى ، ويعلو . ولذلك يقال للمسمى سمه . أي : أظهره ، وأعله . أي : أعل ذكره بالاسم الذي يذكر به ، ويقال : الاسم دليل المسمى ، وعلم المسمى ، ونحو ذلك » [6] .

والآيات التي أشار أبو المظفر رحمه الله إلى أنها تدل على أن الاسم هو المسمى لاتدل على أن الاسم الذي هو الف ، وسين ، وميم ، هو نفس المسمى ، بل المراد بتسبيح الاسم فيها ، هو تسبيح المسمى بذلك الاسم ، كما أن دعاء الاسم هو دعاء المسمى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « والله سبحانه قد أمر بتسبيح اسمه ،

---

(١) انظر : شفاء العليل ٦٥١ ، وشرح الطحاوية ١٠٢/١ .

(٢) الاعراف آية (١٨٠) .

(٣) الاسراء آية (١١٠) .

(٤) تقدم عزوه .

(٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب المناقب ، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ٥٥٤/٦ . صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، باب في أسمائه ﷺ ح ٢٣٥٤ .

(٦) مجموع الفتاوى ٢٠٦/٦-٢٠٧ بتصرف .

وأمر بالتسبيح باسمه ، كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى ، فيدعى بأسمائه الحسنى ، ويسبح اسمه ، وتسبيح اسمه هو تسبيح له ، إذ المقصود بالاسم المسمى ، كما أن دعاء الاسم هو دعاء المسمى .

قال الله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [1] » [2] .

وكذلك بيت الشعر المراد باسم السلام فيه هو النطق بهذا الاسم ، وذكره ، وهو التسليم المقصود ، كأنه قال ثم سلام عليكم ، ليس مراده أن السلام يحصل عليهما بدون أن ينطق به ، ويذكر اسمه ، فإن نفس السلام قول فإن لم ينطق به ناطق ويذكره لم يحصل [3] .

والإمام السمعاني رحمه الله إنما تبع غيره ممن تقدمه من أهل السنة ممن قال بهذا القول ، وهم جميعاً قصدهم نصرة الحق ، والرد على من قال إن الاسم غير المسمى ، لكن لما كان القول بأن الاسم هو المسمى لا يخلو أيضاً من إجمال وإبهام ، كان الصحيح أن يقال إن الاسم للمسمى ، وهو الذي دل عليه القرآن والسنة .

---

(١) الاسراء آية (١١٠) .

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٢٠٢ .

المبحث الثاني

ثبوت الصفات العلا لله عز وجل

وفيه مطالب

المطلب الأول : صفة الكلام

المطلب الثاني : صفة العلو والفوقية .

المطلب الثالث : صفة الاستواء

المطلب الرابع : صفة العلم .

المطلب الخامس : صفة المعية .

المطلب السادس : صفة الإرادة والمشيئة .

المطلب السابع : صفة الحياة .

المطلب الثامن : صفة الوجه .

المطلب التاسع : صفة اليدين .

المطلب العاشر : صفة القدم .

المطلب الحادي العشر : صفة المجيء .

المطلب الثاني عشر : صفة الساق .

الصفات

تمهيد : اهتم أبو المظفر رحمه الله بمسألة الصفات اهتماماً ، كبيراً ، ويظهر اهتمامه رحمه الله بمسألة الصفات من خلال حرصه على توضيح وبيان الحق الذي يجب اعتقاده في صفات الله تعالى .

وللوقوف على جهده رحمه الله تعالى في تقرير عقيدة السلف في صفات الله عز وجل فإنني سأعرض في هذا المبحث الصفات التي تحدث عنها أبو المظفر رحمه الله في تفسيره والتي هي صفة الكلام ، صفة العلو والفوقية ، صفة الاستواء ، صفة العلم ، صفة المعية ، صفة الإرادة والمشيئة ، صفة الحياة ، صفة الوجه ، صفة اليدين ، صفة القدم ، صفة المجيء ، صفة الساق .

ونبدأ بذكر صفة الكلام وما قرره الامام السمعاني فيها .

المطلب الأول :

صفة الكلام :

من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة ، وإجماع السلف الصالح رضي الله عنهم صفة الكلام .

وهي صفة ذات باعتبار نوع الكلام ، وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله ومشيئته .

فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، ومتى شاء ، وكيف شاء يتكلم بصوت يُسمع يسمعه من شاء من خلقه ، سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة ، وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله ، وسيسمعه المؤمنون في الآخرة .

وقد قرر الامام أبو المظفر رحمه الله ثبوت صفة الكلام لله عز وجل في مواضع كثيرة من تفسيره .

قال رحمه الله تعالى عند قوله عز وجل ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً

﴾ [1] « وهذا دليل على أن الله متكلم ، لم يزل ، ولا يزال . لأنه استدل بعدم كلام العجل على نفي الالهية » [2] .

وعند قوله عز وجل ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ [3] قال رحمه الله « إنما كلمه بنفسه ، من غير واسطة ولا وحي ، فإن قال قائل : بأي شيء عرف موسى أنه كلام الله . قيل : بتعريف الله تعالى إياه ، وإنزال آية عرف موسى أنه كلام الله تعالى وهذا مذهب أهل السنة ، أنه سمع كلام الله حقيقة بلا كيف » [4] .

وما قرره الإمام السمعاني رحمه الله من أن الله سبحانه إنما كلم موسى بنفسه ، وأنه سبحانه متكلم لم يزل ولا يزال مجمع عليه عند السلف رضي الله عنهم كما قرره غيره من أهل العلم .

قال الشيخ تقي الدين المقدسي [5] رحمه الله « مذهب أهل الحق أن الله عز وجل لم يزل متكلماً بكلام مسموع ، مفهوم ، مكتوب » [6] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض حكاية أقوال الناس في كلام الله تعالى « وقول الجمهور ، وأهل الحديث وأئمتهم أن الله تعالى لم يزل متكلماً ، إذا شاء ، وأنه يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار ، والقرآن وغيره من الكتب الالهية كلام الله تعالى ، تكلم به بمشيئته ، وقدرته ، ليس ببائن عنه مخلوقاً ، ولا يقولون إنه صار متكلماً ، بعد أن لم يكن متكلماً ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو حادث ، بل ما زال متكلماً إذا شاء ، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته فكلامه لا ينفد » [7] .

---

(١) الاعراف آية (١٤٨) .

(٢) تفسير السمعاني ٣٥٩ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) النساء آية (١٦٤) .

(٤) تفسير السمعاني ٥٥٢-٥٥٣ ، تحقيق صلاح الدين شيخ ادريس .

(٥) هو : الامام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، كان عالم أهل الشام في زمانه ولد سنة ٥٤١ ، وسمع أبا المكارم بن هلال ، وأبا الفضل الطوسي ، والمبارك بن الطباخ ، وكان إمام الحنابلة في زمانه من مصنفاته « المغني » « الكافي » « روضة الناظر » ، وتوفي سنة ٦٢٠ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٢/١٦٥ .

(٦) عقيدة المقدسي ص ٦١ .

(٧) مجموع الفتاوى ١٢/١٧٣ .

وقال أيضاً : « فالقرآن الذي نقرؤه مبلغاً عنه ، لا مسموعاً منه ، وإنما نقرؤه بأصواتنا ، وحركاتنا ، الكلام كلام الباريء ، والصوت صوت القاريء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل » [1] .

وقال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله « والحق : أن التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، من كلام الله حقيقة ، وكلام الله تعالى لا يتناهى ، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء وكيف شاء ، ولا يزال كذلك » [2].

ذلك هو : معتقد السلف رضي الله عنهم في صفة كلام الله تعالى وهو يؤكد صحة ما قرره الامام السمعاني رحمه الله من أن عقيدة أهل السنة أن الله سبحانه يتكلم بما شاء ، وكيف شاء ، ومتى شاء ، لم يزل ، ولا يزال سبحانه متكلماً بلا كيف .

صفة الكلام وأهل البدع

ذهب أهل البدع من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، وغيرهم ، في كلام الله سبحانه خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة ، وأجمع عليه السلف رضي الله عنهم .

وقد تشعبت أقوالهم ، وتعددت . حتى أوصلها ابن أبي العز الحنفي رحمه الله إلى ثمانية أقوال [3] وكلها باطلة ومردودة بنص القرآن الكريم ، وصحيح السنة ، وإجماع سلف الأمة المشهود لهم بالخيرية بنص حديث رسول الله ﷺ وما قرره الامام السمعاني رحمه الله من ثبوت صفة الكلام لله عز وجل على الوجه المذكور رد منه رحمه الله على تلك الأقوال الباطلة ، وقد خص رحمه الله المعتزلة بالرد على قولهم وإبطال شبهاتهم التي تعلقوا بها في قولهم بخلق القرآن الكريم .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ [4] وفيه دليل على من قال أن الله خلق كلاماً في الشجرة، فسمعه موسى، وذلك لأنه قال :﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ [5].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٩٨ ، ١٢/٢٤٤ .

(٢) شرح الطحاوية ١/١٩٠ .

(٣) ينظر : شرح الطحاوية ١/١٧٣ - ١٧٤ ، ومجموع الفتاوى ١٢/١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) النساء آية (١٦٤) .

(٥) النساء آية ١٦٤ .

قال الفراء وثعلب [1] إن العرب تسمي ما توصل إلى الإنسان كلاماً بأي : طريق وصل إليه،ولكن لا يحققه بالمصدر،فإذا حقق الكلام بالمصدر،لم يكن إلا حقيقة الكلام » [2].

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ فلما أتيها نودي من شطئ الواد الأيمن في البقعة المبركة من الشجرة أن يموسى إني أنا الله رب العلمين ﴾ [3] وقوله من الشجرة قال الزجاج والنحاس [4] وغيرهما : كلم الله موسى من الشجرة بلا كيف ، وعن الضحاك [5] من نحو الشجرة .

---

(١) هو : أبو العباس أحمد بن يحي بن يزيد الشيباني مولاهم البغدادي صاحب « الفصيح » وغيره من التصانيف ولد سنة ٢٠٠ وتوفي سنة ٢٩١ سير أعلام النبلاء ١٤/٥-٧ .

(٢) تفسير السمعاني ٥٥٣ تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس ، وقال القرطبي رحمه الله في تفسير « تكليماً » مصدر ، معناه : التأكيد ، يدل على بطلان من يقول خلق لنفسه كلاماً في شجرة ، فسمعه موسى ، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً ، قال النحاس : وأجمع النحويون على أنه إذا أكد الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً ، وأنه لا يجوز في قول الشاعر : امتلأ الحوض وقال قطني ، أن يقول : قال : قولا ، فكذا لما قال «تكليماً » وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة ، من الكلام الذي يعقل » الجامع لأحكام القرآن ٦/١٨ .

(٣) القصص آية (٣٠) .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي أبو جعفر النحاس العلامة إمام العربية صاحب التصانيف توفي سنة (٣٣٨) سير أعلام النبلاء ١٥/٤٠١، ٤٠٢ .

(٥) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد ، وقيل أبو القاسم ، صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم حدث عن أنس بن مالك ، وأبي سعيد الخدري ، وابن عمر ، وغيرهم ، وحدث عنه : عمارة بن أبي حفصة ، وأبو سعد البقال ، وجويبر بن سعيد ، وغيرهم ، وثقه أحمد بن حنبل ، ويحي بن معين وغيرهما ، وضعفه آخرون . له باع كبير في التفسير ، والقصص ، أخذ التفسير عن سعيد بن جبير ، من أقواله رحمه الله : « حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً ، وتلا قول الله تعالى ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ آل عمران : ٧٩. توفي رحمه الله سنة ١٠٢ ، وقيل سنة ١٠٥ ، وقيل ١٠٦ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٤/٥٩٨-٦٠٠ ، غاية النهاية ١/٣٣٧ ، طبقات المفسرين للداودي ١/٢٢٢ .

وعند المعتزلة أن الله تعالى خلق كلاماً في الشجرة فسمع ذلك الكلام وهذا عندنا باطل وذلك لأن الله تعالى هو الذي كلم موسى على ما ورد به النص،وإذا كان على هذا الوجه الذي قالوا فيكون خالقاً لا مكلماً،لأنه يقال خلق فهو خالق،لا يقال خلق فهو مكلم[1].

شبهات المعتزلة :

تعلق المعتزلة في قولهم بخلق القرآن ببعض الشبهات . ومن شبهاتهم التي بنوا عليها القول بخلق القرآن ، والتي نبه عليها أبو المظفر رحمه الله ما يلي :

الشبهة الأولى : استدلالهم بقوله عز وجل ﴿ إنا جعلنه قرءاناً عربياً ﴾[2] وقد بين رحمه الله وجه تفسير الآية عند السلف كما أشار إلى استدلال المعتزلة بها وبين بطلانه .

قال رحمه الله في تفسير الآية « وقال السدى[3] أنزلناه[4] ، وقال مجاهد[5] قلناه[6] ، وعن بعضهم بيّناه[7] .

قال سفيان الثوري، واستدل بهذا من زعم أن القرآن مخلوق ، وذكر أن الجعل بمعنى الخلق، بدليل قوله تعالى ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾[8] أي: خلق لكم، وعندنا أن هذا التعلق باطل ، والقرآن كلام الله غير مخلوق ، وعليه إجماع أهل السنة ، وزعموا أن

---

(١) تفسير السمعاني ١٩٦ تحقيق حافظ بركات محمد حزب الله ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٩٨/٢ - ٧٩٩ .

(٢) الزخرف آية (٣) .

(٣) هو : إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الامام ، المفسر ، أبو محمد الحجازي ، ثم الكوفي ، الأعور، السدى ، أحد موالي قريش ، قيل فيه : كان أعلم بالقرآن من الشعبي ، قال فيه ابن حجر : صدوق ، يهم ، ورمى بالتشيع ، توفي سنة ٢٢٧، تقريب التهذيب ١٠٨ .

(٤) وهو قول سعيد بن جبير أيضاً . انظر : زاد المسير ٣٠٢/٧ .

(٥) هو : مجاهد بن جبر ، الإمام ، شيخ القراء ، والمفسرين ، أبو الحجاج المكي ، أخذ القرآن ، والتفسير، والفقه ، عن عبد الله بن عباس ، وغيره من الصحابة ، وأخذ عنه عكرمة ، وطاووس ، وعطاء ، وجماعة كثيرة توفي سنة (١٠٠) وقيل : غير ذلك ، سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٤ .

(٦) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٦١/١٦ .

(٧) عزاه القرطبي إلى سفيان الثوري ، والزجاج ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ٦١/١٦ .

(٨) طه آية (٥٣) .

من قال أنه مخلوق فهو كافر ، لأن فيه نفي كلام الله تعالى .

وقد ورد الجعل في القرآن الكريم لا بمعنى الخلق قال تعالى ﴿ وجعلوا الملئكة الذين هم عبد الرحمن إنثاً ﴾ [1] ومعناه : أنهم وصفوهم بالأنوثة، وليس المعنى أنهم خلقوهم » [2]

قلت : جعل في كتاب الله ترد متعدية إلى فعل واحد ، ومتعدية إلى فعلين ، فإذا كانت متعدية إلى فعل واحد وذلك، كقوله تعالى ﴿ وجعل الظلمت والنور ﴾ [3] وقوله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض روسي أن تميد بهم ﴾ [4] فهي بمعنى خلق وإذا تعدت إلى مفعولين لم تكن بمعنى « خلق » قال تعالى ﴿ولا تنقضوا الأيمن بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ [5] وقال تعالى ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمنكم ﴾ [6] ونظائره كثيرة فهل يقال في مثل هذا وقد خلقتم الله عليكم كفيلا ، أو ولاتخلقوا الله عرضة لأيمانكم ، ومنه : قوله تعالى ﴿ إنا جعلنه قرآناً عربياً﴾ [7] أي أنزلناه قرآنا عربيا واستدلال المعتزلة بهذه الآية دليل على جهلهم بلغة القرآن ، وجرأتهم على القول على الله عز وجل بغير بينة ، حيث حملوا كلامه مالم يحتمله .

الشبهة الثانية : استدلالهم بقوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ [8] . قال أبو المظفر رحمه الله « واستدل المعتزلة بهنا على أن القرآن مخلوق ، وقالوا : كل محدث مخلوق ، والجواب عنه : أن معنى قوله « محدث » أي محدث تنزيله ذكره الأزهري [9] وغيره [10] » .

---

(١) الزخرف آية (١٩) .

(٢) تفسير السمعاني ٩٢ - ٩٤ ، بتحقيق محمد الأمين الشنقيطي .

(٣) الأنعام آية (١) .

(٤) الأنبياء آية (٣٠-٣١) .

(٥) النحل آية (٩١) .

(٦) البقرة اية (٢٢٤) .

(٧) انظر شرح الطحاوية ١٨٢/١ .

(٨) الأنبياء آية (٢) .

(٩) هو : محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري ، الهروي ، أبو منصور اللغوي ، صاحب تهذيب اللغة وغيره من الكتب المفيدة توفي سنة (٣٧٠) انظر : وفيات الأعيان ٣٣٤/٤ ، سير أعلام النبلاء ٣١٥/١٦ .

(١٠) تفسير السمعاني ٤ بتحقيق محمد اقبال فضل حسين .

وما قرره أبو المظفر رحمه الله من أن المراد بقوله تعالى ﴿ محدث ﴾ أي : محدث تنزيله قرره غيره من أهل العلم .

قال ابن قتيبة رحمه الله « المحدث . ليس هو في موضع بمعنى مخلوق ، فإن أنكروا ذلك . فليقولوا في قول الله ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [1] أنه يخلق . وكذلك قوله ﴿ لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾ [2] أي : يحدث لهم القرآن ذكراً . والمعنى يجدد عندهم ما لم يكن . وكذلك قوله ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ [3] أي : حدث عندهم لم يكن قبل ذلك » [4] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «والمحدث في الآية . ليس هو المخلوق ، الذي يقوله الجهمي ، ولكنه الذي أنزله جديداً ، فإن الله تعالى كان ينزل القرآن شيئاً ، بعد شيء ، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخراً ، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب » [5] .

ومن الآيات التي توهم أهل البدع أنها تدل على أن القرآن ليس كلام الله عز وجل قوله تعالى ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [6] وقد دفع أبو المظفر رحمه الله هذا التوهم بقوله « أي : رسول كريم على الله . قيل : إنه جبريل . وقيل : إنه محمد ﷺ . فإن قال قائل : كيف قال إنه لقول رسول كريم ، وإنما هو قول الله تعالى والجواب من وجهين :

أحدهما : أن معناه ، تلاوة رسول كريم .

والثاني : قول الله . وإبلاغ رسول كريم فاتسع في الكلام واكتفى بالفحوى » [7] .

---

(١) الطلاق آية (١) .

(٢) طه آية (١١٣) .

(٣) الأنبياء آية (٢) .

(٤) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة مطبوع ضمن عقائد السلف (٢٣٤) .

(٥) مجموع الفتاوى ٥٢٢/١٢ .

(٦) الحاقة آية (٤٠) التكوير آية (١٩) .

(٧) تفسير السمعاني ٥٧٧ ، بتحقيق عبد البصير مختار حسن .

وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول أبي المظفر رحمه الله ، هذا بعبارة أوسع فقال : « وأما قوله تعالى ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ فهذا قد ذكره في موضعين . فقال في الحاقة ﴿ إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ﴾ [1]فالرسول هنا. محمد ﷺ . وقال في التكوير ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ [2]فالرسول هنا . جبريل . فأضافه إلى الرسول من البشر تارة ، وإلى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول . ولم يقل إنه لقول ملك ، ولا نبي . لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره ، لا منشئ له من عنده ﴿وما على الرسول إلا البلغ المبين ﴾ [3] فكأن قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ بمنزلة قوله لتبليغ رسول، أو مبلغ من رسول كريم ، أو جاء به رسول كريم ، أو مسموع عن رسول كريم ، وليس معناه أنه أنشأه ، أو أحدثه ، أو أنشأ شيئاً منه ، أو أحدثه رسول كريم ، إذ لو كان منشأ لم يكن رسولاً فيما أنشأه وابتدأه ، وإنما يكون رسولاً فيما بلغه ، وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد على القرآن مطلقاً » [4].

فالآية كما قرر الامام أبو المظفر رحمه الله وأوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لا مستند فيها لمن قد يتوهم أن فيها دليلاً على أن القرآن الكريم ليس هو من كلام الله تعالى .

وفي كل ما تقدم من اثبات صفة الكلام لله عز وجل ما يؤكد جهد أبي المظفر رحمه الله وحرصه على بيان الحق ، والرد على المخالفين للسلف رضي الله عنهم في صفات الله عز وجل .

وهناك فرق أخرى ضلت عن منهج السلف في صفة الكلام كما سبقت الإشارة إلى ذلك لم يتعرض لها أبو المظفر رحمه الله وفي ظني أن نصرته لعقيدة السلف ، ودفاعه عنها،

---

(١) الحاقة ءاية (٤٠-٤٢) .

(٢) التكوير آية (١٩-٢٣) .

(٣) النور آية ٥٤ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٢/٢٦٥ وانظر شرح الطحاوية ١/١٨٣.

وتأكيده على صحتها ، رد منه على كل من خالفها والله أعلم .

المطلب الثاني : صفة العلو والفوقية :

صفة العلو والفوقية من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف الصالح رضي الله عنهم ، وبالعقل ، والفطرة .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت هذه الصفة لله عز وجل قال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ [1] « قال بعضهم يخافون عذاب ربهم من فوقهم ، والقول الثاني : وهو الأصح أن هذا صفة العلو ، الذي تفرد الله به ، وهو كما وصف نفسه ، من غير تكييف » [2] .

وعند قوله عز وجل ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ [3] قال رحمه الله « قال ابن عباس أي : الله » [4] .

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل « ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [5] القاهر الغالب الذي لا يُغلَب ، وقيل : المتفرد بالتدبير الذي يجبر خلقه على ما يريد وقوله ﴿ فوق عباده﴾ هو صفة الإستعلاء الذي يعرفه أهل السنة » [6] .

وما قرره الامام السمعاني رحمه الله من إثبات صفة العلو لله عز وجل مجمع عليه عند السلف رضي الله عنهم والأدلة عليه أكثر من أن تحصى ، حتى قال بعض أصحاب الامام الشافعي رحمه الله في القرآن ألف دليل أو أزيد تدل على أن الله عال على الخلق ، وأنه فوق عباده [7] .

---

(١) النحل اية (٥٠) .

(٢) تفسير السمعاني ١٨٩ ، تحقيق فاروق محمد حسين .

(٣) الملك آية (١٦) .

(٤) تفسير السمعاني ٥٠٠ ، تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٥) الانعام آية (١٨) .

(٦) تفسير السمعاني ٢٦ بتحقيق طلال عرقسوس .

(٧) مجموع الفتاوى ١٢١/٥ ، ٢٢٦/٥ ، ٢٥٦/٥ .

قال الشيخ موفق الدين أبو عبد الله المقدسي « فإن الله وصف نفسه بالعلو في السماء ، ووصفه بذلك رسوله خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، وأجمع على ذلك جميع العلماء ، من الصحابة الاتقياء ، والأئمة من الفقهاء ، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين ، وجمع الله عز وجل عليه قلوب المسلمين ، وجعله مغروزاً في طبائع الخلق أجمعين ، فتراهم عند نزول الكرب بهم يلحظون إلى السماء بأعينهم ، ويرفعون نحوها للدعاء أيديهم ، وينتظرون مجيء الفرج من ربهم سبحانه ، وينطقون بذلك بألسنتهم ، لا ينكر ذلك إلا مبتدع غال في بدعته ، أو مفتون بتقليده واتباعه على ضلالته »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في إثبات صفة العلو لله عز وجل « فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها ، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأئمة ؛مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه هو العلي ، الأعلى وهو فوق كل شيء ، وهو على كل شيء ، وأنه فوق العرش ، وأنه فوق السماء ، مثل قوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصلح يرفعه ﴾[2] ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ﴾[3] ﴿ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾[4] ﴿ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾[5] .

وذكر رحمه الله جملة من الآيات القرآنية ثم قال وفي الأحاديث الصحاح والحسان مالا يحصى إلا بالكلفة .. ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين ، أو ألوفاً»[6] .

---

(١) إثبات صفة العلو لابن قدامة ص ١ .

(٢) فاطر آية (١٠) .

(٣) آل عمران الآية (٥٥) .

(٤) الملك آية (١٦) .

(٥) الملك آية (١٧) .

(٦) الفتاوى ٥/١٢-١٥ ، وانظر المصدر نفسه ١٢/١٩٤ . ١٢/١٣٦ ، وانظر : العلو للعلي الغفار للذهبي ، واجتماع الجيوش الاسلامية ٢/٩٦ ، ومابعدها ، شرح العقيدة الطحاوية ٢/٣٧٥-٣٨٧ .

وقال رحمه الله « قاعدة في إثبات علوه تعالى وهو واجب بالعقل الصريح ، والفطرة الانسانية الصحيحة ، وهو أن يقال : كان الله ولا شيء معه ، ثم خلق العالم ، فلا يخلو إما أن يكون خلقه في نفسه ثم انفصل عنه ، وهذا محال ، تعالى الله عن مماسة الاقذار ، وغيرها ، وإما أن يكون خلقه خارجاً عنه ، ثم دخل فيه ، وهذا محال أيضاً : تعالى الله أن يحل في خلقه ، وهاتان لا نزاع فيهما بين المسلمين ، وإما أن يكون خلقه خارجاً عن نفسه الكريمة ولم يحل فيه فهذا هو الحق ، الذي لا يجوز غيره ، ولا يليق بالله إلا هو »[1] .

قلت : ومن دلالة العقل أيضاً : على ثبوت صفة العلو لله عز وجل ، أن العلو صفة كمال والله سبحانه له الكمال المطلق ، وكل كمال ثبت لغيره فثبوته له سبحانه من باب أولى[2] .

وأما دلالة الفطرة على ثبوت صفة العلو لله عز وجل فإنه ما من أحد يتوجه إلى ربه بالدعاء إلا ورفع يديه إلى السماء ، وفيه أكبر دليل على أن النفوس مفطورة على الاقرار بعلو الله سبحانه[3] .

وعلوه سبحانه نوعان :

علو ذات ، وعلو صفات[4] ، وكل منهما ثابت لله عز وجل بالكتاب والسنة وإجماع السلف رضي الله عنهم .

وإثبات أبي المظفر رحمه الله لصفة العلو لله عز وجل ، ليس تقريراً منه لعقيدة السلف فحسب بل هو أيضاً رد منه على الذين يقولون إن الله سبحانه في كل مكان . أو لا هو داخل العالم ولا خارجه تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

(١) الفتاوى ٥/١٥٢ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ٢/٣٨٩ .

(٢) انظر : فتح رب البرية بتلخيص الحموية ٦٦ .

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٢/٤٤٥-٤٤٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ٢/٣٩٠ .

(٤) انظر : فتح رب البرية ٦٥ .

المطلب الثالث :

صفة الإستواء :

من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة وإجماع السلف رضي الله عنهم استواؤه سبحانه على عرشه ، استواء حقيقياً ، يليق بجلاله ، وعظمته ، بلا كيف .

وقد اهتم أبو المظفر رحمه الله بهذه الصفة مبيناً رحمه الله معنى العرش من حيث اللغة ، والشرع . ومقررا عقيدة السلف رضي الله عنهم في إثبات صفة الاستواء لله عز وجل كما نبه على بطلان قول من أول الاستواء بالإستيلاء . ولما كان أبو المظفر رحمه الله تطرق إلى المسائل المشار إليها . فإن الحديث عن هذه الصفة سيكون من خلال ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : عرش الرحمن جل وعلا

جاء ذكر العرش في كثير من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبي ﷺ . وعلاقته بصفة الاستواء ؛ وثيقة حيث : أن المراد بالاستواء ؛ هو استواء الله عليه ، ولذلك كان بيانه من حيث اللغة والشرع . هو من تمام بيان صفة الاستواء .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى الحق الذي يجب اعتقاده في عرش الرحمن ، مبيناً رحمه الله معناه من حيث : اللغة ، والشرع . ومنبهاً على بطلان قول من تأوله على غير معناه الصحيح .

قال رحمه الله « والعرش هو السرير في اللغة . وأما : في القرآن ؛ هو العرش المعروف فوق السموات . وفي التفسير أنه لا يقادر قدره »[1] .

وكلامه رحمه الله يتضمن أربعة أمور .

الأول : أن العرش في اللغة هو السرير .

الثاني : إثبات وجود عرش الرحمن عز وجل .

الثالث : أنه فوق السموات .

الرابع : أنه لا يقادر قدره . وفيه دلالة على عظمته وأنه من أعظم المخلوقات .

أما الأمر الأول فهو كما ذكر رحمه الله قال في الصحاح : « العرش سرير الملك . وعرش البيت سقفه »[2] .

---

(١) تفسير السمعاني ٦١٥ ، تحقيق : سليمان صالح الخزي .

(٢) الصحاح ١٠٠٩/٣ .

وأما الثلاثة الباقية : فقد دل على ما قاله السمعاني رحمه الله فيها الكتاب ، والسنة ، وأجمع على ذلك السلف الصالح رضي الله عنهم .

أما دلالة الكتاب العزيز فقد ذكر عرش الرحمن جل وعلا في إحدى وعشرين آية من آيات الكتاب الكريم منها آيات الإستواء السبع وهي : ﴿ ثم استوى على العرش يغشي اليل النهار ﴾ [1] ﴿ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ [2] ﴿ ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ﴾ [3] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [4] ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيراً ﴾ [5] ﴿ ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ [6] ﴿ ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ [7] .

وذكره سبحانه في أربع عشرة آية أخرى وهي :

﴿ عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [8] ﴿ وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [9] ﴿ إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [10] ﴿ فسبحن الله رب العرش عما يصفون ﴾ [11] ﴿ قل من رب السموت السبع ورب العرش العظيم ﴾ [12] ﴿فتعلى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ [13] ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ [14] . ﴿ وترى الملئكة حافين من حول العرش ﴾ [15] ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ [16] ﴿ رفيع الدرجت ذو العرش ﴾ [17] ﴿ سبحن رب السموت والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ [18] ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمنية ﴾ [19] ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ [20] ﴿ وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ﴾ [21] .

---

(١) الاعراف آية (٥٤) . (٢) يونس آية (٣) . (٣) الرعد آية (٢) .
(٤) طه آية (٥) . (٥) الفرقان آية (٥٩) . (٦) السجدة آية (٤) .
(٧) الحديد آية (٤) . (٨) التوبة آية (١٢٩) . (٩) هود آية (٧) .
(١٠) الاسراء آية (٤٢) . (١١) الانبياء آية (٢٢) . (١٢) المؤمنون آية (٢٢) .
(١٣) المؤمنون آية (١١٦) . (١٤) النمل آية (٢٦) . (١٥) الزمر آية (٧٥) .
(١٦) غافر آية (٧) . (١٧) غافر آية (١٥) . (١٨) الزخرف آية (٨٢) .
(١٩) الحاقة آية (١٧) . (٢٠) التكوير آية (٢٠) . (٢١) البروج آية (١٥) .

وأما دلالة السنة على وجود عرش الرحمن وعظمته وأنه فوق المخلوقات .

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي »[(١)] .

وفيهما . أيضاً : من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أو جوزي بصعقة الطور »[(٢)] .

وفي صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض »[(٣)] .

وفيه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ... إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »[(٤)] .

وفي صحيح مسلم : من حديث ابن عباس ، عن جويرية ، أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى ، وهي جالسة

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب بدء الخلق ، باب قول الله ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده ﴾ ٢٨٧/٦ ، وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ٣٨٤/١٣ ، وباب ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ٤٠٣/١٣ ، وباب ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ ٤٤٠/١٣ ، وباب قول الله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ ٥٢٢/١٣ ، صحيح مسلم : كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله ح ٢٧٥١ .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ ٤٣٠/٦ ، صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى عليه السلام ح ٢٣٧٣ .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده ﴾ ٢٨٦/٦ .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب التوحيد باب ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ٤٠٤/١٣ .

فقـــال : « ... لقد قلت بعدك أربع كلمات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[1] .

فـهـذه النصـوص من الـكتـاب والسنة : تثبت أن لله عـز وجل ، عـرشاً ، عظيـماً ، كريماً ، تحمله الملائكة ، وتحف به ، وأن له قوائم ، وأنه أعلى المخلوقات ، وأعظمـها ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وأن الله سبحانه خلقه قبل خلق السموات والأرض ، ثم استوى عليه بعد خلقهن كيف شاء . ولا تتحمل النصوص المذكورة التأويل بحال ، وإنما تدل على وجود عرش الرحمن ، حقيقة وبوصفه المذكور .

وقد أجمع السلف رضي الله عنهم على الإيمان بعرش الرحمن عز وجل قال ابن أبي زمنين « ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش ، واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ، ثم استوى عليه كيف شاء »[2] .

وقال الدارمي : « وما ظننا أن نضطر إلى الإحتجاج على أحد ممن يدعى الإسلام في إثبات العرش والإيمان به حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله »[3] .

ومع ظهـور دلالة النصـوص المتـقـدمـة من الكتـاب والسنة وإجمـاع السلف الصـالح رضي الله عنهم على أن الله خلق العرش ، وأنه أعظم مخلوقاته وأعلاها ، ثم استوى عليه كيف شاء سبحانه .

فقد ذهب أهل البدع إلى إخراج النصوص عن ظواهرها وحقائقها إلى معان لا يمكن أن تحتملها ، ومن ذلك تأويلهم للعرش على أن المراد به معنى الملك .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى هذا التأويل ورده قال رحمه الله « وعن بعضهم ذو العـرش » ذو الملك . يقـال : ثل عـرش فـلان : أي ملك فـلان ، ويقـال : تبـوأ فـلان على

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء ، والتوبة ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ح ٢٧٢٦ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٥/٥٤ .

(٣) الرد على الجهمية – ضمن عقائد السلف – ص ٢٦٣ .

سرير ملكه ، أي : استقر ملكه ، وإن لم يكن . ثمّ سرير في ذلك الوقت - حكاه القفال [1] - والصحيح الأول [2] ويقصد بالأول رحمه الله ما تقدم له من تعريف العرش . وإنما كان الصحيح الأول . لدلالة النصوص ، وإجماع السلف على ذلك ، والتأويل المشار إليه ، هو تأويل المعتزلة ومن تأثر بهم وهو تأويل باطل ومردود .

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله : « وأما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك كيف يصنع بقوله تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمنية ﴾[3] وقوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ [4] يقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ، وكان ملكه على الماء ، ويكون موسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم الملك ، هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول » [5] .

المسألة الثانية : الاستواء على العرش

وكما دلت النصوص على أن الله سبحانه أوجد العرش بعد أن لم يكن ، وأنه فوق بقية المخلوقات وأعظمها .

فإنها دلت كذلك على أن الله استوى على العرش . استواء حقيقياً . معناه العلو والاستقرار ، على ما يليق بجلاله ، وعظمته ، سبحانه ، من غير مماسة ، ولاحاجة به إلى ذلك ، بل لحكمة يعلمها سبحانه .

---

(١) هو : أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي ، القفال الكبير ، إمام وقته بما وراء النهر ، وصاحب التصانيف . قال الحاكم : كان أعلم أهل ما وراء النهر بالاصول ، وأكثرهم رحلة في طلب الحديث ، سمع أبا بكر بن خزيمة ، وابن جرير الطبري ، وعبد الله بن إسحاق المدائني ، وغيرهم . وحدث عنه ابن مندة ، والحاكم، والسلمي . له مؤلفات عديدة . منها : كتاب في التفسير . سئل عنه أبو سهل الصعلوكي ، فقال : قدسه من وجه ، ودنسه من وجه آخر ، أي : دنسه من جهة نصره للاعتزال . ولد سنة ٢٩١ ، وتوفي سنة ٣٦٥ ، انظر : سير أعلام النبلاء ١٦/٢٨٣-٢٨٥ .

(٢) تفسير السمعاني ٦١٦ ، تحقيق سليمان صالح الحزي .

(٣) الحاقة آية (١٧) .

(٤) هود آية (٧) .

(٥) شرح الطحاوية ٢/٣٦٨ .

تلك . هي : صفة الاستواء التي يؤمن بها السلف واتباعهم ، وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت هذه الصفة لله عز وجل فقد قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموت والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [1] إن الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، والإيمان به واجب كذلك يحكى عن مالك بن أنس ، وغيره من السلف . أنهم : قالوا في هذه الآية الإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة » [2] .

وعند قوله عز وجل ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [3] قال رحمه الله « والمذهب عند أهل السنة ؛ أنه نؤمن به ، ولا يكيف ، وقد رووا عن جعفر بن عبد الله [4] ، وبشر [5] الخفاف قالا : كنا عند مالك فأتاه رجل وسأله عن قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى فأطرق مالك مليا وعلاه الرُّحَضاء [6] ثم قال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالاً ، ثم أمر به فأخرج.

ونقل أهل الحديث عن سفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في الآيات المتشابهة أمروها كما جاءت وقال بعضهم

---

(١) الاعراف آية (٥٤) .

(٢) تفسير السمعاني ٢٧٣ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) طه آية (٥) .

(٤) لم أقف على ترجمته .

(٥) بشر الخفاف هذا لم أجده والذي ترجح عندي أنه بشار بن موسى أبو عثمان العجلي الخفاف ، بصري الأصل، حدث عن أبي عوانة ، وعبد الله بن عمرو الرقي ، وعطا بن مسلم الحلبي ، وحدث عنه أحمد بن حنبل، وأبنه عبد الله ، والبغوي ، وغيرهم ، اختلف في توثيقه ، ضعفه أبو زرعة ، وقال : أحمد يكتب حديثه ، وكان حسن الرأي فيه ، وقال ابن المديني : ما كان ببغداد أصلب في السنة منه ، توفي سنة ٢٢٨ هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء ١٠/٥٨٣ ، تهذيب التهذيب ١/٤٤١ .

(٦) الرحضاء : العرق : لسان العرب ٧/١٥٤ .

تأويله الإيمان به »[1] .

وعند قوله عز وجل ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموت والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾[2] قال رحمه الله « قد بينا مذهب أهل السنة في الاستواء وهو أنه نؤمن به ونكل علمه إلى الله تعالى ، من غير تأويل ولا تفسير »[3] .

ومراده رحمه الله بقوله « ولا تفسير » أي : بلا تكييف . وما حكاه الإمام السمعاني رحمه الله وقرره من إثبات السلف رضي الله عنهم لصفة الاستواء ؛ هو كما ذكر رحمه الله .

قال الدارمي رحمه الله « والله تبارك وتعالى فوق عرشه ، فوق سمواته بائن من خلقه ، فمن لم يعرفه بذلك . لم يعرف إلهه الذي يعبد ، وعلمه من فوق العرش بأقصى خلقه وأدناهم واحد لايبعد عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض سبحانه عما يصفه المعطلون علواً كبيراً »[4] .

وقال الحافظ الصابوني رحمه الله « ويعتقد أهل الحديث ويشهدون أن الله سبحانه وتعالى فوق سمواته على عرشه ، كما أخبر به في كتابه ... يثبتون له من ذلك ما أثبته الله تعالى ، ويؤمنون به ، ويصدقون الرب جل جلاله في خبره ، ويطلقون ما أطلقه سبحانه وتعالى عن أستوائه على العرش ، ويمرونه على ظاهره ويكلون علمه إلى الله تعالى »[5] .

وكلام السلف رضي الله عنهم في إثبات صفة الإستواء أكثر من أن يحصى .

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين حفظه الله « استواء الله على العرش من صفاته الثابتة بالكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف . قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش

---

(١) تفسير السمعاني ٤٥٠-٤٥١ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

(٢) يونس آية (٣) .

(٣) تفسير السمعاني ج٢ ورقة ٢ مصورة بالمكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية .

(٤) الرد على الجهمية ضمن عقائد السلف ص ٢٧١ .

(٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث . ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/١٠٩-١١٠ .

استوى ﴾[1] وذكر استواءه على عرشه في سبعة مواضع من القرآن . وقال النبي ﷺ « إن الله لما خلق الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي » [2] وأجمع السلف على إثبات استواء الله على عرشه . فيجب إثباته من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، وهو استواء حقيقي ، معناه العلو والاستقرار على وجه يليق بالله تعالى » [3] .

ولا يفهم من قول السلف « أمروها كما جاءت » أو قولهم « أمروها كما جاءت بلا كيف ، أو تفسيره الإيمان به » أنهم لا يفهمون المعنى ، فالمعنى عندهم معلوم .كما صرح بذلك الامام مالك وشيخه ربيعة رحمهما الله « الإستواء معلوم ، أو غير مجهول » وهم يؤمنون به ولكن الكيف هو المجهول ، وهو المراد من قولهم بلا كيف . وهذا الجانب من الصفات هو الذي يدخل في المتشابه أو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « فقول ربيعة ، ومالك (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب) موافق لقول الباقين أمروها كما جاءت بلا كيف ، فإنما نفوا علم الكيفية ، ولم ينفوا حقيقة الصفة ، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ولما قالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف . فإن الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً ، بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم .

وأيضاً فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى ، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات .

وأيضاً فإن من ينفي الصفات الخبرية - أو الصفات مطلقاً - لا يحتاج إلى أن يقول بلا كيف . فلو كان مذهب السلف نفى الصفات في نفس الامر لما قالوا بلا كيف .

وأيضاً : فقولهم : (أمروها كما جاءت) يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه فإنها جاءت ألفاظ دالة على معاني ، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال :

---

(١) طه آية (٥) .

(٢) سبق عزوه ص ٣٤٢ .

(٣) شرح لمعة الاعتقاد ص : ٦٢ .

أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة ، وحينئذ فلا تكون قد أمرت كما جاءت ، ولا يقال حينئذ : بلا كيف . إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول »[1] .

وقال رحمه الله « فقولهم – رضي الله عنهم – أمروها كما جاءت . رد على المعطلة ، وقولهم بلا كيف . رد على المثلة »[2] .

المسألة الثالثة : موقف أهل البدع من صفة الأستواء

لم تسلم صفة الاستواء – وكما هو الحال في بقية الصفات – من تشغيب أهل البدع وتحريفاتهم . بل إن هذه الصفة من أكثر الصفات التي أجلب عليها أهل البدع بخيلهم ورجلهم ، ومن جهات متعددة ، فهم أولاً : أنكروا علو الله سبحانه على خلقه ، وادعوا أن الله سبحانه في كل مكان بذاته ، أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، أو غير ذلك من الترهات ، التي حاولوا بها جاهدين إبطال كون المولى عز وجل عالياً على خلقه بائنا منهم .

ولما تقرر ذلك في أذهانهم الكليلة ، ونفوسهم المريضة بالتشبيه ، عمدوا إلى تحريف المعنى الظاهر لغة وشرعاً – للعرش – وحرفوه إلى أن المراد به الملك ، ثم حرفوا الاستواء إلى الاستيلاء .

ومن كان منهم عنده بقية من دين ، أو قليل من الحياء من الله عظم في نفسه إبطال النصوص الدالة على عرش الرحمن وعلوه فوق بقية المخلوقات ، ولكن لوثة التشبيه تأبى عليه إلا أن يحرف الاستواء بالملك ، أو القدره ، أو القهر ، أو غير ذلك . من التأويلات الباطلة .

ذلك هو حال صفة الاستواء مع المعتزلة ، والأشاعرة . فقد أولها المعتزلة بالإستيلاء ، وأولها الأشاعرة بالملك ، أو القدرة ، وكلا التأويلين باطل ، لمخالفته لما دل عليه الكتاب ، والسنة ، واللغة ، وإجماع السلف الصالح رضي الله عنهم .

وفيما قرره الامام السمعاني رحمه الله من ثبوت صفة الاستواء على الوصف

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٤١-٤٢ .

(٢) المصدر السابق ٥/٣٩ .

المذكور سابقاً رد منه رحمه الله على كلا الطائفتين وقد خص قول المعتزلة بالرد عليه صراحة حيث بين رحمه الله بطلانه من وجهين .

الوجه الأول : مخالفته لعقيدة أهل السنة والجماعة وهي ، العقيدة التي دل على صحتها الكتاب ، والسنة ، وأجمع عليها السلف الصالح رضي الله عنهم الذين هم أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً .

الوجه الثاني : مخالفته للغة العرب . وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم والتي تدل على أن الإستيلاء لا يكون إلا بعد عجز سابق ، وليس كذلك المولى عز وجل فإنه سبحانه لم يزل ، ولا يزال ، قادراً على خلقه ، مستولياً عليهم ، متصرفاً فيهم بما شاء ، وكيف شاء .

قال رحمه الله في بيان قول المعتزلة ومستدلا على بطلانه بالوجهين السابقين .

« أول المعتزلة الاستواء بالإستيلاء . وأنشدوا فيه :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق[1]

---

(١) لسان العرب ٤١٤/١٤ ، الصحاح للجوهري ٢٣٨٥/٦ ، دون نسبة لأحد ، تاج العروس ١٨٩/١ ، ونسبه للأخطل .

والبيت لاوجود له في ديوان الأخطل المطبوع .

وذكره الدكتور عدنان زرزور في كتاب « الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن » ونسبه للبعيث ولم يذكر مصدره في هذا . وذكره شيخ الاسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٤٦/٥ - ١٤٧ ، وقال فيه : ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي ، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا : إنه بيت مصنوع لايعرف في اللغة ، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته ، فكيف ببيت من الشعر لايعرف إسناده ؟ ! وقد طعن فيه أئمة اللغة . ثم ذكر أن الخليل سئل هل وجدت في اللغة : « استوى » بمعنى « استولى » فقال : هذا مالا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها ، ثم قال ...... إنه لو ثبت أنه في اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العرباء ، ولو كان من لفظ بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله ﷺ ، وقوله : ولو كان من لغته لكان بالمعنى المعروف في الكتاب والسنة وهو الذي يراد به ولايجوز أن يراد معنى آخر

وأما أهل السنة فيتبرؤون من هذا التأويل ، ويقولون : إن الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، والإيمان به واجب »[1] .

وفي إشارة منه إلى الوجه الثاني قال رحمه الله « وأما المعتزلة فإنهم أولوا الاستواء بالإستيلاء . وهو باطل عند أهل العربية حكى عن أحمد بن أبي دؤاد[2] وكان من رؤساء المعتزلة أنه قال لابن الاعرابي[3] أتعرف الاستواء بمعنى الاستيلاء قال لا ويحكى أن هذه المسألة جرت في مجلس المأمون فقال بشر المريسي الاستواء بمعنى الاستيلاء . فقال أبو السمراء[4] رجل من أهل الفقه ، أخطأت يا شيخ ؟ ! العرب لا تعرف الاستيلاء إلا بعد عجز سابق»[5] .

وقال رحمه الله « وأما تأويل الاستواء بالاستيلاء فهو تأويل المعتزلة ، وذكر الزجاج ، والنحاس ، وجماعة النحاة من أهل السنة . أنه لا يسمى الاستواء إستيلاء في اللغة إلا إذا غلب غيره عليه ، وهذا لا يجوز على الله تعالى »[6] .

وما قرره السمعاني رحمه الله من بطلان تأويل الاستواء بالاستيلاء . قرره غيره من أهل العلم . وقد ذكر الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله اثنين وأربعين وجهاً تدل على بطلان قول المعتزلة .

---

(١) تفسير السمعاني ٢٧٣ تحقيق طلال عرقسوس .

(٢) هو : أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الأيادي ، أبو عبد الله ، أحد القضاة المشهورين ، ورأس فتنة القول بخلق القرآن ، قال الذهبي كان جهمياً ، بغيضاً ، حمل الفقهاء على امتحان الناس في خلق القرآن ، ولد بالبصرة سنة ١٦٠ ، وتوفي ببغداد سنة ٢٤٠ . انظر : تاريخ بغداد ١٤١/٤ ، وفيات الاعيان ٦٣/١ - ٢٧٥ ، لسان الميزان ١٧١/١ ، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٠-٣٠٢ .

(٣) هو : محمد بن زياد أبو عبد الله المعروف بابن الاعرابي ، من علماء اللغة وأهل الرواية من أهل الكوفة من مؤلفاته « أسماء الخيل وفرسانها » و « تفسير الأمثال » و « معاني الشعر » ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ٢٣١ . انظر سير أعلام النبلاء ٦٨٧/١٠ .

(٤) لم أقف على ترجمته .

(٥) تفسير السمعاني ٢٧٢ - ٢٧٣ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٦) تفسير السمعاني ٤٥١ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

ومن الوجوه التي تدل على بطلانه بالإضافة إلى ما تقدم :

أولاً : أن هذا التفسير لم ينقل عن أحد من السلف ، من سائر المسلمين ، من الصحابة ، والتابعين . فإنه لم يفسره أحد في الكتب الصحيحة عنهم ، بل أول من قال ذلك: بعض الجهمية ، والمعتزلة . كما ذكره أبو الحسن الأشعري رحمه الله [1] .

ثانياً : أن معنى هذه الكلمة مشهور كما قال الامام مالك وشيخه ربيعة وغيرهما وهي عندهم لا تعني الإستيلاء ، وإنما تعني العلو ، والارتفاع ، والاستقرار .

ثالثاً : أنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً ؛ لم يحتج أن يقول : والكيف مجهول ، لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله .

رابعاً : أن الاستواء خاص بالعرش ، وأما الاستيلاء ؛ فهو عام على سائر المخلوقات ، فلو كان معنى الاستواء الاستيلاء لجاز أن يقال استوى على الماء ، والهواء ، والأرض .

خامساً : أن الله سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم أخبر أنه استوى على العرش ، وأخبر أن عرشه على الماء قبل خلقهما ، والاستواء متأخر عن خلقهن ، والله مستول على العرش قبل الخلق وبعده ، فعلم أن الاستواء على العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره .

سادساً : أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان مطلق ومقيد .

فالمطلق : مالم يوصل معناه بحرف مثل : قوله ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ [2] وهذا معناه كمل ، وتم . يقال : استوى النبات ، واستوى الطعام ، إذا تم ، وكمل نضجه .

والمقيد : ثلاثة أضراب

أحدها : مقيد بإلى كقوله ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [3] واستوى فلان إلى السطح

---

(١) انظر : الابانة ١١٩ - ١٢٠ ، وانظر : مجموع الفتاوى ١٤٤/٥ .

(٢) القصص آية (١٤) .

(٣) فصلت اية (١١) .

وإلى الغرفة . وقد ذكر سبحانه هذا المعنى المعدى بإلى في موضعين من كتابه . في البقرة في قوله تعالى ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾[1] والثاني : في السجدة ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾[2] وهذا بمعنى العلو ، والإرتفاع . بإجماع السلف .

والثاني : مقيد بعلى كقوله تعالى ﴿ لتستوا على ظهوره ﴾[3] وقوله ﴿ واستوت على الجودي ﴾[4] وقوله ﴿ فاستوى على سوقه ﴾[5] وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو مع التي تعدى الفعل إلى المفعول معه : نحو استوى الماء والخشبة . بمعنى ساواها فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيها معنى استولى البتة ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخروا النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية .

واستواؤه سبحانه على عرشه الوارد في الآيات جاء مقيداً « بعلى » فلا يصح إلا أن يكون على معنى العلو والإرتفاع .

سابعاً : أن القول بالإستيلاء يلزم عليه لوازم باطلة مثل : أن العرش لم يكن ملكاً لله ثم استوى عليه بعد[6] .

فهذه الوجوه وغيرها ترد قول المعتزلة بأن المراد بالاستواء الاستيلاء . كما تدفع قول الأشاعرة أيضاً : فإن الكون كله ملك له عز وجل وتحت قهره ، فلا معنى لتخصيص العرش بذلك.

---

(١) البقرة آية (٢٩) .

(٢) فصلت آية (١١) .

(٣) الزخرف آية (١٣) .

(٤) هود آية (٤٤) .

(٥) الفتح آية (٢٩) .

(٦) انظر الوجوه المذكورة وغيرها : في مجموع الفتاوى ١٤٤/٥-١٤٨ ، مختصر الصواعق المرسلة ٣٠٦-٣٢٢، التنبيهات السنية ١٢٩-١٣١ .

والعجب لمثل هؤلاء القوم ؟! كيف يتركون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين ؟ ويتعلقون في إثبات صفات الله عز وجل بمثل بيت من الشعر مصنوع قاله فيما يقال نصراني .

المطلب الرابع :

صفة العلم :

ومن الصفات التي تعرض لها أبو المظفر رحمه الله وقرر فيها مذهب السلف رضي الله عنهم صفة العلم . وهي صفة من صفات الذات . الثابتة لله عز وجل بالكتاب ، والسنة، وإجماع السلف رضي الله عنهم ، والعقل ، والفطرة .

ومقتضى هذه الصفة : « الإيمان بأن الله عز وجل عالم بكل شيء ، بما كان ، وما سيكون ، جملة ، وتفصيلاً ، أزلاً ، وأبداً ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموت ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ [2] ، وقال عز وجل : ﴿ هو الأول والآخر والظهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ [3] ، وقال جل شأنه ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولاحبة في ظلمت الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتب مبين ﴾ [4] وقال تبارك وتعالى ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ [5] وقال سبحانه وتعالى ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العلمين﴾ [6] وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على شمول علمه عز وجل لجميع الكليات والجزئيات سواء منها ما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده » [7] .

---

(١) سبأ الآية (٢) .

(٢) الحديد الآية (٤) .

(٣) الحديد الآية (٣) .

(٤) الأنعام الآية (٥٩) .

(٥) الطلاق الآية (١٢) .

(٦) العنكبوت الآية (١٠) .

(٧) المسائل والرسائل المروية عن الامام أحمد في العقيدة ١/ ١٤٦ .

وقد أشار الإمام أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت صفة العلم لله عز وجل في عدة مواضع من تفسيره

قال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ وربك أعلم بمن في السموت والأرض ﴾ [1] « أي وربك العالم بمن في السموات والأرض وهو العالم بأحوالهم وأفعالهم ومقاصدهم » [2] .

وعند قوله تعالى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ [3] قال رحمه الله « أي : لا يحطيون بالله والله يحيط بالأشياء ولا يحاط به ، لأن الإحاطة بالشيء هو العلم بالشيء من كل جهة يجوز أن تعلم ، والله تعالى لايقادر قدره ، ولا يبلغ كنه عظمته ، وأما سائر الأشياء فإن الله يعلم كل شيء بكل جهة يجوز أن تعلم » [4] .

وقال رحمه الله عند قوله جل وعلا ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [5] « أي: نخبرهم عما عملوا عن بصيرة وعلم ، فإنه جل وعلا مع كل أحد بالعلم والقدرة » [6].

وعند قوله جل وعلا ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾ [7] قال رحمه الله : « أي : وسع علمه كل شيء » [8] .

وعند قوله عز وجل ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ [9] . صرح رحمه الله بثبوت صفة العلم لله عز وجل وأنه صفة من صفاته كما رد على المعتزلة الذين نفوا أن يكون لله علم هو صفة من صفاته .

قال رحمه الله « وسبب نزول الآية أن قوماً من علماء اليهود حضروا عند النبي

---

(١) الاسراء آية (٥٥) .

(٢) تفسير السمعاني ٣٢٢ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

(٣) طه آية (١١٠) .

(٤) تفسير السمعاني ٥١٣ تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

(٥) الأعراف آية ٧ .

(٦) تفسير السمعاني ٢١١ تحقيق طلال عرقسوس .

(٧) طه آية ٩٨ .

(٨) تفسير السمعاني ٥٠٨ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

(٩) النساء آية ١٦٦ .

ﷺ . فقال لهم : إنكم تعلمون أني رسول الله . فقالوا : لا نعلم ذلك فنزل قوله ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ وقوله ﴿ أنزله بعلمه ﴾ أي : مع علمه ، كما يقال : جاءني فلان بسيفه أي : مع سيفه . وفيه دليل على أن لله علماً هو صفته خلاف قول المعتزلة خذلهم الله»[1] .

وما ذكره الامام السمعاني رحمه الله من ثبوت صفة العلم لله عز وجل عليه إجماع السلف رضي الله عنهم ودل عليه العقل والفطرة .

أما السلف : فإنهم مجمعون على أن لله تعالى علماً ، وأن علمه أزلي بأزليته، وأنه عز وجل علم في الأزل ما سيكون من دقيق وجليل ، وهو عالم بمعلومات غير متناهية، وينفون أن يكون علم الله مخلوقاً .

قال الامام أحمد رحمه الله وهو يتحدث عن علم الله سبحانه « وهو يعلم ما في السموات السبع ، والأرضين السبع ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ، وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة ، وكل شجرة وكل زرع وكل نبات ، ومسقط كل ورقة ، وعدد ذلك ، وعدد الحصى والرمل ، والتراب ، ومثاقيل الجبال ، وأعمال العباد ، وآثارهم ، وكلامهم ، وأنفاسهم ، ويعلم كل شيء ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وهو على العرش ، فوق السماء السابعة »[2] .

وأما الدليل العقلي على علمه تعالى فوجهه ما قاله ابن أبي العز الحنفي رحمه الله «أنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل ، ولأن إيجاده بإرادته . والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد : هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فالإيجاد مستلزم للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن المخلوقات منها ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً . وهذا له طريقان : أحدهما أن يقال : نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين ، أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل ، فلو لم

---

(١) تفسير السمعاني ٥٥٤ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ١/٢٨٤ .

يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع .

والثاني : أن يقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات - فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه ، بل هو أحق به ، والله تعالى له المثل الأعلى ، ولا يستوي هو والمخلوقات ، لا في قياس تمثيلي ، ولا في قياس شمولي ، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فتنزيه الخالق عنه أولى[1] .

وأما دلالة الفطرة على علمه سبحانه فإنه ما من أحد حز به كرب إلا وتوجه بكليته إلى ربه عز وجل بالدعاء ، رافعاً إليه بصره ، ماداً إليه يديه ، وذلك استجابة منه للفطرة التي أودعت فيه من الاقرار بعلم الله وقدرته ، ولم لو يكن يعلم بفطرته أن ربه يسمعه ويراه ويعلم حاله لما رفع رأساً ، ولا مد يداً ، ولظهور هذه الصفة من صفات الله عز وجل لم ينكرها أحد من العقلاء ، إلا ما روي عن شرذمة قليلة من غلاة القدرية ، والذين انقرضوا كما صرح بذلك أهل العلم ، وهم الذين عناهم أبو المظفر رحمه الله بقوله « إن لله علماً هو صفته خلاف قول المعتزلة خذلهم الله » .

قال ابن حجر رحمه الله « وقد حكى المصنفون في المقالات عن طوائف من القدرية إنكار كون البارئ عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم ،وإنما يعلمها بعد كونها. قال القرطبي وغيره : قد انقرض هذا المذهب ، ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين . قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها ، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الإستقلال ، ومع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول »[2] .

---

(١) شرح الطحاوية ١/١٢٥-١٢٦ .

(٢) فتح الباري ١/١١٩ .

المطلب الخامس : صفة المعية :

الله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه ذاتاً ، وصفاتاً ، بائن منهم ، غير مختلط بهم، لكنه مع ذلك معهم سبحانه بعلمه ، وقدرته تارة ، وبالعلم والقدرة مع الحفظ والنصرة والعون تارة أخرى ، لا يغيب عنه شيء من أعمالهم ، ولا يخفى عنه مثقال ذرة في السموات والأرض .

تلك . هي : صفة المعية . وهي : من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح رضي الله عنهم قال تعالى ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ [(١)] وقال عز وجل ﴿إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [(٢)] وقال سبحانه ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ [(٣)] .

وقال ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه « ماظنك باثنين الله ثالثهما »[(٤)] .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت المعية بنوعيها لله عز وجل .

قال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلثه إلا هو رابعهم ﴾ [(٥)] «أي بالعلم والقدرة » [(٦)] .

تلك . هي : المعية العامة التي تقتضي الاحاطة بجميع الخلق ، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر ، في العلم والقدرة ، والتدبير ، والسلطان ، وغير ذلك ، من معاني الربوبية .

وفي إشارة من أبي المظفر رحمه الله إلى المعية الخاصة قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [(٧)] « وقوله (مع) بالحفظ والنصرة والمعونة »[(٨)] .

---

(١) الحديد اية (٤) .

(٢) طه آية (٤٦) .

(٣) الأنفال آية (١٩) .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب التفسير باب ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾٨/٣٢٥ .

(٥) المجادلة آية (٧) .

(٦) تفسير السمعاني ٢٣٧ ، تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٧) النحل آية (١٢٨) .

(٨) تفسير السمعاني ٢٥٢ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

فمقتضى المعية الخاصة النصر والتأييد لمن أضيفت له . وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم .

وفي تفريق أبي المظفر رحمه الله بين المعية العامة والمعية الخاصة وأن مقتضى الأولى العلم والقدرة ، ومقتضى الثانية النصر والتأييد ، رد منه رحمه الله على الذين يقولون إن الله سبحانه في كل مكان بذاته ، أو أن وجوده هو عين وجود المخلوقات ، ونحو ذلك من مقالات الجهمية ، إذ لو كان كما قالوا : لما كان للتفريق معنى ، ولكان الخلق بالنسبة إلى معيته سواء [1]

كما يستفاد أيضاً من التفريق السابق بين المعيتين .

أن المعية الأولى : من صفات الذات . لأن مقتضاها ثابت لله أزلاً وأبداً .

وأما المعية الثانية : فهي من الصفات الفعلية . لأن مقتضاها تابع لأسبابها توجد بوجودها وتنتفي بانتفائها [2] حسب مشيئته تعالى ، والفرق بينهما ، أنها إذا جاءت المعية في سياق المحاسبة والمجازاة والتخويف فهي عامة ، وإذا أتت في سياق مدح أو ثناء فهي معية خاصة [3] .

ومعيته سبحانه لا تنافي علوه ، وفوقيته ، واستواءه على عرشه ، فهو سبحانه فوق عرشه بائن من خلقه ، وهو معهم بعلمه ، وقدرته ، وإحاطته ، ومع من شاء من عباده بنصره وتأييده.

قال الشيخ محمد أمان بن علي « والمعية بنوعيها لا تفيد المخالطة والممازجة الذاتية لا شرعاً ولا لغة بل تمنع ذلك باعتبار إضافتها إلى الله تعالى ، أما لغة فإن لفظة مع لا تدل الاعلى مطلق المصاحبة والمقارنة وهذه المقارنة أو المصاحبة أعم من أن تكون بالذات أو بمعان أخر ، وأن السياق والقرائن التي تحيط بالمقام هي التي تعين نوع تلك المصاحبة ، فإذا

---

(١) انظر : منهاج السنة النبوية ٨/٣٧٤ .

(٢) انظر : فتح رب البرية بتلخيص الحموية ضمن رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين حفظه الله ٧٦ .

(٣) انظر : التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ١٠٠ .

وصف الله نفسه بالمعية في عديد من الآيات القرآنية وجاء ذكرها فيما صح عن رسوله عليه الصلاة والسلام فعلينا أن نؤمن بأن معيته سبحانه إنما هي معية علم واطلاع وإحاطة ، إن كانت عامة على ما تقدم من التفصيل وتزيد عليها معنى الحفظ والنصر والتأييد إن كانت خاصة ولا ينبغي أن نفهم منها أي معنى من المعاني التي لا تليق بالله تعالى »[1] .

المطلب السادس : صفة الإرادة والمشيئة

من الصفات الثابتة لله عز وجل صفة الإرادة والمشيئة وقد قرر أبو المظفر رحمه الله ثبوت هذه الصفة لله عز وجل .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾[2] « أي : هل لا قلتم إن شاء الله تعالى ، ووضع التسبيح هاهنا موضع المشيئة لأن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل سوء ، وقوله إن شاء الله فيه معنى التنزيه وهو أنه لا يملك أحد فعل شيء إلا بمشيئته ، فيتنزه أن يكون شيء في ملكه إلا ما يريده »[3] .

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾[4] « إنما غلبته معلومة وأن كل الأشياء على مراده ومشيئته »[5] وقال عند قوله عز وجل « وما تشاءون إلا أن يشاء الله »[6] « رد مشيئتهم إلى مشيئته ، والمعنى : لا يريدون إلا بإرادة الله ، وهو موافق لعقائد أهل السنة ، أنه لا يفعل أحد شيئاً ولا يختاره ولا يشاؤه إلا بمشيئة الله »[7] .

وعند قوله عز وجل ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾[8] قال رحمه الله « أي : يكرم ويهين ، ويشقي ويسعد ، بمشيئته وإرادته ، وهو اعتقاد أهل السنة »[9] .

---

(١) الصفات الإلهية ٣٢٥ .

(٢) القلم آية (٢٨) .

(٣) تفسير السمعاني ٥٣٣ تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٤) المجادلة آية (٢١) .

(٥) تفسير السمعاني ٢٥١-٢٥٢ ، تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٦) الإنسان آية (٣٠) .

(٧) تفسير السمعاني ٣٠٦ ، تحقيق سليمان صالح العبد الله الحزي .

(٨) الحج آية ١٨ .

(٩) تفسير السمعاني ١٤٨ ، تحقيق محمد إقبال فضل حسين .

والأدلة على ثبوت صفة المشيئة والإرادة لله عز وجل كثيرة ، وسنورد للسمعاني رحمه الله مزيداً من الأدلة على إثبات صفة الإرادة والمشيئة في مبحث القدر إن شاء الله .

المطلب السابع : صفة الحياة

صفة الحياة من الصفات الثابتة لله عز وجل ومنها اشتق اسمه الحي قال تعالى ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ [1] وقال عز وجل : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ [2] وقال جل وعلا : ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين﴾ [4] .

قال أبو المظفر رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ الحي هو الباقي ، الدائم على الأبد ، وهو من الحياة . والحياة صفة لله تعالى » [5] .

وحياة المولى عز وجل أكمل حياة . فهو سبحانه واهب الحياة ، وواهب الكمال أولى به من غيره ، وقد عبر المولى عز وجل عن كمال حياته بأبلغ عبارة وأوجزها قال تعالى : ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [6] فنفي المولى عن نفسه السنة والنوم ؛ أكبر دليل على كمال حياته، وقيوميته على خلقه ، هذا بالإضافة إلى أن حياة المولى عز وجل لا انقضاء لها ، وأما حياة غيره فهي تابعة لإرادته سبحانه ومشيئته إن شاء أبقاه وإن شاء أفناه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « إن الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى ، يستحقه بنفسه المقدسة ، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه ، فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت ، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل ، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز ، وأن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية ، والبراهين اليقينية،مع دلالة السمع على ذلك » [7] .

---

(١) البقرة آية (٢٥٥) ، آل عمران (٢) .

(٢) الفرقان آية (٥٨) .

(٣) طه آية (١١١) .

(٤) غافر آية (٦٥) .

(٥) تفسير السمعاني ٢-٣ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

(٦) البقرة آية (٢٥٥) .

(٧) مجموع الفتاوى ٦/٧١ .

المطلب الثامن : صفة الوجه

صفة الوجه من الصفات الثابتة لله سبحانه بالكتاب والسنة ، وأجمع السلف رضي الله عنهم على أن لله سبحانه وجهاً حقيقياً على ما يليق به سبحانه ، موصوفاً بالجلال والإكرام ، وعلى وجوب إثباته لله سبحانه من غير تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تحريف ، ولا تعطيل .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت صفة الوجه لله عز وجل قال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ يريدون وجهه ﴾ [(١)] « والوجه صفة لله تعالى بلا كيف . وجه لا كالوجوه »[(٢)] .

وعند قوله عز وجل ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [(٣)] قال رحمه الله « وعن سفيان ابن عيينة. قال : كل ما وصف الله به نفسه في الكتاب فتفسيره قرآن، لا تفسير له غيره».

قال أبو المظفر رحمه الله « قد بينا أنه صفة من صفات الله يومن به على ما ذكر الله تعالى » [(٤)] .

وقال رحمه الله « وقد ذكر الله الوجه في كتابه في أحد عشر موضعاً وهو صفة الله تعالى ، وتفسيره قراءته والإيمان به » [(٥)] .

والايات التي أشار إليها أبو المظفر رحمه الله هي قوله عز وجل ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [(٦)] وقوله جل وعلا ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ [(٧)] وقال سبحانه ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ [(٨)] .

---

(١) الأنعام آية (٥٢) .

(٢) تفسير السمعاني ٦٣ ، تحقيق طلال عرقسوس .

(٣) القصص آية (٨٨) .

(٤) تفسير السمعاني ٢٣٠-٢٣١ ، تحقيق حافظ أبو البركات محمد حزب الله .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

(٦) البقرة آية (١١٥) .

(٧) البقرة آية (٢٧٢) .

(٨) الرعد آية (٢٢) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ [1] وقال جل وعلا ﴿ وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلل والإكرام ﴾ [3] وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ [4] وقال تعالى ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ [5] وقال تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون وجهه ﴾ [6] وقال تعالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون وجهه ﴾ [7] وقال سبحانه ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [8] .

والآيات المتقدمة كلها تدل دلالة ظاهرة على ثبوت صفة الوجه لله عز وجل إلا الآية الأولى والتي هي قوله عز وجل ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ فإنها ليست من آيات الصفات كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . فإن المراد بالوجه في الآية هي القبلة وليس الوجه الذي هو صفة لله عز وجل [9] .

وما قرره الإمام السمعاني رحمه الله من دلالة القرآن الكريم على ثبوت صفة الوجه لله عز وجل دلت عليه السنة أيضاً : ففي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [10] .

قال الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله « فإضافة السبحات التي هي الجلال والنور

---

(١) الروم آية (٣٨) .
(٢) الروم آية (٣٩) .
(٣) الرحمن آية (٢٧) .
(٤) الإنسان آية (٩) .
(٥) الليل آية (٢٠) .
(٦) الأنعام آية (٥٢) .
(٧) الكهف آية (٢٨) .
(٨) القصص آية (٨٨) .

(٩) انظر : مجموع الفتاوى ١٤/٦-١٧ ، ورجح تلميذه الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله أن الآية من آيات الصفات ، وأن المراد بالوجه فيها هو الوجه الذي هو صفة لله عز وجل . انظر : مختصر الصواعق ٣٣٩-٣٤٤ .

(١٠) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ح ١٧٩ .

إلى الوجه ، وإضافة البصر إليه ، تبطل كل مجاز ، وتبين أن المراد وجهه »[1] أي : أن لله وجهاً ، حقيقياً يليق بجلاله سبحانه ، ومما جاء في السنة أيضاً : ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث جابر رضي الله عنه قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ أعوذ بوجهك . قال : ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أويلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾[2] قال رسول الله ﷺ هذا أهون ، أو هذا أيسر »[3] .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما ، وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن »[4] .

وفي سنن النسائي وغيره من حديث عمار بن ياسر أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين »[5] .

---

(١) مختصر الصواعق ٣٣٨ .

(٢) الأنعام آية (٦٥) .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ؛ كتاب التفسير، باب ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ ٢٩١/٨ .

(٤) البخاري بشرح فتح الباري كتاب التفسير، باب ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ٦٢٣/٨ . صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ح ١٨٠ .

(٥) سنن النسائي : كتاب السهو : باب نوع آخر من الدعاء ح ١٣٥٠ ، والإمام أحمد ٢٦٤/٤ ، والحاكم ٥٢٤/١ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وابن أبي عاصم في السنة . = =

قال أبو بكر بن خزيمة رحمه الله « ألا يعقل ذو الحجا ؟! أن النبي ﷺ لا يسأل ربه ما لا يجوز كونه ، ففي مسألة النبي ﷺ ربه لذة النظر إلى وجهه أبين البيان وأوضح الوضوح أن لله عز وجل وجهاً يتلذذ بالنظر إليه من منّ جل وعلا عليه وتفضل بالنظر إلى وجهه »[1] .

وإثبات صفة الوجه لله تعالى مجمع عليه عند السلف رضي الله عنهم قال ابن خزيمة رحمه الله « فنحن وجميع علمائنا . من : أهل الحجاز ، وتهامة ، واليمن ، والعراق، والشام ، ومصر ، مذهبنا أنا نثبت ما أثبته الله لنفسه ، نقر بذلك بألسنتنا ، ونصدق ذلك بقلوبنا ، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين »[2] .

وقد ذهب أهل البدع إلى تحريف الوجه بالذات ، أو الثواب ، أو القبلة . وكلها تأويلات باطلة وبعيدة .

ومما يدل على بطلانها :

أولاً : أن إضافة الوجه إلى الذات في قوله عز وجل ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وإضافة النعت الذي هو : ذو . إلى الوجه دليل على أن الوجه ليس بصلة بل هو صفة للذات .

ثانياً : أن إضافة البصر إلى الوجه الذي هو محله – كما في الحديث المتقدم – يبطل دعوى كل مجاز .

ثالثاً : أن الوجه حيث ورد فإنما ورد مضافاً إلى الذات في جميع موارده والمضاف إلى الرب تعالى نوعان :

الأول : أعيان قائمة بنفسها . كبيت الله ، وناقة الله ، وروح الله ، وعبد الله، ورسول الله – فهذه إضافة تشريف ، وتخصيص ، وهي : إضافة مملوك إلى مالكه .

= رقم الأثر ١٢٩ . ٤٢٤ . ٤٢٥، وصححه الشيخ الألباني ، وانظر : الكلم الطيب رقم ١٠٥ ، وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد ١/ ٣٠ .

(١) كتاب التوحيد ١/ ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٦، ٥١-٥٣ .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها . كعلم الله ، وحياته ، وقدرته ، وسمعه ، وبصره، ونوره ، فهذه إضافتها إليه سبحانه إضافة صفة إلى موصوف بها ومن ذلك وجهه سبحانه فإنه من إضافة الصفة إلى الموصوف لا إضافة مخلوق إلى خالقه .

رابعاً : استعاذة الرسول ﷺ بوجه ربه تعالى تمنع أن يكون المراد بالوجه الثواب أو الجهة وذلك لما فيه من الاستعاذة بالمخلوق وهو غير جائز .

فهذه الوجوه وغيرها [1] تدل دلالة قاطعة على بطلان قول أهل البدع وتثبت أن لله عز وجل وجهاً حقيقياً لائقاً بجلاله سبحانه وجهاً لا كالوجوه المخلوقة لأن ذاته لا تشبه ذوات الخلق فكذلك صفاته .

المطلب التاسع : صفة اليدين

صفة اليدين من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف رضي الله عنهم .

وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت هذه الصفة لله عز وجل فقال عند قوله عز وجل ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ [2] « قال أهل العلم : ليس في هذا رد على اليهود في إثباتهم اليد لله تعالى، وإنما الرد في نسبته إلى البخل ، وأما اليد صفة لله بلا كيف وله يدان .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « كلتا يديه يمين » [3] والله أعلم بكيفية المراد » [4] .

والأدلة على ثبوت صفة اليدين لله عز وجل من الكتاب والسنة كثيرة قال تعالى

---

(١) انظر مختصر الصواعق ٣٣٦ - ٣٣٩ .

(٢) المائدة آية (٦٤) .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الامارة ، باب فضيلة الامام العادل ح ١٨٢٧ ، ولفظه « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » .

(٤) تفسير السمعاني ٦٧٧-٦٧٨ ، تحقيق صلاح الدين شيخ إدريس .

﴿قال يإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾[1] وقال عز وجل ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة والسموت مطويت بيمينه ﴾[2] وقال جل وعلا ﴿ فسبحن الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾[3] .

وأما من السنة فقد عقد الإمام البخاري رحمه الله باباً في صحيحه بعنوان . باب قول الله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ وأورد فيه جملة من الأحاديث التي تثبت صفة اليدين لله تعالى والتي منها .

حديث أنس الطويل في الشفاعة وفيه « ... فيأتون آدم . فيقولون : يآدم ؟ أما ترى الناس ؟! خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا » الحديث[4] .

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة . سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده . وقال : عرشه على الماء،وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع »[5] .

وقد أجمع السلف رضي الله عنهم على إثبات اليدين لله تعالى فيجب إثباتهما له دون تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل .

ونلاحظ تأكيد أبي المظفر رحمه الله على إثبات صفة اليدين لله تعالى مع نفي الكيفية فقال أولاً : « وأما اليد صفة لله بلا كيف . وله يدان » ثم أكد رحمه الله نفي

---

(١) ص آية (٧٥) .

(٢) الزمر آية (٦٧) .

(٣) يس آية (٨٣) .

(٤) صحيح البخاري : بشرح فتح الباري - كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى « لما خلقت بيدي » ٣٩٢/١٣ ، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ح ١٩٣ .

(٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ٣٩٢/١٣-٣٩٣ . وانظر : كتاب التوحيد لابن خزيمة ١١٩/١-٢٠٠ .

الكيفية عنها فقال « والله أعلم بكيفية المراد » .

وتلك قاعدة من قواعد المنهج السلفي في صفات الله عز وجل وهي : وجوب إثبات ماأثبته الله سبحانه لنفسه من الصفات إثباتاً بلا تحريف ولا تعطيل ، وتنزيهاً بلا تكييف ولا تمثيل .

وقد ذهب أهل البدع إلى تأويل صفة اليدين بالنعمة تارة ، وبالقدرة أخرى ، وهو تأويل باطل ومردود ، والنصوص المتقدمة تدفعه ، وقد رد الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله على من قال : إن اليدين في قوله عز وجل ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ مجاز . من عشرين وجهاً . منها :

أولاً : أن الله جعل ذلك خاصة خص بها آدم دون غيره ، ولهذا قال له موسى وقت المحاجة أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء »[1] .

ثانياً : أن هذا التركيب المذكور في قوله ﴿ خلقت بيدي ﴾ يأبى حمل الكلام على القدرة ، لأنه نسب الخلق إلى نفسه سبحانه ثم عدى الفعل إلى اليد ، ثم ثناها ، ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك كتبت بالقلم ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه.

ثالثاً : أن اليد حيث أريد بها النعمة والقدرة فلا بد أن يقترن باللفظ ما يدل على ذلك ، ليحصل المراد ، فأما أن تطلق ويراد ذلك فهذا لا يجوز ، كما إذا أطلق البحر والأسد وادعى بذلك أنه يريد الرجل الجواد والشجاع فهذا لا يجيزه عاقل ، ولا يتكلم به إلا من قصده التلبيس والتعمية ، وحيث أراد تلك المعاني فإنه يأتي من القرائن بما يدل على مراده فأين معكم في قوله ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ و ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ ... ما يقبل المجاز »[2] .

---

(١) حديث المحاجة أخرجه البخاري ومسلم انظر: البخاري بشرح فتح الباري كتاب القدر باب تحاج آدم وموسى عند الله ١١/٥٠٥ ، ومسلم : كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ح ٢٦٥٢ .

(٢) انظر : مختصر الصواعق ٣٢٢ - ٣٣٤ .

المطلب العاشر : صفة القدم

صفة القدم من الصفات الثابتة بسنة الرسول ﷺ . وقد أورد أبو المظفر رحمه الله الحديث المتضمن لهذه الصفة عند قوله عز وجل ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ [1] قال رحمه الله في بيان قوله عز وجل ﴿ هل من مزيد ﴾ « فيه قولان :

أحدهما : أن معنى قوله هل من مزيد أي : قد امتلأت فلا مزيد في ، وحقيقته أنك قد وفيت بما وعدت ، وملأتني فلا موضع للزيادة ، وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام « وهل ترك لنا عقيل من دار » [2] أي : ما ترك .

والقول الثاني : أن معنى قوله ﴿ هل من مزيد ﴾ أي : طلب الزيادة . تقولها تغيظاً على الكفار ، وطلباً لزيادة الإنتقام . والأول أحسن .

وقد ثبت برواية أنس وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ، حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتقول قط ، قط »[3] أي : حسبي وهذا الخبر يؤيد القول الثاني.

والخبر من المتشابه وقد بينا وجه الكلام في المتشابه » [4] .

ومراده رحمه الله بالمتشابه . أننا نؤمن به ولا نفسره ، كما سبق تقرير ذلك من وجوب الإيمان بما ورد من الصفات مع نفي الكيفية عنها، وهذا الخبر منها.يقال فيه مثل ما قيل فيما تقدم

قال الامام البغوي رحمه الله في كلامه على الحديث المتقدم « والقدم والرجل المذكوران في هذا الحديث من صفات الله سبحانه وتعالى المنزه عن التكييف ، والتشبيه ، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب والسنة كاليد ، أو الأصبع ، والعين ، والمجئ

---

(١) ق آية (٣٠) .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب الحج : باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها ٣/ ٤٥٠ ، صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب النزول بمكة للحاج وتوريث دورها ح ١٣٥١.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير ، سورة ق ٨/ ٥٩٤ . صحيح مسلم : كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون ح ٢٨٤٦ .

(٤) تفسير السمعاني ٦٣٦ - ٦٣٧ ، تحقيق محمد الأمين بن الحسين الشنقيطي .

والإتيان ، فالإيمان به فرض ، والامتناع عن الخوض فيها واجب ، فالمهتدى من سلك فيها طريق التسليم ، والخائض فيها زائغ ، والمنكر معطل ، والمكيف مشبه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [1] » [2] .

وقال الشيخ محمد أمان بن علي « وموقف السلف من معنى الحديث هو أن الحديث من أحاديث الصفات ، وأن القدم صفة من الصفات الخبرية التي تمر كما جاءت دون تأويل أو تحريف في النص ، ودون تشبيه أو تمثيل لصفات الله بصفات خلقه ، فلا تقاس قدمه بأقدام خلقه ، ولا رجله بأرجل مخلوقاته ، بل يكتفى بالمعنى الوضعي للكلمة ، دون محاولة لإدراك حقيقة قدمه ، وقد عجزنا عن إدراك حقيقة ذاته سبحانه فآمنا وسلمنا لله ولرسوله ﷺ ، هذا موقف لا يتغير ولا يتبدل بالنسبة للسلف وأتباعهم ، بل هو موقف ثابت وهو اتباع النص في جميع الصفات » [3] .

وقد تأول البعض القدم والرجل بالجماعة : اعتماداً منهم على أن ذلك أمر يرد في اللغة ، وعلى ذلك قالوا : إن المراد بالقدم في هذا الحديث : هم الأمم ، من أهل الشقوة الذين سبق في علم الله أنهم صائرون إلى النار [4] .

يقول الامدى[5] « يحتمل أن يراد به بعض الأمم المستوجبين للنار وتكون إضافة

---

(١) الشورى آية (١١) .

(٢) شرح السنة ١٥/٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) الصفات الالهية ٣٢٢ .

(٤) انظر : رد الدارمي على المريسى ص : ٦٨ . والنهاية في غريب الحديث ٤/٢٥ .

(٥) هو : علي بن أبي علي محمد بن سالم التغلبي الحنبلي ثم الشافعي سيف الدين الآمدي ، ولد سنة ٥٥١ ، وقرأ على عمار الآمدي ، ومحمد الصفار ، وابن المني ، ومن مؤلفاته « أبكار الأفكار » « غاية المرام » « منتهى السول في الأصول » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « يغلب على الآمدي الحيرة والوقف ، حتى إنه أورد على نفسه سؤالا في تسلسل العلل وزعم أنه لايعرف عنه جواباً وبنى إثبات الصانع على ذلك ، فلا يقرر في كتبه إثبات الصانع ،ولاحدوث العالم ، ولاوحدانية الله ، ولا النبوات ، ولا شيئاً من الأصول الكبار » توفي الآمدي ٦٣١ .

انظر : سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٤ ، شذرات الذهب ٥/٢٤٢ ، معجم المؤلفين ٧/١٥٥ .

القدم إلى الجبار إضافة تمليك »[1] .

وهذا التأويل باطل ومردود من وجوه :

الوجه الأول : أن الأصل الحقيقة ، الوجه الثاني : أنه قال حتى يضع ولم يقل فيه حتى يلقي كما في قوله ولا يزال يلقي فيها ، الوجه الثالث : أن قوله قدمه لا يفهم منه هذا لا حقيقة ولا مجازاً ، الوجه الرابع : أننا لو سلمنا بالمعنى الذي ذكروه من أن القدم يطلق ويراد به الجماعة من الناس ، فإن جواز هذا الأمر لغوياً لا يعني حصره فيه ، بل إن السياق هو الذي يحدد المعنى ، والسياق هنا يدل على إثبات صفة القدم لله عز وجل ، كما تبين في الأوجه السابقة [2] ، والله أعلم .

المطلب الحادي عشر : صفة المجئ

من الصفات التي دل على ثبوتها الكتاب والسنة ، وأجمع على إثباتها السلف رضي الله عنهم صفة مجئ المولى عز وجل يوم القيامة لفصل القضاء ، وهو مجئ يليق بجلاله سبحانه وعظمته ، وكماله ، على كيفية لا نعرفها ، وقد أشار أبو المظفر رحمه الله إلى ثبوت هذه الصفة لله عز وجل في عدة مواضع من تفسيره .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ [3] « والأولى في هذه الآية . أن نؤمن بظاهر القرآن ، ونكل علمه إلى الله تعالى، وننزه الله عن سمات الحدث والنقص » [4] .

وكلام الامام السمعاني رحمه الله يتضمن ثلاثة أمور :

الأمر الأول : الإيمان بما دل عليه ظاهر القرآن ، والذي يدل عليه ظاهر القرآن ، إنما

---

(١) غاية المرام للآمدي ص : ١٤١ .

(٢) انظر : التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ١٧٢ ، والمسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ٣١٢/١ .

(٣) البقرة آية (٢١٠) .

(٤) تفسير السمعاني ٤١٠ ، تحقيق عبد القادر منصور .

هو إثبات صفة المجيء لله عز وجل يوم القيامة .

الأمر الثاني : أن نكل علم المجيء إلى الله تعالى ، ومراده رحمه الله به علم الكيفية ، لا علم المعنى الظاهر .

الأمر الثالث : تنزيه الله سبحانه عن صفات النقص ، وفي ذلك نفي منه للتشبيه والتمثيل في صفات الله عز وجل .

هذا ما يفهم من كلامه رحمه الله تعالى وهو موافق تماماً لما سبق تقريره في الصفات السابقة من وجوب إثبات صفات الله تعالى مع نفي الكيفية عنها .

وقد أكد رحمه الله إثبات صفة المجيء لله تعالى فقال عند قوله عز وجل ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [1] وهذا من المتشابه الذي نؤمن به ولا يفسر » [2] .

ومراده رحمه الله بالمتشابه الكيفية ، لا المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ ، إذ لو كان مراده المعنى الظاهر لما كان لقوله الذي نؤمن به فائده .

ومما يدل على أنه أراد بالمتشابه الكيفية قوله « ولا يفسر » وهذا الذي يتحمله كلام السمعاني رحمه الله لا يتحمل غيره وهذه هي عقيدة السلف رضي الله عنهم في الصفات عموماً أن الصفات معلومة باعتبار ، ومجهولة باعتبار آخر ، وهذا الاعتبار المجهول هو المعبر عنه بالمتشابه ، ويعبرون عنه بلا كيف ولا يفسر .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله « ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ، ومجهولة لنا باعتبار آخر ، فباعتبار المعنى هي معلومة ، وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة » [3] .

وهذا هو مراد السلف والكيف غير معقول .

وقد فهم بعض الباحثين من تفسير أبي المظفر رحمه الله لآية سورة الفجر ﴿ وجاء

---

(١) الفجر آية (٢٢) .

(٢) تفسير السمعاني ٧٤٢ ، تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٣) القواعد المثلى ٣٤ .

ربك والملك صفاً صفاً ﴾ أن أبا المظفر رحمه الله يقول بالتفويض ، ثم أطال في الرد على القول بالتفويض [١] .

والحق أن الذي يدل عليه كلام أبي المظفر رحمه الله هو ما ذكرنا من أن مراده بالمتشابه الكيفية ، وليس هو المعنى الظاهر ، فقد أكد رحمه الله أن المعنى الظاهر يجب أن نؤمن به ، ومما يدل على ذلك قوله ولا يفسر .

ومما يقطع بخطأ التوهم المذكور ما جاء في قوله عز وجل ﴿السماء منفطر به ﴾ [٢] قال أبو المظفر رحمه الله « قد ورد عن كثير من السلف أن قوله ﴿ منفطر به﴾ أي بالله ، وهو نزول يوم القيامة لفصل القضا بلا كيف » [٣] .

فنزوله سبحانه يوم القيامة ومجيئه واحد ، فكيف يقال بعد هذا إن أبا المظفر رحمه الله يقول بالتفويض ؟! وما تقدم في الصفات السابقة يؤكد تأكيداً قاطعاً أن أبا المظفر رحمه الله يقول بوجوب إثبات الصفات الواردة في كتاب الله تعالى مع نفي الكيفية عنها .

ونشير هنا إلى أنه يجب التأكد من فهم كلام السلف رضي الله عنهم قبل الحكم عليه فإنه ليس من الوفاء لمن حملوا راية الدفاع عن العقيدة ، والوقوف في وجه المبتدعة ، أن نفهم كلامهم فهما خاطئا ثم نسود الصفحات في الرد عليهم ، وتحميلهم مالم يقولوا فهذا ليس من العدل ، ولا الإنصاف ، ولا الوفاء ، في شيء [٤].

ومع اعتقادي الجازم بأن أبا المظفر رحمه الله لم يقصد بقوله « وهذا من التشابه الذي يؤمن به ولايفسر » التفويض .

فإن إطلاق لفظ المتشابة على صفات الله عز وجل ليس بجيد ولاهو من عمل

---

(١) انظر : تفسير السمعاني ٧٤٢ تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٢) المزمل آية (١٨) .

(٣) تفسير السمعاني ١١٤ ، تحقيق سليمان صالح الخزي .

(٤) وقد ظلم أبو المظفر رحمه الله ظلماً آخر عندما اتهم بأنه إنتقل إلى مذهب الامام الشافعي من أجل حظوظ الدنيا وقد تقدم الرد على هذه الفرية الناتجة عن سوء الفهم أيضاً والله أعلم .

السلف الصالح رضي الله عنهم وإنما وجد هذا الإطلاق عند بعض المتأخرين من اتباع السلف وكذلك هو موجود عند الاشاعرة والسبب في كون إطلاق لفظ المتشابه على صفات الله ليس بجيد أن لفظ المتشابه فيه اجمال فإنه يدل على الحق تارة ويدل على الباطل أخرى . فإنه إن أريد بالمتشابه كيفية صفات الله عز وجل فهذا من المتشابه الذي لانعلمه وهو الذي استأثر الله بعلمه .

وإن أريد بالمتشابه المعاني الظاهرة من الفاظ الصفات فهذا لاشك أنه من المعلوم ولايصح أن يقال عن صفات الله بهذا الاعتبار أنها من المتشابه .

وبهذا يتبين أن لفظ المتشابه مجمل محتمل للحق ومحتمل للباطل ، ولهذا لايصح إطلاق لفظ المتشابه على صفات الله عز وجل ، وذلك لما في لفظ المتشابه من الاجمال [1]

تأويل أهل البدع لصفة المجئ :

أول أهل البدع المجئ في قوله عز وجل ﴿ وجاء ربك ﴾ بالأمر أي : وجاء أمر ربك، وقد رد أبو المظفر رحمه الله هذا التأويل . قال رحمه الله « وقد أول بعضهم وجاء أمر ربك والصحيح ما ذكرنا » [2] .

وهذا يؤكد إثبات أبي المظفر رحمه الله لصفة المجئ من جهة ، وفيه رد من أبي المظفر رحمه الله على أهل البدع من جهة أخرى .

والتأويل الذي أشار إليه أبو المظفر رحمه الله باطل قطعاً قال ابن القيم رحمه الله « وهذا النزول إلى الأرض يوم القيامة قد تواترت به الأحاديث والآثار ودل عليه القرآن صريحاً في قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملئكة أو يأتي ربك ﴾ [3] » [4] .

وهذه الآية صريحة في مجئ المولى عز وجل لفصل القضاء ، قال الشيخ محمد أمان ابن علي « فليس لدى النفاة - فيما أحسب - جواب بالنسبة إلى هذه الآية ، مالم يركبوا

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٣٧٩/١٧-٣٨٠ ، منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٢١-٢٢ ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ٤٨٨/٢-٤٩١ .

(٢) تفسير السمعاني ٧٤٢ ، تحقيق سليمان صالح الحزي .

(٣) الأنعام آية (١٥٨) .

(٤) مختصر الصواعق ٣٨٣ .

رؤوسهم ، إذ لم يبق هناك من يضيفون إليه المجيء ، لأن الآية قطعت عليهم خط الرجعة كما يقولون ، حيث ذكرت مجيء الملائكة لقبض الأرواح ، ثم ذكرت مجيء الرب سبحانه للحساب والقضاء ، ثم ذكرت مجيء أمر الله تعالى بأمره سبحانه فأين يذهبون وماذا يصنعون » [1] .

وقال أبو عمر الطلمنكي « أجمعوا - يعني أهل السنة والجماعة - على أن الله يأتي يوم القيامة ، والملائكة صفاً صفاً لحساب الأمم وعرضها كما يشاء ، وكيف يشاء ، قال تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمم والملئكة ﴾ وقال عز وجل ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة على ما أتت به الآثار كيف شاء لا يحدون في ذا شيئاً » [2] .

وقال الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان « ولا يعرف عن السلف وأهل العلم المقتدى بهم من أنكر النزول أو تأوله فإنه مثل الصفات الأخرى كالاستواء ، والمجيء ، والرضا ، والغضب ، بل والخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، فمن آمن بشيء من ذلك ، لزمه الإيمان بالباقي ، لأن الباب واحد ، ولا يجوز فيه قياس ، أو تمثيل ، تعالى الله عن قول أهل الباطل من المحرفين بالتأويلات الباطلة والمعطلين » [3] .

المطلب الثاني عشر : صفة الساق

من الصفات الثابتة لله عز وجل بسنة الرسول ﷺ صفة الساق . وقد أورد أبو المظفر رحمه الله الحديث المتضمن لهذه الصفة عند قوله عز وجل ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ [4] قال رحمه الله بعد أن ذكر أقوال أهل التفسير في المراد بالساق « وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال « إذا كان يوم القيامة يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد كل مؤمن ومؤمنة ، ويذهب المنافقون ليسجدوا فلا

---

(١) الصفات الالهية ٢٥٩-٢٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ٥/٥٧٧ - ٥٧٨ .

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ٢/٣٦١ .

(٤) القلم آية (٤٢) .

يستطيعون»[1] »[2] .

وهذا الحديث في الصحيحين . واللفظ الذي ساقه السمعاني رحمه الله لفظ البخاري ، وإنما قلت : إن هذه الصفة ثابتة بالسنة ، لأن لفظ الساق في الآية جاء منكراً. وذلك ما حدى بجماعة من الصحابة والتابعين إلى تفسير الساق . بالشدة ، أو الستر الذي بين الدنيا والآخرة ، أو نحو ذلك من التأويلات .

والحق الذي لا يجد الشك إليه سبيلاً ، أن السنة تفسير للقرآن وبيان لمعناه ، وقد عينت السنة أن المراد بالساق في الآية الكريمة هي ساق الجبار عز وجل وبذلك يتعين أن تكون الآية من آيات الصفات ، وبذلك فسرها الامام البخاري رحمه الله تعالى فقد أورد هذا الحديث في تفسير هذه الآية .

كما أن إيراد أبي المظفر رحمه الله لهذا الحديث في تفسير الآية يدل على أنه يذهب إلى أن الآية من آيات الصفات . وأن الساق صفة لله عز وجل .

ولا يعكر على هذا ما ذهب إليه جماعة من السلف من التأويل المشار إليه سابقاً فإن الحق فيما قاله الرسول ﷺ ، والحق أحق أن يتبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الأحاديث ، ووقفت على أكثر من مائة تفسير ، فلم أجد عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات ، أو أحاديثها بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف إلا في مثل قوله تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ فروي عن ابن عباس وطائفة : أن المراد به الشدة ، إن الله يكشف عن الشدة في الآخرة ، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب التفسير ، باب يوم يكشف عن ساق ٦٦٤/٨ ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى يوم يكشف عن ساق ٦٦٤/٨ ، باب قول الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ٤١٩/١٣ ، وأخرجه مسلم : كتاب الإيمان ، اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ح ١٨٣ .

(٢) تفسير السمعاني ٥٣٧ - ٥٤٠ ، تحقيق عبد البصير مختار حسن .

الصفات ؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين » [1] .

وقال أيضاً « والصحابة قد تنازعوا في تفسير هذه هل المراد به الكشف عن الشدة؟ أو المراد أن يكشف الرب عن ساقه ؟ .

ولم يتنازع الصحابة والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات إلا في هذه الآية بخلاف قوله ﴿ لما خلقت بيدي ﴾[2] ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلل والإكرام ﴾ [3]ونحو ذلك ؛ فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون . وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله تعالى - يعني قوله تعالى - ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ لأنه قال ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ ولم يقل عن ساق الله ، ولا يكشف الرب عن ساقه ، وإنما ساق نكرة غير معرفة ولا مضافة .

وهذا اللفظ بمفرده لا يدل على أنها ساق الله ، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسر للقرآن ، وهو حديث أبي سعيد الخدري المخرج في الصحيحين ، الذي قال فيه فيكشف ربنا عن ساقه .

وقد يقال : إن ظاهر القرآن يدل على ذلك من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود والسجود لا يعلم إلا لله ، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه .

وأيضاً : فحمل ذلك على الشدة لا يصح ، لأن المستعمل في الشدة أن يقال كشف الله الشدة - أي أزالها - كما قال ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ [4]وقال ﴿وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغينهم يعمهون ﴾[5]وإذا كان المعروف من ذلك في اللغة أنه يقال - كشف الشدة - أي أزالها - فلفظ الآية ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ وهذا يراد به الإظهار ، والإبانة ، وأيضاً : هناك تحدث الشدة ، لا إزالتها ، فلا تكشف الشدة يوم القيامة.

لكن هذا الظاهر - من كون القرآن دالاً على الصفة - ليس ظاهراً من مجرد لفظة

---

(1) مجموع الفتاوى ٦/٣٩٤ - ٣٩٥ ، بتصرف .

(2) ص آية (٧٥).

(3) الرحمن آية (٢٧) .

(4) الزخرف آية (٥٠)

(5) المؤمنون آية ٧٥ .

« ساق » بل بالتركيب والسياق وتدبر المعنى المقصود » [1] .

وكذلك الحديث لا يستقيم حمله على الشدة ؛ لأن أهوال يوم القيامة قد بدأت قبل ذلك بوقت ، ثم إن الساق تكشف للمؤمنين ، وهل يصح أن يقال بعد أن تميز المؤمنون عن الكافرين يكشف المولى عز وجل عن شدته على المؤمنين ؟.

وكذلك تأويل من تأول الآية على أن المراد به كشف الستر الذي بين الدنيا والآخرة لا يصلح أيضاً : لأن سياق الآية يدل على أن كشف الساق في عرصات يوم القيامة ؛ بدليل السجود الذي يكون عقب كشف الساق مباشرة ، وبدليل الحديث الذي يدل دلالة ظاهرة على أن ذلك في موقف من مواقف يوم القيامة .

وأما كشف الستر الذي بين الدنيا والآخرة فإنه متقدم على ذلك قطعاً والحق أن من مات فقد كشف عنه الستر ،كما قال تعالى ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [2] والذين ذهبوا إلى تأويل الآية على خلاف ما دل عليه الحديث يمكن أن يعتذر لهم بأن الحديث لم يبلغهم ، إذ لو بلغهم لما قالوا بخلافه .

وقد حاول بعضهم التشكيك في دلالة الحديث أيضاً على إثبات صفة الساق لله عز وجل بدعوى أن لفظ « ساقه » بالإضافة جاءت من رواية الإمام البخاري وحده ، وأن الإمام مسلم رواها بالنكرة « عن ساق » وهي مطابقة للنظم القرآني ، فتكون أصح من رواية البخاري ، وبذلك يخرج الحديث أيضاً عن دلالته على إثبات صفة الساق لله عز وجل قال الحافظ ابن حجر رحمه الله « قال الاسماعيلي هذه ﴿ يكشف عن ساق ﴾ أصح . لموافقتها لفظ القرآن في الجملة ، لا يظن أن الله ذو أعضاء ، وجوارح ، لما في ذلك من مشابهة المخلوقين تعالى الله عن ذلك ليس كمثله شيء » [3] .

وقد تعقب الشيخ الألباني حفظه الله قول الإسماعيلي السابق بقوله « نعم . ليس كمثله شيء ، ولكن لا يلزم من إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات شيء من التشبيه

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح الإمام البخاري ١٢٣/٢ .

(٢) ق آية (٢٢) .

(٣) فتح البارى ٦٦٤/٨ .

أصلاً ، كما لا يلزم من إثبات ذاته تعالى التشبيه ، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات، وهي حق ثابت ، فكذلك صفاته تعالى لا تشبه الصفات ، وهي أيضاً حقائق ثابتة تتناسب مع جلال الله تعالى وعظمته ، وتنزيهه ، فلا محذور في نسبة الساق إلى الله تعالى إذا ثبت ذلك في الشرع »[1] وقد ثبت إثبات صفة الساق لله عز وجل في الشرع ، فيجب المصير إليه ، ولا محذور في إثبات ذلك إلا عند من تصور التشبيه ، ولله المثل الأعلى ، ولا فرق بين : إثبات صفة السمع والبصر وغيرهما ، وبين : إثبات صفة الساق ، فإن القول في بعض الصفات كالقول في سائرها . والله أعلم .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٥٨٣ .

المبحث الثالث

« موقفه رحمه الله من التأويل »

التأويل يطلق ويراد به ثلاثة معان [1] .

المعنى الأول : يطلق التأويل ويراد به الحقيقة التي يؤول الكلام إليها ، ومنه قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ [2] فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل ، من اليوم الآخر ، والمعاد ، وتفاصيله ، والجنة ، والنار ، وهذا هو التأويل في لغة القرآن ، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال ﴿ يأبت هذا تأويل رءيي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ [3] وقال تعالى ﴿ فإن تنزعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [4] .

ومن ذلك حقائق الصفات التي انفرد الله بعلمها ، ، وهو الكيف المجهول ، الذي قال فيه السلف - كمالك وغيره - الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . والاستواء معلوم يعلم معناه ، ويفسر ، ويترجم ، وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم - وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله .

المعنى الثاني : يطلق التأويل ويراد به تفسير الكلام وهذا هو التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين ومن ذلك قول ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره والقول في تأويل قول الله سبحانه كذا وكذا أي : تفسيره .

المعنى الثالث : للتأويل : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٥٥ - ٥٦ ، و٥/٣٥ - ٣٦ ، الصواعق المرسلة ١/١٧٥ - ١٨٥ .

(٢) الأعراف آية (٥٣) .

(٣) يوسف آية (١٠٠) .

(٤) النساء آية (٥٩) .

وهذا إصطلاح أكثر الأصوليين وعلماء الكلام .

والتأويل بمعناه الأول والثاني صحيح دل على ذلك الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح رضي الله عنهم .

وأما التأويل بمعناه الثالث فهو اصطلاح محدث منه ما هو مقبول وهو ما دل على صحته الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح رضي الله عنهم ، ومنه ما هو مذموم مردود وهو ما كان مخالفاً لما دل عليه الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح رضي الله عنهم .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله « وبالجملة . فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح ، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد ، ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك، وكل تأويل وافق ما جاء به الرسول فهو مقبول وما خالفه فهو مردود » [١] .

وسبب التفريق في هذا النوع . أن كثيراً من أهل البدع جعلوه تكأة يتكئون عليها للتلاعب بآيات الصفات وأحاديثها . بل كان التأويل بمعناه الثالث منفذاً من المنافذ الرئيسة التي تحكم من خلالها الباطنية [٢] في تأويل نصوص الكتاب والسنة عامة ونصوص الصفات خاصة فبسبب التأويل الباطل صرفت نصوص الصفات ، والمعاد ، والجنة ، والنار ، بل. والعبادات إلى معان باطلة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، بل هي محادة لله عز وجل وتحريف للكلم عن مواضعه ، وهو من جنس تحريف اليهود خذلهم الله الذين قيل لهم ﴿ وقولوا حطة﴾[٣]أي : أحطط عنا خطايانا ، فقالوا حنطة ، أو حبة في شعيرة [٤] .

---

(١) الصواعق المرسلة ١/١٨٧ .

(٢) الباطنية حركة هدامة من الحركات التي خرجت في التاريخ الإسلامي ، سموا بذلك . لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظاهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورها توهم عند الجهال والأغبياء صوراً جلية ، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة . انظر : فضائح الباطنية لابي حامد الغزالي ١١ ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الاسلام فيها ، والعقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها .

(٣) البقرة آية (٥٨) .

(٤) انظر : جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٣٠٠ - ٣٠٥ .

وهكذا أبى أهل الباطل إلا أن يكون لهم شبه بإخوان القردة والخنازير ، المغضوب عليهم من رب العالمين ، ولا عجب في ذلك فإن اليهود كان لهم دور كبير في التأثير على أصحاب هذا النوع من أنواع التأويل الباطل .

ولخطورة هذا النوع من التأويل فقد ذمه كثير من أهل العلم ، بل وصنفوا فيه المصنفات كـ «ذم التأويل» لابن قدامه ، « وإبطال التأويلات » لابي يعلى ، ومن قبلهم كفر السلف ، الجهمية الذين هم أس البلاء ، وأصحاب المدرسة الأولى للتأويل الفاسد ، وبدعوا من سار على نهجهم ، ولم يبلغ به الغلو ما بلغ بهم وقد سلك الامام السمعاني رحمه الله منهج السلف في موقفهم من هذا النوع من التأويل الفاسد .

فقد رأينا فيما سبق كيف أن أبا المظفر رحمه الله رفض تأويل نصوص الصفات، وأوجب إجراءها على ظواهرها ، من غير تكييف ، بل إنه قد تبرأ رحمه الله من أصحاب التأويل الفاسد كما مر معنا في صفة الإستواء .

وهو رحمه الله لم يقتصر على رفض التأويل في نصوص الصفات فحسب ، بل . قد تجاوزها إلى غيرها مما أخبر به القرآن الكريم وهو غير معتاد للناس ، ومن ذلك نطق الجمادات في الدنيا ونطق جهنم يوم القيامة .

قال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾[1] « وقال بعضهم إن القول من جهنم هاهنا على طريق المجاز مثل ، قول الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني   مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وقوله « قطني » أي : حسبي ، ووجه المجاز فيه أنه امتلأ الحوض ولم يكن فيه مزيد كأنه قال : قد امتلأت فحسبي ، كذلك في جهنم وهو توسع الكلام .

والأصح أن هذا النطق من جهنم على طريق الحقيقة ، وهو اللائق لمذهب أهل السنة والإيمان بتسبيح الجمادات وما نزل في ذلك من القرآن »[2] .

---

(١) ق آية (٣٠) .

(٢) تفسير السمعاني ٦٣٨ - ٦٣٩ ، تحقيق محمد الأمين بن الحسين أحمد الشنقيطي .

وقد أكد رحمه الله هذا المعنى في أكثر من موضع فقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ تسبح له السموت السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] بعد أن ذكر أقوال السلف في معنى التسبيح قال « واعلم أن لله في الجمادات علماً لا يعلمه غيره ، ولا يقف عليه غيره ، فينبغي أن يوكل علمه إليه ، وقال بعض أهل المعاني : تسبيح السموات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء هو ما دلت عليه بلطيف تركيبها ، وعجيب هيأتها ، على خالقها ، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح »[2] .

وقد رد رحمه الله هذا التأويل بقوله عند قول الله عز وجل ﴿ سبح لله ما في السموت والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[3] « قد ذكر بعضهم أن تسبيح الجمادات هو أثر الصنع فيها ، والأصح أنه التسبيح حقيقة ، وهو قول أهل السنة ، لأنه لو كان المراد فيه أثر الصنع لم يكن لقوله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[4] معنى ، لأن أثر الصنع يعلمه ويفهمه كل أحد »[5] .

وقال رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾[6] « أي : إذاً جعلنا له ما يميز به ويعقل .

وقيل هو مذكور على سبيل التمثيل لاعلى طريق الحقيقة ، وعند أهل السنة أن لله تعالى في الموات والجمادات علماً لا يقف عليه غيره ، وقد قال في موضع آخر ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وهو دليل على ما ذكرت[7] .

---

(١) الاسراء آية (٤٤) .

(٢) تفسير السمعاني ٢١٠ - ٢١١ ، تحقيق فاروق حسين محمد أمين .

(٣) الحديد آية (١) .

(٤) الاسراء آية (٤٤) .

(٥) تفسير السمعاني ١٨٥ ، تحقيق عبد البصير مختار حسن .

(٦) الحشر آية (٢١) .

(٧) تفسير السمعاني ٣٠٠ - ٣٠١ ، عبد البصير مختار حسن .

وهكذا يؤكد أبو المظفر رحمه الله في كل مناسبة تمر به على رفضه للتأويل الباطل ويدافع في نفس الوقت عن عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة .

وما ذكره رحمه الله من تسبيح الجمادات ، ونطق جهنم ، وأن ذلك التسبيح تسبيح حقيقي دلت عليه نصوص كثيرة كما في الآيات التي نبه عليها أبو المظفر رحمه الله تعالى وكما جاء في السنة أيضاً : ومما جاء في السنة .

أولاً : تسليم الحجر على النبي ﷺ .

ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إني لأعرف حجراً بمكة . كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » [1] .

ثانياً : حنين الجذع إليه ﷺ

كما في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه . قال : « كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكتت » [2] .

ثالثاً : تسبيح الطعام بين يدي الرسول ﷺ

كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله ﷺ فقل الماء ، فقال : اطلبوا فضلة من ماء ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ، ثم قال : حي على الطهور المبارك ، والبركة من الله ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » [3] .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ح ٢٢٧٧ .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري - كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ٦٠٢/٦ ، وانظر: شمائل الرسول ﷺ لابن كثير ٢٤٣ - ٢٥٥ ، فقد رواه رحمه الله عن جماعة من الصحابة ، وبطرق متعددة، أوصلها إلى تسعة طرق .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ٥٨٧/٦ . وانظر: مسند أبي يعلى ٢٥٣/٩ ، هامش رقم (٢) فقد ذكر المحقق جملة من المصادر التي أخرجته .

رابعاً : مجيء الشجر إليه ﷺ وشهادته له بالرسالة

كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي ، فلما دنا قال له النبي ﷺ أين تريد ؟ قال : إلى أهلي ، قال هل لك في خير ، قال : وما هو ، قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله، قال : من شاهد على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة ، فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي ، فأقبلت تخد الأرض خداً ، حتى جاءت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابي إلى قومه وقال : إن يتبعوني آتيك بهم وإلا رجعت إليك فكنت معك »[1] .

خامساً : كلام الشجر والحجر لأمته ﷺ يوم الملحمة مع اليهود .

كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ؟ يا عبد الله ؟ هذا يهودي خلفي ، فتعال ، فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود »[2] .

والحديث فيه دلالة ظاهرة على أن للشجر والحجر نطقاً حقيقياً ، « ... فإن استثناء شجر الغرقد من الجمادات بكونها لا تخبر عن اليهود لأنها من شجرهم يدل على أنه نطق حقيقي ، ولو كان المراد بنطق الجمادات المجاز لما كان لهذا الاستثناء معنى ، ثم لو حمل كلام الجمادات على المجاز ؛ لم يكن ذلك بالأمر الخارق في قتال اليهود في آخر الزمان ، وكانت هزيمتهم أمام المسلمين كهزيمة غيرهم من الكفار ، الذين قاتلهم المسلمون ، وظهروا عليهم ، ولم يرد في قتالهم مثل ما ورد في قتال اليهود مع الدلالة على المختبى بنطق الجمادات ،

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٩٥/٨ ، وقال رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى أيضاً والبزار . وعزاه ابن كثير في الشمائل ٢٤٢ إلى الحاكم ولم أقف عليه ، وجود ابن كثير إسناده .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب الجهاد باب قتال اليهود ١٠٣/٦ . صحيح مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ح ٢٩٢٢ .

فإذا لاحظنا أن الحديث في أمر مستغرب يكون آخر الزمان هو من علامات الساعة دل ذلك على أن النطق في قتال اليهود حقيقي ، وليس مجازاً على انكشافهم أمام المسلمين ، وعدم قدرتهم كما قيل والله أعلم » [1] .

وبالجملة فإن هذه النصوص وغيرها كثير والتي تبلغ بمجموعها مبلغ التواتر المعنوي تدل دلالة قاطعة على نطق الجمادات وانتقالها من مكان لآخر بإذن الله وقدرته ، وأن ذلك النطق نطق حقيقي لا مجازا ولا يصح بحال أن يقال هذا النوع من النطق نطق دلالة فإن ذلك تأباه النصوص المتقدمة كل الإباء .

وهو يرد قول النفاة من المعتزلة وغيرهم ممن تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراءهم ظهريا ، واعتمدوا على عقولهم القاصرة ، والتي هي معارضة بعقول أخرى ؛ تقول: بأنه لا يمتنع على المولى عز وجل شيء فإذا أراد سبحانه أن ينطق الحجر أو الشجر أو غيرهما فما المانع من ذلك وهو سبحانه ينطق الجمادات بما لا تدركه أسماعنا .

قال الشوكاني رحمه الله عند قوله عز وجل ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾[2]« وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت : طائفة ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة ، لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسبيح على حقيقته ، والعموم على ظاهره ، والمراد أن كل المخلوقات تسبح الله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد - وذكر رحمه الله اعتراضات المعترضين - ثم قال: ويؤيد حمل الآية على العموم قوله ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي

---

(١) أشراط الساعة يوسف بن عبد الله بن يوسف الوابل ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) الاسراء آية (٤٤) .

والإشراق﴾[1] وقوله ﴿ وإنّ منها لما يهبط من خشية الله ﴾ [2] وقوله ﴿ وتخر الجبال هداً ﴾ [3] ونحو ذلك من الآيات ، وثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ ، وهكذا حديث حنين الجذع ، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ وكلها في الصحيح ، ومن ذلك تسبيح الحصا في كفه ﷺ ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعاد ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده » [4] .

كما أن مجرد الإستبعاد ليس بدليل فقد يستبعد الإنسان الشيء الذي يجهله ، أولا يتصور وقوعه ، بينما لا يستبعده آخر لمعرفته به ، والأدلة المادية في وقتنا الحاضر أكثر من أن تحصى ، هذا إضافة إلى ثبوت ذلك في الشرع ، والمؤمن مأمور بالتسليم لكل ما ثبت في الشرع وعدم الاعتراض في مقابلة النص . قال الله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾[5] الآية وإذا كان هذا في المصالح الدنيوية فما بالك بالأمور الشرعية .

---

(1) ص آية (18) .

(2) البقرة آية (84) .

(3) مريم آية (90) .

(4) فتح القدير 3/ 230 - 231 .

(5) النساء آية 65 .